عالم المعرفة

247

الأطفال والإدمان التلفزيوني

تأليف: ماري وين

تأليف: عبدالفتاح الصبحي

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

247

الأطفال والإدمان التلفزيوني

تأليف: ماري وين

تأليف: عبدالفتاح الصبحي



يوليو 1999

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

المحتوى

مقدمه الطبعه الأولى

يستند قسم من مواد هذا الكتاب إلى قراءاتي لبحوث علمية عن الجوانب المختلفة للتليفزيون، وكتب ومقالات تخاطب جمهور القراء، وكتابات عن تنمية الطفل، والأسرة، والمآزق والمعضلات الحديثة المتنوعة في حياتنا. وقد حاولت الإشارة إلى مصادر جميع المواد التي أفدت منها في الكتاب، عدا تلك الأفكار التي استوعبتها بصورة لا يمكن فصل أفكاري الخاصة عنها.

أما القسم الأكبر من الكتاب فمصدره أحاديثي المستفيضة عن التليفزيون مع الآباء، والأطفال، والمدرسين، والباحثين الاجتماعيين، ومسؤولي التليفزيون، ومديري المدارس، واختصاصيي علم النفس، والأطباء النفسيين. فمن تسجيلات مقابلاتي الشخصية معهم ترد جميع الاقتباسات غير المنسوبة في الصفحات التالية. وينتمي غالبية الآباء والأطفال الذين التقيتهم إلى أسر من الطبقة الوسطى في مدينتي دنفر ونيويورك، وفي الضواحي والمناطق الريفية البعيدة لهاتين المدينتين - وهم، وإن لم يكونوا عينة تمثيلية تماما بالمقاييس العلمية، فإنهم عينة فائقة التنوع تضم أسرا مهنية، وزراعية، وتجارية، وأكاديمية، وفنية متنوعة من حيث الحجم وأساليب الحياة. وكان بعض الراغبين في الحديث إليّ عن التجربة التليفزيونية من خاصة أصدقائي، بينما كان آخرون أصدقاء لأصدقائي، بل حتى أصدقاء لأصدقاء الأصدقاء، وكثيرا ما كان الناس

يحرصون بوضوح على التطوع بتقديم قصصهم الخاصة لدى سماعهم عن اهتمامي بالمشاكل المتصلة بالتليفزيون.

لقد أتيح لي الالتقاء ببعض الأسر من خلال إعلانات نشرتها في الصحف. فتبادلت أطراف الحديث مع أمهات وآباء في الحفلات، وأثناء فترات الاستراحة في حفلات الموسيقى، وعلى الشاطئ، وفي مدارس أطفالي الخاصة، وفي ساحة اللعب المجاورة، وحيثما أقمت عدة أسابيع، وحيثما تحدثت إلى الأمهات الشابات اللواتي لم يرفضن قط الاجابة عن أسئلتي المتواصلة والصعبة أحيانا، فقد أكدت تعاطفي العميق مع الآباء والأمهات الذين يحاولون تربية أطفالهم الصغار في مجتمعنا اليوم.

قد يسأل أحدهم: لماذا اقتصرت استطلاعاتي على أسر الطبقة الوسطى؟ إن جانبا من الإجابة يتمثل في أن هذه الأسر هي هؤلاء الناس بالتحديد الذين، كما كتب فيليب سليتر Philip Slater، «يترك سلوكهم أكبر الأثر في المجتمع والذين يمتلكون القوة والموارد اللازمة لتطويره»[1]. كما أن طرائقي واستقصاءاتي غير الرسمية، من جانب آخر، تجد مجالات أفضل حيث تتوافر لي بعض الخبرة الشخصية. ولذلك فقد اخترت أن أكتب عن أسر لا تختلف كثيرا عن أسرتي. وربما تكون أسر كل من الطبقة الدنيا أو العليا غير مختلفة إلى حد بعيد. بل إنني أعتقد أنها غير مختلفة، لكنني لا أستطيع أن أقول ذلك عن ثقة.

إن ما يمكنني قوله بقدر من الثقة، ونتيجة لسنوات من التحدث إلى الآخرين ومن الاستماع إلى أحاديثهم عن التليفزيون، هو أن الآباء يحتاجون إلى التفكير بأسلوب جديد فيما يتعلق بالتليفزيون، ويحتاجون إلى التفكير مليا في الدور الذي يلعبه في حياة أطفالهم وفي حياتهم معا كأسرة. وحينئذ فقط يستطيع الآباء البدء في تقدير الحاجة إلى عمل شيء في هذا المضمار[*].

(*) لهذه المقدمة بقية تزيد قليلا على صفحة واحدة، خصصتها المؤلفة لشكر عدد كبير من الأشخاص الذين قدموا لها العون والمساعدة أثناء إعداد الكتاب، وهي لا تهم القارئ العربي في شيء. (المترجم).

مقدمه الطبعه الثانيه

واصل التليفزيون تشديد قبضته على الأسرة الأمريكية خلال السنوات التي تلت نشر هذا الكتاب للمرة الأولى. فالأسر اليوم تشاهد التليفزيون بزيادة ساعة كل يوم تقريبا على ما كانت عليه الحال عام 1977 ـ أكثر من سبع ساعات طبقا لاستطلاع أخير[1]. ومن المرجح أن تستمر الزيادة في وقت المشاهدة التليفزيونية الأسرية مع تحسن الاستقبال بفضل الكيبل التليفزيوني، ومع ازدياد القنوات المتاحة للأسر كل عام، ووفرة أجهزة الفيديو كاسيت التي تتيح للناس الاحتفاظ لمدة طويلة ببرامجهم المفضلة. غير أن عدم الرضا عن التليفزيون لايزال واسع الانتشار في الوقت نفسه. ويبدو أن كل شخص ينتقص من جهاز التليفزيون ويطلق عليه ما يشاء من نعوت. ويعترف كل امرئ بأن التليفزيون مشكلة.

إن فكرة تأييدي للتخلص من التليفزيون تماما كحل لمشكلته فكرة منتشرة، ربما بسبب العنوان السلبي صراحة لهذا الكتاب. وأنا أغتنم هذه الفرصة لتبديد أي فكرة من هذا النوع. فمن الجلي أنني أعرف أن أكثر حججي إقناعا لن تجعل التليفزيون أبدا يغيب عن الأنظار. لكن ذلك لم يكن هدفي في يوم من الأيام. وعلى الأصح، فقد كان هدفي، ولايزال، تشجيع أسلوب جديد للتفكير فيما يتعلق بالتليفزيون.

ويتركز القلق بشأن التليفزيون وأخطاره، عموما،

على البرامج التي يشاهدها الناس. فهي عنيفة فوق الحد، ضحلة أكثر مما ينبغي، جنسية أكثر مما يلزم، وسخيفة جدا. لكنني أعتقد أننا عندما ركزنا اهتمامنا في مجمله على محتويات البرامج التليفزيونية، تجاهلنا طويلا التأثير الأعمق للتليفزيون - وأعني به فعل المشاهدة ذاته، وتأثير هذه التجربة كأداة لشغل الوقت - في نمو الطفل، وفي أساليب الآباء في تربية أطفالهم، وفي حياة الأسرة. إن نظرة إلى التليفزيون من هذه الزاوية غير العادية قد تساعد على إدراك أن أسلوب التعامل مع المشاكل المطروحة ليس العمل من أجل برامج أفضل - لأن ذلك لا يختلف عن معالجة إدمان الكحوليات عن طريق السعي لاستبدال نوع أغلى ثمنا من الويسكي بالنوع الرخيص - وإنما بالعمل الدؤوب من أجل سيطرة أفضل. وذلك هو لب المشكلة، فيما أعتقد.

وتتضمن هذه النسخة المنقحة، بالإضافة إلى تحديث إحصائيات المشاهدة وملكية الجهاز، تلخيصا للدراسات والبحوث الجديدة التي تفحص آثار ذلك النوع من المشاهدة التليفزيونية الذي لا يتصل بمضمون البرامج، وكذلك الموضوعات الحديثة التي ظهرت في الصحافة الشعبية منذ نشر الكتاب في طبعته الأولى.

وقد أضفت أجزاء عن التطورات التكنولوجية التي شغلت اهتمام الآباء في غضون العقد الماضي، لاسيما ألعاب الفيديو والكمبيوتر. وتعكس أجزاء جديدة أخرى تتخلل الكتاب نواحي القصور في الطبعة الأولى والتي نبهني الآباء والمدرسون والأطفال أنفسهم إليها، منذ ظهور الكتاب لأول مرة. وقد ذكرني عدد من الآباء بأنه «ليس جميع الأطفال يشاهدون التليفزيون بطريقة واحدة». وتساءل آخرون، «بما أن تحديد وقت المشاهدة للأطفال يجعل التليفزيون أكثر جاذبية، لماذا لا نجعلهم، يلتهمون التليفزيون ويخرجونه من أجسامهم؟» وقد شغلت هذه المسائل، وغيرها، اهتمامي في هذه الطبعة الجديدة.

في حين كان التأثير البارز للتليفزيون في بداية السبعينيات مرتبطا بمشاهدة الأطفال المنزلية، زاد خلال العقد الماضي دور هذه الوسيلة الإعلامية في المجال التربوي بصورة واضحة. كما تصاعد القلق خلال الفترة نفسها بشأن العلاقة بين مشاهدة الأطفال للتليفزيون وتحصيلهم الدراسي، حين تنبه الناس إلى الهبوط الشامل في المهارات الدراسية.

ويكرس فصل جديد بعنوان «التليفزيون والمدرسة» للدور الذي لعبه التليفزيون في هذا الهبوط ولبحث بعض الأساليب التي اختارتها المدارس لمعالجة هذه المشكلة. ويشمل هذا الفصل أجزاء عن «الدراية بوسائل الاتصال» media literacy (*)، وعن تخصيص التليفزيون للواجب المنزلي، وعن الهبوط في «الاستدلال العقلي» inferential reasoning بين طلاب المدارس الثانوية، فضلا عن تقارير تفصيلية حول البحوث والإحصائيات الجديدة المرتبطة بالتحصيل الدراسي.

ومن أجل تحاشي الالتباس، في بعض الاقتباسات والأمثلة الخاصة بطرائق المشاهدة الروتينية، فقد استبدلت بأسماء البرامج التي لم تعد تعرض أسماء برامج مماثلة أكثر تداولا.

وهناك تغيير مهم آخر في هذه الطبعة الجديدة. ففي جميع أجزاء الطبعة الأولى من الكتاب أشرت إلى الطفل الذي لم أحدد جنسه باستعمال الضمير الشخصي «هو» he. وعلى الرغم من أنه يمكن الدفاع عن هذا الاستعمال باعتباره تقليدا أدبيا، فإني بدأت أشعر بأن ذلك يمثل محاباة للذكورة تزداد عدم ملاءمتها باطراد في مجتمع اليوم. وفضلا عن ذلك، فإن افتراضي الأصلي أن هذا الكتاب للكبار فقط، الذين لم يكن من المتوقع أن يتأثروا شخصيا بهذا الاستعمال التقليدي، قد أثبت أنه كان افتراضا غير صحيح (وهو ما أشعرني برضا عميق)؛ ذلك أن أطفالا كثيرين، كما يبدو - وبعضهم حتى من المدرسة الابتدائية، وأعدادا أكبر في المدارس الثانوية، وأيضا طلاب الكليات - يقرأون ويناقشون هذا الكتاب في حجرات الدراسة وفي البيت. ومن أجل القراء من أطفال المستقبل، وللأسباب الأخرى المذكورة آنفا، فقد حذفت استعمال «هو» عند الحديث عن الأطفال في معظم الحالات بوضع صيغة الجمع في مكانه. لقد كان ينبغي عمل ذلك من البداية الأولى، وأنا أشعر بالامتنان لناشر كتابي Viking Penguin Inc. صاحب الفضل في جعل هذا التغيير الشامل ممكنا.

(*) الدراية بوسائل الاتصال media literacy: اكتساب المهارات العملية اللازمة للتعامل مع مجالات الاتصال الجماهيري.

القسم الأول
التجربة التليفزيونية

١ ليست مادة المشاهدة هي المشكلة

كاد الاهتمام بتأثيرات التليفزيون في الأطفال أن ينحصر في مضامين البرامج التي يشاهدها الأطفال دون سواها. ويقوم علماء الاجتماع والباحثون بإجراء تجارب بالغة الصعوبة في تعقدها ومهارتها لتقرير ما إذا كانت مشاهدة برامج العنف تجعل سلوك الأطفال أكثر عدوانية، أم أن مشاهدة البرامج النموذجية، على العكس، تشجع السلوك «الاجتماعي الإيجابي» للأطفال. وتجرى دراسات لمعرفة ما إذا كانت إعلانات التليفزيون تهيئ الأطفال لأن يكونوا طماعين وماديين، أم كرماء وروحانيين، كما ذكر البعض. ويسعى الباحثون لاكتشاف ما إذا كانت الأنماط التليفزيونية الثابتة تؤثر في طرق تفكير الأطفال، بحيث تدفعهم نحو التحيز، أو سعة الأفق، أو غير ذلك.

إن جوهر التجربة التليفزيونية ذاته، بصرف النظر عن مضامين البرامج، نادرا ما يؤخذ بعين الاعتبار. وربما يعزز حشد المشاهد والأصوات المتغيرة باستمرار والصادرة عن الجهاز ـ أي التنوع العاصف للصور المعروضة أمام العين ووابل

الأصوات البشرية وغير البشرية الذي يصل إلى الأذن ـ الوهم الزائف لدى المشاهد بأنه أمام تجربة متغيرة. فمن السهل إغفال حقيقة بسيطة بطريقة مضللة: يشاهد المرء التليفزيون باستمرار حين يفضل مشاهدته على أي تجربة أخرى. سواء أكان البرنامج الذي تشاهده هو Sesame Street أو Batman أو Reading Rainbow أو Dragnet، فإن ثمة تشابها في تجربة المشاهدة التليفزيونية كلها. ذلك أن آليات فسيولوجية معينة في العينين، والأذنين، والدماغ تستجيب للمثيرات المنبعثة من شاشة التليفزيون بصرف النظر عن المضمون المعرفي للبرامج. إنه عمل ذو اتجاه واحد يستلزم تلقي مادة حسية خاصة بطريقة معينة، مهما كانت تلك المادة. والواقع أنه ليس هناك تجربة أخرى في حياة الطفل تسمح بمثل هذا القدر الكبير من المشاهدة في حين تقتضي القليل جدا من التدفق الخارجي.

يشكل الأطفال الذين لم يبلغوا سن الدخول إلى المدرسة أوسع شريحة مفردة بين مشاهدي التليفزيون في أمريكا، تلك الشريحة التي تقضي أكبر عدد من الساعات وأوفر حصة من وقت يقظتها في مشاهدة التليفزيون بالمقارنة مع أي مجموعة عمرية أخرى.

وطبقا لما ورد في تقرير نيلسن لعام 1993 Nielsen Report، يمضي أطفال المجموعة العمرية الذين هم بين سنتين وخمس سنوات 22,9 ساعة في المتوسط أسبوعيا في مشاهدة التليفزيون، بينما يمضي أطفال المجموعة العمرية 6 ـ 11 سنة 20,4 ساعة مشاهدة[1]. بل إن دراسات مسحية أخرى تبين أن هناك أوقات مشاهدة أطول تصل إلى 54 ساعة أسبوعيا لمشاهدين لم يصلوا إلى السن المدرسية بعد. وحتى أشد التقديرات حذرا تدل على أن أطفال ما قبل المدرسة في أمريكا يمضون أكثر من ثلث ساعات يقظتهم في مشاهدة التليفزيون.

ما هي تأثيرات مثل هذه الحصة الكبيرة من الساعات يوميا على الكائن البشري النامي الحساس المنشغل بهذه التجربة الخاصة؟ كيف تؤثر التجربة التليفزيونية في تنمية لغة الطفل، على سبيل المثال؟ كيف تؤثر في تطور الخيال، أو الإبداع؟ كيف يؤثر وجود التليفزيون في طرق تربية الآباء لأطفالهم؟ هل تم تطبيق سياسات جديدة لتنشئة الأطفال وطرح سياسات قديمة جانبا، لأن إتاحة جهاز التليفزيون صارت عونا وراحة للآباء؟ هل

تغير بصورة عميقة إدراك الطفل للواقع نتيجة للتعرض المستمر للمواد التليفزيونية غير الواقعية؟ كيف تؤثر مشاهدة التليفزيون لعدة ساعات يوميا في قدرات الطفل على تكوين علاقات إنسانية؟ ما الذي يحدث للحياة الأسرية من جراء اندماج أفراد الأسرة مع التليفزيون؟

على الرغم من احتمال عدم وجود إجابات قاطعة ونهائية عن هذه الأسئلة، فإن الحقيقة المجردة التي تتمثل في أنها قلما تطرح، وأن مغزى التجربة ذاتها نادرا ما يؤخذ بعين الاعتبار، إنما تبرز رؤية الآباء الأمريكيين المشوهة لدور التليفزيون في حياة أطفالهم.

الخبراء

لقد تجاهل خبراء رعاية الطفل والمستشارون الذين اعتمد الآباء الأمريكيون عليهم، التجربة التليفزيونية تجاهلا كاملا تقريبا. فعلى الرغم من أن مشاهدة التليفزيون تشغل من أوقات يقظة الطفل العادي أكثر مما يفعل أي نشاط منفرد آخر، تخصص معظم الكتيبات الرائجة الخاصة برعاية الطفل فقرات قليلة فقط للتليفزيون، بل تقتصر الإشارة في هذه الكتيبات على مضمون البرنامج الملائم لمشاهدة الأطفال. ومن بين الصفحات الكثيرة بشأن وسائل التعبير عن التوترات العصبية، والمخاوف، وأنواع القلق، ورفض أكل الخضراوات، وغير ذلك، قد لا يجد الآباء إلا تحذيرات تافهة قليلة تتعلق بمراقبة برامج أطفالهم التليفزيونية التي قد تحتوي على العنف أو الجنس الزائد.

فالدكتور بنيامين سبوك، وهو الحجة الأبرز تأثيرا في مجال الطفولة، لا يذكر شيئا في دليله الشهير عن دور التليفزيون في حياة أطفال ما قبل سن المدرسة. أما الطبعات الأولى من كتاب د. سبوك «رعاية الرضيع والطفل» Baby and Child Care، فقد تحدثت عرضا عن اندماج الأطفال الذين يجلسون على مقاعد الدرس مع التليفزيون: «عموما، إذا كان الطفل يهتم بواجبه المنزلي، ويقضي وقته مع أصدقائه خارج المنزل بعد الظهر، ويأتي للعشاء، ويذهب إلى فراشه في الموعد المحدد، ولا يشعر بالفزع، فإنني أميل إلى تركه يقضي ما يشاء من وقت المساء أمام التليفزيون أو الراديو وفق اختياره».

وهو يضيف ناصحا الآباء: «إذا جن جنون بقية أفراد الأسرة لاضطرارهم

لمشاهدة برامج الطفل أو الاستماع إليها، وإذا كان لديهم القدرة على الشراء، فمن الجدير بالاهتمام أن يحصلوا للطفل على جهاز لحجرته»[2]. ويؤكد حذف هذه العبارة من آخر طبعة للكتاب أن تلك النصيحة كانت سقيمة للغاية. ويضيف د.

سبوك في الطبعة الجديدة: «ينبغي تحديد ساعات مشاهدة التليفزيون»، مقترحا على الآباء والأطفال «الوصول إلى تفاهم معقول لكنه محدد بشأن الساعات التي تقضى خارج المنزل، والواجب المنزلي، ووجبات الطعام، والبرامج»[3]. وفي حين يكشف ذلك عن فهم جديد لمخاطر التليفزيون، إلا أن د. سبوك لا يضمن كتابه نصائح إضافية حول السيطرة على التليفزيون.

جهود تطوير البرامج

على الرغم من أن الآباء أنفسهم كثيرا ما يشعرون بضيق عميق من التليفزيون وتأثيراته في أطفالهم، فإن اهتمامهم ينصب أكثر على مادة البرامج التي يشاهدها الأطفال، لا على التجربة التليفزيونية ذاتها. ويتضح أسلوب تركيز الآباء على المضمون تماما من أنشطة «منظمة العمل من أجل تليفزيون الأطفال» Action for Children's Television (ACT)، وهي منظمة ضاغطة من الآباء كان لها تأثير في الفترة من سنة 1968 إلى أن تم حلها في سنة 1992.

وقد نمت هذه المنظمة، التي كونتها مجموعة من الأمهات في بوسطن، بفعل القلق المشترك الذي شعر به الآباء المؤسسون فيما يتعلق بالتليفزيون: كان أطفالهم يقضون ساعات أكثر مما ينبغي في مشاهدة التليفزيون، والأمهات يوافقن، وكانت سيطرة العنف على برامج الأطفال تبدو هائلة. وفق ذلك، جعلت الفواصل الإعلانية المتواصلة أطفالهم يلحفون في طلب مجموعة متنوعة من اللعب الرديئة والأطعمة الضارة بالصحة. وتحولت منظمة «العمل من أجل تليفزيون الأطفال» (ACT) من إحدى جماعات المصالح المحلية الصغيرة إلى منظمة قومية مؤثرة تتلقى الدعم من مؤسسات كبيرة واشتراكات فردية.

وعلى الرغم من أن الاهتمام الأصلي للأمهات في المنظمة تعلق بحجم المشاهدة التليفزيونية لأطفالهن، فإن أنشطتها سرعان ما اتجهت في المقام

الأول نحو مضمون برامج الأطفال، ولاسيما إزالة العنف والروح التجارية وتشجيع الإنتاج البرامجي الترفيهي الملائم للأطفال.

وقد استقبل الآباء والمربون المنظمة بحماس وامتنان هائلين. فمن كان يتصور أن المنظمة في سعيها لتطوير برامج الأطفال يمكن أن تعقد مشكلة التليفزيون التي تؤرق الأسر الأمريكية بدلا من أن تخفف حدتها؟

إن المظهر الخادع للوعد الذي بشرت به المنظمة يلخصه أحد مؤسسيها وهو يصف أهدافها: «لقد أدركنا أن الأطفال يشاهدون بكثرة مواد تليفزيونية لم تعد لهم على وجه الخصوص، وأن للآباء كامل الحق في مطالبة المسؤولين عن البرامج الموجهة للصغار بتلبية الحاجات النوعية للأطفال على الأقل لمدة ساعتين نهارا أو مساء»(4).

لكن هل هي الحاجات النوعية للأطفال التي تتعرض للخطر حين يطالب الآباء ببرامج أفضل؟ من المؤكد أن كثرة مشاهدة الأطفال للتليفزيون تعكس حاجات الآباء إلى توفير أسباب التسلية الملائمة لأطفالهم ولحظات من الهدوء لأنفسهم. وحين يعمل الآباء لتطوير برامج الأطفال، فإن حاجتهم الخاصة هي التي تكمن في أفعالهم، حتى تخف مشاعر القلق لديهم تجاه التأثيرات المحتملة لساعات المشاهدة التليفزيونية الصامتة، السلبية في أطفالهم. وربما يقل إحساس الآباء بالذنب، لو بدت تلك الساعات، على الأقل، «تربوية».

إن حاجات الأطفال الصغار مختلفة تماما. فنمو الأطفال يتطلب فرصا لتحقيق علاقات أسرية أساسية، وبذلك يمكنهم فهم أنفسهم، لكن كل ما تفعله التجربة التليفزيونية هو أنها تقلص هذه الفرص.

يحتاج الأطفال الصغار إلى تنمية طاقتهم على التوجيه الذاتي حتى يحرروا أنفسهم من التبعية. لكن التجربة التليفزيونية تساعد على استمرار هذه التبعية دوما.

يحتاج الأطفال إلى اكتساب مهارات الاتصال الأساسية ـ تعلم القراءة، والكتابة، والتعبير عن الذات بمرونة ووضوح ـ حتى يؤدوا وظائفهم كمخلوقات اجتماعية. غير أن التجربة التليفزيونية لا تعزز النمو اللفظي لأنها لا تتطلب أي مشاركة لفظية من جانب الطفل، بل تتطلب الاستقبال السلبي وحده.

يحتاج الأطفال إلى اكتشاف نواحي القوة والضعف الخاصة من أجل

تحقيق رغباتهم كراشدين في العمل واللعب على حد سواء. لكن المشاهدة التليفزيونية لا تفضي إلى اكتشافات كهذه. فهي، في الواقع، تحد من اندماج الأطفال في تلك الأنشطة الواقعية التي قد تتيح لقدراتهم فرصة حقيقية للاختبار. إن إشباع حاجة الأطفال الصغار إلى الخيال يتحقق بصورة أفضل للغاية عن طريق ضروب النشاط الإيهامي الذاتي، لا عن طريق القصص الخيالية التي يعدها الكبار ويقدمونها لهم في التليفزيون.

إن تلبية حاجة الأطفال الصغار إلى التنبه العقلي تتحقق بصورة أفضل وإلى أبعد حد حين يمكنهم تعلم الأداء اليدوي، واللمس، والفعل، وليس مجرد المشاهدة السلبية.

وأخيرا، لابد من دراسة التجربة التليفزيونية بالنظر إلى حاجة الأطفال إلى تنمية مهارات أسرية حتى يصبحوا هم أنفسهم آباء ناجحين ذات يوم. فهذه المهارات إنما هي ثمرة مشاركتهم الحالية في الحياة الأسرية، وتجاربهم اليومية كأفراد في الأسرة. وتشير كل الدلائل إلى أن للتليفزيون تأثيرا مدمرا في الحياة الأسرية، يقلص من ثرائها وتنوعها. وهكذا، يتضح أن منظمة «العمل من أجل تليفزيون الأطفال» (ACT) والآباء والمربين المعنيين الذين قدموا لها المساندة بصورة مفعمة بالأمل، كانوا هدفا للتضليل وإساءة توجيه أفكارهم وجهودهم.

فالتجربة التليفزيونية لا علاقة لها في أفضل الأحوال بحاجات الأطفال وهي في أسوأ الأحوال ضارة بهذه الحاجات. إن الجهود الرامية لجعل التليفزيون أكثر جاذبية للآباء والأطفال عن طريق تطوير البرامج، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى اعتماد الآباء المتزايد على التليفزيون فقط كجليسة للطفل، وإلى زيادة عبودية الأطفال لأجهزة التليفزيون في بيوتهم.

ومن الغريب تماما، أن الصناعة التليفزيونية كثيرا ما تظهر فهما لحاجات الأطفال الحقيقية يفوق فهم معظم نقادها اللاذعين، على الرغم مما يتسم به استغلالها للأطفال من استهتار ونفعية. يقول مدير إحدى الشبكات مدافعا عن برامج الأطفال الرديئة التي تقدمها شبكته: «إذا تعين علينا أن نفعل ذلك (تقديم برامج متميزة بعد الظهر، وهو أحد مطالب منظمة ACT)، فقد يقول كثيرون: كيف تجرؤون على احتجاز الأطفال ساعتين ونصف ساعة أخرى؟ اسمحوا للأطفال بالخروج واللعب وأداء واجباتهم

المنزلية. أتيحوا لهم الحصول على تجربة تعليمية، وأنا لا أعتقد أننا ملزمون بتقديم خدمة نوعية لهم من وجهة النظر هذه»[5].

ليس من المستبعد أن تتحاشى الشبكات التليفزيونية تقديم برامج جيدة للأطفال بدافع الإيثار وحب الغير، كي تتجنب إغراء الأطفال بمزيد من المشاهدة التليفزيونية، فالأشياء الرديئة، برغم كل شيء، أرخص بصفة عامة ومن الأسهل تقديمها بدلا من الترفيه الجيد. ومع ذلك، فإن اللامبالاة الباردة للصناعة بنوعية المواد التليفزيونية المقدمة للأطفال، قد تثبت بطريق غير مباشر أنها أكثر نفعا للأطفال من نضال الذين يصرون على إتاحة برامج رائعة لهم في كل الأوقات، مادام من المرجح أن يحدد الآباء ذوو الضمائر الحية المشاهدة التليفزيونية لأطفالهم إذا اقتصر المتاح على البرامج التافهة.

أربع وخمسون ساعة أسبوعيا

ظهر نموذج غريب للرأي الذي يلقي باللوم عموما على المضمون بدلا من إلقائه على التجربة التليفزيونية ذاتها، في مقالة عن تليفزيون الأطفال نشرتها The New Republic (ولم يثر نشر هذه المقالة أي تعليق):

«يقبع الأطفال الصغار من مختلف الطبقات الاجتماعية داخل بيوتهم طوال اليوم مع عدد قليل من رفقاء اللعب من دون عمل يذكر. إن بيوتا قليلة، سواء في الأحياء السكنية الفقيرة، أو في البنايات الفخمة أو في تقسيمات الضواحي، توفر لعقول أو أجسام الصغار التمرينات الضرورية لها. وأنت ترى نتائج ذلك في المتجر المركزي المحلي عندكم: أطفال صغار سريعو الانفعال، منهكون، ضجرون بسبب الخمول، يدفعون أمهاتهم نحو الجنون. ومن الممكن أن يقدم برنامج تليفزيوني ملائم لهؤلاء الأطفال وأمهاتهم الكثير من المساعدة. ويعلم الله أن الأطفال يشاهدون التليفزيون بصورة متواصلة»[6].

إن صاحب المقالة لا يفكر في احتمال أن يكون هؤلاء الأطفال سريعي الانفعال، ومنهكين، وضجرين إلى هذا الحد بسبب الخمول تحديدا لأن مشاهداتهم التليفزيونية متواصلة، ولا يفكر في أنهم محرومون من فرص ممارسة التمرينات البدنية أو الذهنية تحديدا لأن تسليتهم بواسطة

التليفزيون أسهل بالنسبة لآبائهم من اصطحابهم إلى الملعب، واللعب معهم، والتعامل معهم شخصيا.

ويواصل كاتب المقالة ملتمسا إيجاد برامج أفضل للأطفال:

«يشاهد الجيل الحالي من أطفال ما قبل سن المدرسة التليفزيون أربعا وخمسين ساعة في المتوسط أسبوعيا. ولابد أن ذلك يعرضهم بصورة غير عادية للغة الإنجليزية القياسية التي يتكلم بها الكبار ويعطيهم فرصا لرؤية أشياء كثيرة.. لكن الأطفال الأمريكيين لا يحتكون على شاشة التليفزيون بالأعمال الممتازة. إنهم في حاجة إلى مسرح جيد، وأساطير، وموسيقى، وأفلام، وقصص وتجارب خصبة قيمة توازن تجارب أخرى»[7].

أربع وخمسون ساعة أسبوعيا؟ إن أطفال ما قبل سن المدرسة يظلون أيقاظا بالكاد أربعا وخمسين ساعة في الأسبوع! هذا الكم الكبير من المشاهدة التليفزيونية لا يكاد يترك لهم وقتا يكفي للأكل والذهاب إلى الحمام.

ومع ذلك، فالكاتب لا يتصدى لمناقشة الإحصائية أو للتعبير عن رأي بأنها، لو كانت دقيقة، فذلك وضع أقل من أن يبشر بالخير. إن سبب قلقه ينحصر في أن تلك الساعات الأربع والخمسين تغص ببرامج رديئة. وهو يود ملء تلك الساعات الأربع والخمسين بتجارب رائعة يمكن للأطفال مقارنتها بتجاربهم الخاصة. لكن أي تجارب خاصة تلك التي يمكن أن تكون لدى الأطفال إذا كانت معظم ساعات يقظتهم تنقضي في مشاهدة التليفزيون؟ سوف يكون لزاما عليه أن يملأ الشاشة بصور أطفال يشاهدون التليفزيون[*].

(*) من المذهل أن نلاحظ كيف قبلت إحصائية الساعات الأربع والخمسين كحقيقة عند الكتابة عن الأطفال والتليفزيون في أحوال كثيرة. فمثلا، يتضمن ملخص الندوة القيمة التي نظمتها كليات جامعة هارفارد حول الأطفال تلك الإحصائية كرقم يوثق به(7). ويستخدم كتاب آخر رقم الساعات الأربع والخمسين أسبوعيا لإقناع الآباء بعدم تقييد مشاهدة أطفالهم للتليفزيون بشدة: «يستهلك الأطفال الأمريكيون... أكواما من المادة التليفزيونية. لماذا؟ التقديرات تشير إلى أن الطفل العادي الذي يتراوح عمره ما بين ثلاث وخمس سنوات يشاهد التليفزيون أربعا وخمسين ساعة أسبوعيا. ومن المؤكد أن مثل هذا النوع من المشاهدة سيؤثر في عادات اللعب عند الطفل. فالطفل الذي لم يتعود على الزاد التليفزيوني قد يجد في تكوين أصدقاء أو الانضواء في جماعة من الجيران نوعا من التوتر. وقد يصبح هذا الطفل أيضا «الطفل الغريب الأطوار» داخل الجماعة»(8).

نوابغ التلفزيون

ربما يعود سبب مغالاة الآباء في تأكيد أهمية المضمون، عند التفكير في تأثيرات التليفزيون في أطفالهم، إلى افتراض أن التجربة التليفزيونية لأطفالهم هي تجربتهم الخاصة عينها. إلا أن هناك اختلافا أساسيا بين التجربتين: إذ إن للراشد رصيدا كبيرا من تجارب الحياة الواقعية، لا يمتلكه الطفل[8]. وحين يشاهد الراشد التليفزيون، يبدأ كل من حاضره الخاص وعلاقاته السابقة، وتجاربه، وأحلامه وخيالاته في العمل، محولة المادة التي يراها، مهما كانت مصادرها أو هدفها، إلى شيء يعكس حاجاته الداخلية الخاصة. أما تجارب الأطفال الصغار الحياتية فمحدودة. لقد خرجوا للتو من ضباب مرحلة الطفولة قبل اللفظية. ومما يثير القلق اعتبار أن ساعة بعد ساعة من المشاهدة التليفزيونية تشكل نشاطا رئيسيا لهم. إن أنشطتهم الحياتية الواقعية اللاحقة ستحرك ذكريات التجارب التليفزيونية، وليس العكس، كما هي الحال مع المشاهدين الراشدين. وستعمل تجارب الأطفال التليفزيونية المبكرة إلى حد ما على تجريد الحقائق والعلاقات التي يصادفها الأطفال في الحياة من صفاتها الإنسانية، وإضفاء طابع آلي عليها، وجعلها أقل واقعية. وستحمل الأحداث الحقيقية بالنسبة لهم أصداء نفاذة من عالم التليفزيون، دائما.

كتبت فتاة في العشرين من عمرها وهي تحسب الساعات العشرين ألفا التي قضتها من حياتها أمام جهاز التليفزيون: «أنا لم أشاهد هذه البرامج بكثرة حينما كنت صغيرة، فقد كنت أتركها تغمرني. وأنا حاليا أدرس تلك الساعات كما يفعل طبيب نفسي على أريكته الخاصة، باحثة بشغف عن مفتاح ما داخل جهاز التليفزيون يشرح لي كنه الشخص الذي أصبحته»[9].

لا مناص من أن يحول آباء الأطفال الصغار انتباههم إلى مضمون البرامج التي يشاهدها أطفالهم لأنهم باتوا يعتقدون أن التليفزيون مصدر مهم من مصادر التعلم. لكن تعلم الطفل في سن ما قبل المدرسة بالاعتماد على التليفزيون يذكرنا بالمعتوه النابغ idiot savant وهو شخص متخلف عقليا بشدة، ويظهر بعض القدرات اللافتة للأنظار؛ يمكنه، مثلا، مضاعفة الأعداد خماسية الرقم ذهنيا، أو إنجاز عمليات رياضية مذهلة أخرى. إن أطفال هذه الأيام الذين تعلموا تليفزيونيا يستطيعون الكلام بطريقة خطابية

مستخدمين كلمات وأفكارا لا يفهمونها و«حقائق» ليس لديهم التجربة أو المعرفة للحكم على دقتها. والأطفال الصغار الذين يقلدون إعلانات التليفزيون، هؤلاء النوابغ التليفزيونيون، لا يملكون القدرة على استخدام المادة التي حصلوا عليها من التليفزيون لمصلحة أغراضهم الإنسانية الخاصة، أكثر مما لدى العباقرة الزائفين المتخلفين عقليا الذين يستخدمون ألاعيبهم الرياضية المدهشة، لا لشيء إلا للاستعراض وكسب المتفرجين.

مخدر خبيث

يزداد اعتماد الآباء خلال حياتهم اليومية على التليفزيون كأداة متاحة بشكل مدهش لتسلية وتهدئة طفل السنوات الثلاث، المتقلب، بلمسة واحدة لمفتاح الجهاز. ومع استمرار انتفاعهم به يوما بعد يوم، تزداد أهميته في حياة أطفالهم. وبعد أن كان التليفزيون مصدرا خالصا للترفيه يقدمه الآباء حين يحتاجون إلى فترة راحة من رعاية الطفل، تحول تدريجيا إلى حضور طاغ مخرب في حياة الأسرة. غير أنه على الرغم من ازدياد استياء الآباء من تدخلات التليفزيون في الحياة الأسرية، وعلى الرغم من شعورهم العميق بالذنب لعجزهم عن السيطرة على مشاهدة أطفالهم للتليفزيون، فإنهم لا يفعلون شيئا لتخليص أنفسهم من هيمنته. ذلك أنه لم يعد في إمكانهم التعامل بنجاح مع المواقف من دونه. في عام 1948 وصف جاك جولد Jack Gould، أول ناقد تليفزيوني لصحيفة نيويورك تايمز، تأثير الوسيلة الإعلامية الجديدة آنذاك في الأسر الأمريكية قائلا: «إن الساعات التي يقضيها الأطفال أمام التليفزيون هي باعتراف الجميع مخدر خبيث لكل من الوالدين. فحين ينتشر الأطفال الصغار رابضين على أرضية الحجرة أمام الجهاز، يبدو نوع غريب من السكون وإن كان رائعا قريب المنال...»(10).

وقد يظهر للوهلة الأولى أن قلم الناقد قد زل. إذ من المؤكد أن الأطفال الذين خيم السكون الغريب عليهم هم الذين تخدروا بواسطة جهاز التليفزيون، وليس الأب والأم. غير أن الناقد نفذ في الحقيقة إلى لب المشكلة قبل أن تصبح حقيقة واقعة تماما، وقبل أن يتخيل أي شخص أن الأطفال سيقضون ذات يوم في مشاهدة التليفزيون ساعات من أوقات يقظتهم أكثر مما يقضون في أي نشاط منفرد آخر. إنهم الآباء، في الواقع، الذين بات التليفزيون

بالنسبة لهم مخدرا لا يقاوم، ليس من خلال مشاهداتهم الخاصة (ولو أن ذلك، أيضا، هو ما يحدث كثيرا) وإنما عن بعد، من خلال أطفالهم، الرابضين أمام الجهاز في سكون غريب. ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك مخدر أكثر خبثا من ذلك الذي يجب أن تعطيه للآخرين من أجل أن تحقق به هدفا لنفسك.

2 تغير حالة الوعي

موتى التليفزيون الأحياء(*)

قال د. إدوارد بالمر، المدير السابق للبحوث في برنامج «شارع السمسم»: «أعتقد أن المشاهدة التليفزيونية في حد ذاتها عمل عقلي رائع نوعا ما. فطوال الوقت الذي يمضيه الأطفال في المشاهدة يضعون فرضيات، ويستبقون الأحداث، ويطلقون التعميمات، ويتذكرون، ويربطون بنشاط بين ما يرونه وبين حياتهم الخاصة»[1].

لكن الأوصاف التي تعبر بها الأمهات عن سلوك أطفالهن الصغار نادرا ما تؤيد الفكرة القائلة إن مشاهدة التليفزيون نشاط عقلي خصب:

«حين يعود تشارلز إلى البيت من مدرسة الحضانة يجلس أمام جهاز التليفزيون ومعه جميع حاجياته - بطانيته وإبهامه. وبعد ذلك يشاهد التليفزيون في غياب حقيقي عن الوعي. ومن شبه المستحيل لفت انتباهه. ولو أنني تركته على هذا النحو، فسيواصل المشاهدة لساعات. لكنه، وإن لم يبد متيقظا تماما، لا يشبه من غاب في النوم؛ لأن ذلك لا يمنعه عن الذهاب للنوم في وقت الرقاد، في حين أنه سيثير الكثير من المتاعب عند النوم

(*) Television Zombies

في الساعة الثامنة لو نام بأي حال أثناء النهار، ولو نصف ساعة. أنا لا أعرف ما هذا. إنه يبدو بالضبط وكأنه تمسمر في مكانه».

«ابني ذو السنوات الخمس تتملكه غشية حين يشاهد التليفزيون. فهو ينغلق فيما يحدث على الشاشة، وتستغرقه المشاهدة تماما فتنسيه أي شيء آخر. إنه لا يسمعني إطلاقا إذا تحدثت إليه أثناء المشاهدة، ويتعين علي لكي ألفت انتباهه أن أغلق الجهاز وعندئذ يغير موقفه فجأة».

«توم لا يرد على الهاتف حين يشاهد التليفزيون، حتى لو كان يرن عاليا بجواره. إنه ببساطة لا يسمعه».

ولا يفتأ الآباء يصفون، وفي قلق ظاهر غالبا، طبيعة الحالة الشبيهة بالغشية trance التي تستحوذ على أطفالهم أثناء المشاهدة التليفزيونية. إن تعبير وجه الطفل يعتريه تحول، فيرتخي الفك ويتدلى مفتوحا إلى حد ما، ويستقر اللسان فوق الأسنان الأمامية (إن كان هناك أي منها)، وتغشى العينين نظرة زجاجية بلا معنى. وإذا أخذنا التنوع اللامحدود لشخصيات الأطفال وأنماطهم السلوكية في الاعتبار، وجدنا تشابها جديرا بالملاحظة في التعبير بين الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون. ففي بعض الأحيان، يخرج الأطفال من غشيتهم - أثناء عرض أحد الإعلانات التجارية، أو عند انتهاء البرنامج، أو عند ضرورة الذهاب إلى الحمام - لكن التأثير الواضح للتغير المفاجئ في الموقف، حين يسترد الوجه تعبيره الطبيعي من جديد، ويعود الجسم إلى حالته الحركية العادية المستقرة، إنما يعمق الانطباع بأن الحالة العقلية للصغار الذين يشاهدون التليفزيون شبيهة بالغشية. ومن المؤكد أنه لا توجد غير إشارة واهنة على أنهم في حالة نشاط ويقظة من الناحية العقلية.

آلية الإغلاق(*)

لقد تأمل ت.بري برازلتون T. Berry Barzelton، وهو طبيب وكاتب في مجال الأطفال، مغزى غشية التليفزيون the television trance. وهو يصف تجربة شملت عددا من الأطفال الرضع حديثي الولادة ربما تكون وثيقة الصلة بغشية التليفزيون:

(*) The Shutdown Mechanism

«لقد عرضنا مجموعة من الأطفال الرضع الهاجعين في سكون لمثير بصري مزعج، عبارة عن ضوء ساطع في غرفة عمليات، وضعناه على مسافة 24 بوصة من رؤوسهم. وظل الضوء مشتعلا ثلاث ثوان ثم انطفأ دقيقة واحدة وتكرر هذا التتابع عشرين مرة. وكنا أثناء التجربة نراقب التغييرات التي تحدث للأطفال الرضع فيما يتعلق بضربات القلب، والتنفس وموجات الدماغ.

جفل الأطفال بوضوح حين تعرضوا في المرة الأولى للمثير البصري. لكن شدة رد فعلهم تناقصت بسرعة بعد مرات قليلة. ومع المرة العاشرة لم تظهر تغييرات في السلوك، أو ضربات القلب أو التنفس. وظهرت أثناء المثير الخامس عشر أنماط نوم على الراسم الكهربائي للمخ على الرغم من أنه كان واضحا أن أعينهم لاتزال تستقبل الضوء. ثم صحا الأطفال الرضع بعد المثير العشرين من النوم «المستحث» induced، صائحين متقلبين في الفراش.

لقد أوضحت تجربتنا أن الطفل الرضيع حديث الولادة ليس تحت رحمة بيئته. فهو يمتلك آلية عجيبة تعمل كوسيلة إغلاق، يتعامل بها مع المثيرات المزعجة، ويمكنه أن يتخلص منها ويدخل في حالة تشبه السبات. غير أننا إذا استطعنا أن نتخيل مقدار الطاقة التي ينفقها الطفل الرضيع حديث الولادة في تحقيق هذا النوع من الإغلاق - وهي طاقة يمكنه استخدامها بطريقة أفضل - لاستطعنا أن نرى كم تصبح هذه الآلية غالية».

ويواصل برازلتون الربط بين آلية الإغلاق هذه وبين الغشية التليفزيونية المألوفة إلى حد بعيد بين الأطفال الصغار:

«إن التليفزيون، تماما كضوء غرفة العمليات، يخلق وسطا يتهجم على الطفل ويغلبه على أمره، ويستطيع الطفل أن يرد عليه فقط حين يستدعي آلية الإغلاق عنده للعمل، وبذلك يصبح أكثر سلبية. لقد لاحظت ذلك في أطفالي ورأيته في أطفال الآخرين. ففي الوقت الذي يجلسون فيه أمام جهاز تليفزيون عاصف الصوت، يشاهدون فيلما حافلا بالأهوال من كل لون، كان السكون التام يلفهم.. لقد كانوا «مُبَنَّجين» hooked[(2)].

غير أنه في حين يعمل التهجم الحسي للتجربة التليفزيونية على تنشيط استجابة سلبية فورية لدى كثير من المشاهدين الصغار، فإن التأثيرات

المتبقية لمثل هذه التجارب أثناء النمو المبكر للطفل قد تثبت أنها على العكس من ذلك تماما. ويطرح أحد الأطباء احتمالا آخر في «الجريدة الأمريكية للطب النفسي» American Journal of Psychiatry:

«أود الإشارة إلى أن الحركة المستمرة للأطر البصرية المنقولة في برامج التليفزيون ذات صلة بزملة(*) فرط الحركة hyperkinetic syndrome... وبصرف النظر عن المضمون الضحل العنيف للبرامج، تحدث تغييرات متواصلة للكاميرا وبؤرة العدسة حتى تتحرك نقطة الإسناد لدى المشاهد كل ثوان قليلة. ويبرمج هذا الأسلوب بالضبط سعة انتباه قصيرة... وأنا أفترض أن الطفل زائد النشاط(**) يحاول استرجاع الصفة الحركية لشاشة التليفزيون بتغيير التوجه الإدراكي الحسي لديه بسرعة»[3].

وبالمثل، يفترض طبيب نفسي آخر أن سرعة الإثارة المفرطة المحمومة في برنامج Sesame Street والبرامج الأخرى المعدة لأطفال ما قبل سن المدرسة، ربما أسهمت في السلوك الهائج الذي لوحظ بتواتر أشد بين أطفال اليوم. فهذه البرامج «قتل حسني زائد» لبعض أطفال ما قبل سن المدرسة، الذين لم يؤهلوا من حيث النمو للتعامل مع الإثارة الإلكترونية سريعة الخطى[4].

تركيز أم ذهول

أشار جيرالد س.لسر، المدير التربوي السابق لبرنامج Sesame Street إلى الأطفال الذين يبدون غائبين عن الوعي في أثناء مشاهدة التليفزيون «كمشاهدين أحياء ـ أموات» Zombie viewers، ولاحظ أن إدارة البحوث في البرنامج لم تجد ما يدعو إلى القلق بشأن هذه الظاهرة. ومن رأي هؤلاء أن المشاهد الحي الميت قد يتشرب من مشاهدة Sesame Street الكثير مثلما يفعل الطفل الذي يعير اهتمامه على نحو طبيعي، يقظ. وكتب لسر في ما رواه عن هذا البرنامج يقول: «إن المشاهدة الحية الميتة إما أن تعكس قوة التركيز أو الذهول»[5].

وإلى أن تقدم لنا إحدى الدراسات العلمية حول غشية التليفزيون والنشاط

(*) زملة، Syndrome، مجموعة الأعراض المتزمنة المميزة لمرض ما.

(**) طفل دائم الحركة، لا يركز طويلا على أي شيء، ولا يستغرق في النوم ليلا. (قاموس التربية ـ د. محمد علي الخولي).

العقلي المصاحب لها بعض الإجابات الحاسمة، لابد من الإجابة بطريقة غير مباشرة عن السؤال الخاص بما إذا كانت غشية التليفزيون تعكس تركيزا أم ذهولا، وذلك بتدوين الملاحظات العامة للآباء عن حالة الطفل الذهنية في أثناء مشاهدة التليفزيون. فالآباء، بلا استثناء، يقررون أن المشاهدة التليفزيونية تسبب حالة من الاسترخاء الزائد. ولذلك فإنهم يستخدمون التليفزيون كثيرا لتهدئة وتسكين الطفل زائد النشاط.

وتروي بعض الأمهات:

«ثمة أوقات لا يريد المرء فيها أن يرى طفله نشيطا بدرجة كبيرة. فقبل النوم بنصف ساعة لا أريد أن ينفعل الأطفال في أثناء اللعب، وأفضل أن يشاهدوا التليفزيون في هدوء. أما ما يشاهدونه، فليس ذا أهمية كبيرة».

«نصحتني الأخصائية النفسية المدرسية بألا أقلق بشأن مشاهدة بيل للتليفزيون. وقالت إنه يحتاج إلى ساعتين من الهراء حين يصل إلى البيت، حتى يسترخي».

«حين يصل دافي إلى البيت عائدا من المدرسة يساعده التليفزيون على الاسترخاء. وهو يستطيع معه أن يفقد اهتمامه بنفسه بصورة ما».

«إنه يهدئ ماري. إنه حقا رائع».

«يحتاج الأطفال حين يعودون من المدرسة إلى تخفيف الضغوط، ولذلك أتركهم حينئذ يشاهدون التليفزيون، حتى إن كانت البرامج هابطة».

يبدو أن من المستبعد أن يسبب نشاط يتطلب تركيزا ذهنيا قويا الاسترخاء، وتخفيف الضغوط، أو أي حالة أوضح من حالات الاسترخاء الأخرى. فمن المعقول أكثر أن نفترض أن هذا «الهراء» يسبب حالة عقلية سلبية وقابلية للتأثر تفوق ما يحدث للطفل بصورة طبيعية.

السلبية

غالبا ما تنبع ملاحظات الآباء حول الطبيعة السلبية لما يشاهده أطفالهم على شاشة التليفزيون من أعمق مشاعر القلق لديهم بشأن الطبيعة السلبية لهذه المشاهدة. فمرة بعد أخرى تطفو كلمة «السلبية» على السطح في الأحاديث مع الآباء عن تجارب أطفالهم التليفزيونية.

فهل هذا القلق ثمرة توجه مجتمعنا نحو العمل والإنجاز؟ وهل تعكس

حقيقة أن الوالدين يحبذان أن يقرأ طفلهما، مثلا، بدلا من أن يشاهد التليفزيون تفضيل مجتمعنا للتجربة اللفظية على الخبرة البصرية؟

إن أيا من الوالدين يشاهد خلال تنشئة الطفل ومنذ مولده تعاقبا أخاذا من السلبية التامة إلى قابلية التأثر إلى الفاعلية والممارسة الناجحة. إذ لا يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر سلبية بالمرة من الرضيع حديث الولادة. فالأطفال الرضع يبدأون حياتهم، وهم كتلة من الأعصاب غير النامية والغرائز القوية، بتشرب هادئ، غير مركز. وتحمي آليات بيولوجية معينة الأطفال الرضع من تلقي ما يزيد على حاجتهم: فغلبة النوم على اليقظة تحميهم من الحمل الحسي الزائد في الأيام الأولى. و«اللعاب» أو القيء ينقذهم من زيادة الطعام. لكن الأطفال الرضع لا يستطيعون أن «يتصرفوا» بطريقة مقصودة، فوجودهم الكامل يتصل اتصالا لا ينفصم بالتلقي.

وحين يصل الأطفال إلى سن سنتين أو ثلاث سنوات يكونون قد اجتازوا مسافة هائلة من مرحلة الولادة الحديثة هذه. لقد تطور تحكمهم العضلي: فهم يستطيعون تركيز أعينهم، وأداء حركات يدوية معقدة، ويمكنهم المشي، والتواصل بمهارة عن طريق الكلمات، وممارسة تأثير هائل على آبائهم، بعد أن كانوا تحت رحمتهم ذات يوم بصورة كاملة. وهم ممتلئون عزما، يكافحون بلا إبطاء من أجل إشباع حاجاتهم ورغباتهم، متلهفون على التعلم، والاكتشاف، والفهم. إنهم يكادون، من وجوه كثيرة، أن يكونوا نقيض المخلوقات التي لا هدف لها، العاجزة التي كانوا عليها عند الولادة.

إن التجربة التليفزيونية في حياة الطفل الصغير عودة واضحة إلى طريقة العمل السلبية. فهي لا تشبه قط أي شكل من أشكال اللعب. ومادام القلق الوالدي غالبا ما يكون مؤشرا دقيقا على افتقاد شيء ما في حياة الطفل، فإن القلق المنتشر بين الآباء بشأن سلبية تجربة أطفالهم التليفزيونية قد يحمل قيمة بقاء للطفل.

زُملة الرجعة(*)

يلاحظ الآباء، مرة بعد أخرى، أن سلوك أطفالهم يظهر تدهورا بمجرد الانتهاء من مشاهدة التليفزيون. وفي العادة، لا يعير الآباء اهتماما كبيرا

(*) The Reentry Syndrome

لذلك لأن مثل هذا السلوك يكون قصير الأمد، في كثير من الأحيان. غير أن معظم الآباء يؤكدون أن قدرا من حدة الطبع أو إساءة السلوك كثيرا ما يحدث في تلك الأوقات:

«إننا نلاحظ أنهم دائما ينصرفون بعد ساعة أو ساعتين من المشاهدة في حالة مريعة: فهم سيئو الطباع، مماحكون، متعبون، على استعداد للانفجار. وهم يبتعدون عن الجهاز ويحاولون تخفيف نوع من الاستياء الداخلي لديهم بطريقة ما ـ بشرب الماء الكثير أو الأكل، أو القفز في كل اتجاه دونما هدف».

«التليفزيون لا يصلح طباعهم. فهم عقب المشاهدة مباشرة متذمرون ونزقون».

«إنهم بعد المشاهدة غاضبون ومخدرون».

«في اللحظة التي يغلق فيها الجهاز، يتصاعد بسرعة عجزهم عن السيطرة على أنفسهم. فهم يئنون. ويثيرون الضجيج حول أمور تافهة. إنهم ينكصون تماما، وحينئذ أرسلهم إلى حجرتهم إلى أن يهدأوا. ويمر بعض الوقت قبل أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية».

«حين أمضى أنتوني صباح أحد الأيام في مشاهدة التليفزيون لم يكن من الممكن العيش معه. لقد كان عصبيا، فظا، غافلا، ضجرا، لا يدري كيف يتصرف، وكان سيئ الطبع تماما. ثم عاد بالتدريج إلى حالته العادية».

«عقب مشاهدة التليفزيون، يهوي سلوك الأطفال على الفور بصورة عمودية من حالته المعتادة. فهم يركضون على هواهم في كل ناحية، وما إلى ذلك».

«النقطة الأساسية فيما يتعلق بالتليفزيون هي أن قدرا كبيرا من الطاقة يصدر عن الجهاز تجاهك، بينما أنت جالس هناك في حالة سلبية، وهذه الطاقة تدخل إليك. وحين تغلق الجهاز، يتعين على تلك الطاقة أن تخرج ثانية. والذي ألاحظه في أطفالي أنها تخرج بطريقة غبية جدا ـ غير واعية، طاقة تشنجية، نوبة غضب قصيرة، ينفجرون في أثنائها بين دفع ودسر، بسبب عدم الرضا».

إن حدة الطبع التي تعقب المشاهدة إشارة مهمة للآباء. فسلوك الطفل الصغير، برغم كل شيء، هو أثمن مصدر للمعلومات لديهم عن حالة الطفل

الذهنية والانفعالية والبدنية. إن فهم الأنماط السلوكية للأطفال، والكيفية التي يعكس بها سلوكهم توازنهم الداخلي، ضروري لنجاح تنشئة الطفل. فمن النادر أن يتكلم الأطفال ممن هم في سن ثلاث أو أربع سنوات عن مشاعرهم. ومن المستبعد أن يقول أحدهم لأمه، «أنا سعيد»، أو «أنا متعب»، أو «أنا مريض»، أو «أنا غير آمن». لكن الآباء، من خلال ملاحظة سلوك أطفالهم العادي، وما إذا كانوا لاعبين في مرح، ممتلئين بالنشاط وحب الاستطلاع، أم يبدون منسحبين بصورة غريبة أو جامحين على نحو غير مألوف، يستطيعون أن يفهموا حاجات أطفالهم ويكونوا أكثر استعدادا لتلبيتها.

حين يأخذ السلوك منعطفا غامضا، وحين تسوء طباع الطفل لسبب يتعذر إدراكه أو يتصرف بطريقة شاذة أو غير متوقعة إزاء التجارب السارة أو البغيضة على السواء - وباختصار، حين لا يتبع سلوك الطفل القواعد المعتادة والبسيطة للعلة والمعلول كما يفهمها أي من الوالدين - يكون للقلق ما يبرره. إن النمط السلوكي غير الملائم للطفل يثبت باستمرار أنه ذو قيمة «بقائية» حين يمكن فهمه في النهاية. فمثلا، الطفل الذي يعود إلى المنزل كل يوم من الحضانة في حالة نفسية سيئة، محدثا ضجة ومسترعيا الاهتمام، قد يثير والديه أو والديها لاستجلاء ما يحدث في المدرسة. وفي أحيان كثيرة تتكشف مشاكل جدية بهذه الطريقة، حتى إن لم يكن قد اشتكى من المدرسة أو المدرس، بل ربما زعم أن كل شيء رائع هناك.

والأكثر أهمية فيما يتعلق براحة الطفل وسعادته هو إدراك أحد الوالدين الغريزي اليقظ أن حدة الطبع غير المفهومة قد تكون علامة على مرض وشيك. فالأم الواعية أو الأب الذكي يمكنه، وبفضل نمط سلوكي مميز، أن يلتقط مقياس الحرارة ويكتشف أن الطفل محموم ومريض، حتى قبل أن ينطق الطفل بوقت طويل معبرا عن شعوره بأي عرض مرضي أو تعب بدني. إن سوء طباع الطفل في حالة كهذه إشارة من الجسم إلى أن ثمة علة ما، ومثل جميع الإشارات، فإن وظيفتها هي المساعدة في إعادة حالة الاتزان البدني المنشود إليه. وتدفع هذه الإشارة الأب أو الأم إلى عمل ما ينبغي عمله لاستعادة التوازن الذي افتقده الجسم، لسبب من الأسباب.

وتؤدي حالة أخرى في حياة الطفل إلى سلوك لا يخدم، كما يبدو، أي

غرض عقلاني، إلا أنه يثبت قيمته البقائية، وتلك هي حالة النوم. فعقب ليلة من النوم الهادئ، الممتع، قد يشعر الأطفال والكبار على السواء بحالة مقبضة من حدة الطبع عند النهوض في الصباح. ولا يبدو أن هذه الحالة النفسية كانت نتيجة لجوانب سارة أو غير سارة من النشاط الذي سبقها. والأصح، أن حدة الطبع التي تلي النوم تمثل نوعا من زملة الرجعة reentry syndrome لأن الذهن يتحرك من إحدى حالات الوعي إلى أخرى. ويظهر أن الجسم يحتاج إلى فترة ما من التوافق عند الانتقال من حالة النوم إلى حالة اليقظة. وهي فترة أطول عند بعض الأشخاص منها عند آخرين. وتتيح حدة الطبع التي تعقب النوم فترة حماية قصيرة ضد المخاطر الكامنة في الممارسات الإنسانية المعتادة. «دعني وحدي»، بمثل هذه الحدة في الطبع يلتمس الشخص الذي لايزال نائما تركه وحده. لست مستعدا للتعامل معك كما تعودت. إنني شخص مختلف في هذه اللحظة، وقد أتصرف بطريقة غير ملائمة. انتظر حتى أستيقظ تماما، وعندئذ سأتصرف على نحو موثوق منه.

ومن المؤكد أن الأطفال يعمدون إلى إساءة السلوك لتحقيق بعض الغايات المرغوبة أحيانا، ونيل مبتغاهم، وإرغام آبائهم على الخضوع لإرادتهم. ومع ذلك، ففي حالة حدة الطبع التي تعقب المشاهدة التليفزيونية، من المحتمل أن يؤدي سلوك الطفل إلى نتيجة غير مرغوب فيها: سيتخلص الأب من التجربة المرغوبة (مشاهدة التليفزيون) حتى يتخلص من السلوك التالي غير المرغوب فيه. ولذلك، فمن المنطقي أن نفترض أنه على عكس أنين الطفل ومماحكته للحصول على لعبة أو قطعة من الحلوى، فإن السلوك السيئ الذي يلي المشاهدة التليفزيونية ليس مقصودا أو ضمن سيطرة الطفل الفعلية. إنه سلوك يثار لغرض داخلي ما لا يعيه الطفل.

هل حدة الطبع التي تعقب التليفزيون إشارة للآباء بأن الطفل مرهق ويحتاج إلى الراحة؟ لماذا يبدو، والحال كذلك، أن الآباء يعتبرون المشاهدة التليفزيونية نشاطا حافزا للراحة والاسترخاء، ويشجعون أطفالهم المرهقين في أحيان كثيرة على الجلوس أمام التليفزيون؟ أي شكل من أشكال الراحة يمكن للآباء تقديمه، بعد عدد من ساعات المشاهدة التليفزيونية؟ إذا كان ثمة شيء يمكن تقديمه، فإن الطفل يبدو في حاجة إلى نشاط بدني وعقلي.

إن من المرجح كثيرا أن حدة الطبع التي تلي المشاهدة تخدم هدفا مماثلا للسلوك غير المفسر الذي يظهر في بداية المرض، أو عند انتهاء النوم. وربما يتعين بحثها في ضوء كلتا الحالتين. فقد تكون أحد الأعراض التي ينبغي أن يلتفت إليها الأب، أو علامة على أن هناك شيئا ضارا بالطفل يتعلق بتجربة المشاهدة التليفزيونية وقد تكون له نتائج عكسية متصلة بنمو الطفل. كما يحتمل أن تكون إشارة انتقال من إحدى حالات الشعور إلى أخرى (حدة الطبع بعد النوم).

وتثير حدة الطبع التي تعقب المشاهدة التليفزيونية وتمثل زملة الرجعة سؤالا مقلقا على الخصوص. ما هي، إذن، الحالة الشعورية للطفل أثناء مشاهدة التليفزيون؟ من الواضح أنها ليست النوم. فهل هي شيء آخر غير اليقظة؟ إننا جميعا نعرف جيدا حالات الشعور الناجمة عن تأثير المخدرات. فهل يقوم الطفل الذي يشاهد التليفزيون برحلة من نوع ما، وبالتالي، يتطلب الأمر فترة انتقالية سيئة السلوك قبل العودة إلى دخول عالم الواقع؟

إنه خيار هوبسون(*) للآباء المهمومين، فأي من هذه النظريات البديلة سيقبلون: المشاهدة التليفزيونية المرض، أم المشاهدة التليفزيونية الرحلة، أم، ثالثة الأثافي، المشاهدة التليفزيونية الرحلة المرضية. والغريب أن أيا من هذه لا علاقة له بما يشاهده الأطفال على شاشة التليفزيون، وهو الهم المعتاد للآباء والمربين. إن واقع أنهم يشاهدون هو الذي يحمل مغزى. إذ من المؤكد أنه إذا كان في الإمكان أن تصبح المشاهدة التلفزيونية «رحلة»، فهي إذن مثل تجربة المخدر، يمكن أن تصبح إدمانا أيضا.

(*) خيار هوبسون Hobson's choice: هو خيار إما هذا وإلا فلا. حمل اسم توماس هوبسون (1544 ـ 1631م) وهو نقابي إنجليزي عمل في ميدان تأجير الخيول والعربات، ولم يكن يتيح لزبائنه أي خيار سوى أخذ أقرب حصان قرب باب الإصطبل ـ المترجم.

3 إدمان التليفزيون

كعك أم هيروين؟

كثيرا ما تستخدم كلمة «إدمان» بصورة فضفاضة وملتوية أثناء الحديث. ويصف بعض الأشخاص أنفسهم بأنهم «مدمنو روايات بوليسية» أو «مدمنو أكل الكعك». وقد كتب إ.ب.هوايت E. B. White، ضمن اهتمامه الموسمي العارم بالبستنة يقول: «إننا مدمنون ونحاول التحرر من الإدمان». ومع ذلك، فما من أحد في الحقيقة يعتقد أن قراءة الروايات البوليسية أو طلب الحصول على بذور عن طريق الفهرس، تصل في خطورتها إلى حد مقارنتها بالإدمان على الهيروين أو الكحول. فكلمة «إدمان» هنا تستخدم على سبيل المزاح للدلالة على ميل إلى الانغماس بإفراط في أوجه النشاط الممتعة.

ويشير أناس في أحيان كثيرة إلى أنهم «مدمنو تليفزيون». فهل يندرج هؤلاء، أيضا، ضمن فئة أصحاب البال الخالي ممن يأكلون الكعك ويركضون وراء المتع الأخرى لاهثين، أم أن ثمة نوعا من المشاهدة التليفزيونية يدخل في فئة الإدمان المدمر الأشد خطورة؟

حين يتجه تفكيرنا إلى الإدمان على المخدرات أو الكحول، كثيرا ما نركز على الجوانب السلبية،

ونتجاهل المسرات المصاحبة للشراب أو تعاطي المخدرات. لكن جوهر أي إدمان خطير هو السعي وراء المتعة، والبحث عن «علو» لا تستطيع الحياة العادية أن تعطينا إياه. إن ما يثير القلق بحق هو عدم القدرة على القيام بالعمل من دون المادة المسببة للإدمان، واعتماد الجسم على تجربة معينة والعجز المتزايد عن ممارسة العمل بصورة طبيعية من دونها. وهكذا، فمن الناس من سيتناول كأسين أو ثلاثا في نهاية اليوم ليس ابتغاء المتعة من الشراب فقط، بل أيضا لأنه «لا يشعر بأنه في حالة طبيعية» إن لم يفعل ذلك.

إن المدمنين الفعليين لا يسعون فقط إلى تحقيق تجربة سارة مرة واحدة لكي يؤدوا العمل بصورة طبيعية. فهم في حاجة إلى تكرار التجربة مرة بعد أخرى. ففي تلك التجربة الخاصة شيء يجعل الحياة من دونها ناقصة. ثم إن التجارب الأخرى ذات الاحتمالات السارة لم تعد ممكنة، لأن حياتهم، تحت تأثير تجربة الإدمان، مشوهة بطريقة غريبة. فالمدمن يتوق إلى تجربة، ومع ذلك فهو لا يشبع هذا التوق في الواقع أبدا. وقد يحقق الجسم الإشباع الكامل بشكل مؤقت، غير أن توقه إلى التجربة سرعان ما يعاوده ثانية.

وأخيرا، يختلف الإدمان الخطر عن السعي غير المؤذي في طلب المتعة من حيث جوانبه المدمرة بصورة واضحة. فمدمنو الهيروين، مثلا، يعيشون حياة محطمة: إن حاجتهم المتزايدة إلى الهيروين بجرعات أكبر تعوقهم عن العمل، والاحتفاظ بالعلاقات، والتطور في اتجاهات إنسانية. وبالمثل، فإن حياة مدمني الكحول تضيق وتتجرد من صفاتها الإنسانية بسبب اعتمادهم على الكحول.

لنتأمل المشاهدة التليفزيونية في ضوء الشروط التي تحدد معنى أنواع الإدمان الخطيرة.

إن التجربة التليفزيونية، من دون أن تختلف عن المخدرات أو الكحول، تتيح للمشارك محو العالم الحقيقي والدخول في حالة عقلية سارة وسلبية. فصنوف القلق والهموم الواقعية تؤجل فعليا عن طريق الاستغراق في برنامج تليفزيوني مثلما يحدث عبر القيام «برحلة» تحت تأثير المخدرات أو الكحول. وكما يدرك مدمنو الكحول على نحو مبهم إدمانهم، شاعرين أنهم يتحكمون في شرابهم أكثر مما يفعلون حقيقة («أستطيع أن أتوقف عن الشراب في

أي وقت أريد - إنني فقط أود تناول ثلاث كؤوس أو أربع قبل العشاء»). يبالغ الناس، بالمثل، في تقدير مدى تحكمهم في المشاهدة التليفزيونية. وحتى حين يؤخرون نشاطات أخرى من أجل تمضية ساعة بعد ساعة في المشاهدة، فإنهم يشعرون بأن في الإمكان استئناف حياتهم بسهولة بأسلوب مختلف، وأقل سلبية. إلا أنه بطريقة أو بأخرى، ومع وجود جهاز التليفزيون في بيوتهم، لا يسمع صوت إغلاق الجهاز. ففي ظل تيسر المسرات التليفزيونية، تبدو تلك التجارب الأخرى أقل جاذبية، وأكثر صعوبة بطريقة ما.

ويلاحظ أحد الذين يشاهدون التليفزيون بغزارة (موجه لغة إنجليزية): «إنني أشعر بأن التليفزيون لا يقاوم تقريبا. فأنا لا أستطيع تجاهل الجهاز، حين يكون مفتوحا. لا أستطيع إغلاقه. أشعر بأن حيويتي مستنزفة، وأنني واهن بلا إرادة. وحين أتحرك لإغلاق الجهاز، تخور قواي. وهكذا أجلس أمام التليفزيون ساعات وساعات».

وكثيرا ما يشعر الذين يعترفون بإدمانهم للمشاهدة التليفزيونية أنه «يتعين» عليهم القيام بأعمال أخرى. لكن حقيقة أنهم لا يقرأون ولا يزرعون الحديقة ولا يشتغلون بأعمال الحياكة وأشغال الإبرة، ولا يمارسون الألعاب أو يتبادلون أطراف الأحاديث تعني أن تلك النشاطات لم تعد مرغوبة بقدر مماثل لمشاهدة التليفزيون. وإلى حد ما، فإن حياة الذين يشاهدون التليفزيون بكثرة هي حياة غير متوازنة، بسبب «عادتهم» التليفزيونية، كحياة مدمن المخدرات أو الكحول. فهم يعيشون في نمط «مسيطر»، إذا جاز التعبير، غير آبهين بالأنشطة المؤدية إلى النماء أو التطور أو الإحساس بالإنجاز. وذلك هو أحد الأسباب التي تجعل الناس يتحدثون عن مشاهداتهم التليفزيونية بحزن وأسف عميقين، إذ يدركون أنها تجربة لا طائل من ورائها، وأن أي جهد آخر تقريبا أجدر بالاهتمام وفق أي معيار إنساني.

إن التأثير العكسي للمشاهدة التليفزيونية في حياة كثير من الناس هو، في النهاية، الذي يحدد معناها كنوع خطير من أنواع الإدمان. فعادة مشاهدة التليفزيون تشوه معنى الوقت، وتجعل التجارب الأخرى غامضة ووهمية بصورة غريبة بينما تكتسب لنفسها حقيقة أكبر. وهي تضعف العلاقات إذ تقلص فرص الحديث، والتواصل الطبيعية، بل تزيلها أحيانا.

فلماذا إذن، على الرغم من أن التليفزيون لا يحقق الإشباع، يواصل

المشاهد المشاهدة ساعة بعد أخرى، ويوما بعد يوم؟ كتب لورانس كوبي: «إن مقياس الصحة هو المرونة.. ولاسيما حرية التوقف عند الإشباع الكامل»[1]. لكن الذين يشاهدون التليفزيون بغزارة لن يشعروا بالإشباع أبدا من وراء تجاربهم التليفزيونية - فهي لا تمنحهم القوت الحقيقي الذي يتطلبه الإشباع - وهكذا يجدون أنهم لا يمكنهم الإقلاع عن المشاهدة.

ويصف أحد الذين أسرفوا في مشاهدة التليفزيون (صانع أفلام) هذه الزملة:

«أتذكر حين حصلنا على الجهاز للمرة الأولى أنني كنت أواصل المشاهدة ساعات وساعات، كلما استطعت، وأتذكر شعور التعب والقلق الذي كان يعقب ذلك الانغماس المفرط، والإحساس بالوقت الضائع سدى. كان الأمر أشبه بأكل حلوى غزل البنات. لقد وعد التليفزيون بالكثير من العطاء، وطال بي الانتظار، ثم تبخر ذلك ببساطة في الهواء. إنني أتذكر كيف شعرت باستنزاف بالغ بعد وقت طويل من المشاهدة».

وتستعيد إحدى مدرسات الحضانة ذكريات تجربة طفولتها مع التليفزيون:

«أنا أتذكر الانغماس في المشاهدة أيام طفولتي وشعوري بالضجر بعد ساعات. كنت أتطلع إلى المشاهدة وقتما أستطيع، إلا أن ذلك لم يمنحني شعورا حقيقيا بالمتعة. كانت الحال تشبه افتقاد هزة الجماع، أو غياب التنفيس، وذلك محبط للغاية. لم يكن التليفزيون ببساطة يتيح لي الإشباع الموعود، بيد أنني واصلت المشاهدة. لقد سد نوعا من الحاجة، أو كان يتعين عليه ذلك وعجز عن بلوغ ما بدأه».

إن شهادات مدمني التليفزيون السابقين تحمل في أحيان كثيرة، أصداء متحمسة للقصص التي سمعت في اجتماعات «مدمنون مجهولون للكحوليات» Alcoholics Anonymous meetings.

يقول صاحب محل لإصلاح حقائب اليد:

كنت أستقل مترو الأنفاق من عملي عائدا إلى البيت ومعي الصحيفة التي أنكب في الحال على صفحة التليفزيون فيها لوضع برنامج مشاهدتي المسائية. وعند وصولي إلى البيت، أغتسل، وأبدل ملابسي وأطلب إلى زوجتي تشغيل الجهاز حتى يسخن. (كان لدينا جهاز عتيق يحتاج إلى ثوان

قليلة قبل أن تظهر الصورة). وكنا نشاهد التليفزيون بقية المساء، ونتناول عشاءنا في حجرة الجلوس أثناء المشاهدة، ومن دون أن نتحدث إلا النزر اليسير، خلال الإعلانات، إذا تحدثنا بالمرة. وكنت أشاهد أي شيء، سواء أكان جيدا أم رديئا، أم بين بين. وكان يساورني في كل لحظة من لحظات المشاهدة شعور بالغضب الشديد من نفسي بسبب إضاعة كل ذلك الوقت في مشاهدة مواد تافهة. لم أكن أستطيع الذهاب للنوم حتى نشرة أخبار الساعة الحادية عشرة على الأقل، وأمكث أحيانا لأشاهد برنامج أحاديث آخر الليل. كنت أشعر بأن من الضروري مشاهدة البرامج الإخبارية، وأن لزاما علي معرفة مجريات الأمور برغم قلة ما كان يحدث في أغلب الأحيان. وكان يمكنني أن أعرف بسهولة ما جرى بمطالعة صحيفة اليوم التالي. وعادة ما كانت زوجتي تنام على الأريكة في أثناء مشاهدتي التليفزيون، وهو شيء كان يغضبني. لكنني، في الواقع، كنت غاضبا من نفسي. كنت أحتفظ بمجموعة أعداد من مجلات صدرت خلال السنوات الثلاث السابقة ووضعت خطة لقراءتها في وقت ما، غير أنني لم ألتفت إلى قراءتها قط، كذلك لم أجد الوقت لفرز أو تصنيف مجموعة الشرائح الشفافة التي أعددتها خلال أسفاري. كان لدي الوقت فقط للتليفزيون. كنا نعطل عمل الهاتف أثناء المشاهدة منعا للمقاطعة! وعلى الرغم من أننا نحب الموسيقى الكلاسيكية، فإننا لم نستمع قط إلى أي موسيقى، قط!

«ثم تعطل الجهاز ذات يوم. وقلت لزوجتي، دعينا لا نصلحه. دعينا فقط نر ماذا سيحدث. حسنا، كان ذلك أروع ما فعلنا. ومنذ ذلك الوقت لم نعد نمتلك جهاز تليفزيون في المنزل.

إنني أنظر الآن إلى ما مضى ولا أكاد أصدق أننا عشنا كذلك. وأشعر بأن عقلي كان محنطا تماما طوال تلك السنوات. كنت ملتصقا بالغراء إلى ذلك الجهاز دون أن أستطيع الفكاك، بطريقة ما. إن التفكير فيه يخيفني حقا. نعم، أنا أخاف التليفزيون حاليا. ولست أظن أن بوسعي التحكم فيه إذا صار لدينا جهاز في البيت مرة أخرى. وأتصور أن الغلبة ستكون له مهما فعلت.

وقد تناول مؤلفو أحد الكتب التي صدرت عن طبيعة الإدمان سمة أخرى من سماته: «تقترن الرغبة الملحة في الحصول على شيء ما بفقدان

التمييز تجاه الشيء الذي يشبع تلك الرغبة... فمدمن الكحول لا يهتم بمذاق المشروب المسكر المتاح؛ وكذلك الشخص الذي يجبر على الأكل لا يميل للدقة الزائدة بخصوص ما يأكله بينما يكون الطعام هنا وهناك»[2].

وهكذا، تكتسب عملية المشاهدة التليفزيونية، بالنسبة لكثير من المشاهدين، أهمية تتجاوز المضامين الفعلية للبرامج التي يشاهدونها. ويكمن إدراك أن فعل المشاهدة أهم من المادة المعروضة وراء ممارسة «سد الطريق» التي ابتكرها أصحاب الإعلانات التليفزيونية، وتبناها المرشحون السياسيون الذين يشترون نصف الساعة ذاته على جميع القنوات لفرض رسالتهم على جمهور المشاهدين. وهو ما عبر عنه أحد المرشحين البارزين بقوله «سيشاهد الناس التليفزيون دونما اعتبار لما يقدم، وإذا لم تتح لهم خيارا آخر فسوف يشاهدون برنامجك»[3].

وكثيرا ما يقوم المدمنون أنفسهم بالمقارنة بين إدمان التليفزيون وإدمان المخدرات. يقول أحد المحامين:

«إنني أشاهد التليفزيون بالطريقة نفسها التي يشرب بها مدمن الكحول. فإذا عدت إلى المنزل وجلست أمام التليفزيون، فسأشاهد أي برنامج مهما كان، حتى إن لم تكن المادة المعروضة تروق لي بخاصة. والشيء الذي أعرفه بعد ذلك أن الساعة بلغت الحادية عشرة وأنني أشاهد برنامج جوني كارسون، وسأتبين أنني أمضيت المساء كله وأنا أشاهد التليفزيون. وفضلا عن ذلك، فإنني لا أطيق جوني كارسون لكنني سأظل جالسا هناك أشاهده. أنا مدمن للتليفزيون، حين يكون هناك، ولست سعيدا بهذا الإدمان. سوف أجلس هناك وغضبي من نفسي يزداد بسبب المشاهدة، لكنني سأظل جالسا. ولست أستطيع إغلاق الجهاز».

كذلك لا يجهل مدمن التليفزيون دائما مظاهر الخلل الوظيفي الناجمة عن إدمانه. تقول إحدى ربات البيوت: «أحيانا تأتي إلي إحدى الصديقات في أثناء مشاهدتي التليفزيون، فأقول لها، انتظري لحظة، دعيني فقط أستكمل مشاهدة هذا، ثم أشعر بالندم لأنني أعطيت الجهاز أسبقية على الناس. وسوف أفعل ذلك من أجل أسخف البرامج، لمجرد أنني مضطرة للمشاهدة، بطريقة أو بأخرى».

على الرغم من الجوهر المدمر الذي يكمن في إدمان التليفزيون، فمن

النادر أن يأخذ المجتمع الأمريكي هذه المسألة بجدية. فالنقاد يشيرون ساخرين إلى التليفزيون على أنه «عقار ثقافي مسكن» ويمزحون بشأن «حقن التليفزيون بالمخدر». لقد أقيم في سان فرانسيسكو عام 1975 عرض مسرحي تحت اسم «حرق الميديا» اشتمل على تجميع 44 جهازا قديما من أجهزة التليفزيون، وضعت فوق بعضها البعض في أحد مواقف السيارات وتم رش الكيروسين عليها وإشعال النار فيها. وكان ذلك العرض تعبيرا رائعا، حقا، عن الشعور الهزلي الذي يحيط بمسألة إدمان التليفزيون. وطبقا للنشرات التي وزعت قبل العرض، كان من المفترض أن يجتاز كل شخص «انفجارا تطهيريا» و«يتحرر أخيرا من إدمان التليفزيون»[4].

وتكتسب مسألة إدمان التليفزيون طابعا أكثر خطورة حين يكون المدمنون أطفالنا نحن. تروي إحدى الأمهات:

طفلي ذو السنوات العشر مدمن للتليفزيون، مثلما يدمن شارب الكحول الشراب. وهو يحاول التوصل إلى حلول وسط بأي ثمن فيقول لي: «إذا تركتني أشاهد التليفزيون عشر دقائق أخرى فقط، فلن أشاهده إطلاقا غدا. إن الموضوع محزن ويشعرني بالخوف.

وتتحدث أم أخرى عن ابنها ذي السنوات الست:

كنا خلال الصيف الماضي في إسرائيل حيث تغلق محطات التليفزيون ليلا في حوالي العاشرة. حسنا، كان ابني يدير الجهاز ويشاهد المحطات العربية العاملة، مع أنه لم يكن يفهم كلمة واحدة، إذ كان لابد أن يشاهد شيئا ما.

وتبرز علامات أخرى على خطورة الإدمان في وصف الآباء لسلوك المشاهدة عند أطفالهم:

قبل أن نحصل على كيبل تليفزيوني، كنا قد اعتدنا على استقبال تليفزيوني رديء جدا. كنت أدخل الحجرة وأرى طفلي، وهو في الثامنة من العمر، يشاهد تلك الصورة الرهيبة، المشوهة وأصيح، «يا للسماء، كيف تستطيع أن تشاهد؟ دعني أحاول إصلاحه»، لكنه كان ينفعل بشدة ويصرخ، «لا تلمسيه!» لقد أقلقني حقا إصراره على المشاهدة بهذه الطريقة الرديئة إلى حد أنه كان مستعدا لمشاهدة صورة مشوشة تماما.

وتصف أم أخرى سلوك ابنها ذي الأعوام الثمانية حين حرم من

التليفزيون:

لقد حدث أن كان جهاز التليفزيون خارج البيت لنحو أسبوعين، ووصل «جيري» إلى حد شعرت معه بأنه إذا لم يشاهد شيئا ما، فإنه سيشرع بالفعل في تسلق الجدران. كان متململا وعصبيا، وكثير الحركة بين قطع الأثاث. ولم يكن ببساطة يعرف كيف يتصرف. وبدا أن الحال تزداد سوءا يوما إثر يوم. قلت لزوجي، «إن لديه أعراض انسحاب»، وأعتقد حقيقة أن الأمر كان كذلك. وفي النهاية رجوت إحدى صديقاتي أن تتيح له الذهاب إلى منزلهم لمشاهدة مسلسل الرسوم المتحركة يوم السبت.

ويقدم لنا جون شيفر John Cheever في المقتطف التالي من روايته Bullet Park صورة من أعمق صور الإدمان التليفزيوني تأثيرا في النفس. فالشخصية الرئيسية في هذه الرواية، وهي «إليوت نيلز»، تتكشف من خلال مواجهة مع ابنه «توني» ذي السنوات التسع حول مشاهدة الطفل للتليفزيون. وعلى الرغم من أننا بصدد عمل قصصي، فإن أبعاد انغماس الطفل في التجربة التليفزيونية ويأس الأب، الذي يرجع سببه جزئيا إلى اعتراف ناقص بمعاناته من عجز مماثل، هي أبعاد حقيقية يمكن تمييزها من قبل عدد كبير ممن يتقاسمون المشكلة في طي الكتمان.

اجتاز «نيلز» حجرة الطعام، وعبر الصالة المظلمة إلى حجرة الجلوس حيث كان «توني» يشاهد أحد البرامج. كان التليفزيون هو الضوء الوحيد المتحرك بسرعة، وبدت الحجرة، التي كان صوت المطر يسمع خارجها، ككهف كبير في البحر.

تساءل نيلز: «ألديك أي واجب منزلي؟»

أجاب توني: «القليل منه».

- «حسنا، أظن أن من الأفضل أن تؤديه قبل مشاهدة التليفزيون». قالها نيلز بينما كان على شاشة التليفزيون عدد من شخصيات الرسوم المتحركة التي ترقص رقصة الجيج السريعة.

- «سأشاهد حتى نهاية هذا البرنامج فقط، ثم أقوم بعمل الواجب المنزلي».

- «أظن أن من الأفضل أن تؤدي واجبك المنزلي الآن».

- «لكن ماما قالت إنني أستطيع مشاهدة هذا البرنامج».

- «منذ متى كنت تطلب الإذن بمشاهدة التليفزيون؟».

كان يعرف أن التعامل مع تهكم ابنه سيضاعف فقط سوء التفاهم بينهما، إلا أنه كان متعبا وعنيدا. «أنت لا تطلب إذنا أبدا. أنت تعود إلى البيت حوالي الثالثة والنصف، وتسحب مقعدا لتجلس أمام الجهاز وتشاهد حتى العشاء. وبعد العشاء تجثم أمام هذا الجهاز اللعين وتظل هكذا حتى التاسعة. فإذا لم تؤد واجبك المنزلي، كيف تنتظر أن تحصل على درجات النجاح في المدرسة؟»

قال توني بحذر: «إنني أتعلم الكثير من الأشياء من التليفزيون. أحصل على معلومات عن الجغرافيا والحيوانات والنجوم».

سأل نيلز: «وماذا تتعلم الآن؟»

كانت شخصيات الرسوم المتحركة تلعب لعبة شد الحبل. وقطع طائر ضخم الحبل بمنقاره فسقط جميع الشخصيات على الأرض.

قال توني: «هذا شيء آخر. هذا البرنامج ليس تعليميا. جانب منه تعليمي». صاحت نيللي من المطبخ: «أوه.. دعه وحده، يا إليوت، دعه وحده». كان صوتها رقيقا وواضحا. وخطا نيلز إلى الوراء داخلا إلى المطبخ، وسأل: «لكن ألا تظنين أن قضاء الوقت أمام التليفزيون من الساعة الثالثة والنصف، وبفاصل قصير للعشاء، أكثر مما ينبغي؟»

قالت نيللي: «إنه وقت طويل، لكن ذلك مهم جدا له الآن، وأعتقد أنه سيتجاوز ذلك».

قال نيلز: «أعرف أن ذلك مهم جدا. وأنا أدرك ذلك. حين أخذته كي نتسوق لعيد الميلاد لم يكن يهتم بأي شيء سوى العودة إلى الجهاز. لم يكن يعنيه شراء هدايا لك أو لأبناء العم والأقارب. إن كل ما أراده هو العودة إلى التليفزيون. كان بالضبط شبيها بالمدمن. إني أعني أنه كان لديه أعراض انسحاب. كان ذلك يشبهني تماما ساعة الكوكتيل لكنني في الرابعة والثلاثين من العمر وأحاول الحد من شرابي وسجائري».

قالت نيللي: «إنه لم يكبر إلى درجة البدء في تقنين الأمور».

- «إنه لن يذهب إلى الشاطئ ، ولن يلعب الكرة، ولن يؤدي واجبه المنزلي، بل لن يقوم بنزهة لأن برنامجا ما قد يفوته».

- «أعتقد أنه سيتجاوز ذلك».

- «لكنك لا تتجاوزين نوعا من الإدمان. لابد أن تقومي بجهد ما أو

تجعلي أحدهم يقوم بجهد من أجلك. وليس من الممكن التخلص من أنواع الإدمان بمجرد مرور الزمن».

وعاد نيلز عبر الصالة المظلمة، بأضوائها المتحركة السريعة التحتية وصوت المطر الذي يتساقط في الخارج. وعلى شاشة التليفزيون كان هناك رجل ذو لثغة، يرتدي سترة مهرج، ويحث أصدقاءه على جعل أمهاتهم يشترين لهم مركبة بخارية تحمل دمية وتعمل بالبطارية. وأشعل نيلز الضوء وشاهد ابنه مستغرقا في مشاهدة المهرج ذي اللثغة.

قال نيلز: «كنت أتحدث الآن مع أمك، وقررنا أن نفعل شيئا بشأن وقتك التليفزيوني». (وحل محل المهرج فيل ونمر يرقصان الفالس). «أعتقد أن ساعة في اليوم تكفي وأترك لك أن تقرر أي ساعة تشاء».

كان توني قد واجه التهديد من قبل لكن إما أن تدخل أمه أو نسيان نيلز قد أنقذه. وحين فكر الولد في الساعات التي تعقب المدرسة وكم ستكون فارغة وشاقة وبلا معنى فقد شرع في البكاء.

قال نيلز: «البكاء الآن لن يجدي». كانت عدة حيوانات أخرى قد انضمت إلى الفيل والنمر في رقصة الفالس.

قال توني: «دعك من ذلك، ليس هذا شأنك».

قال نيلز: «أنت ابني. ومن شأني أن أراك تفعل على الأقل الشيء الذي ينتظرمنك. لقد أخذت دروسا في الصيف الماضي لنقلك إلى الصف الأعلى وإذا لم تتحسن درجاتك فلن يتم نقلك هذه السنة. ألا ترى أن مما يعنيني أن أراك تنقل؟ إذا فعلت ما تشاء فإنك حتى لن تذهب إلى المدرسة.

ستستيقظ في الصباح، وتفتح الجهاز وتواصل المشاهدة حتى موعد النوم».

قال توني: «أوه من فضلك، دعك من ذلك، من فضلك دعني وحدي»، ثم أغلق التليفزيون، ودخل إلى الصالة وبدأ في تسلق الدرج.

صاح نيلز: «عد إلى هنا يا ولد. عد إلى هنا حالا وإلا فسآتي إليك وأعاقبك».

«أوه من فضلك لا تزأر في وجهه». قالت نيللي ذلك في توسل وهي تخرج من المطبخ. «إنني أعد شرائح ضأن لذيذة شهية الرائحة وكنت أشعر بأنني في حالة طيبة وسعيدة لأنكما ستحضران إلى البيت والآن بدأ كل

شيء ينقلب رأسا على عقب».

قال نيلز: «أنا أيضا كنت أشعر بأنني في حالة طيبة. لكن لدينا مشكلة هنا ولا نستطيع أن نتخلص منها لمجرد أن شرائح الضأن لذيذة شهية».

ومضى إلى أسفل الدرج وصاح: «انزل يا ولد إلى هنا، انزل إلى هنا توا وإلا فلن يكون لديك تليفزيون طوال شهر. أتسمعني؟ انزل إلى هنا فورا وإلا فلن يكون لديك تليفزيون طوال شهر».

هبط الولد الدرج ببطء. قال نيلز: «تعال الآن إلى هنا واجلس، وسنتحدث في الموضوع. لقد قلت إنك يمكنك الحصول على ساعة يوميا، وكل ما يجب عليك هو أن تقول لي أي ساعة تريد».

قال توني: «لست أعرف. أنا أحب برنامج الساعة الرابعة وبرنامج الساعة السادسة وبرنامج الساعة السابعة...»

«أتعني أنك لا تستطيع أن تقيد نفسك إلى ساعة واحدة. هل الأمر كذلك؟»

قال توني: «لا أعرف».

قالت نيللي: «أظن أن من الأفضل أن تعد لي كأسا، ويسكي وصودا».

أعد نيلز كأسا وعاد إلى توني. قال نيلز: «طيب إذا لم تستطع أن تقرر، فسأقرر أنا لك. أولا سأتأكد أنك تؤدي واجبك المنزلي قبل أن تفتح الجهاز».

قال توني: «أنا لا أصل إلى البيت قبل الساعة الثالثة والنصف، وأحيانا تتأخر الحافلة وإذا قمت بعمل الواجب المنزلي فسيفوتني برنامج الساعة الرابعة».

قال نيلز: «يا له من أمر سيئ جدا، يا له من أمر سيئ جدا».

قالت نيللي: «أوه دعه وحده. من فضلك دعه وحده. لقد ناله ما يكفي الليلة».

«إنها ليست الليلة التي نتكلم عنها، إنها كل ليلة من ليالي السنة بما في ذلك ليالي السبوت والآحاد والعطلات. ومادام أحد هنا لا يبدو راغبا في الوصول إلى أي نوع من الاتفاق فسوف أتخذ قرارا بنفسي. سألقي بذلك الشيء اللعين من الباب الخلفي».

صاح توني: «أوه... لا ... يا أبي. أرجوك لا تفعل ذلك... أرجوك، أرجوك. سأحاول أن أتصرف بصورة أفضل».

قال نيلز: «لقد حاولت منذ شهور من دون أي نجاح. أنت تواصل القول إنك ستحاول أن تقلل المشاهدة. وكل ما تفعله أن تزيد منها أكثر فأكثر. ربما كانت نواياك طيبة، لكن لا توجد نتائج ملموسة. إلى حيث ألقت فليذهب الجهاز».

صاحت نيللي: «أوه أرجوك يا إليوت لا تفعل ذلك. أرجوك لا تفعل. إنه يحب تليفزيونه. ألا تستطيع أن ترى أنه يحبه؟»

قال نيلز: «أعرف أنه يحبه. وهذا هو السبب الذي يجعلني ألقي به خارج الباب. أنا أحب مشروب الجن وأحب سجائري. لكن هذه هي السيجارة الرابعة عشرة لي اليوم وهذه هي الكأس الرابعة. إذا جلست للشراب في الساعة الثالثة والنصف وشربت بانتظام حتى التاسعة مساء فإنني أتوقع من أحدهم أن يقدم لي بعض المساعدة». وفصل نيلز جهاز التليفزيون بعنف من القابس، ورفع الصندوق بين ذراعيه. كان الجهاز ثقيلا بالنسبة لمقدرته، وغير ملائم في حجمه، ومن أجل أن يحمله كان لزاما عليه أن يحني ظهره قليلا مثل امرأة حبلى. وسار في طريقه نحو باب المطبخ وهو يجرجر من خلفه سلك التليفزيون.

صاح توني: «أوه، أبي، أبي، لا تفعل ذلك، لا تفعل ذلك، لا تفعل ذلك»، وسقط على ركبتيه ويداه مضمومتان في وضع توسلي، تقليدي ربما كان قد تعلمه من مشاهدة بعض المشاهد الميلودرامية على شاشة التليفزيون.

صرخت نيللي: «إليوت، إليوت، لا تفعل، لا تفعل، ستندم يا إليوت، ستندم».

جرى توني إلى أمه التي أخذته بين ذراعيها. وكان كلاهما يبكي.

صاح نيلز: «أنا لا أفعل ذلك لأنني أريده. فأنا برغم كل شيء أحب مشاهدة كرة القدم والبيسبول حين أكون في البيت وأنا دفعت ثمن هذا الجهاز اللعين. أنا لا أفعل ذلك لأنني أريده. أنا أفعل ذلك لأنني مضطر إلى ذلك».

«لا تنظر، لا تنظر»، قالت نيللي ذلك لتوني وهي تضغط رأسه في تنورتها.

كان الباب الخلفي مغلقا، واضطر نيلز كي يفتحه إلى وضع الجهاز على الأرض. وكان صوت المطر يسمع عاليا في الفناء. ورفع نيلز الجهاز مرة

أخرى في مشقة بالغة، وفتح الحاجز برفسة من قدمه وألقى بالتليفزيون إلى الخارج في الظلام. وسقط الجهاز على الرصيف الأسمنتي للشارع محطما في دوي قوي شبيه بالموسيقى الزجاجية الناجمة عن تصادم سيارة.

وصعدت نيللي بتوني الدرج إلى حجرة نومها. حيث ألقت بنفسها إلى الفراش وهي تنشج. وانضم توني إليها. وأغلق نيلز باب المطبخ على صوت المطر وصب لنفسه كأسا أخرى، قائلا: الخامسة[5].

القسم الثاني
التلفزيون والطفل

٤ التفكير اللفظي وغير اللفظي

إعادة زيارة «شارع السمسم»

كانت الأسرة في ما مضى ساحة التدريب الوحيدة لتنمية لغة الأطفال. وكان من المفهوم أنه كلما تكلم الآباء أكثر مع أطفالهم، وقرأوا لهم، واستمعوا لهم، زاد احتمال أن يتعلموا استعمال اللغة بصورة جيدة.

ومادامت الكلمات والعبارات المشابهة لتلك التي يتكلمها الآباء، في أيامنا هذه، تصدر عن جهاز التليفزيون، صار آباء كثيرون يعتقدون أن الأطفال الصغار سيفيدون إفادة كبيرة مماثلة، إذا أولوا اهتمامهم لبرنامج تليفزيوني على غرار ما يحدث حين يقضون ذلك الوقت في التحدث والإصغاء إلى شخص حقيقي في الحياة الواقعية. والواقع أنه مع التقبل العام تقريبا لبرنامج «شارع السمسم» كتجربة تربوية إيجابية لأطفال ما قبل سن المدرسة، شعر كثير من الآباء أن مشاهدة البرامج التليفزيونية «التربوية» ربما تكون عملا عقليا يفوق في جدواه أي عمل آخر قد يوفرونه هم.

ومع ذلك فإن النتائج التربوية لبرنامج «شارع السمسم» جاءت مخيبة للآمال. ذلك أن توقع نجاح البرنامج في ردم الهوة بين أطفال الطبقة الوسطى

الذين حصلوا على فرص لفظية وافرة في البيت، وبين أولئك الأطفال المحرومين من فرص كهذه لم يتحقق، على الرغم من التخطيط للبرنامج بعناية على أيدي أبرز وأفضل الاختصاصيين في شؤون الطفل دراية واطلاعا. فالأطفال الفقراء لم يلحقوا بأقرانهم الأكثر تميزا، بل لم يحققوا مكاسب تذكر من أي نوع، على الرغم من حرصهم على مشاهدة «شارع السمسم» سنة بعد أخرى. ولم تجد المدارس ضرورة لإدخال تعديلات على مناهج الصف الأول بها كي تتلاءم مع صنف جديد من أطفال «شارع السمسم» الأذكياء، ذوي الإعداد الجيد ومستويات النضج اللغوي الرفيعة (الاعتقاد الذي ساد في السنوات الأولى للبرنامج). فعلى الرغم من أن الأطفال يبدون قدرا معينا من التحسن في تمييز الحروف والأعداد نتيجة للبرنامج، فإن مهاراتهم اللغوية لا تدل على تحقيق أي مكاسب مهمة مستمرة في أثناء تقدمهم في المدرسة.

لماذا يواصل الآباء والمربون، في ضوء هذه المكاسب المتواضعة، الاعتقاد بشدة بأن لهذا البرنامج التليفزيوني على وجه الخصوص قيمة عظيمة للأطفال الصغار؟ أغلب الظن أن جانبا كبيرا من الاعتقاد الواسع في فعالية برنامج «شارع السمسم»، التربوية، ينبع من تقييمات دعائية عالية لنتائج البرنامج أجراها قسم الاختبار التربوي the Educational Testing System في عامي 1970 و 1971. فقد أظهرت هذه النتائج أن المشاهدين الصغار لبرنامج «شارع السمسم» حققوا مكاسب عظيمة بفضل تجارب مشاهدتهم[1].

لكن مؤسسة Russel Sage Foundation نشرت في عام 1975، ضمن مشروع أكبر لدراسة طرائق تقييم ومراجعة البحوث، نتائج إعادة تقييم مدققة لتقييم الاختبار التربوي، وذلك في كتاب «إعادة زيارة شارع السمسم» Sesame Street Revisited[2]. واكتشف المؤلفون، وهم يتقصون جاهدين خطى باحثي قسم الاختبار التربوي، بعض التناقضات المهمة التي دفعتهم إلى الارتياب بجدية في النتائج الأصلية، الإيجابية للغاية فيما يتعلق بتأثير «شارع السمسم».

وقد وجد مؤلفو الكتاب أن مجموعة الأطفال التي شاهدت أغلب ساعات «شارع السمسم» في دراسة قسم الاختبار التربوي، والتي أظهرت أكبر

المكاسب المعرفية لم تشاهد هذا العدد الكبير من الساعات بمحض المصادفة. فقد كانت هذه المجموعة مجموعة تجريبية منتقاة خصيصا تم تشجيع أفرادها على المشاهدة بطريقة معينة، ولقوا اهتماما إضافيا على شكل زيارات شخصية، ومواد ترويحية، وما إلى ذلك. وفضلا عن هذا، فقد عرف آباؤهم أنهم يشاركون في برنامج بحثي، وهكذا كانوا أقرب إلى إشراك أنفسهم في مشاهدة أطفالهم. ومن ثم يبدو أن هؤلاء الأطفال ربما أظهروا مكاسب ليس بسبب المادة التي شاهدوها، بل نتيجة لتدخل الكبار الذي تعرضوا له.

ويرى مؤلفو «إعادة زيارة شارع السمسم»، أن المكاسب التي حظيت بدعاية واسعة كدليل على فاعلية البرنامج تعود في الواقع إلى التشجيع الذي رافق التجربة لا إلى التأثيرات الفعلية لمادة البرنامج. بيد أن ثمة نتيجة أخرى تدعم وجهة النظر هذه: فمن بين الأطفال «الذين لم يلقوا تشجيعا» وشاركوا في التقييم الأصلي الذي أجراه قسم الاختبار التربوي، أظهر عدد ممن يشاهدون البرنامج بكثرة مكاسب أقل في المهارات المعرفية من مشاهدين آخرين قليلي المشاهدة!

وتشكل فكرة فشل «شارع السمسم» في تحقيق أهدافه المعلنة من أجل تعزيز النمو المعرفي للأطفال وتضييق هوة التحصيل صدمة لآباء كثيرين. وليس من المدهش أن يلاحظ المؤلفون أن نتائجهم تواجه في أحيان كثيرة بالشك أو الإنكار التام من جانب آباء الأطفال الذين لم يدخلوا المدرسة بعد. ويقدم المؤلفون عددا من التفسيرات لرفض الآباء الاقتناع بأن «شارع السمسم»، على رغم ما يحتويه من تسلية مبهجة لأطفالهم الصغار، لا يوفر لهم خبرة تعليمية ذات قيمة خاصة:

- إن الآباء يتأثرون كثيرا بأي قسط من التعليم يحققه أطفالهم في هذه السن المبكرة، بصورة تجعلهم يخرجون من تعلم أشياء قليلة من البرنامج إلى إطلاق تعميمات عن مكاسب تعليمية أبعد بكثير.

- ربما يكون الأطفال قد تعلموا بعض الأشياء - التي بدا أنهم تعلموها من البرنامج - من الاستكشاف البيئي ليس غير.

- إن المكاسب المتواضعة في تمييز الحروف والأرقام التي تنتج عن مشاهدة «شارع السمسم»، تقود الآباء خطأ إلى افتراض أن الأطفال يحققون

مكاسب في مجالات معرفية عامة أكثر.

- إن الآباء يتأثرون بشهادة أصدقائهم بشأن مكاسب أطفالهم من مشاهدة «شارع السمسم».

وأشار المؤلفون أيضا إلى المحاباة الصحفية التي حظي بها «شارع السمسم» منذ بدايته. وكتب المؤلفون: «إذا كانت مواقف وأفكار الآباء قد تأثرت فعلا بهذه الدعاية، فربما تكون قد أسهمت أيضا باتجاه المبالغة في تقييم تأثيرات البرنامج». ويثير الانتباه أنه بينما لقيت النتائج الإيجابية لدراسة قسم الاختبار التربوي اهتماما جليا في الصحافة الشعبية، فقد تجاهلت هذه الصحافة حتى اليوم دراسة Russel Sage الصادرة عن مؤسسة علمية محترمة مكافئة إن لم تكن أكبر.

وفي حين واصل «شارع السمسم» جذب جمهور هائل من الأطفال ـ يوحي استطلاع حديث للرأي أن ثمانين في المائة من الأطفال الأمريكيين ما بين سن سنتين وخمس سنوات يشاهدون البرنامج ـ فإن قلة من الأصوات استمرت في إثارة التساؤلات بشأن تأثير البرنامج في الأطفال الذين يشاهدونه. وربما تكون الراحلة دوروثي كوهين، الأستاذة في Bank Street School of Education، أول اختصاصية في شؤون الطفل تنتقد علانية بنية البرنامج ذات اللقطات السريعة، والحركة اللاهثة. فقد كتبت في بحث استحوذ على اهتمام واسع من المربين: «في الوقت الذي يدخل معظم الأطفال إلى الرياض وحتى إلى مدارس الحضانة وهم يميزون الحروف نتيجة للتوكيد الذي يوليه «شارع السمسم» لهذا التمييز، فهناك أيضا، إذا كان لنا أن نصدق المعلمين ذوي الخبرة، تناقص في اللعب التخيلي(*) وزيادة في الجري دونما هدف، وعزوف عن مواد اللعب، وضعف في القدرة على تحمل الإحباط، وتدن في المثابرة، وتشوش حيال الواقع والخيال»(3).

وترى دوروثي وجيرومي سنجر، وهما اختصاصيتان في علم النفس وتديران مركز الأسرة للبحوث التليفزيونية والاستشارات بجامعة Yale، أن البرامج سريعة الإيقاع، على شاكلة «شارع السمسم» لا تترك إلا القليل من الوقت للاستجابة والتأمل، وهما عنصران مهمان في الخبرة التعليمية

(*) لعب تخيلي imaginative play: لعب يغذيه خيال الطفل وخاصة بين 3 ـ 4 سنوات من العمر، كأن يركب عصا متخيلا إياها حصانا.... (قاموس التربية).

للطفل، وتؤكدان أن «شارع السمسم» يخلق توجها سيكولوجيا لدى الطفل يفضي إلى تقليل سعة الانتباه(*)، ونقص التلقائية وتوقع تغيير سريع في البيئة الأوسع. وتحذر الاختصاصيتان الآباء ذوي النوايا الطيبة الذين لا يسمحون لأطفالهم إلا بمشاهدة «شارع السمسم» (مع تكرار العرض الذي قد يستغرق ما بين ساعتين وأربع ساعات يوميا)، من أنهم ربما يشجعون ذلك الإثارة الزائدة والسلوك الهائج. وفضلا عن ذلك، فقد عبرتا، في مقابلة صحفية، عن تحفظ مهم آخر بشأن «شارع السمسم»: فالبرنامج ببساطة لا يعد الأطفال للتعلم أو اللعب جيدا بعد إغلاق جهاز التليفزيون»[4].

إلى أي مدى يفهمون؟

في ضوء زيادة الأدلة على أن مشاهدة أطفال ما قبل سن المدرسة للتليفزيون لا تؤدي إلى تحقيق مكاسب تعليمية جوهرية، يبرز السؤال: إلى أي مدى يفهم أطفال السنوات الثلاث والأربع فعليا ما يشاهدونه على شاشة التليفزيون؟ إن عددا من الدراسات الخاصة بفهم الأطفال الفعلي للمادة التليفزيونية يخلص إلى أنه في الوقت الذي يستمتع فيه الأطفال حقا بمشاهدة برامج معينة أعدت خصيصا لمجموعتهم العمرية، وقد يكونون في حالة تنبيه تام أثناء المشاهدة، إلا أن فهمهم لما يحدث على الشاشة ضئيل جدا في الواقع.

وقد تم في إحدى الدراسات قياس مدى فهم أطفال ما قبل سن المدرسة لبرنامج إعلامي تليفزيوني مخصص لمجموعتهم العمرية باستخدام طريقة تقييم مقننة. وكانت النتيجة أن أغلبية الأطفال فهمت أقل من نصف المعلومات موضوع الاختبار. ولما لم يظهر الأطفال الذين وجهت إليهم بعض الأسئلة أثناء البرنامج استيعابا أفضل من أولئك الذين طرحت عليهم جميع الأسئلة عند نهاية البرنامج، فقد استبعد احتمال أن تكون الذاكرة، وليس الفهم، هي العامل الحاسم[5].

وفي دراسة أخرى عرضت حكاية خيالية مدتها عشرون دقيقة من ذلك النوع الذي يشاهد عموما في التليفزيون على أطفال كانت أعمارهم أربع،

(*) سعة الانتباه attention span: المدة التي يستطيع فيها الشخص التركيز على نشاط ما بصفة مستمرة.

وسبع، وعشر سنوات. وعقب مشاهدة الفيلم أظهر اختبار فهم الأطفال للقصة أن عشرين في المائة فقط ممن لديهم أربع سنوات فهموا صلب الحكاية. أما الأطفال الأكبر سنا فقد كان فهمهم أعلى بكثير. واستنتج أصحاب الدراسة أن «أطفال ما قبل سن المدرسة عجزوا عن تذكر ما شاهدوه بدقة ما أو عن تقديم تفسير صحيح لأسباب قيام شخصيات الفيلم بما قامت به[6].

وفي دراسة ثالثة عرض على أطفال في سن الرابعة فيلم تضمن قيام رجل بمجموعة من الأعمال مثل بناء نوع خاص من الأبراج ذات الكتل المنفصلة، ووضع دمية فوق القمة، ثم السير بعيدا. واشتمل الفيلم على عشرين عملا مماثلا. وقد قيل للأطفال قبل المشاهدة إنه سيطلب منهم فيما بعد عمل ما فعله الرجل في الفيلم. لكن الأطفال لم يتعلموا الأنشطة بمشاهدتها في الفيلم. واستطاعوا فقط إعادة تمثيل ستة أعمال من بين الأنشطة العشرين.

ومن ناحية أخرى، فإن مجموعة ثانية من الأطفال ذوي السنوات الأربع شاهدت الأفلام في صحبة أحد المشرفين على التجربة. وقام هذا المشرف بتقديم وصف شفهي لكل عمل بالصورة التي كان يؤدى بها في الفيلم. وقد أظهرت هذه المجموعة فهما أكبر إلى حد بعيد، أو على الأقل كان في مقدورها تذكر المادة الفيلمية. وأظهر هؤلاء الأطفال زيادة نسبتها خمسون في المائة في القدرة على إعادة تمثيل الأنشطة المصورة في الفيلم بصورة صحيحة[7].

وبينما يجد الباحثون أن فهم الأطفال وتذكرهم لما يشاهدونه على التليفزيون يزداد مع زيادة العمر، تبين النتائج الحديثة أن الأطفال حتى سن الثامنة لا يتذكرون الكثير مما يشاهدونه ويسمعونه في التليفزيون، وحتى في برامج مصممة خصيصا للأطفال مثل «شارع السمسم» فإن قدرة أطفال سن ما قبل المدرسة والحضانة على التذكر ضعيفة جدا، على نحو يوحي بأن الفهم ضعيف أيضا[8].

ومما لا ريب فيه أن لدى الآباء دليلا خاصا على قصور الفهم عند أطفالهم الصغار: فهم يرونهم منهمكين في برامج لا يمكنهم فهمها بأي حال.

تروي إحدى الأمهات:

«ابني ذو السنوات الأربع يحب التليفزيون ويهيم، به وسيواصل المشاهدة طوال الساعات الأربع والعشرين إذا سمحنا له بذلك. وعصر أمس شاهد القمة الاقتصادية المصغرة على شاشة التليفزيون، ولابد أن يكون المرء مجنونا لكي يجلس هناك ويشاهدهم، حتى وإن فهمهم!»

ويقول أب لديه طفل في الخامسة:

كنا نستلقي في الفراش، ابني وأنا، في الليلة الماضية، ونشاهد برنامجا عن الإضراب العمالي في كورنول، وكان الطفل مفتونا تماما. وقلت له «هل تود أن أشرح لك هذا؟ فقال، كلا يا أبتي، أنا أشاهد فحسب.

فإذا كانت مشاهدة «شارع السمسم» لا تحقق النوع نفسه من المكاسب المعرفية الذي تتيحه الخبرات اللغوية الواقعية، وإذا كان الأطفال الصغار يقضون آلاف الساعات في مشاهدة برامج لا يفهمون مضمونها، فماذا يحدث، إذن، حين يشاهدون التليفزيون؟ أي نوع من النشاط العقلي ينشغلون به في أثناء المشاهدة التليفزيونية؟ وما هو تأثر اندماجهم في هذا الشكل بذاته من أشكال النشاط العقلي على نموهم الذهني، في حين أنه شكل يختلف كثيرا عن جميع نشاطات اليقظة الأخرى؟

نصفا كرة الدماغ

حين يريد الأطفال معرفة السبب الذي يحول بينهم وبين مشاهدة كل ما يريدون على شاشة التليفزيون، يلجأ الآباء في أحيان كثير إلى إجابات توحي، وفي دعاية زائفة، بأن المشاهدة التليفزيونية الزائدة سيكون لها أثر مؤذ في الدماغ. وكثيرا ما يستخدم الآباء في محاولة التعبير عن شعورهم الغامض بالقلق الذي لا يكاد يجد تعبيرا عنه تجاه التجربة التليفزيونية عبارات مثل «سوف يجعل ذلك من قدرتكم العقلية عصيدة» و«سوف تفسد الدماغ».

إن الآثار المحتملة لغزارة الانغماس في مشاهدة التليفزيون على نمو دماغ الطفل لا تكمن بوضوح في جانب فساد الدماغ أو «عصيدة الدماغ». فمثل هذه النتيجة لابد أن تكون قد باتت جلية الآن، وقد بلغ جيل من الأطفال شب وهو يشاهد التليفزيون سن النضج من دون ظهور علامات

على وجود اتجاه هابط في الذكاء الشامل. ومع ذلك فثمة جوانب في نمو الدماغ قد تتأثر بصورة جوهرية بالتعرض المنتظم للتجربة التليفزيونية، وإن كان لا يمكن قياسها عن طريق اختبار معامل الذكاء IQ test. ويتصل بعض هذه الجوانب بالطرائق الخاصة التي تنظم عمل الدماغ في التعامل مع المادة اللفظية وغير اللفظية. وقد يتيح فهم جوانب معينة في فسيولوجية الدماغ توضيح التأثير العصبي المحتمل للتجربة التليفزيونية.

إن قشرة الدماغ cerebral cortex، وهي ذلك الجزء من الدماغ المسؤول عن أشكال التفكير العليا التي تميز الكائنات البشرية عن الحيوانات الدنيا، ليست وحدة منفصلة. فهي تتكون من نصفي كرة مستقلين تربطهما حزمة معقدة من الأنسجة. غير أنها بخلاف الأعضاء المتماثلة كالكليتين والرئتين، اللتين يكون كل جزء منهما نسخة مطابقة دقيقة من الآخر، فإن لكل نصف من الكرة الدماغية عددا من الوظائف الفريدة والمتخصصة. فكل نصف من كرة الدماغ يتحكم في الحركات الفيزيائية للجانب المقابل من الجسم، نصف الكرة الأيسر، مثلا، يرسل إشارة تسمح لك بأن ترفع يدك اليمنى أو تحرك قدمك اليمنى، بينما يتحكم نصف الكرة الأيمن في جميع حركات الجانب الأيسر من الجسم.

لكن أهم فرق بين نصفي كرة الدماغ الأيسر والأيمن يتعلق بتحكم الدماغ في المادة اللفظية وغير اللفظية. فنصف كرة الدماغ الأيسر، كما نعرف منذ وقت طويل، يدير معظم أنشطة الدماغ اللفظية والمنطقية. ولهذا السبب فإنه كثيرا ما يسمى نصف الكرة «المسيطر». أما الوظائف المحددة لنصف الكرة الأيمن فليست مفهومة بهذا القدر من الوضوح، لكن من المعروف أنها مرتبطة بالأنشطة المكانية، والبصرية، وربما بالأنشطة الوجدانية. وهكذا فإنه حين يتعرض شخص لسكتة دماغية في نصف كرة الدماغ الأيسر فهناك احتمال كبير لأن يفقد هو أو هي كل قدرة لغوية، بينما سيؤدي وقوع أذى بنصف كرة الدماغ الأيمن إلى فقدان القدرة على تمييز الوجوه، مثلا، أو الأشكال، أو بعض القدرات الموسيقية مثل تمييز النغمات. وقد يجد المرضى صعوبة في حل المتاهات(*) البصرية أو اللمسية بعد جراحة في نصف كرة الدماغ الأيمن، في حين يكون الأداء أفضل في اختبارات من هذا

(*) متاهة maze: أداة فيها شبكة من الممرات المعقدة تستخدم في التجارب على التعلم.

القبيل لدى المرضى الذين تجرى لهم عمليات مماثلة في نصف كرة الدماغ الأيسر، إلا أنهم يظهرون تناقصا في القدرات في الاختبارات اللفظية والرياضية mathematical.

ومما لا شك فيه أن الكثير من الثنائيات الواضحة في الطبيعة البشرية والاختلافات الكيفية الموجودة في طرائق العمل العقلي، تكمن جذورها في التنظيم اللا متماثل بصورة خاصة للدماغ. فهناك، على سبيل المثال، نوعان، من «الذكاء»، كما يقاس في اختبارات معامل الذكاء IQ test : لفظي(*) - منطقي ومكاني(**)، وبصورة متفاوتة توهب لكثير من الناس واحدة أو أخرى من هذه القدرات. وقد يكون لمثل هذا التباين أساس عصبي [9].

ويضفي التقسيم الواضح للذاكرة الإنسانية إلى فئتين - لفظية وبصرية - المزيد من الدعم لفكرة وجود طريقتين منفصلتين للتفكير. ويظهر الدليل التجريبي أن العمليات التي تندرج في تذكر ما نشاهده تختلف تماما عن تلك التي نتذكر بها ما نقرأه أو نسمعه ككلمات [10]. وينعكس هذا التباين في حياتنا اليومية في خبرة التعرف العامة على وجه شخص سبق لنا الالتقاء به (ذاكرة بصرية)، أو الفشل في تذكر اسم الشخص أو حتى ظروف اللقاء الأصلي معه (ذاكرة لفظية).

إن ظاهرة الصور الذهنية eidetic images، وهي تلك الصور البصرية غير العادية التي يبدو أن بعض الأطفال يحتفظ بها في خياله عقب النظر إلى شيء ما، الصور التي تستمر لثوان كثيرة، أو ربما لدقائق في شكل كامل إلى حد يمكن معه إعطاء وصف أكثر تفصيلا لها بكثير مما لو كان الطفل يتذكر فحسب، تلك الصور تقدم دليلا إضافيا على وجود انقسام ثنائي لفظي - بصري في دماغ الإنسان. وقد اكتشف الباحثون أن الأطفال الذين وهبوا ذاكرة ذهنية بصرية حين يعبرون لفظيا عن المادة التي يشاهدونها - أي حينما ينعتون أو يطلقون اسما على الصور الذهنية لديهم - فإن الشيء الذي حمل التسمية يختفي في الحال من الصورة[11].

لكن تخصص نصفي كرة الدماغ، مصحوبا بشكلين مستقلين من التنظيم

(*) ذكاء لفظي Verbal intelligence. الاختبار اللفظي للذكاء Verbal intelligence test: اختبار ذكاء يعتمد على اللغة في الفهم أو التعبير أو كليهما (قاموس التربية).

(**) اختبار مكاني spatial test: لقياس إدراك الطفل للعلاقات المكانية.

العقلي، يميز دماغ الكبار فقط. ذلك أن الوضع مختلف جدا فيما يتعلق بدماغ الطفل الصغير.

الفترة الانتقالية

لا يولد الطفل بدماغ يقوم فيه كل من نصفي الكرة بوظيفة متميزة ومتخصصة. فعند الميلاد، لا يمتلك الطفل الرضيع، طبعا، أي قدرات لفظية. ولذلك فإن أيا من نصفي كرة الدماغ لا يمكن تمييزه بأنه النصف «المسيطر» أو اللفظي. ومن الواضح أن شكلا غير لفظي من العمل العقلي يسبق اللفظي في التطور الباكر للأطفال، لأنهم يجب أن يستخدموا شكلا ما من «التفكير» غير اللفظي في حياتهم اليومية قبل وقت طويل من اكتساب اللغة.

من الصعب أن نتخيل ما يدور في عقول الأطفال قبل أن يتعلموا الكلام أو فهم الكلمات. فإدراكنا الحسي للتفكير متصل اتصالا لا ينفصم بفكرة وجود نوع ما من اللغة الداخلية، إلى حد أنه «لا مجال للتفكير» في طبيعة التفكير غير اللفظي تقريبا. ومع هذا فإن هناك دليلا تجريبيا يثبت وجوده. فقد بين الباحثون أن الأطفال الرضع، وهم بعد في سن ثلاثة أشهر، يمكنهم التمييز بين صور وجه إنساني مألوف وبين صورة مغايرة، ولنقل، صورة ذات ثلاث عيون[12]. ولابد أن شيئا قريبا من التفكير يحدث حين يقارن الأطفال الرضع بخبرتهم الداخلية صورة الوجه «الخطأ» بالوجوه الإنسانية المألوفة. ولابد أن «فكرة» ما عن وجه إنساني مألوف ذي عينين توجد في ذهن الطفل، صورة غير مصحوبة بكلمات (إذ لا يزال الطفل يبعد عدة أشهر عن اكتساب اللغة)، بيد أنها تنشط بطريقة ما بفعل الصورة المغايرة. هكذا يتعلم الأطفال. وسوف يواصلون تشرب الخبرة عن طريق شكل غير لفظي من التفكير حتى يجيء وقت اكتساب اللغة.

وبحلول عيد الميلاد الثاني للطفل، تكون اللغة قد صارت قوة مهيمنة في حياته. ويسيطر التصنيف الرمزي لجميع الأشياء والأحداث على الجهود العقلية اعتبارا من هذه المرحلة فصاعدا.

وفي الوقت الذي يبدأ فيه الطفل في اكتساب اللغة، يبدو كل من نصفي الكرة اللذين تضمهما قشرة الدماغ وقد نمت طاقته اللفظية بصورة متساوية.

وقد عرف الباحثون، على سبيل المثال، أن الإصابات التي قد تلحق بنصف الكرة الدماغية الأيسر لدى الأطفال تحت سن سنتين، لن يزيد ضررها على تطورهم اللغوي في المستقبل عن تلك التي تصيب نصف الكرة الدماغية الأيمن، في حين أن الكبار الذين يتعرضون لإصابات مماثلة يعانون من خسائر لغوية دائمة. أما الأطفال الذين يتعرض نصف الكرة الدماغية الأيسر لديهم لإصابة بعد بداية اللغة ولكن قبل السنة الرابعة من العمر فقد يعانون صعوبات لغوية مؤقتة، غير أنه يتم استعادة اللغة في غالبية الحالات تقريبا. وتحمل الإصابات التي يتعرض لها الدماغ قبل مرحلة الرشد المبكر أيضا بشرى طيبة باستعادة القدرة اللغوية.

لكن أفق المستقبل يلوح قاتما حين يحدث الأذى بعد هذه الفترة الحرجة. فأيا كانت العاهة التي تعرض لها المصاب فإنها تظل عموما عاهة مستديمة يتعذر تعويضها. ولما كان الدليل العصبي يظهر أن الدماغ يصل إلى الحالة النهائية لنضجه من حيث البنية والكيمياء الحيوية حين يكون العمر في حدود اثنتي عشرة سنة، يتضح أن هناك وظائف معينة مثل تخصص الدماغ تنحصر في مكانها في ذلك الوقت.

ومن المعقول أن نفترض أنه بمجرد نمو اللغة يبدأ الدماغ في التخصص، ويشرع التفكير اللفظي في أداء دور متزايد الأهمية في تطور الأطفال المعرفي. ومع القدرة على التكلم والفهم، تصبح مشاركة الأطفال أكثر نشاطا في التفكير وتطور المعاني العامة، ويكف التفكير غير اللفظي عن القيام بوظيفته الأصلية كمصدر أساسي للتعلم، وهنا تبدأ رحلة التطور العقلي التي تعين بصورة فريدة هوية كل طفل ككائن بشري. فالحيوانات، برغم كل شيء، تعتمد بلا استثناء على أشكال التفكير غير اللفظي.

لكن الشكل الأول للعمل العقلي للجسم، أي طريقة التفكير غير اللفظي التي تعمل حين يتصرف الطفل بانتباه بارز حيال وجه ذي ثلاث عيون، لا يتلاشى ببساطة حين يبدأ التفكير اللفظي. فمما لا ريب فيه أن شكلي التفكير يستمران في العمل جنبا إلى جنب طوال الحياة، ولكن كلا منهما تحت رعاية نصف كرة مختلف من الدماغ. ويستخدم التفكير اللفظي حين تكون الكلمات، والرموز، والمنطق، أو التنظيم البؤري مطلوبة. ويمكن رؤية العمل غير اللفظي حين ينتقل الذهن إلى حالة مختلفة كيفا، كتلك اللحظات

التي يبدو فيها المرء وقد غمرته أحاسيس غير مصحوبة بالممارسات العقلية العادية أو الاستنتاجات المنطقية. فالتحديق في مدفأة مشتعلة مثال على شكل العمل غير اللفظي: يدرك العقل ارتجافات اللهب المتغيرة ـ مستقبلات الدماغ الحسية تتلقى بوضوح المثيرات البصرية ـ ومع ذلك لا تحدث أي ممارسات لفظية. ذلك أن أداء العمل يجري بواسطة طريقة تشغيل لا تتطلب سوى التلقي والقبول.

تغييرات الدماغ

لو أن الأطفال شاركوا في نشاط متكرر لتزجية الوقت، نشاط غير لفظي وبصري في المقام الأول، خلال سنوات التكوين حين يكون الدماغ في مرحلة انتقالية من حالته الأصلية، غير المتخصصة إلى أخرى يضطلع فيها كل من نصفي الكرة الدماغية بوظيفة محددة، ولو أنهم، في الواقع، يتلقون إثارة زائدة لأشكال العمل العقلي في نصف الكرة الدماغية الأيمن، فهل يمكن ألا يكون لذلك تأثير ظاهر في نموهم العصبي؟

إن هذا السؤال يقتضي التفكير لأن ثمة أسبابا للاعتقاد بأن المشاهدة التليفزيونية هي في الأساس تجربة غير لفظية، بصرية من هذا النوع في حياة الأطفال الصغار. فالحالة الشبيهة بالغشية التي تميز سلوك المشاهدة عند كثير من الأطفال توحي بأن المعرفة النشطة تحل محلها مؤقتا حالة ذهنية أقرب إلى التأمل أو غيره من الحالات الوسيطة الأخرى لنصف الكرة الدماغية الأيمن. وفضلا عن ذلك، فإن استخدام التليفزيون كوسيلة تهدئة وكعلاج مخفف للاستثارة الزائدة عند الأطفال وكمسكن للأطفال المزعجين، يؤكد الجوهر غير اللفظي للتجربة التليفزيونية.

وهناك دليل إضافي على التأثير غير اللفظي لتجارب الأطفال التليفزيونية نراه في فشل التليفزيون في العمل كبديل كاف عن الفرص اللغوية الواقعية. يذكر مدير مركز هارلم للأطفال المحرومين من الرعاية في سن ما قبل المدرسة أن الأطفال يصلون إلى مدرسته واحدا بعد آخر وهم بكم عمليا، عاجزون عن التفوه بجملة واحدة مفهومة، على الرغم من أن الفحوص الطبية لا تظهر وجود أي قصور مرضي، سواء كان جسديا أم عقليا. ويلاحظ أنه «عادة ما يتم تشخيص الحالة على أنها عيب في النطق،

لكنني في أغلب الأحيان وجدت أن ذلك ببساطة نتيجة الاستماع إلى لغة إنجليزية سقيمة، وعدم سماع أي شيء سوى التليفزيون، وبالكاد عدم التحدث إليهم على الإطلاق...»[13].

لو أن تلك الآلاف والآلاف من الساعات التي يقضيها الأطفال الصغار في مشاهدة التليفزيون كانت مصدرا للتنبه اللفظي وساعدت في تنمية المراكز اللفظية للدماغ، ولو أن جميع تلك الكلمات والعبارات الجميلة الناضجة التي تصدر من جهاز التليفزيون عملت بصورة فعالة كما يعمل الحديث الواقعي والإصغاء، لكان من المؤكد عندئذ أن ينشأ جيل قادر على التعبير عن نفسه بلباقة ووضوح. بيد أنه يبدو أن ذلك لم يحدث. والواقع أن دراسة جيدة التحكيم، كان هدفها استجلاء العلاقة بين المشاهدة التليفزيونية ولغة الكلام لدى أطفال ما قبل سن المدرسة، كشفت عن علاقة عكسية بين وقت المشاهدة والأداء في اختبارات النمو اللغوي. ففي تلك الدراسة أظهر الأطفال الذين شاهدوا التليفزيون بكثرة في المنزل مستويات لغوية متدنية[14]. ونقدم دليلا إضافيا من خلال نظرة نلقيها لاحقا في هذه الصفحات على «جيل التليفزيون»، وهي نظرة توحي بأن نقصا خطيرا قد حدث في القدرات اللفظية لهؤلاء الأطفال الذين شبوا وهم يشاهدون التليفزيون لفترات طويلة.

لماذا لا يفيد الأطفال الذين «لا يستمعون إلى شيء سوى التليفزيون» من ذلك التعرض للتليفزيون؟ لابد أن هناك فرقا حاسما بين تجربة لغوية لا تتطلب مشاركة متبادلة، وأخرى تستوجب انخراط الأطفال فيها بنشاط، كما يحدث في التعامل مع شخص آخر. وإذا كانت المشاهدة التليفزيونية حقا تتضمن نوعا آخر من النشاط العقلي غير التجارب الحياتية الواقعية، فقد يثبت أن هذا النشاط ينبه أجزاء أخرى من الدماغ النامي للطفل.

أليس من الممكن أن يختلف دماغ طفل في الثانية عشرة من عمره، قضى عشرة آلاف ساعة في غرفة مظلمة في مشاهدة الصور المتحركة على شاشة صغيرة من نواح متعددة، عن دماغ طفل لم يشاهد إلا القليل على شاشة التليفزيون أو لم يشاهد شيئا قط، مثلما تختلف بصورة يمكن إثباتها رئتا مدخن شره عن نظيرتيهما لدى شخص لا يدخن؟ أليس من المحتمل أن يشب طفل التليفزيون من الطفولة ولديه من مهارات نصف كرة

الدماغ الأيسر - أي تلك المهارات اللفظية والمنطقية - ما هو أقل نموا من القدرات البصرية والمكانية التي يتحكم فيها نصف كرة الدماغ الأيمن؟

لابد عند بحث هذه المسائل من إثارة سؤالين أوليين: هل يؤثر أي نوع من التجربة في نمو الدماغ؟ وإذا كان الحال كذلك، فهل للتجربة المبكرة أهمية تفوق الحوادث التي تقع في مراحل النمو اللاحقة؟

لقد ظل السؤال الخاص بما إذا كان يمكن لأي تجربة على الإطلاق إحداث تغييرات حقيقية داخل الدماغ موضوعا للجدل والتفكير حتى وقت قريب. وفي حين أن بعض العلماء اعتقد أن استخدام الخلايا عزز نموها، وبالتالي لابد بالضرورة أن تؤثر الإثارة البيئية في النمو المخي للطفل، شعر آخرون أن طاقة الدماغ ونموه مقدرة سلفا من الناحية الوراثية ولا تتأثر بحوادث وتجارب الحياة.

ونتيجة للتجارب التي أجريت في غضون العقدين الأخيرين لم يعد هناك شك في أن جوانب كثيرة من تشريح وكيمياء الدماغ تتغير بالإثارة والتنبيه. فالتجارب التي بحثت تغييرات الدماغ لدى حيوانات تم تربيتها في بيئات فقيرة «أقفاص خالية من الإثارة الخارجية)، مقارنة بتغييرات لدى حيوانات ربيت في بيئات غنية (أقفاص ممتلئة باللعب والأدوات، والفرص العديدة للانشغال في أنشطة مثيرة)، أظهرت زيادة في وزن قشرة المخ بالإضافة إلى نشاط أكبر في إنزيمات الدماغ عند تلك الحيوانات التي تربت في بيئات غنية، بالمقارنة مع تلك المحرومة من الإثارة[15]. ومثل هذه الزيادة في الوزن اللحائي للمخ في وفي النشاط الإنزيمي دلالة على زيادة القدرة العقلية.

وفي حين يصعب استخلاص استنتاجات مباشرة بشأن التجربة الإنسانية من التجارب التي تجرى على الحيوانات، فإن مجموعة من الأدلة الإنسانية تدعم نتائج هذه التجارب الحيوانية وتغري بتطبيقها على البشر. ويتوافر مثل هذا الدليل في الدراسات الخاصة بالرضع والأطفال الصغار الذين يتم تربيتهم في أجنحة المستشفيات المعقمة، وملاجئ الأيتام، وغيرها من المؤسسات، وهي جميعها فقيرة من حيث الإثارة العقلية كالأقفاص الخالية للفئران في التجارب الحيوانية[16]. فعلى الرغم من أن أدمغة هؤلاء الأطفال المحرومين لا يمكن، بالطبع، فحصها بحثا عن تغييرات فيزيائية وكيميائية،

فإنه يمكن طرح افتراضات بشأن تأثيرات بيئة ضعيفة الإثارة في نمو الدماغ البشري على أساس السلوك الذي يلاحظ في الأطفال واختبارات القدرات العقلية. ولما كان هؤلاء الأطفال قد برهنوا بصورة ثابتة على تخلفهم الشديد عند الاختبار بالمقارنة مع أطفال تربوا في أسر أو حتى في مؤسسات توفر بيئة أكثر إثارة، ولما كان من المعروف أنهم لم يكونوا يعانون من قصور عقلي منذ البداية، فليس من المستبعد افتراض أن تخلفهم العقلي كان مصحوبا بتغييرات فعلية في فسيولوجيا الدماغ، أو ناجما عنها، وأن هذه التغييرات كانت بسبب تدني الإثارة البيئية.

وهناك مجموعة أخرى من الدلائل توحي بأن تجارب السنوات المبكرة، حيث يكبر الجسم وينمو بسرعة، ذات تأثير أكبر في نمو الدماغ من تلك التي تحدث في السنوات اللاحقة. وخلال السنوات الأخيرة أجريت إحدى هذه التجارب الكثيرة التي تظهر الأهمية الكبرى للإثارة البيئية المبكرة على قطيطات صغيرة كموضوعات تجريبية:

لقد تمت خياطة عيون القطيطات المولودة حديثا لمنعها من الرؤية. وبهذه الطريقة بقيت القطيطات في ظلام ثلاثة أشهر. وحين فتحت عيون القطيطات، اكتشف الباحثون أنها لم تشرع في اكتساب البصر كما كانت ستفعل بصورة طبيعية بعد أيام قليلة من مولدها. ففي غياب الإثارة البصرية خلال الأشهر الأولى من الحياة، أثبت الجهاز البصري للقطيطات أنه تعرض لتلف دائم. إذ لم يعمل مركز الدماغ المسؤول عن الإبصار كما يجب، لسبب ما. غير أنه حين أغلقت بصورة مصطنعة عيون قطيطات أكبر كانت قد اكتسبت قوة الإبصار الطبيعية، أو قطط كبيرة، لفترة زمنية مماثلة، لم ينجم عن ذلك أي ضرر بصري[17]. وتدعم تجارب أخرى أجريت على قردة الشمبانزي النظرية القائلة بوجود فترات نمو حساسة ضمن مراحل النمو المبكر للجسم، يكون وجود أو غياب تجارب معينة خلالها أمرا حاسما لنمو الدماغ بصورة طبيعية.[18]

وعلى الصعيد الإنساني، بدأت برامج التعليم المبكر الحديثة التي توجه على نطاق واسع إلى الرضع والأطفال الصغار تبرهن على أن الإغناء المبكر والمثابرة يمكن أن يؤديا إلى تحقيق مكاسب دائمة في المقدرة العقلية[19]. على العكس من ذلك، توحي الدلائل الاجتماعية بأن نواحي القصور في

طفولة مبكرة فقيرة بيئيا لا يمكن إبطالها فيما بعد بالبرامج العلاجية وفرص الإثارة العقلية.

غير أننا نجد دليلا آخر على أهمية الإثارة المبكرة في حالات من يطلق عليهم أطفال البرية[*] feral children وهم أولئك الناجون من طفولة مبكرة محرومة من كل اتصال إنساني. ويلاحظ اللغوي موريس ميرلوبونتي فيما كتبه عن هؤلاء الأطفال، الذين يفترض عموما أن الحيوانات قامت بتربيتهم، أن: هناك فترة من الوقت يكون فيها الطفل ذا حساسية خاصة تجاه اللغة ويمكنه خلالها أن يتعلم الكلام. وقد وضح أنه إذا لم يعش الطفل في وسط يتحدث فيه الناس، فلن يستطيع أبدا الكلام بالسهولة نفسها التي يتكلم بها الذين تعلموا الكلام خلال الفترة المعينة[20].

التزام لغوي

وبإعطاء الدليل على أن التجربة البيئية تؤثر في نمو الدماغ بطرق محددة، قابلة للقياس، وأن التجربة المبكرة أكثر تأثيرا من التجربة اللاحقة، يبدو من المحتوم أن التجربة التليفزيونية، التي تشغل ساعات كثيرة من يوم الطفل، لابد أن تكون لها بعض التأثيرات في نمو دماغه. لكن أدمغة الأطفال لا يمكن تشريحها ودراستها لإشباع فضول العلماء. كما أن التجارب التي تجرى على الحيوانات لاتستطيع إلقاء ضوء موثوق منه على مسائل تتناول الوظائف العقلية المميزة للأنواع البشرية، مثل التفكير أو التعبير اللفظي.

ومع ذلك، فإن حقيقة اختلاف دماغ الطفل الصغير في جوانب مهمة عن دماغ الشخص البالغ قد تساعدنا في تحديد مناطق التأثير العصبي للتجربة التليفزيونية. ففي هذه المناطق المتغيرة سيكون من المفترض حدوث أي تغيير عصبي.

إن منطقة الاختلاف هذه بين دماغ الطفل ودماغ الراشد هي بالتحديد منطقة تخصص نصف كرة الدماغ، وهي الميزان القائم بين أشكال التنظيم العقلي اللفظية وغير اللفظية. وفي هذه المنطقة قد تبرهن التجربة التليفزيونية على تأثيرها البالغ.

ولا يعني ذلك أن المشاهدة التليفزيونية ستمنع الطفل السوي من تعلم

(*) طفل بري feral child: طفل تربى في عزلة اجتماعية.

الكلام. وإنما يحدث، في حالات الحرمان الشديد حين ينعزل الأطفال تماما عن الأصوات البشرية، ألا يكون بمقدورهم الشروع في تعلم اللغة طبقا لبرنامج شامل ملائم وأنهم يفشلون في اكتساب أصول الكلام.

إن ما هو على المحك ليس اكتساب اللغة الفعلي من جانب الطفل بل الالتزام باللغة كوسيلة تعبيرية وبالأسلوب اللفظي كمصدر نهائي للإنجاز، وهو التزام قد يكون له أساس فسيولوجي في ميزان النمو بين نصفي كرة الدماغ الأيمن والأيسر.

وفيما يتعلق بالأطفال الصغار فإن الكثيرين يعتمدون أثناء عملية نمو تلك البنى العقلية الأساسية والمفاهيم، وضروب الفهم المطلوبة لتحقيق أقصى إمكاناتهم كبشر عقلاء استطاعوا أخيرا فقط الانتقال من التفكير غير اللفظي إلى التفكير اللفظي - على الفرص المتاحة لهم لتنمية مهاراتهم اللفظية. وكلما ازدادت الفرص اللفظية للأطفال، ورجح احتمال نمو لغتهم من حيث التركيب والتعقل، أصبحت قدرات تفكيرهم اللفظي أكثر رهافة وحدة. ومن ناحية أخرى، كلما قلت فرصهم، زاد احتمال بقاء مناطق لغوية معينة في حالة تخلف أو دون المستوى، بينما تأتي وتمضي فترات زمنية حاسمة.

إن النشاطات العقلية غير اللفظية، بالنسبة للراشدين، تحمل دلالات الاسترخاء من حرارة التفكير المنطقي العادي وتبشر بتحقيق نوع من الأمن والهدوء طال السعي من أجله. لكن، بالنسبة للأطفال الصغار الذين يمرون بسنوات تكوينهم وتعلمهم اللغوي، فإن أي نكوص ممتد في الأداء العقلي غير اللفظي على غرار ما تقدمه التجربة التليفزيونية لابد من النظر إليه كانتكاسة محتملة. فمع استقبالهم الكلمات والصور التليفزيونية ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، ومع قلة المجهود العقلي الذي يتطلبه تشكيل أفكارهم ومشاعرهم الخاصة وإفراغها في كلمات، ومع استرخائهم سنة بعد سنة يستقر لديهم نمط يؤكد المعرفة غير اللفظية.

وعلى خلاف رجال الأعمال المرهقين أو النساء العاملات أو ربات البيوت المنهكات اللائي يشغلن جهاز التليفزيون بقصد «الاسترخاء»، فإن لدى الأطفال الصغار حاجة داخلية إلى النشاط العقلي. إنهم أجهزة تعلّمية، و «عقول ممتصة»، ومخلوقات نهمة للخبرة. ولا يتطلب النمو الأمثل للأطفال،

في ثقافة تعتمد على الاستعمال الدقيق والمؤثر للغة الكلام والكتابة، مجرد فرص كافية، بل وافرة للممارسة اليدوية، والتعلم، وتوليف الخبرة. إنهم الآباء، المتعبون من جراء مطالب أبنائهم المتواصلة للتعلم بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة (التعلم الذي قد يتضمن العويل، والصراخ، وإلقاء الأشياء، والإزعاج) هم الذين يلتمسون «الاسترخاء» الذي يتيح وضع الصغار أمام شاشة التليفزيون وجعلهم، مرة ثانية، الأسرى المسالمين لإحساساتهم الخاصة مثلما كانوا حين كان التفكير غير اللفظي وسيلتهم الوحيدة للتعلم.

5 التليفزيون والقراءة

حتى عصر التليفزيون كان مدخل الأطفال الصغار إلى التمثلات الرمزية للواقع محدودا. فنتيجة لعجزهم عن القراءة، دخلوا عالم الخيال أساسا عن طريق القصص التي تروى لهم أو تقرأ لهم من كتاب. غير أنه كان من النادر أن تنال مثل هذه التجارب «الأدبية» نصيبا من وقت يقظة الطفل. فحتى في حالة وجود قارئ مستعد للقراءة أو قصاص متاح، فإن ساعة من الزمن أو نحو ذلك يوميا كانت أكثر مما يقضيه معظم الأطفال مستكنين في خيال الآخرين. وحين دخل أطفال ما قبل التليفزيون تلك العوالم الخيالية، كان يرافقهم دائما شخص راشد ناضج لكي يفسر، ويشرح، ويقدم السلوان إذا دعت الحاجة. وكان من الصعب على الطفل، قبل تعلم القراءة، أن يدلف إلى عالم الخيال بمفرده.

ولهذا السبب كان للتليفزيون من دون شك تأثير أقوى في أطفال ما قبل سن المدرسة، وفي الذين لم يقرأوا بعد، منه في أي مجموعة أخرى. فعن طريق التليفزيون كان في إمكان الأطفال الصغار جدا أن يدخلوا، وأن يقضوا حصصا كبيرة من وقت يقظتهم، في عالم ثانوي من أناس معنويين وأشياء

غير مادية، من دون أن يصحبهم في كثير من الحالات مرشد ناضج أو معين. أما أطفال السن المدرسية فيندرجون ضمن فئة أخرى. فلقد كان لدى هؤلاء الأطفال، بحكم أنهم يستطيعون القراءة، فرص أخرى لترك الواقع خلفهم. وكان التليفزيون بالنسبة لهؤلاء الأطفال مجرد عالم خيالي آخر.

غير أنه لما كان التليفزيون قد تفوق بصورة جدية على القراءة بعد أن كانت هي التجربة الرئيسية الخيالية لطفل المدرسة، فلابد من مقارنة التجربة التليفزيونية بتجربة القراءة من أجل أن نحاول اكتشاف ما إذا كانت التجربتان، في الواقع، نشاطين متشابهين يلبيان حاجات متشابهة في حياة الطفل.

ماذا يحدث حين تقرأ؟

إن المقارنة بين المشاهدة التليفزيونية وبين القراءة من وجهة نظر نوعية ليست كافية. فعلى الرغم من اختلاف نوعية المادة المتاحة في كل وسيلة بصورة هائلة، بدءا من الكتب الغثة والبرامج الضحلة إلى الروائع الأدبية والبرامج التليفزيونية الجميلة العميقة، فإن طبيعة التجربتين مختلفة وهو اختلاف يؤثر بصورة جوهرية في تأثير المادة المتلقاة.

إن القليلين من الناس فضلا عن طلبة اللغويات ومدرسي القراءة هم الذين يدركون الممارسات العقلية المعقدة التي تشتمل عليها عملية القراءة. فبعد وقت قصير من تعلم الشخص القراءة، فإنه يستوعب العملية تماما إلى حد أن الكلمات في الكتب تبدو كأنها اكتسبت وجودا يماثل تقريبا الأشياء أو الأفعال التي تمثلها. ويحتاج الأمر إلى النظر مجددا إلى صفحة مطبوعة حتى نتبين أن تلك الرموز التي نطلق عليها حروف الأبجدية، هي أشكال مجردة بالكامل لا تحمل أي «معنى» ملازم خاص بها. انظر على سبيل المثال، إلى حرف (O) أو إلى حرف (K). إن حرف (O) حرف متقوس، أما حرف (K) فهو تشابك لثلاثة خطوط مستقيمة. ومع ذلك فإن من الصعب أن نفصل شكليهما المألوفين عن صوتيهما، على الرغم من عدم وجود لاحقة مثل ish للحرف (O) أو للحرف (K). إن القارئ الذي لا إلمام له بالأبجدية الروسية سيجد من السهل أن ينظر إلى الرمز Ш ويراه كشكل

مجرد، لكن القارئ الروسي سيجد أن من الأصعب فصل ذلك الرمز عن الصوت shch. وحتى عند محاولة اعتبار حرف (K) رمزا مجردا، فإننا لانستطيع أن نراه دون شعور بصوت (Ka) في مكان ما بين الحلق والأذنين، فهو النطق الصامت لحرف (K) الذي يحدث لحظة نرى الحرف.

تلك هي فاتحة القراءة: نحن نتعلم تحويل الأشكال المجردة إلى أصوات، ومجموعات الرموز إلى الأصوات المؤتلفة التي تكوّن كلمات لغتنا. فحين يحول العقل الرموز المجردة إلى أصوات والأصوات إلى كلمات، فإنه «يسمع» الكلمات، إذا جاز التعبير، وبذلك يمدها بالمعاني التي سبق تعلمها في لغة الكلام[1]. وبالمقابل، فمع تطور مهارة القراءة، يبدأ معنى كل كلمة وكأنه استقر داخل تلك الرموز التي تكون الكلمة. فكلمة «كلب» ـ مثلا ـ تبدأ حمل بعض الصلة مع الحيوان الحقيقي. والواقع أن كلمة «كلب» تبدو أن تكون كلبا بمعنى ما، وتمتلك بعض الصفات التي تقترن بأحد الكلاب. إلا أنه نتيجة لمجموعة سريعة ومعقدة من الأنشطة العقلية فقط تتحول كلمة «كلب» من مجموعة من الخربشات التي لا معنى لها على الورق إلى فكرة عن شيء حقيقي. وهذه العملية تمضي في رفق واستمرارية بينما نحن نقرأ، إلا أنها لا تبدو أقل تعقيدا. فالدماغ لابد أن ينفذ جميع خطوات حل الشفرة وتقديم المعنى في كل مرة نقرأ فيها، إلا أنه يصبح أكثر خبرة في ذلك مع نمو المهارة، ولهذا نفقد ذلك الإحساس بمغالبة الرموز والمعاني الذي يشعر به الأطفال حين يتعلمون القراءة في البداية.

لكن العقل لا يسمع الكلمات فحسب أثناء عملية القراءة؛ فمن المهم أن نتذكر أن القراءة تشمل الصور أيضا. فحين يرى القارئ كلمة «كلب» ويفهم الفكرة المقصودة منها تقفز إلى الذهن صورة تمثل كلبا أيضا. إن الجوهر المحدد لهذه «الصورة المقروءة» لا يفهم إلا القليل منه، كما أنه لا يوجد اتفاق بشأن العلاقة التي يحملها للصور المرئية التي تستوعبها العينان مباشرة. ومع ذلك فإن الصور تكوِّن بالضرورة قراءتنا، وإلا فلن نفهم أو نعي أي معنى، بل مجرد كلمات فارغة. إن الاختلاف الكبير بين هذه «الصور المقروءة» والصور التي نتلقاها حين نشاهد التليفزيون يتمثل في أننا نخلق صورنا الخاصة حين نقرأ، بالاستناد إلى تجارب حياتنا الخاصة وبما يعكس حاجاتنا الفردية الخاصة، بينما يجب علينا أن نقبل ما نستقبله حين نشاهد

الصور التليفزيونية. وهذا الجانب من عملية القراءة الذي قد نسميه «خلاّقا» Creative، بالمعنى الضيق للكلمة، نجده في جميع تجارب القراءة، بصرف النظر عما نقرأ. إننا حين نقرأ فكأننا تقريبا نخلق برامجنا التليفزيونية الداخلية، الصغيرة، الخاصة. وتكون النتيجة تجربة تغذي الخيال. وكما يلاحظ برونو بتلهايم Bruno Bettelheim فإن «التليفزيون يأسر الخيال لكنه لا يحرره، أما الكتاب الجيد فإنه ينبه الذهن ويحرره في الوقت ذاته»[2].

إن الصور التليفزيونية لا تقوم بتحويل رمزي معقد. ولا يتعين على العقل أن يحل شفرة ويمارس عملا ما في أثناء التجربة التليفزيونية. وربما يكون ذلك هو السبب في أن الصورة البصرية التي تستقبل مباشرة من جهاز التليفزيون قوية، وأقوى، كما يظهر، من الصور التي تستحضر ذهنيا أثناء القراءة. لكن هذه الصور في النهاية أقل إشباعا. ويصف طفل في العاشرة من عمره تأثيرات المشاهدة التليفزيونية لأعمال درامية مقتبسة من كتب قرأها من قبل بقوله: «إن الشخصيات التليفزيونية تترك انطباعا أقوى. فإذا شاهدت شخصا على شاشة التليفزيون، فسوف يبدو على هذه الصورة دائما في ذهنك، حتى لو كانت لديك صورة مختلفة عنه في ذهنك من قبل حين قرأت الكتاب بنفسك». بيد أنه كما يقول الطفل نفسه فإنه «في حالة الكتاب لديك قدر كبير من الحرية، وتستطيع أن تجعل كل شخصية تشبه تماما الصورة التي تريدها عليها. أنت تسيطر على الأمور حين تقرأ بأكثر مما تفعل حين تشاهد شيئا على شاشة التليفزيون».

ربما يكون تناقص فرص الأطفال ذوي التنشئة التليفزيونية في الاندماج ضمن عملية «تكوين الصورة الداخلية» هذه، مسؤولا عن العجز الغريب الذي يعانيه كثير من الأطفال اليوم في التكيف مع التجارب غير البصرية. وتعبر عن ذلك بصفة عامة أقوال المدرسين المتمرسين الذين يحاولون ردم الهوة بين عصر ما قبل التليفزيون وعصر التليفزيون.

يقول أحد مدرسي الصفوف الأولى: «حينما أقرأ لهم قصة من دون أن أعرض عليهم صورا، يشكو الأطفال دائما قائلين «لا نستطيع أن نرى، ويفتر اهتمامهم». ويستطرد المدرس قائلا: «إن الأطفال يبدأون عندئذ في الكلام والحركة دونما هدف. وأشعر في الحقيقة بضرورة تطوير مهارات التخيل لديهم، وأقول لهم إنه ليس هناك ما يرى، وإن القصة كلها تصدر من

فمي، وإنهم يستطيعون أن يكونوا صورهم الخاصة في خيالهم، إن قدرتهم على التخيل تتحسن بالممارسة. لكن الأطفال لم يكونوا قط في حاجة إلى تعلم التخيل قبل التليفزيون، كما يبدو لي».

المشاهدة مقابل القراءة: التركيز

تستلزم القراءة ممارسات عقلية معقدة. ولذلك فإن القارئ مطالب بأن يكون أكثر تركيزا من مشاهد التليفزيون. ويلاحظ أحد خبراء السمع أن ما يهم فيما يتعلق بالوسائل الإلكترونية هو الانفتاح openess. فالانفتاح يتيح للمثيرات السمعية والبصرية المزيد من سهولة الوصول المباشر إلى الدماغ... فالشخص الذي تعلم أن يركز سيفشل في إدراك الكثير من الأنماط المعلوماتية التي تنقلها المثيرات الإلكترونية»(3).

إن التهيؤ للتركيز، الذي ربما يكتسب من خلال تجارب القراءة، قد يجعل المرء مشاهدا تليفزيونيا غير ملائم. إلا أن من المرجح إلى حد كبير أن يتغلب الموقف العكسي: أي أن التهيؤ «للانفتاح» (الذي قد يمكن فهمه على أنه نقيض التركيز البؤري)، المكتسب عبر سنوات وسنوات من المشاهدة التليفزيونية، قد أثر بصورة عكسية في قدرة المشاهدين على التركيز، وعلى القراءة، وعلى الكتابة بوضوح - وباختصار: على إظهار أي من المهارات اللفظية التي يتطلبها مجتمع المتعلمين.

السرعة

ربما يمكن المقارنة بين القراءة والمشاهدة من حيث سرعة كل من التجربتين، وتحكمنا النسبي في هذه السرعة، لأن السرعة قد تؤثر في الوسائل التي تستخدم بها المادة المتلقاة في كل تجربة. وإضافة إلى ذلك، فإن سرعة كل تجربة قد تحدد إلى أي مدى تفرض نفسها على الجوانب الأخرى لحياتنا.

إن من الواضح أننا حين نقرأ نستطيع ضبط السرعة. فنحن قد نقرأ ببطء أو بسرعة كيفما كان باستطاعتنا وكيفما كانت رغبتنا في القراءة. فإذا لم نفهم شيئا، فقد نتوقف ونعيد قراءته أو نمضي باحثين عن شرح قبل أن نواصل القراءة.وإذا كان ما نقرأه مثيرا للمشاعر، فقد نضع الكتاب

جانبا للحظات قليلة ونتكيف مع انفعالاتنا دون خوف من أن يفوتنا أي شيء.

غير أننا لا يمكننا التحكم في سرعة البرنامج التليفزيوني حينما نشاهده، لأن البداية والنهاية فقط هما اللتان تخضعان لسيطرتنا بتشغيل أو إيقاف عمل الجهاز. ونحن لا نستطيع إبطاء برنامج شائق أو تسريع برنامج كئيب كما لا نستطيع أن «نعود للوراء» إذا كانت هناك كلمة أو عبارة غيرة مفهومة. فالبرنامج يتحرك بلا هوادة إلى الأمام وما يفقد أو يساء فهمه يظل كذلك.

ونحن لانستطيع بسهولة تحويل المادة التي نشاهدها على شاشة التليفزيون إلى شكل يلائم حاجاتنا الانفعالية، كما نفعل بالمادة التي نقرأها. إن الصور تتحرك بسرعة فائقة. ولايمكننا أن نستخدم خيالنا الخاص لكي نخلع على الناس والأحداث المصورة على شاشة التليفزيون المعاني الشخصية التي تساعدنا على فهم وتحليل العلاقات والصراعات في حياتنا الخاصة؛ فنحن تحت سلطة خيال معدي البرنامج. إن العينين والأذنين في التجربة التليفزيونية تغمرها فورية المناظر والأصوات. فهذه المناظر والأصوات تومض من جهاز التليفزيون بسرعة تكفي فقط لأن تستقبلها العيون والآذان قبل أن تتحرك إلى الصور والأصوات الجديدة... لكي لا تفقد الخيط.

لكي لا تفقد الخيط... إنها هذه الحاجة التي لاتحدد فحسب عمل خيال المشاهد، الحاجة المشروطة بالاتجاه الذي لا مرد له وسرعة التجربة التليفزيونية التي لا هوادة فيها، بل إنها أيضا التي تجعل التليفزيون يقتحم الشؤون الإنسانية على نحو لا تستطيع أن تفعله تجارب القراءة في أي وقت. فإذا دخل أحد الأشخاص الحجرة في أثناء مشاهدتنا التليفزيونية ـ صديق أو قريب، طفل، شخص ما، ربما لا نكون قد رأيناه منذ بعض الوقت ـ فإننا لابد أن نواصل المشاهدة وإلا فقدنا الخيط. التحيات يجب أن تنتظر، لأن برنامج التليفزيون لن ينتظر. أما الكتاب فيمكن وضعه جانبا دون ريب، بوخزة من الأسف ـ ربما ـ لكن دونما شعور بخسارة دائمة.

يصف أحد الأجداد موقفا ليس من النادر حدوثه، كما تجمع الأحاديث: «أحيانا حين أذهب لزيارة البنات، أدخل غرفتهن وهن يشاهدن برنامج التيلفزيون. حسنا، إنني أعرف أنهن يحببني، لكني أشعر بالضيق عندما أقول لهن مرحبا، ويقلن، من دون حتى أن ينظرن إلي، انتظر دقيقة... إن

علينا أن نرى نهاية هذا البرنامج، ويؤلمني أنهن يبدين اهتمامهن بذلك الجهاز وتلك الصور الصغيرة أكثر مما تسعدهم رؤيتي. إنني أعرف أن من المحتمل أنهن لا يمكنهن عمل شيء فيما يتعلق بذلك، ولكن يظل...»

هل يمكنهن عمل شيء؟ غاية الأمر، أننا إذ نشاهد التليفزيون لا تكون قدرتنا على تحرير أنفسنا من المشاهدة من أجل تلبية المطالب الإنسانية الناشئة مهمة تتصل إجمالا بسرعة البرنامج. وعلى الرغم من ذلك فإننا قد نختار التصرف طبقا للأولويات الإنسانية، وليس الدكتاتورية الإلكترونية، وربما نقرر بسرعة «ليذهب هذا البرنامج إلى الجحيم» ونوقف المشاهدة ببساطة عندما يدخل صديق إلى الحجرة أو يحتاج طفل إلى الاهتمام.

قد نفعل ذلك... لكن قوة التنويم المغناطيسي التليفزيونية تجعل من الصعب صرف انتباهنا بعيدا، وتجعلنا شديدي الرغبة في عدم إضاعة خيط البرنامج.

لماذا يصعب إيقاف المشاهدة؟

ربما يلعب عدد من عوامل الإدراك الحسي ذات الصلة الاستثنائية بالتجربة التليفزيونية دورا في جعل التليفزيون أكثر سحرا من أي تجربة بديلة، وهي عوامل ترتبط بطبيعة الصور الإلكترونية على الشاشة وطرق استقبال العين لها[4].

ففي حين لا نرى في الحياة الواقعية إلا جزءا صغيرا جدا من البانوراما البصرية حولنا عن طريق النقرة Fovea، وهي الجزء البؤري الأكثر حدة في العين، ونرى بقية العالم بنظرتنا الخارجية الغائمة، فإننا عندما نشاهد التليفزيون نستقبل الإطار الكامل لصورة ما بنظرتنا البؤرية الحادة. دعنا نقل إن الصورة على شاشة التليفزيون هي صورة حجرة كاملة أو منظر طبيعي لأحد الجبال. لو أننا كنا هناك في الواقع الحي، لما استطعنا أن نرى إلا جانبا محدودا من الحجرة أو من المنظر الطبيعي بوضوح من خلال أي نظرة واحدة. لكننا على شاشة التليفزيون نستطيع أن نرى الصورة الكاملة بدقة. إن نظرتنا الخارجية لا تشترك في رؤية ذلك المشهد؛ فالواقع أن العين حين تركز على شاشة التليفزيون وتستوعبها في حدة بالكامل، يمحو العقل العالم الخارجي تماما. ولما كان المحيط الخارجي في الحياة الواقعية

يصرف ويشتت انتباهنا، فإن غياب المحيط الخارجي هذا لابد أن يؤدي إلى زيادة اهتمامنا على نحو غير سوى بالصورة التليفزيونية.

وتكمن إحدى السمات الأخرى اللصيقة بالصورة التليفزيونية في الحركة الآسرة لجميع الأشكال الخارجية على شاشة التليفزيون. فبينما تكون الأشكال الخارجية المألوفة للأشياء الواقعية وللناس ثابتة، تنتج الآلية الإلكترونية التي تخلق الصور على الشاشة أشكالا خارجية دائمة الحركة، على الرغم من صعوبة إدراك المشاهد لهذه الحركة. ولما كانت العين مشدودة للتركيز بصورة أقوى على الحركة لا على الأشياء الثابتة، فإن إحدى نتائج حركة الأشكال الخارجية التليفزيونية هي جعل الاهتمام بها أشد.

لكن ثمة نتيجة أخرى وهي الحيلولة بين العين والتركيز بما يكفي أثناء تثبيت انتباهها على شاشة التليفزيون. وسبب ذلك أن العين تواجه أثناء مشاهدة التليفزيون صعوبات في التثبيت كما ينبغي ناجمة عن الحركة البصرية المنتظمة المتغيرة للأشكال الخارجية. أما في واقع حياتنا فإن العين حينما لا تركز انتباهها بصورة ملائمة يتم إرسال إشارة إلى مركز الإبصار في الدماغ، الذي يتخذ إذ ذاك خطوات تصحيحية. ولما كان التثبيت الخاطئ ينجم عادة عن اختلاجة عين أو خلل وظيفي طبيعي لدى المشاهد وليس من الشيء موضوع المشاهدة، فإن الجهاز البصري سيحاول إجراء تصحيحات في ارتجافة العين أو في أي جزء من جهاز الإبصار عند المشاهد. ومع ذلك، فأثناء مشاهدة التليفزيون تكون الحركة البصرية على الشكل الخارجي للصورة هي السبب في صعوبات متزايدة في المحافظة على التثبيت الطبيعي. ولذلك قد يكون من الأسهل أن نتخلى عن السعي من أجل تثبيت كامل، يركز على الصورة التليفزيونية، وأن نكتفي ببعض التثبيت غير المركز.

إن التشوش الحسي الذي يحدث نتيجة لحركة الصور التليفزيونية لا يختلف عن الحالة التي تحدث للقنوات الهلالية للأذن ـ وهي التي تحافظ على توازننا وتساعد الدماغ على تحقيق التوافق الضروري مع حركة الجسم ـ من جراء مصادر حركة خارجية (كما يحدث حينما يقف المرء ساكنا ومع ذلك تتحرك قنوات الأذن هذه الناحية أو تلك بفعل تحرك سيارة أو سفينة أو طائرة). وتعكس الأعراض البغيضة لدوار البحر والغثيان هذا التشوش

الداخلي.

ومع ذلك، فإن عدم التركيز الطفيف للعينين في أثناء مشاهدة التليفزيون قد تكون له عواقب مؤثرة من شأنها أن تجعل التجربة التليفزيونية مصدر خلل وظيفي بالنسبة للجسم أوضح منه في تجارب أخرى كالقراءة مثلا، برغم أنه لا يماثل دوار البحر في تأثيره البغيض إذ لا نكاد ندرك وجوده في واقع الأمر. ويثبت البحث أن عدم تركيز العينين عادة ما يترافق مع حالات متنوعة من التوهم وأحلام اليقظة. وهكذا فإن المادة المرئية على شاشة التليفزيون قد تكتسب صورة غير واقعية، شبيهة بالحلم. وفضلا عن ذلك، فإن صراعات بصرية حركية مماثلة كثيرا ما توصف بأنها سمات عديد من تجارب المتعاطين للمخدرات. وقد يكون ذلك سببا كافيا للحالة الشبيهة بالغشية التي تنتاب كثيرين من مشاهدي التجربة التليفزيونية، وقد تساعد في شرح السبب الذي يضفي على الصورة التليفزيونية كل هذا السحر المغناطيسي المنوّم. لقد قيل إن «التجارب الأولى للعروض الإلكترونية هي تهيئة للاستمتاع اللاحق بالعقاقير المؤثرة في العقل التي تحدث تأثيرات إدراكية حسية مماثلة»(5).

إن جميع هذه الانحرافات الإدراكية الحسية قد تتعاون لتفتن المشاهدين وتشدهم إلى جهاز التليفزيون.

هناك بطبيعة الحال تباينات في قدرات الصور التليفزيونية على جذب الانتباه والاحتفاظ به، والتي يعتمد الكثير منها على عوامل مثل حجم الحركة الموجودة على الشاشة في لحظة معينة، وسرعة التغيير من صورة إلى أخرى. إن من دواعي تثبيط الهمة نوعا ما اعتبار أن منتجي أكثر البرامج تأثيرا على أطفال ما قبل المدرسة، وهو برنامج «شارع السمسم»، استخدموا التكنولوجيا الحديثة على شكل جهاز مشتت distractor لاختبار كل قسم من برنامجهم من أجل ضمان قدرته على أسر انتباه الطفل والإمساك به إلى أبعد حد ممكن. وبمساعدة «المشتِّت»، وجد صناع «شارع السمسم» أن الرسوم المتحركة، سريعة الحركة والقصص ذات الإيقاع اللاهث، أشد فعالية في شد انتباه الطفل. ويمكن مقارنة هذا الموقف إزاء صغار الأطفال وتجاربهم التليفزيونية بالموقف الذي كشفته للعيان مونيكا سيمز من هيئة الإذاعة البريطانية BBC بقولها: «نحن لا نحاول ربط الأطفال

إلى شاشة التليفزيون. وإنه لشيء طيب أن يخرجوا ويلعبوا إلى حد ما خلال برامجنا»(6).

القوالب الأساسية للبناء

هناك فرق آخر بين القراءة والمشاهدة التليفزيونية لابد أن يؤثر في الاستجابة لكل من التجربتين. ويتعلق هذا الفرق بتعرّف القراء والمشاهدين العناصر الأساسية لكل وسيلة. ففي حين يعرف القارئ القوالب الأساسية للبناء فيما يتعلق بوسيلة القراءة، فإن معرفة المشاهد التليفزيونية ضئيلة بمثيلاتها في الوسيلة التليفزيونية.

إننا، حين نقرأ، تكون لدينا تجربتنا الخاصة في الكتابة للرجوع إليها. ويتأثر بالضرورة ويتعمق فهمنا لما نقرأ، وشعورنا به، بامتلاكنا للقراءة كوسيلة للاتصال. وعندما يبدأ الأطفال في تعلم القراءة، يشرعون في اكتساب مبادئ الكتابة. إن اكتساب هاتين المهارتين معا أمر مهم دائما وليس من قبيل المصادفة. فحين يبدأ الأطفال تعلم قراءة الكلمات يحتاجون إلى أن يفهموا أن الكلمة شيء يمكنهم كتابته بأنفسهم، ولو أن تحكمهم العضلي قد يعوقهم مؤقتا عن كتابتها بوضوح. ويجعل استخدام هذه القوة مع الكلمات التي يحاول الأطفال فك مغاليقها تجربة القراءة تجربة سارة منذ البداية بالنسبة لهم.

إن الطفل الصغير الذي يشاهد التليفزيون يدخل عالما من المواد يتجاوز تماما قدرته على السيطرة والفهم. وعلى الرغم من أن الصور التي تظهر على الشاشة قد تكون انعكاسات لأناس وأشياء مألوفة، فإنها تبدو له نوعا من السحر. فالأطفال لا يستطيعون خلق صور مشابهة أو حتى البدء في فهم كيف تظهر هذه الأشكال والصور الإلكترونية الوامضة إلى الوجود. وهم يقفون موقفا أكثر عجزا وجهلا أمام جهاز التليفزيون منه أمام الكتاب.

وليس هناك شك في أن صلة الكثير من الأطفال بالوسيلة التليفزيونية صلة ملتبسة. حين سئلت مجموعة من أطفال ما قبل المدرسة: «كيف يستطيع الأطفال الظهور على شاشة التليفزيون عندكم؟ «لم يبد إلا 22 في المائة منهم قدرا من الإدراك الحقيقي لطبيعة الصور التليفزيونية. وحينما سئلوا «أين يذهب الناس والأولاد والأشياء عند إغلاق تليفزيونكم؟» أبدى 20 في

المائة فقط ممن هم في الثالثة من العمر أقل بصيص من الفهم. وعلى الرغم من وجود زيادة في الإدراك بين الأطفال الذين يبلغون أربع سنوات فقد لاحظ أصحاب الدراسة أنه «حتى بين الأطفال الأكبر سنا فإن الأغلبية الساحقة لم تدرك طبيعة الصور التليفزيونية»(7).

إن شعور الأطفال بالقوة والكفاءة يتعزز عن طريق سمة أخرى من سمات تجربة القراءة لا يحققها التليفزيون، وهي الطبيعة غير الميكانيكية، سهلة المنال، يسيرة الانتقال التي تتم بها المادة المقروءة. فالأطفال يستطيعون دائما الاعتماد على الكتاب كمصدر للمتعة. لكن جهاز التليفزيون قد يتعطل في لحظة حاسمة. وقد يأخذون كتابا معهم أينما ذهبوا، إلى حجرتهم، إلى المنتزه، إلى بيت صديق، أو إلى المدرسة، ليقرأوه تحت الطاولة: إنهم يستطيعون تنظيم استخدامهم للكتب والمواد المقروءة. أما جهاز التليفزيون فيوضع في مكان معين؛ وليس من السهل تحريكه. ومن المؤكد أنه لا يمكن للطفل أن ينقله عرضا من مكان إلى آخر. ولا يتعين على الأطفال فقط مشاهدة التليفزيون حيث يكون الجهاز موضوعا، بل لابد أن يشاهدوا برامج معينة في أوقات محددة، وهم عاجزون عن تغيير ما يصدر عن الجهاز أو وقت صدوره.

وفي هذه المقارنة بين القراءة ومشاهدة التليفزيون يبدأ ظهور صورة تؤكد جيدا الفكرة العامة بأن القراءة «أفضل» بطريقة ما من مشاهدة التليفزيون. فالقراءة تشتمل على شكل مركب من النشاط العقلي، فهي تدرب العقل على مهارات التركيز، وتنمي قدرات الخيال والتصور الداخلي، كما أن مرونة سرعتها تلائم الإدراك الأفضل والأعمق للمادة المنقولة. إن القراءة تستحوذ على الفكر والانتباه، لكنها لا تنوّم مغناطيسيا أو تشغل القارئ عن مسؤولياته الإنسانية. والقراءة عملية ثنائية الاتجاه؛ فالقارئ يستطيع أيضا أن يكتب، أما المشاهدة التليفزيونية فطريق وحيد الاتجاه، إذ لا يمكن للمشاهد خلق صور تليفزيونية. والكتب متاحة في أي وقت، ويمكن السيطرة عليها دائما. أما التليفزيون فيسيطر.

تفضيل المشاهدة

كان يمكن للمقارنة بين تجربتي القراءة والمشاهدة التليفزيونية أن تكون

قليلة المغزى لولا الحقيقة التي لا جدال فيها، وهي أن تجارب مشاهدة الأطفال للتليفزيون تؤثر في قراءتهم من نواح بالغة الأهمية، فهي تؤثر في كم ما يقرأون، و طبيعة ما يقرأونه، وشعورهم تجاه القراءة، وما يكتبونه ومدى جودته، مادامت مهارات الكتابة ترتبط بصورة وثيقة بتجارب القراءة.

ومما لا ريب فيه أن الأطفال يقرأون كتبا أقل حين يتوافر التليفزيون لديهم. فالطفل أكثر ميلا إلى تشغيل جهاز التليفزيون عندما «لا يجد ما يفعله» منه إلى التقاط كتاب ليقرأه. ذلك ما يحدث جزئيا إن لم يكن بصورة تامة، لأن القراءة تتطلب نشاطا عقليا أكبر. ومن طبيعة البشر أن يفضلوا تسلية تحتاج إلى المجهود الأقل وليس الأكثر. وفي دراسة مسحية شملت أكثر من خمسمائة من تلاميذ الصفين الرابع والخامس، أظهر جميع التلاميذ تفضيلهم المشاهدة على قراءة كتابات من أي نوع[8]. وذكر حوالي 70 في المائة من بين 233 ألفا من تلاميذ الصف السادس، في استطلاع أجرته إدارة التربية في كاليفورنيا في عام 1980، أنهم نادرا ما يقرأون من أجل المتعة. وفي الوقت نفسه، وفي الاستطلاع ذاته، اعترفت نسبة مئوية مطابقة من التلاميذ بأنها تشاهد التليفزيون أربع ساعات أو أكثر يوميا[9].

ويكشف الأطفال صراحة عن هذا الميل حين يتحدثون عن مشاهدتهم التليفزيونية:

تقول طفلة في الحادية عشرة، هي ابنة أحد مدرسي اللغة الإنجليزية «في حالة التليفزيون، لا داعي لأن تقلق بشأن شعورك بالملل بسبب ما يجري، كما أنك لست مضطرا لأن تفعل أي شيء لكي تراه، يحدث. ولكن عليك أن تفعل شيئا لكي تقرأ، وليس ذلك نوعا من التسلية. أقصد أنه سيكون تسلية لو كان الكتاب جيدا، لكن كيف يمكن أن تعرف أن الكتاب سيكون جيدا؟ على أي حال أنا أفضل مشاهدة الكتاب كبرنامج تليفزيوني».

ويؤكد الآباء هذا الاتجاه، فتقول أم لديها طفلان في الثانية عشرة والعاشرة وابنة في التاسعة من العمر:

أطفالي يواجهون متاعب في العثور على الكتب التي يحبونها في المكتبة. ويبدو أن لديهم نوعا ما من المقاومة للكتب، على الرغم من أنني وزوجي قارئان نهمان. إنني أظن أنه لولا وجود التليفزيون لديهم لقضوا وقتا أطول في البحث بهدوء عن شيء جيد في المكتبة. كانوا سيضطرون لذلك دفعا

للملل. لكنهم حاليا لا يزورون المكتبة في الواقع حين آخذهم. إنهم لا يركزون انتباههم على أي شيء، فليست القراءة هي التسلية الأساسية لديهم. هناك دائما شيء أفضل وأسهل عملا. ولذلك فهم غير مضطرين للنظر بإمعان في المكتبة. إنهم يمرون بها مسرعين ونادرا ما يجدون أكثر من كتاب أو اثنين كافيين لإثارة اهتمامهم وأخذهما.

من المرجح أن يقاوم الأطفال الذين يجدون صعوبة في القراءة الملل بالتحول إلى التليفزيون بأكثر مما يفعل القراء الناجحون. فالتليفزيون يلعب دورا سلبيا بعيد الأثر في النمو العقلي لهؤلاء الأطفال الذين يمكنهم فقط عن طريق الإكثار من القراءة أن يأملوا في التغلب على مشاكل القراءة لديهم. وكثيرا ما أثار المدرسون والاختصاصيون في شؤون القراءة هذه النقطة عند مناقشة تأثيرات المشاهدة التليفزيونية على قراءة الأطفال. فمشاهدة التليفزيون لا تحول بين الأطفال الأسوياء وبين اكتساب مهارات القراءة (على الرغم من أنها قد تجعلهم يقرأون أقل)، وإن كان يبدو إنها تزيد من مشكلات الأطفال الذين يعانون من عجز في القراءة لأنها توفر لهم بديلا سارا غير لفظي وتقلل بالتالي من استعدادهم للسعي في طلب القراءة بهدف إيجاد مسرات بديلة.

ومن السهل إيضاح أن تيسر التليفزيون يقلل حجم القراءة لدى الأطفال أكثر من أي عامل آخر. فالمعلومات المتوافرة تؤكد حدوث زيادة عامة في القراءة لدى الوالدين والأطفال حين يغيب جهاز التليفزيون ـ أي أثناء تعطل الجهاز مؤقتا أو تخلص الأسرة منه تماما. وحين لا يتيسر النشاط العقلي الأقل مشقة أو إرهاقا، يتحول الأطفال إلى القراءة طلبا للتسلية، وهم أكثر رغبة في الصبر على «العمل» المعقد.

البيئة المنزلية

يتأكد دور البيئة المنزلية في نمو مهارات القراءة لدى الأطفال من خلال دراسة حديثة للمشاهدة التليفزيونية وعلاقتها بالتحصيل القرائي. فقد ركز الباحثون الاهتمام على المراحل المختلفة لنمو القراءة وقارنوا تأثير المشاهدة التليفزيونية في كل مرحلة ـ من مرحلة ما قبل القراءة، مرورا بمرحلة اكتشاف المعاني الأولية ومرحلة زيادة الطلاقة، وأخيرا، إلى المرحلة

التي يستطيع فيها الأطفال القراءة طلبا للمعرفة والاطلاع. ولاحظ واضعو الدراسة أنه «إذا قامت البيئة المنزلية بتشجيع وتعزيز نشاطات القراءة، توافرت لدى الطفل فرصة أفضل للتقدم بلا متاعب عبر المراحل الثلاث الأولى. ومن ناحية أخرى، فإنه إذا كان لدى البيئة المنزلية آليات قليلة لتيسير نمو القراءة، وإذا أكدت على التليفزيون باعتباره وسيلة التسلية، والنشاط، والتفاعل واكتساب المعلومات، فقد يعوق ذلك نمو القراءة عند الطفل». ويلاحظ أصحاب الدراسة في الختام أن «السن متغير مهم في دراسة المشاهدة التليفزيونية والقراءة، وأنه كلما كان سن الأطفال المندرجين في الدراسة أصغر، زاد احتمال ظهور تأثيرات البيئة المنزلية والمشاهدة التليفزيونية في السلوك الخاص بالقراءة»[10].

قراء كسالى

إن التجربة التليفزيونية إلى جانب أنها تقلل حاجة الأطفال إلى القراءة، عن طريق شغل ساعات كثيرة من يومهم، وإمكانات قراءتهم، قد تؤثر بصورة بعيدة الأثر في الطرائق العملية التي يقرأ بها الأطفال، أي ما يمكن تسميته بأسلوب قراءتهم. ففي الوقت الذي يستمر أطفال عصر التليفزيون في القراءة، والقراءة بسرور، إلا أن هناك تغيرا ما فيما يتعلق بقراءتهم.

تناولت إحدى المتحدثات في مؤتمر للتربويين ظاهرة جديدة أطلقت عليها «القارئ الكسول». إن هذا القارئ طفل ذكي من أسرة ذات تعليم عال لم يحقق بطريقة أو بأخرى الانتقال من اكتساب مهارة القراءة إلى استيعاب ما يقرأه. ويشير الناقد جورج ستينر George Steiner إلى هذا النوع من القراء حين يلاحظ «أن غالبية كبيرة من أولئك الذين اجتازوا نظام المدرسة الأولية والثانوية يمكن أن تقرأ، إلا أنها لا تقرأ»[11]. ويبدو أن المدرسين يصادفون المزيد من هؤلاء «القراء الكسالى» كل سنة.

إن «القارئ الكسول» يقرأ جيدا، إلا أنه لايقرأ بانتباه، أي أنه لا يقرأ بذلك القدر من الاستغراق والتركيز المطلوبين للفهم الكامل. فالتركيز، برغم كل شيء، مهارة تتطلب ممارسة لكي تنمو، وإمكانات طفل التليفزيون على تعلم تركيز الانتباه بوضوح والاحتفاظ بالتركيز محدودة. والواقع أن التشتت العقلي الذي تتطلبه التجربة التليفزيونية قد يجعل الأطفال الذين قبعوا

آلاف الساعات أمام الجهاز يدخلون عالم القراءة بطريقة أكثر سطحية، وأكثر نفادا للصبر، وأكثر غموضا.

وقد أشار المربي دونالد بار Donald Barr إلى هذا النوع من القراءة حين كتب يقول: «إن الأطفال قد يتناولون ويقلبون صفحات المزيد من الكتب، لكن ما يفعلونه يبدو لي في كل سنة أقل شبها بالقراءة». وهو، أيضا، يربط التدهور في القراءة بتجارب الأطفال التليفزيونية: «إن التليفزيون يجعلك تلقي نظرة عابرة على الصفحة، وذلك شيء يختلف كثيرا عن القراءة»[12].

لا كتب

إذا كان الأطفال يقرأون بطرق تختلف بصورة عميقة عن أساليب القراءة في عصر ما قبل التليفزيون، فكيف يؤثر هذا التغيير في ما يختارونه للقراءة؟ ثمة إشارات في الواقع إلى حدوث تغيير في أفضليات القراءة عند الأطفال، من حيث قراءة أنواع مختلفة من الكتب طلبا للمتعة أكثر مما كانت عليه الحال في الفترة التي سبقت المشاهدة التليفزيونية. وقد يعزى جانب من هذا التغيير إلى مضامين البرامج التليفزيونية التي يشاهدها الأطفال. فالتراجع الملحوظ في شعبية القصص الخيالية في العقدين الأخيرين، على سبيل المثال، يبدو مرتبطا بالمادة الخيالية المتاحة لهم على شاشة التيلفزيون[13]. إلا أن تغييرات أخرى في اهتمامات القراءة لدى الأطفال قد ترتبط بتأثيرات التجربة التليفزيونية الفعلية في أساليب قراءتهم.

يقول ناظر إحدى المدارس الانتقائية الخاصة بالأولاد في نيويورك:

على كثرة ما يشاهد أولادنا التليفزيون فإنني لم أجد أي ارتباط جوهري بين حجم المشاهدة التليفزيونية وتداول الكتب من المكتبة. والتغيير المهم يتمثل في أنواع الكتب التي يقرأها التلاميذ. هناك تراجع في الميل إلى الخيال، وقصص المغامرات من جميع الأنواع. لكن الاتجاه الجديد الذي يبدو لي، في الواقع، هو الميل الكبير لدى الأطفال لقراءة المواد غير الكتابية(*). وأبرز الأمثلة على المواد غير الكتابية، هو موسوعة جينس للأرقام القياسية

(*) مواد غير كتابية: non-book materials مواد تعليمية ليست على شكل كتب ـ مثل الأشرطة والأفلام. (قاموس التربية).

Guinness Book of Records. ويندرج جزء كبير مما يبدو أن الأولاد يقرأونه هذه الأيام في هذه الفئة.

ويتراءى للمرء أن «اللا كتاب» قد صمم لخدمة أسلوب جديد للقراءة. فهو ليس كتابا من ذلك النوع الذي يضم بين دفتيه قصة باقية أو دعوى متقنة العرض بحيث يقرأ من البداية إلى النهاية. إنه كتاب تكفيه نظرة عجلى، وقراءة متقطعة غير منتظمة، والمرور بصفحاته في خفة وسرعة، ولا يحتاج إلا إلى القليل من التركيز، والتفكير المركز، أو التخيل الداخلي، ويوفر معلومات كافية للمواد السارة بصريا لإلهاء الطفل الذي لا يشعر بالراحة تجاه الأسلوب التتابعي القديم للقراءة. واللا كتاب في صورته الأكثر نموذجية the ultimate nonbook، لا يخلو من القصة المترابطة منطقيا فحسب، بل يُستغني فيه تماما أيضا عن الكلمات.

وتوحي الأشكال التصويرية المتزايدة للكثير من كتب الكبار والأطفال بأن هذا الاتجاه قد بدأ بالفعل. (تندرج الكتب الفكاهية ضمن تصنيف مماثل، إلا أنها لم تعتبر قط كتبا «حقيقية»). وتدخل في صميم الموضوع حالة الـ manga gensho، أو ظاهرة الرسوم المتحركة، التي اكتسحت صناعة النشر اليابانية منذ سنوات قليلة، بقوائم طويلة من كتب الرسوم المتحركة الجديدة المغلفة ذات الكلمات القليلة والتي أغرقت سوق الكتاب. وقد لاحظ أحد الناشرين اليابانيين أن «ظاهرة الرسوم المتحركة الغبية هذه هي جزء من الثقافة الصاعدة للبطاقات البريدية. إننا ننتقل من ثقافة القراءة إلى ثقافة المشاهدين»[14].

إن جانبا مهما للـ «لا كتاب بالنسبة للطفل ذي التنشئة التليفزيونية يتمثل في سهولة الوصول الفوري لمحتواه. فليس هناك حاجة إلى بذل الجهد من أجل «التعود» في حالة اللاكتاب، وهي العملية التي لابد أن يقوم القارىء فيها بالانتقال من واقعه الخاص إلى عالم الكتاب. وكثيرا ما تكون هذه المرحلة الأولية مربكة في حالة الكتاب، إذ تظهر أسماء وأماكن جديدة ويتم تقديم حشد من الشخصيات الجديدة. لكن القارئ يثابر على القراءة، مدركا أنه سرعان ما يألف الكتاب ويبدأ في الاستمتاع به.

ليس هناك عملية «تعود» مرادفة في مشاهدة برنامج تليفزيوني. فعلى الرغم من أن قدرا من الارتباك بشأن الأسماء والشخصيات قد يوجد

أيضا عند بدء التجربة التليفزيونية، فإن البرنامج يمضي قدما بأقل مجهود يطلب من المشاهد لكي يميز ويتخيل ويفهم. إن العالم المادي للبرنامج التليفزيوني يغدو متاحا للعين على الفور. لا يحتاج المرء إلى تحمل أوصاف مرهقة فيما يتعلق بالناس أو الأماكن قبل أن تبدأ حركة الأحداث. وتملأ المادة البصرية الأعين والآذان بالكامل بحيث لا تتوافر للذهن فرصة للشرود أو فقدان الحماس.

ومثله مثل التليفزيون، لا يفرض اللاكتاب مطالب زائدة في البداية. فهو إذ يتكون من حقائق صغيرة ونتف من المواد الشائقة، لا يتغير على أي نحو في أثناء انهماك الطفل في متابعته. إنه لا يصبح أسهل، أو أصعب، أو أكثر إثارة، أو أكثر حبسا للأنفاس، بل يظل كما هو. وهكذا، فليس هناك حاجة «إلى تعود» على اللاكتاب لعدم وجود مراحل أبعد يمكن بلوغها. غير أنه بينما لا يتجشم قارئ اللاكتاب عناء الدخول الصعب إلى عالم بديل، فإنه أيضا لا يحظى أو لا تحظى بالإشباع العميق الذي قد تتيحه قراءة كتب حقيقية.

كثيرا ما يهدئ الآباء من قلقهم بشأن انغماس أطفالهم التليفزيوني مؤكدين أن أطفالهم ما يزالون يقرأون. لكن هذه القراءة التي يتحدث عنها الآباء تندرج في أحيان كثير في هذا التصنيف الفعلي للاكتاب:

«إن أندرو، كما تعرف، يحب التليفزيون لكنه لايزال يقرأ. وهو يقرأ كثيرا بهدف الاطلاع، ويحب البحث عن المعلومات وما إلى ذلك. لكنه يجد أن معظم المؤلفات الخيالية مملة، وكذلك سير حياة الأشخاص وما شابه ذلك من الكتب. غير أنه يقرأ جيدا، ولذلك فإنني لا أشعر كثيرا بالقلق».

سايرهم، إن لم تستطع التغلب عليهم

ثمة محاولة واعدة لوقف تراجع القراءة عند الأطفال أثناء وقت الفراغ نراها في أسلوب «سايرهم، إن لم تستطع التغلب عليهم»، الذي يحبذ استخدام التليفزيون ذاته كحافز لتشجيع الأطفال على المزيد من القراءة.

ففي السنوات الأخيرة ظهر فيض من البرامج التليفزيونية، البعض منها برعاية مؤسسات عامة، والآخر ترعاه شبكات التليفزيون نفسها، وكلها ذات هدف يحظى بتقريظ كثير ألا وهو تنمية القراءة بين الأطفال. وتستخدم

برامج مثل Reading Rainbow الشكل الأسلوبي للمجلات الفكاهية وأحد النجوم التليفزيونيين كضيف لإثارة الحماسة نحو القراءة بين جمهور الصغار الذين يحتاجون بجلاء إلى مثل هذه الإثارة. فهم، برغم كل شيء، يشاهدون البرنامج، وليسوا قراء كتاب!

وشملت جهود أخرى مشروع «اقرأ أكثر عن...» الذي بدأته شبكة CBS بالتعاون مع مكتبة الكونجرس، والذي جعل نجوم عدد من البرامج التليفزيونية التي أعدت على أساس كتب يخرجون عن أدوارهم عند العرض الدرامي لحض مشاهدي التليفزيون على الخروج وقراءة الكتاب ماداموا قد شاهدوا البرنامج. ولم تكف شبكة NBC عن الإعلان مرارا وتكرارا عن القراءة: «حين تغلق جهاز تليفزيونك، افتح كتابا»، كانت تلك هي الرسالة التي تبث مع انتهاء مسلسل محبب للأطفال في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر. وانضمت شبكة ABC، بالمثل، إلى جوقة الدعوة للقراءة بإنهاء بعض البرامج الخاصة المقتبسة للأطفال من الكتب قائلة «شاهد البرنامج - اقرأ الكتاب».

ومهما يكن فلم يصل أحد، سواء على شاشات التليفزيون التجاري أو العام، إلى حد اقتراح «عدم مشاهدة البرنامج، وقراءة الكتاب بدلا من ذلك». لكن هذا - كما يبدو - قد يكون رسالة أكثر تأثيرا. فبينما لا يتوافر دليل من أي نوع على أن الحض التليفزيوني يؤدي إلى حب القراءة أكثر، فإن هناك دليلا مهما يبين أنه عندما يتم التخلص من منافسة جهاز التليفزيون، يتحول الأطفال ببساطة إلى القراءة عوضا عن ذلك. وعلى سبيل المثال، فإن المدارس التي نظمت أسابيع «التليفزيون ممنوع!»، والتي خلالها توافق فصول الأطفال جميعها، وأحيانا المدرسة بأسرها، على نبذ كل مشاهدة تليفزيونية طوال أسبوع، تبين وجود زيادة لا بأس بها في القراءة خلال فترة التجربة. وتؤكد تقارير الآباء المبتهجة بشأن رؤيتهم لأطفالهم غير سابقا السابقين وقد انكبوا على قراءة كتاب ما أثناء أسبوع منع التليفزيون الاستنتاج القائل إنه في حالة عدم وجود التليفزيون فإن الأطفال سيتحولون إلى القراءة، وهو ما تؤكده أيضا تقارير أمناء المكتبات المدرسية بشأن زيادة تداول الكتب خلال أسبوع منع التليفزيون[15].

وفي الوقت الذي قد تكون الجهود الرامية إلى تشجيع القراءة عن طريق برامج التليفزيون محمودة النوايا، إلا أنها تمثل أملا خادعا بوجود

مخرج من وضع صعب. والواقع أن سبل تشجيع القراءة معروفة جيدا، وتحتاج إلى الوقت والجهد من جانب كل من الوالدين. وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب التربويين بقوله: «إن قراء المستقبل هم نتاج الأمهات والآباء الذين يقرأون لأطفالهم منذ الطفولة، يقرأون لهم خلال لحظات الهدوء اليومي ويقرأون لهم عند النوم ليلا. فعند ئذ فقط يغدو الكتاب عنصرا أساسيا من عناصر الحياة»[16].

القراءة بكثرة كما في الماضي

أحد العناوين العريضة يعلن أن «الأمريكيين في العصر الإلكتروني يقرأون كثيرا كما كان الحال فيما مضى»[17]. فهل لنا أن نعتقد أن تأثير التليفزيون في القراءة ليس ضارا كما بدا قبلا، أو أن الأمريكيين بعد بضعة عقود من التكيف مع الوسيلة الإعلامية الجديدة يعودون حاليا إلى الأساليب والأنماط السابقة لقراءتهم؟

إن المقالة سالفة الذكر تستند إلى مسح للقراءة من حيث الكم لا من حيث الكيف في الأساس، ففي حكمه بأن الأمريكيين يقرأون كثيرا كما في أي وقت مضى، تضمن المسح في تحليله الإحصائي كل نوع ممكن من القراءة، من التعليمات الخاصة بالأجهزة الجديدة إلى علامات الشوارع. وأورد المسح آخر أرقام توزيع الصحف والمجلات وإحصائيات مبيعات الكتب وخرج بالأنباء الواعدة بأن هذه الأرقام مرتفعة كما كان الحال في السابق. غير أنه في حين أن الأمريكيين قد يشترون الكثير من الكتب حقا، ويقرأون الكثير من المجلات، ويقضون الكثير من الدقائق يوميا في النظر إلى الأشياء المطبوعة من كل صنف، فإن نظرة أقرب إلى التغييرات المثيرة التي حدثت في صناعة الكتب والمجلات تضع نتائج المسح في منظور جديد. وربما لا يقلل التأثير النهائي لأشكال الاتصالات الجديدة حجم القراءة لدى الناس حاليا، إلا أن من الواضح أنه يغير ما يقرأه الناس والطريقة التي يقرأون بها. وعلى خلاف العنوان العريض الواعد، فإن هذا التغيير قد لا يكون مدعاة للاحتفال.

إن التغير الحاصل في عادات القراءة يبرز من خلال الاختلافات الواضحة في أنواع الكتب والمجلات التي تنشر وتباع اليوم. لقد ارتفعت

مبيعات الكتب، كما يرصد المسح، لكن الزيادة الأكثر إثارة حدثت في نشر ومبيعات الكتب المتخصصة: كتب الكمبيوتر، كتب الخبرات العملية، كتب الخدمة الذاتية، كتب تحسين الحمية والتجميل. ويبدو أن الكبار، أيضا، يتحولون إلى اللاكتب. إذ يمكن رؤية تغيير مشابه في تراجع أو توقف مجلات الاهتمامات العامة التي حققت انتشارا كبيرا يوما ما: مجلات مثل Life أو Look أو Saturday Evening Post، التي ضمت مقالات حول تشكيلة واسعة من الموضوعات. في مكان هذه المجلات نرى تكاثر مجلات واسعة النجاح حول موضوعات متخصصة ـ مجلات كمبيوتر، مجلات الأجهزة السمعية، مجلات عن التخطيط المالي، والعدو، والتنس، وما إلى ذلك.

وفي حين أن المقاييس الكمية، التي لا تميز بين قراءة رسائل علب الطعام وقراءة قصص تشيخوف القصيرة، تُبّين أن القراءة مازالت تشغل العديد من ساعات اليوم لدى الأمريكي العادي كما كانت الحال من قبل، فإن جميع المؤشرات تدل، عند دراسة الفروق الفرعية، على تناقص في قراءات أوقات الفراغ، وفي قراءات الترفيه والمتعة، وفي القراءة الهادفة لتوسيع مجالات الاهتمام، أو من أجل فهم أعمق للشؤون الخارجية أو العلاقات الإنسانية.

ما هي المسألة، إذن؟ إذا كان الناس قد تحولوا إلى التليفزيون طلبا للترفيه في أوقات فراغهم ـ إذا كانوا قد تابعوا إذاعة الأخبار لمعرفة الأحداث الجارية بدلا من قراءة الصحف والكتب، وإذا كانوا يشاهدون الأعمال الدرامية التليفزيونية بدلا من قراءة الروايات أو سير حياة الأشخاص ـ فهل يتعين النظر إلى ذلك كنوع من التغير غير المرغوب فيه؟ إن أولئك الذين يعتقدون أن عملية القراءة ترتبط ارتباطا عميقا بالقدرة على التفكير بوضوح، وبطريقة تحليلية يثقون بأن الأنماط الجديدة للقراءة لا تبشر بخير لمستقبل أمة ديموقراطية. فكما لاحظ تاونسند هوبز Townsend Hoopes في مؤتمر حول «النفور من القراءة»، وهو ما وصف بأنه كراهية القراءة بين القادرين عليها، فإن: «التفكير الواضح يتيسر بدرجة كبيرة، بل يعتمد تماما على القدرة على استخدام الأدوات المجربة للكلمات الدقيقة والمعاني الراسخة ضمن هيكل جملة متماسكة». ولا يمكن أن تكون العواقب واعدة بالنسبة لعملية ديموقراطية لأمة من الناخبين يبدون، طبقا لرأي السيد هوبز،

راضين بتفسيراتهم الخاصة الضحلة لما يقرأونه، ويقاومون بشدة أي التماس أو توجيه لشرح وجهات نظرهم أو الدفاع عنها بأي تحليل يستند إلى المنطق أو قوة الحجة. إن جماهير كهذه عرضة لوعود الديماجوجيين والانتهازيين فاقدي الضمائر الذين قد يمزقون نسيج الديموقراطية ذاته، إذا ما أعطيت لهم السلطة[18].

لماذا الكتب؟

عند مقارنة المشاهدة بالقراءة، لابد أن يكون السؤال الأخير هو: أهناك حاجة، أساسا، إلى القراءة في حياة البشر؟ هل يمكن للتجربة التليفزيونية، التي تلبي حاجات مختلفة وتشتمل على طرائق تفكير متنوعة، مع ذلك، ألا تعكس تغيرا في حاجات الناس وأشكال التفكير التي ستسود في المستقبل؟ هل هناك شيء عفى عليه الزمن أو يتسم بالتصلب، أو ربما حتى بالرجعية، فيما يتعلق بالدفاع عن القراءة في عصر التليفزيون؟

إن الإجابة لابد أن تكمن في ارتباط كل وسيلة بإنسانية جمهورها. ففي القراءة، يستثمر الشخص أقصى قدرة إنسانية فريدة لديه ألا وهي التفكير اللفظي. إنه ينقل الرموز الموجودة على الصفحة إلى شكل معين تمليه طبيعته الإنسانية الخاصة، ورغباته، ومخاوفه، وحاجاته الداخلية. وكما لاحظ الروائي جيرزي كوزنسكي Jerzy Kosinski فإن القراءة «تقدم تداعيات فجائية، غير مطروقة، وتبصرا جديدا في مراوحات حياة المرء الذاتية. فالقارئ تستهويه مخاطرة الإبحار في النص، وتأمل حياته الخاصة في ضوء المعاني الشخصية للكتاب»[19].

إن المشاهد في التجربة التليفزيونية تقوده مقتضيات وسيلة آلية، وهو عاجز عن استخدام أرفع قدراته العقلية تطورا أو تلبية حاجاته الانفعالية الفردية. إنه يتسلى حين يشاهد التليفزيون، لكن مشاركته السلبية تتركه كما هو دون تغيير من حيث المعنى الإنساني. ذلك أن المشاهدة التليفزيونية توفر للمرء اللهو والتسلية، بينما القراءة تتيح له النمو وتدعمه.

٦ التليفزيون والمدرسة

علاقة سلبية

طوال العقدين الماضيين تراكمت الأدلة على وجود علاقة بين المشاهدة التليفزيونية والتحصيل الدراسي. فكلما زادت مشاهدة الأطفال للتليفزيون، انخفض تحصيلهم الدراسي. وواقع الأمر أن الدراسات الكثيرة المشار إليها في الجزء الخاص بالتحصيل التربوي من البحث الذي أجراه عام 1982 المعهد القومي للصحة العقلية (NIMH) حول التليفزيون قد بينت ـ باستثناء دراسة واحدة ـ وجود علاقة سلبية . والسؤال الحاسم هو ما إذا كانت هذه العلاقة سببية ـ وما إذا كان التليفزيون، بعبارة أخرى، هو السبب في نقص التحصيل، ودون أن يكون هناك أي عامل متزامن آخر(1) .

إن إحدى أوضح الدلالات على وجود علاقة سببية بين المشاهدة التليفزيونية وانخفاض التحصيل الدراسي يمكن العثور عليها في دراسة كندية مبكرة قارنت بين درجات القراءة لدى أطفال في مدينة من دون تليفزيون (نوتل Notel) ودرجات نظرائهم في مدينتين أخريين، إحداهما بها قناة تليفزيونية واحدة (يونيتل Unitel) والأخرى توافرت لديها عدة قنوات لبضع سنوات (ملتيتل Multitel) .

لقد حقق الأطفال بثبات في «نوتل» درجات أعلى من الأطفال في المدينتين الأخريين.

وعلاوة على ذلك، حصل الأطفال في «يونيتل»، التي يقل فيها توافر التليفزيون، على درجات أعلى من نظرائهم في «ملتيتل». غير أنه بينما استقر الرأي نتيجة لذلك على وجود علاقة سلبية قوية بين المشاهدة التليفزيونية والتحصيل الدراسي، لم يثبت بالضرورة أن غياب التليفزيون كان مسؤولا عن حصول أطفال نوتل على درجات أعلى، أو أن المشاهدة التليفزيونية الأقل جعلت أطفال يونيتل يحققون نتائج أفضل من أقرانهم في ملتيتل . ومع ذلك، ربما كانت هناك متغيرات أخرى لها تأثيرها. ربما كان المدرسون في نوتل أفضل، وربما كان ثمة عوامل اجتماعية ـ اقتصادية لم تؤخذ في الاعتبار وقد تفسر الاختلاف في الدرجات.

ثم وصل التليفزيون إلى نوتل. فإذا كان هناك متغير آخر ما وراء الدرجات الأعلى في نوتل، فإنه بعد دخول التليفزيون إلى كل بيت من بيوتها، ستظل درجات القراءة هناك أعلى من نظيراتها في يونيتل أو ملتيتل. لكن الأمور لم تجر على هذا النحو. فحين أعيد اختبار الأطفال في نوتل بعد عامين من وصول التليفزيون إلى مدينتهم كانت درجاتهم قد انخفضت إلى مستوى المدينتين الأخريين[2] .

إن من المؤسف حقا أن علماء الاجتماع لم يتنبأوا حينما كان التليفزيون وسيلة جديدة، بالصلة المحتمل وقوعها بين المشاهدة التليفزيونية والتحصيل الدراسي. كما لم يقوموا بالاستعدادات الضرورية لإجراء الكثير من الدراسات المسبقة واللاحقة في مجتمعات متنوعة. فلو كانت النتائج قد جاءت مشابهة لتلك النتائج التي أسفرت عنها الدراسة الكندية، وهذا هو الأرجح، لأعطت دليلا لا يدحض على العلاقة السببية بين المشاهدة التليفزيونية وتناقص التحصيل الدراسي.

لكن الدراسة الكندية تقف وحدها غير قابلة للتكرار في كندا أو الولايات المتحدة (أو في غالبية دول العالم الغربي، في الواقع)، والسبب هو أن المجتمعات التي تخلو من التليفزيون المطلوب للدراسة السابقة واللاحقة لم تعد موجودة.

وتقدم أربع دراسات أخرى أكثر حداثة في النشر« ارتباطات سلبية قوية

نسبيا بين المشاهدة والتحصيل»، طبقا لنتائج البحث الذي أجراه المعهد القومي للصحة العقلية NIMH:

لقد قارنت الدراسة الأولى بين تلاميذ صف سادس جاءوا من بيوت يظل فيها جهاز التليفزيون مداراً باستمرار، وبين زملاء لهم يتم تشغيل التليفزيون في منازلهم بصورة أقل. وحين قورنت درجات القراءة لدى هاتين المجموعتين ظهر اختلاف جدير بالاهتمام. فقد ظهرت درجات ثلثي تلاميذ البيوت «المستمرة» سنة واحدة عل الأقل تحت مستوى الصف، بينما سجلت درجات ثلثي المجموعة «غير المستمرة» على مستوى الصف أو أعلى من ذلك[3].

وفي دراسة ثانية، ثبت أن الأطفال الذين سمح لهم بمشاهدة التليفزيون يوميا لساعات كثيرة في السنوات السابقة لدخولهم المدارس حصلوا على درجات في القراءة، والحساب، واختبارات اللغة عند نهاية الصف الأول أقل من الأطفال الذين كانت مشاهدتهم التليفزيونية قليلة خلال سنوات ما قبل المدرسة[4].

غير أن عوامل أخرى، وبخاصة اختلافات معامل الذكاء IQ، قد تدخل في هذه العلاقة الواضحة المعالم بين المشاهدة التليفزيونية والتحصيل الدراسي. لكن أصحاب تقرير NIMH يواصلون إبعاد هذا الاحتمال، مستشهدين بدراسة شملت 625 تلميذا، بدءا من الصف السادس إلى الصف التاسع من صفوف إحدى مدارس الضواحي الريفية الحكومية. لقد قارن الباحثون هنا التلاميذ الذين لديهم معامل ذكاء عال وكانوا من مشاهدي التليفزيون بغزارة مع تلاميذ يماثلونهم ذكاء، إلا أنهم قلما كانوا يشاهدون التليفزيون. وقد وجدوا درجات أعلى بصورة ملحوظة في اختبار الاستيعاب القرائي بين التلاميذ الأقل مشاهدة[5].

أما الدليل الرابع فقد قدمه مسح واسع النطاق من كاليفورنيا بعد فحص عادات التليفزيون والصفوف الدراسية، لأكثر من ثلاثمائة ألف من تلاميذ الصفين السادس والثاني عشر بالمدارس الحكومية. وقد أظهرت النتائج وجود علاقة إحصائية قوية بين المشاهدة التليفزيونية وانخفاض التحصيل الدراسي.

ولاحظ مراقب التعليم في كاليفورنيا أن متغيرات مثل الذكاء، ودخل

الوالدين، وعدد ساعات الواجبات المدرسية في المنزل، لم تغير العلاقة السلبية بين المشاهدة التليفزيونية والتحصيل الدراسي. وكان الدليل بالنسبة له من القوة بحيث جعله يعلق:« إن التليفزيون ليس ذا قيمة ويحسن إغلاقه»[6].

ربما يكون إثبات وجود صلة سلبية بين المشاهدة التليفزيونية والتحصيل التعليمي أكثر أهمية، في الحقيقة، من محاولة فهم السبب، في وجود مثل هذه العلاقة. بيد أن التفكير في السبب الذي يجعل للمشاهدة التليفزيونية عواقب سلبية على عمل الأطفال الدراسي شيء لابد منه. وتغطي الاحتمالات حيزا واسعا، فمن التغييرات السيكولوجية الواقعية في أنماط التفكير التي تحدث بسبب التعرض الشامل للتليفزيون خلال السنوات الأولى من الحياة حين تكون كيمياء الدماغ عرضة لتغير بيئي، إلى الانخفاض الواسع الانتشا ر في القراءة كنشاط حر، ومن ثم تجاهل ممارسة مهمة ذات مادة لفظية ضرورية لنمو تلك المهارات اللفظية المطلوبة في المدرسة.

غير أن التأثير الذي لا يقل أهمية والذي قد يثبت أن التليفزيون تركه على العمل الدراسي للأطفال، يكمن في حقيقة بسيطة، هي أن وجود التليفزيون في المنزل يجعل الأطفال يسهرون حتى وقت متأخر أكثر مما كانت عليه الحال مع أطفال عصر ما قبل التليفزيون، وذلك ما تؤكده إحصائيات تقرير إدارة الصحة العامة عن «التليفزيون والسلوك الاجتماعي». وهذا النقص القليل في النوم برغم أهميته قد يجعل الأطفال أقل انتباها في المدرسة. ويقول مدرس بإحدى المدارس الابتدائية في فرنسا معلقا على ذلك:« أستطيع التمييز بين الأطفال الذين توجد في بيوتهم تليفزيونات وأولئك الذين لا يمتلكونها؛ لأن هؤلاء الأخيرين أكثر تقبلا للأفكار والمعلومات في الصباح«[7].

وعلى الرغم من قوة الدليل على العلاقة العكسية بين مشاهدة الأطفال للتليفزيون وتحصيلهم الدراسي، إلا أنه لن يكون في الإمكان أبدا بصورة نهائية إثبات أن التليفزيون هو السبب الفعلي. وسوف يظل هناك دائما احتمال، وإن كان ضئيلا، على وجود عامل آخر مؤثر يجعل الأطفال الذين يكثرون من المشاهدة التليفزيونية أسوأ تحصيلا في المدرسة من الأطفال قليلي المشاهدة، أو ممن لايشاهدون التليفزيون بالمرة. وفي آخر المطاف،

فلابد أن تكون الفطرة السليمة مرشدا للآباء الراغبين في اتخاذ أفضل القرارات لمصلحة أطفالهم. لقد كانت الفطرة السليمة، وليس الاعتقاد في صحة الدليل العلمي، هي التي سيطرت على قرار أبوي مهم لأستاذ اتصالات في جامعة بنسلفانيا شارك في مؤتمر حول تأثير التليفزيون في تعلم الأطفال. فقد تساءل في لهجة خطابية: « هل يمكننا أن نقول إن الأطفال سيتعلمون أكثر إذا أبعدنا تليفزيوناتهم؟» وأجاب قائلا: « إننا لا نعرف» ، إلا أنه قدم عندئذ ملاحظة شخصية «وبما أنني قلت ذلك، فلابد أن أضيف أن لدي طفلين في التاسعة وفي الحادية عشرة من العمر ولا أدعهما يشاهدان أكثر من ساعة واحدة يوميا»[8].

سر الاختبارات الهابطة للاستعداد الدراسي

إن الفكرة القائلة إن مشاهدة التليفزيون قد تتسبب أو تسهم في تراجع التحصيل الدراسي تكتسب أهمية بالغة حين توضع في سياق تراجع المهارات الدراسية الأساسية الذي حدث في أنحاء البلاد في غضون العقدين الأخيرين.

ويمكن أن نجد أحد أبرز الأمثلة التي لوحظت على هذا التراجع في درجات اختبار الاستعداد الدراسي Scholastic Aptitude Test (SAT)، الذي يتعين على طلاب المدارس الثانوية العالية أداؤه للالتحاق بالكليات الانتقائية في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

إن نظرة عن كثب إلى درجات اختبار الاستعداد الدراسي لطلبة المدارس الثانوية خلال العشرين عاما الماضية، في محاذاة بعض الإحصائيات الخاصة بالمشاهدة التليفزيونية في أمريكا في أثناء سنوات تكوين هؤلاء الطلاب، قد تلقي بعض الضوء على غلبة التدني في اختبارات الاستعداد الدراسي.

فبين عامي 1964 و1981، هبط معدل الدرجات في الجزء اللفظي من اختبار الاستعداد الدراسي من 478 نقطة إلى 424 على مقياس يتدرج من 200 إلى 800 نقطة. وقد تصادف أن كان عام 1964، هو العام نفسه الذي أدى فيه هؤلاء الأطفال الأوائل الامتحان لدخول الكليات بعد تعرضهم لجرعات كبيرة من التليفزيون في أثناء سنوات تعلمهم اللغوي.

لايمكن استخدام هذه المصادفة البسيطة في التوقيت لإثبات العلاقة

السببية بين المشاهدة التليفزيونية وهبوط الدرجات، برغم أنها قد تثير الشكوك بشأن وجود مثل هذه العلاقة. فقد قيل مثلا، إن السبب في ذلك يعود إلى التغيرات في أسلوب التعليم أو لحدوث تغيير في الاختلاط السكاني لأولئك الذين يؤدون الاختبار[9].

لكن هناك عاملين يساعدان على تقوية حجة المشاهدة التليفزيونية كعامل مسبب للتراجع وهما: امتداد هذا التراجع وحقيقة أنه يتسم بتغييرات في درجتيه - أي بدرجات عالية أقل وبدرجات منخفضة أكثر - وليس انخفاضا شاملا. وتلقي إحصائيات ملكية أجهزة التليفزيون وأنماط المشاهدة الضوء على هذين العاملين.

إن التراجع المطرد في الدرجات يمكن بوضوح أن يرتبط بالزيادة المستمرة في ملكية التليفزيون في الولايات المتحدة من عام 1950 فصاعدا. فعلى الرغم من أن التليفزيون صار وسيلة إعلامية جماهيرية في عام 1950، فقد بيع أربعة ملايين جهاز فقط في تلك السنة. وفي عام 1955، كان لدى 67 في المائة من المنازل الأمريكية أجهزة تليفزيونية . وفي عام 1960 بلغت النسبة 88 في المائة، وفي عام 1965 ارتفعت إلى 92 في المائة، وفي عام 1969 كان لدى 95 في المائة من منازل الأمريكيين جهاز تليفزيون واحد على الأقل. وبحلول عام 1970 كانت 96 في المائة من الأسر الأمريكية قد انضمت إلى صفوف مشاهدي التليفزيون، أي جميع البيوت الأمريكية واقعيا [10]. ولو كانت المشاهدة التليفزيونية قد أثرت في القدرات اللفظية للطلاب الأمريكيين، فإن التراجع المطرد عاما بعد عام قد تفسره الزيادة المستمرة في الأسر التليفزيونية عاما بعد آخر، والعدد الأكبر من الأطفال ذوي التنشئة التليفزيونية الذين يؤدون الاختبار كل سنة. ولو أن التليفزيون كان مذنبا حقا لكان هذا التراجع قد استمر حتى بدايات الثمانينيات، حين وصل نتاج عام 1970 من الأطفال ذوي السنوات الثلاث إلى سن الالتحاق بالكليات . والواقع أن هذا المستوى الأدنى قد حدث ، مع بقاء الدرجات عند المستوى نفسه تقريبا منذ عام 1982.

ويكمن جانب آخر من الإجابة على السؤال المتعلق بسبب تراجع الدرجات بانتظام طوال ثمانية عشر عاما أو نحو ذلك في الزيادة المستمرة والكبيرة في وقت المشاهدة عند الأطفال منذ السنوات الأولى للتليفزيون. لقد كان

متوسط وقت المشاهدة الأسبوعي للمجموعة العمرية 2 ـ5 سنوات 2 , 23 ساعة في عام 1966 , و4 , 28 ساعة في عام 1969 , و41 , 30 ساعة في عام 1970 . كما لوحظت زيادة مشابهة للمجموعة العمرية 11ـ6 سنة، فمن 9 , 20 ساعة لمتوسط وقت المشاهدة الأسبوعي في عام 1966 إلى 49 , 25 ساعة في عام 1970[11]، وهي زيادة مهمة. وتبين دراسة أخرى أن تلاميذ الصفين الأول والسادس (وهما المجموعتان اللتان وقع عليهما اختيار الدراسة) كانوا يشاهدون التليفزيون يوميا بما يزيد نحو ساعة في عام 1970 على عام 1959، وأن المشاهدة أيام الآحاد ازدادت أكثر من ساعتين ونصف ساعة بالنسبة لتلاميذ الصف السادس[12].

وتتمثل إحدى الحقائق التي قد تساعد في شرح الهبوط الواضح في قوائم الدرجات العليا في أن التليفزيون كان يؤثر تأثيرا سيئا ومتزايدا في حياة الطلاب الأكثر موهبة. ففي عام 1959 وجد أن أكثر طلاب المدارس الثانوية ذكاءً هم الأقل مشاهدة للتليفزيون والأكثر نزوعا إلى القراءة من زملائهم في الدراسة الأقل موهبة[13]. ولما كان الموقف في تلك السنة قد أثبت العكس بين تلاميذ الصف السادس (كان أذكى التلاميذ في هذا الصف من بين الذين يشاهدون التليفزيون بكثرة)، فقد بدا ذلك بمنزلة اتجاه واعد. وجرى التأكيد للآباء القلقين على أن التليفزيون لن يكون له تأثير يذكر في مصائر أطفالهم، مادام أذكى التلاميذ عند الصف العاشر ينكبون على الكتب تماما كما فعلوا دائما.

لكن هذا الاتجاه المطمئن انعكس بحلول عام 1970، فقد أظهر تقرير إدارة الصحة العامة آنذاك أن عددا أكبر من تلاميذ الصف العاشر الأذكياء كانوا أكثر استخداما للتليفزيون منهم للكتب [14]. لقد أصبحت للتليفزيون اليد الطولى الآن في حياة المجموعة التي ضمت ذات يوم أكثر القراء نهما للقراءة ـ التلاميذ الأكثر موهبة.

وربما يساعد هذا التحول على تفسير اتجاه الهبوط المستمر في قوائم درجات أذكى طلاب الكليات من 1964 حتى اليوم. فلأن عددا أقل من الطلاب الموهوبين يشحذون قدراتهم اللفظية من خلال القراءة، فإن احتمال هبوط درجاتهم الشفهية يزداد. ومن المؤكد أن هذه المجموعة من الطلاب الأذكياء كانت هي التي حققت من قبل أعلى الدرجات في امتحانات الكليات.

والواقع أن هذه الدرجات بعينها انخفضت بصورة كبيرة جدا. وعلى سبيل المثال فإن النسبة المئوية لتسجيل العلامات الطلابية في النسق الذي يتراوح بين 600 و800، أي لأصحاب أعلى الدرجات المسجلة، خلال الفترة من 1972 إلى 1982، هبطت بانتظام، بينما كان أذكى الطلاب يزيدون مشاهدتهم التليفزيونية. وخلال تلك السنوات العشر انخفضت النسبة المئوية للطلاب في نسق الـ 600 أعلاه من 4, 11 في المائة من جميع الطلاب الذين أدوا الاختبار الشفهي إلى 7 في المائة. وبعبارة أخرى، كان هناك أداء متميز أقل في اختبارات الاستعداد الدراسي ومعدل أكبر للدرجات متوسطة المستوى.

قال أحد المسؤولين في مجلس الكلية مفسرا: « من أجل إحراز 600 درجة، يتعين على المرء أن يمتلك نوعاً أرفع من مهارات التفكير، مثل القدرة على تحليل العلاقات المعقدة» [15]. ويبدو أن مهارات التفكير هذه لم تعد شائعة اليوم كما كانت من قبل.

عمل الاستدلالات

طوال خمسة وعشرين عاما مضت أشرف التقييم القومي للتقدم التربوي The National Assessment of Educational Progress (NAEP)، الذي يرعاه المعهد القومي للتربية التابع للحكومة الفيدرالية، على إجراء اختبارات في موضوعات متنوعة لمجموعات تمثل أطفال المدارس في أنحاء البلاد. والغرض من هذا التقييم هو مراقبة التغييرات في أنماط التحصيل الدراسي في فترة زمنية معينة. ولم تكن الصورة التي تمخضت عنها الدراسات المسحية للتقييم القومي للتقدم التربوي NAEP مشجعة: تراجع مستمر في المهارات الدراسية في جميع مستويات الصفوف خلال السبعينيات والثمانينيات.

لقد أثارت إحدى المهارات الخاصة القلق بين الآباء والمربين بعد أن خضعت لقياس الـNAEP وأظهرت تراجعا خطيرا خلال السنوات الماضية.

وهذه المهارة هي مهارة القراءة المتقدمة(*) التي يطلق عليها «التفكير الاستدلالي» inferential reasoning. إن التفكير الاستدلالي، علاوة على أنه

(*) قراءة متقدمة Advanced Reading قراءة مواد عالية المستوى.

الآليات المجردة للقراءة، هو القدرة على استخلاص استنتاجات، وتكوين أحكام، وتفسير وخلق أفكار جديدة من خلال ما يقرأه المرء، وهو العامل الحاسم الذي يشكل أساس القراءة الهادفة في الأدب، والتاريخ، والعلوم، وغيرها من المجالات. ومن غير هذه القدرة المركبة، تصبح القراءة ممارسة سطحية.

هل هناك سبب للربط بين تراجع التفكير الاستدلالي، الذي من المؤكد أنه عامل مهم في التراجع المتزامن لدرجات اختبارات القدرات اللفظية المدرسية، وبين تجارب تمضية وقت الأطفال؟ هناك في الحقيقة، مشروع بارع تم تصميمه لهدف مختلف في جامعة هارفارد، يساعدنا على التوصل إلى هذا الربط بعينه[16].

لقد صمم الباحثون في جامعة هارفارد تجربة دقيقة بهدف دراسة تأثيرات وسائل الإعلام المختلفة على استيعاب الأطفال لإحدى المواد القصصية. ولما كانت نتائج هؤلاء الباحثين تتناول تحديدا تلك القدرة التي نناقشها هنا، على استخلاص الاستنتاجات، فيحسن بنا أن نمعن النظر في هذه التجربة:

من أجل إجراء الدراسة، أعد المشرفون على التجربة نسختين من قصة للأطفال تحمل عنوان «اللصوص الثلاثة» من تأليف تومي أنجرر. وكانت إحدى النسختين هي ببساطة «نسخة الكتاب» ذات القصة المصورة التي كان على أحد القائمين بالتجربة أن يقرأها على مجموعة واحدة من الأطفال. أما النسخة الأخرى، «نسخة التليفزيون» فكانت فيلما تليفزيونيا مقتبسا من القصة ذاتها، للعرض على شاشة فيديو أمام مجموعة ثانية من الأطفال. وللتخلص من أكبر عدد ممكن من المتغيرات، فقد استخدمت نسخة التليفزيون الرسوم التوضيحية للكتاب كمادة بصرية ، وقدمت الرسوم المتحركة فقط عن طريق كاميرا تتحرك فوق الصور الموجودة في الكتاب. وفضلا عن ذلك، فإن السرد الخاص بالنسخة التليفزيونية كان يتم بواسطة الشخص نفسه القائم بالتجربة الذي قرأ القصة في الواقع على الأطفال «نسخة الكتاب». وهكذا فإن النسختين كانتا متطابقتين فعليا من جميع الوجوه فيما عدا الوسيلة المستخدمة في البث . وكان الباحثون يأملون أن يكتشفوا بهذه الطريقة ما إذا كانت هناك اختلافات بين استجابة الأطفال

للتليفزيون، وللمادة المنقولة في «الحياة الواقعية» عن طريق كتاب حقيقي مزين بالصور.

كانت الاختلافات التي ظهرت في هذه التجربة مثيرة للذهول. فبالمقارنة مع الأطفال الذين شاهدوا العرض على التليفزيون، تذكر أطفال» نسخة الكتاب «المزيد من القصة حين جرى اختبارهم عند نهاية الجلسة، وكان بمقدورهم أن يستعيدوا تفاصيل أكثر حين طلب منهم أن يفعلوا ذلك بأنفسهم. وفضلا عن ذلك كان أطفال «نسخة الكتاب» أكثر استعدادا لتذكر الكلمات أو العبارات الدقيقة التي ظهرت في الكتاب، بينما كان أطفال الفيديو ميالين إلى إعادة الصياغة.

لكن طبقا لما قاله هوارد جاردنر Howard Gardener، مدير مشروع زيرو Project zero وهو المؤسسة البحثية المسؤولة عن التجربة، فإن «أشد اختلافات الوسيلتين الإعلاميتين إثارة للفضول هو الاختلاف في القدرة على استخلاص النتائج[17]. وعلى حد وصفه، فقد اتجه أطفال نسخة التليفزيون وأطفال نسخة الكتاب للوصول إلى الاستنتاجات نفسها بشأن القصة في أثناء اختبارهم اللاحق، وإن جاءت خطوط التفكير التي استخدمتها كل مجموعة لبلوغ تلك النتيجة مختلفة بصورة لافتة. وقد بدا أن أطفال التليفزيون يعتمدون بصورة طاغية، كما قال جاردنر، على الجوانب البصرية للقصة كما شوهدت على الشاشة. وكان من النادر أن يتجاوزوا تلك الحقيقة المحددة لتفسير معنى القصة. وعلى النقيض من ذلك، كما شرح جاردنر، « كان أطفال الكتاب أكثر استعدادا للاعتماد على تجربتهم الشخصية الخاصة وتطبيق معرفتهم الذاتية الواقعية».

ويخلص جاردنر إلى أن «التليفزيون، باختصار، يتبدى للأطفال كتجربة شديدة التفرد، يحتل المكون البصري، ضمن تخومها، الموقع الأبرز. ومن جانب آخر، فإن تجربة الكتاب تتيح مدخلا أوسع إلى لغة القصة وتوحي بامتدادات رحبة في الزمان والمكان. فالكتب قد تشجع القراء على إقامة صلات مع العوالم الحياتية الأخرى».

إن الدليل الذي تقدمه تجربة مشروع زيرو يخل بالتراجع الذي تم توثيقه جيدا فيما يتعلق بمهارة التفكير الاستدلالي، كما يتضح في الدراسات المسحية الدورية للـNAEP وفي تراجع المستويات العليا للامتحانات الشفهية

في اختبارات القدرات المدرسية. وليس هناك بالطبع دليل علمي يبين أن آلاف الساعات من المشاهدة التلفزيونية قد تسببت في تدهور مهارات التفكير المعقدة لدى الأطفال الأمريكيين. غير أن الفطرة السليمة، مرة أخرى، هي وحدها التي تثبت بقوة أنه إذا كانت القدرة على تفسير المادة اللفظية بطريقة ذات معنى لا تنمو في أثناء المشاهدة، فإن جزءا من الأطفال الذين تعودوا على طريقة مختلفة في معالجة المادة نتيجة لكثافة مشاهدتهم للتليفزيون، سيفتقرون إلى تلك المهارة الخاصة حين يتلقون المادة عن طريق وسيلة أخرى - أي عن طريق القراءة.

الكتابة حديث الكتاب

يتماثل مع النتيجة الطبيعية للتراجع في مهارات القراءة منذ منتصف الستينيات - إن لم يكن أكثر وضوحا - تدهور في مهارات الكتابة عند التلاميذ الأمريكيين. لقد استهلت صحيفة النيويورك تايمز إحدى مقالاتها قائلة «بسبب كارثة الأعداد المتزايدة من التلاميذ العاجزين عن كتابة جمل متماسكة أو حل مسألة حسابية بسيطة، وجدت كليات وجامعات متزايدة أن عليها القيام بعمل علاجي في هذه المهارات الأساسية»[18].

وطبقا لما أورده التقييم القومي للتقدم التربوي فإن الأداء الكتابي للتلاميذ الأمريكيين ظل يتدهور باستمرار. وتميل غالبية التلاميذ إلى استعمال أبسط تركيب للجملة وأكثر المفردات شيوعا عند الكتابة. فمقالات التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وأربع عشرة سنة أكثر فجاجة وتفككا، وتشوشا بكثير حاليا من كتابات المراهقين في العقود السابقة.

وتكتسب أهمية خاصة بين النتائج التي توصل إليها الـ NAEP تلك التي تتعلق بمهارات الكتابة المتقدمة. فمن بين طلاب المدارس الثانوية الذين اكتسبوا الآليات الأساسية للنحو، والتهجئة، والإعراب، والذين يستطيعون على الأقل كتابة «قصص مقبولة هامشيا» تدنت بصورة بالغة في العقد الماضي نسبة الذين يمكنهم تولي مهمة أكثر صعوبة، وهي تنظيم مناقشة والكتابة بصورة مقنعة، من 21 إلى 15 في المائة [19]. وعلى سبيل المثال، فقد أظهر اختبار يحتاج من الطلاب إلى كتابة تحليل «مفتوح النهاية» عن قصيدتين شعريتين أن 2, 51 في المائة من الطلاب الذين بلغوا سن السابعة

عشرة كتبوا تحليلات كافية في عام 1971، بينما كانت نسبة الذين استطاعوا ذلك في عام 1980 هي 2, 41 في المائة فقط[20].

وكما لاحظت الناقدة التربوية ديانا رافيتش Diane Ravitch بعد فحص كتابات إحدى المجموعات التي اختبرها الـ NAEP، فإن «الطلبة كتبوا كما لو أنهم يكتبون إعلانات تجارية. فلم يكن هناك ربط بين جملة وأخرى، ولافهم لمعنى كتابة فقرات، ولا إدراك للتسلسل المنطقي من فقرة إلى أخرى[21].

إن العلاقة بين تأثيرات التليفزيون في قدرات القراءة عند الأطفال وبين التراجع في مهارات كتابتهم واضحة. فالمربون يدركون جيدا أن التلميذ الذي لا يستطيع أن يقرأ بفهم حقيقي لن يتعلم الكتابة جيدا أبدا. يقول أحد مدرسي تعليم اللغة:«إن الكتابة، مع ذلك، حديث الكتاب، وأنت تتعلم حديث الكتاب بالقراءة فقط».

ويلاحظ أحد مدرسي اللغة الإنجليزية بمدرسة ثانوية:

«لا جدال في أن نجاحك بصفتك طالبا يعتمد بصورة ضخمة على مفرداتك اللغوية، سواء فيما تستطيع فهمه في أثناء القراءة أو في كيفية تفكيرك في أثناء الكتابة، وليس هناك طريقة لبناء معجم جيد إلا بالقراءة ـ ولا شيء سواها».

ويقول كارلوس بيكر، وهو مؤلف وتربوي:« إن تعلم الكتابة هو أصعب، وأهم شيء يفعله أي طفل. إن تعلم الكتابة هو تعلم التفكير»[22].

ومما لاشك فيه أن الأستاذ بيكر يشير إلى التفكير المنطقي اللفظي الذي تتطلبه الأعمال الذهنية. فمن أجل هذا العمل الذهني تكون المهارات المستخدمة في تعلم الكتابة بصورة فعالة ضرورية بالتأكيد. لكن الطفل يمكنه أن يتعلم طرائق تفكير أخرى، تتسم بسرعة التدقيق والتقبل البصري. إن تعلم الكتابة جيدا لن يشجع التفكير غير اللفظي، كما أن التفكير غير اللفظي، في المقابل، لن يفيد في اكتساب مهارات الكتابة. فالاثنان يعملان على نحو متعارض. على أن التفكير غير اللفظي هو الذي يتعزز بالمشاهدة التليفزيونية.

لم يتم تقييم الدور الذي لعبه التليفزيون في التراجع القومي لمهارات القراءة والكتابة بدقة ـ وربما لن يتحقق ذلك يوما. لكن الطابع غير اللفظي للتجربة التليفزيونية ، واندماج الأطفال العميق مع التليفزيون منذ سنواتهم

الأولى إلى نهاية الدراسة، يجعل الربط بين المشاهدة التليفزيونية ومهارتهم الكتابية غير الملائمة يبدو حتميا. وفي هذا الصدد، قال أحد أبرع كتاب أمريكا، وهو إ. ب. وايت E. B. White، ذات مرة «لست أعرف حقا ماذا يمكننا أن نفعل من أجل الكتابة، فيما عدا إلقاء جميع أجهزة التليفزيون بعيدا»[23].

ربما تراجعت قدرات القراءة والكتابة لدى طلاب المدارس الثانوية والكليات اليوم لأن بعض نواحي التعلم اللفظي الأساسية التي عادة ما تكتسب خلال القراءة قد أهملت نتيجة للمشاهدة التليفزيونية.

يقول أستاذ للغة الإنجليزية في جامعة ميدويسترن:« كثيرون من طلابي يبدون كأنهم لايستطيعون أن يسمعوا حين ينبغي أن تنتهي جملة ما أو حيث يجب أن توضع شولة منقوطة (؛) أو حيث يجب كتابة فاصلة. إن المسألة ليست مسألة تلف عضوي، فآذانهم تسمع الكلمات، لكن الآلية التي تميز فكرة تامة وتفرق بينها وبين فكرة ناقصة، تبدو مفقودة. إن تفكيرهم لايبدو أنه يمتلك بنية «الفاعل ـ الفعل» في داخله، وهم عاجزون عن تنظيم الجمل التالية في مقابل بنية «الفاعل ـ الفعل» تلك، وتبيان ما إذا كانت تحتاج إلى علامة وقف تامة (نقطة) عند نهاية الجملة، أم أنه لا ضرورة لوضع تلك العلامة عند النهاية. وأرجو الانتباه إلى أن هؤلاء التلاميذ يعدون من النابهين. فليس هناك غبار على تفكيرهم. إلا أنه ببساطة مختلف في بعض النواحي».

عامل أساسي

كثيرا ما يؤكد الناس أن التليفزيون لايمكن بالتأكيد أن يلقى عليه اللوم كله. وفي الوقت الذي يعترف فيه الآباء والمربون بأن للتليفزيون بعض التأثير في أنماط التحصيل الدراسي للأطفال، كثيرا ما يطرحون للنقاش عوامل مهمة أخرى. ومع ذلك، يمكن ملاحظة أن التليفزيون غالبا ما يتشابك بقوة مع كل من هذه العوامل. وعلى سبيل المثال، فقد سئلت مجموعة من الخبراء أخيرا عن تفسير النتائج المحزنة للـNAEP التي تبين ضعف مهارة التفكير الاستدلالي بين طلاب المدارس الثانوية الأمريكية. وقد خلصت هذه المجموعة إلى عدد من التفسيرات المحتملة الأخرى بجانب عادات المشاهدة التليفزيونية. وجاء ضعف القراءة من أجل المتعة ونقص التدقيق

في مناهج المدارس الثانوية في مقدمة الأسباب المحتملة لهذا التراجع. والواقع أن التليفزيون يشارك بعمق في كل من التغييرين أيضا.

وتوحي الفطرة السليمة بأن الانتباه المسترخي، غير المركز الذي يخصص عادة لمشاهدة التليفزيون قد يؤثر في أساليب قراءة الأطفال ويجعلهم يقرأون بتفكير واستدلال أقل، وتصبح القراءة أقل نفعا، وبعبارة أخرى، أكثر شبها بالتجربة التليفزيونية. ويرتبط ضعف القراءة من أجل المتعة ارتباطا أوضح بزيادة المشاهدة التليفزيونية بوصفها مصدرا رئيسيا للتسلية لدى غالبية الأطفال الأمريكيين. غير أنه إذا كان التحصيل المدرسي للأطفال قد تدهور نتيجة لضعف التدريس الصارم في المدرسة، فقد ينظر إلى ذلك أيضا باعتباره ذا صلة مباشرة بالتليفزيون.

لقد ظهرت للعيان برامج واستراتيجيات أقل تشددا وأضعف توجها نحو القراءة في المدارس تحديدا، في محاولة للتكيف مع نوع جديد من التلاميذ الذين تعودوا الحصول على التسلية عن طريق الإيقاع التليفزيوني السريع، ولم يألفوا نهج إيلاء انتباه مركز ومتواصل للموضوع المطروح أمامهم. إن الأطفال الذين شاهدوا التليفزيون في سنوات حضانتهم بدلا من لصق الصور في سجل القصاصات أو بناء القلاع بالمكعبات، الأطفال الذين اعتادوا التحول بسرعة إلى برنامج آخر إذا شعروا بالضجر من البرنامج الذي يشاهدونه، الأطفال الذين اعتادوا العرض المرئي السريع للمشاهدة على شاشة التليفزيون ولم يألفوا الجهد العقلي لمشهد يتضح ببطء أمامهم عبر الوصف اللفظي، هؤلاء الأطفال ليس من المحتمل أن يتكيفوا بسهولة مع أسلوب المناهج المدرسية القديمة، تلك المناهج التي أسهمت في تربية قراء وكتاب أكفاء. وهكذا تغيرت المدارس، بالضرورة، مدفوعة بآمال واهية بأنه سيتم عمل برامج لمعرفة الوسائل الإعلامية، وتخصيص «برامج تعليمية» تليفزيونية للواجبات المنزلية، وتشجيع الكتابة عن طريق ورش الإنتاج التليفزيونية التي يتعين على الأطفال فيها أن يكتبوا نصوصا أولا، وما إلى ذلك.

إنشاء نقطة انطلاق فوق حجر عثرة (الدراية بوسائل الاتصال)

إن إحدى الطرق التي غير بها التليفزيون وجه التربية في أمريكا اليوم

هي بلا جدال ظهور إضافة جديدة تتزايد شعبيتها إلى المنهج الدراسي التقليدي، وهذه الإضافة هي دراسة التليفزيون ذاته. وتقدم هذه المقررات، التي تختلف مسمياتها ما بين «الدراية بوسائل الاتصال» و«الوعى النقدي» و«مهارات المشاهدة»، وغيرها من المسميات، فرصة للتعذيب، وذلك بإقامة نقطة انطلاق فوق حجر عثرة عن طريق استخدام الوسيلة الإعلامية نفسها التي خلقت مشاكل تربوية كثيرة من أجل تحويل فصل دراسي من «التليفزيونيين» Videots إلى مشاهدين انتقائيين ناقدين.

وينحو التفكير البراجماتي وراء اتجاه «الدراية بوسائل الاتصال» المنحى التالي:

«إن الأطفال يشاهدون بالفعل الكثير مما يعرض في التليفزيون، ولا يمكن عمل ما هو أكثر في هذا الصدد. فلنساعدهم على الخروج من المشاهدة بفائدة أكبر بمعاونتهم على أن يكونوا أكثر انتقادا لما يشاهدونه. وعن طريق تعريف الأطفال بتشوهات الواقع التي قد يجدونها في برامج التليفزيون، نجعلهم أقل قابلية للتأثر بوسائل التليفزيون وأساليبه».

وتقدم مديرة إدارة التربية في ولاية نيويورك تبريرا مطابقا: « إن من غير الواقعي أن نتوقع من الأطفال ـ أو الآباء ـ أن يقوموا بإغلاق التليفزيون ويكرسوا أنفسهم للكتب بدلا من ذلك». وبدلا من انتقاد التليفزيون، تقترح المديرة أن تساعد المدارسُ الصغارَ على أن يصبحوا مشاهدين أفضل[24].

وهكذا يجد الأطفال، ويالسرورهم، أنه عوضا عن الدراسات الشاقة التي تتطلب القراءة والكتابة والتركيز، يمكنهم الاسترخاء في مقاعدهم و«انتقاد» التليفزيون، بل مشاهدة البرامج التليفزيونية في فصولهم الدراسية ذاتها. إن وقت المدرسة في أعداد متزايدة من المدارس الأمريكية يخصص للمناقشات الخاصة بالتليفزيون ولمشاهدة برامج مسلية مثل «Tuned-In» الذي مولته وزارة التربية في الولايات المتحدة، ويستخدم قالب كوميديا المواقف لمساعدة أطفال المدارس المتوسطة Junior High School[*]. في الحصول على معايير معينة لأجل مشاهدتهم،وربما من أجل فهم نضال آبائهم للرقابة على التليفزيون. في حادثة ضمن برنامج « Tuned -In»، مثلا،

(*) Junior high school (US): مدرسة للصفوف السابع والثامن والتاسع من نظام الدراسة ذي الاثني عشر صفا ، وتقابلها المدارس الإعدادية أو المتوسطة في البلدان العربية ـ المترجم.

يظهر الطفل جالسا في فراشه، ويقوم بأداء واجبه المنزلي أثناء مشاهدة التليفزيون، بينما تدخل أمه الحجرة قائلة، «لماذا تشاهد هذا الهراء؟ إن ليونارد بيرنشتين على القناة الأخرى».

وهناك برنامج آخر شق طريقه إلى فصول الدراسة، وخصص هذه المرة لتلاميذ الصف الثاني والثالث والرابع، ويحمل اسم «الإفادة القصوى من التليفزيون». ولأن البرنامج من إنتاج مركز Yale Family Television Research and Consultaion، ومن غير المدهش أن تمويله يأتي من مؤسسة الإذاعة الأمريكية، فإنه يأمل أن يساعد الأطفال على التمييز بين الواقعي والوهمي على شاشة التليفزيون، بمقارنة شخصية «الرجل الأخضر» Incredible Hulk، مثلا ، بأناس حقيقيين التقاهم الأطفال، ودعوة الأطفال لمقارنة أسرهم هم بأسر التليفزيون، مشيرا إلى أن الإعلانات التليفزيونية كثيرا ما تغالي في قيمة وجاذبية سلع متنوعة.

هناك ما يدعو إلى الشك في أن يتعلم الأطفال حقا مشاهدة التليفزيون بصورة انتقادية أكبر، أو يحصلوا على المساعدة لفهم الفرق بين المواد التليفزيونية المصطنعة وحقائق الحياة بواسطة برامج الدراية بوسائل الاتصال، على الرغم من أن معظم الأطفال يبدون في الغالب قادرين على معرفة الفرق بين «الرجل الأخضر» والشخص الحقيقي، من دون مساعدة كبيرة عند وصولهم إلى الصف الثاني أو الثالث. ومع ذلك، فحتى لو توافرت القدرة لمقرر جيد التصميم يستهدف إغناء التجارب التليفزيونية للأطفال وجعلها أعمق مغزى، يظل هناك السؤال: في عهد يشهد انحدار معرفة القراءة والكتابة، وتناقص قدرات الصغار وهم يكبرون على القراءة والكتابة بصورة جيدة، وفي الوقت الذي نعرف أن الأطفال يقضون أربعة آلاف ساعة في مشاهدة التليفزيون خلال دراستهم، زيادة عما يقضونه فعليا في فصول الدراسة، أليس من مسؤولية المدارس أن تصلح هذا الاختلال بين التعلم البصري والتعلم المطبوع بتكريس كل طاقاتها لحماية معرفة القراءة والكتابة، وتنمية المهارات المعرفية التي تتيح للأطفال الانتفاع بتراث الماضي من تاريخ، وعلم ، وأدب، وموضوعات تقليدية أخرى؟

يقول المربي جورج جوردون، أستاذ الاتصالات في Muhlenberg College في بنسلفانيا، في رسالته إلى جريدة نيويورك تايمز ردا على مقال عن

التليفزيون التربوي للأطفال:«لست أظن في ضوء ريادة تربوية من هذا النوع أننا في حاجة إلى إنفاق الوقت والجهد، متسائلين عن سبب عجز الطلاب الذين يدخلون الكليات هذه الأيام عن القراءة والكتابة وإجراء عمليات القسمة»[25].

التليفزيون والواجب المنزلي

منذ عدة سنوات اشتكى مدرس بإحدى المدارس المتوسطة قائلا:

«إن إعطاء واجب منزلي مساء الثلاثاء ليس سوى قضية خاسرة. فكيف يستطيع أ ي شخص منافسة Fonz وLaverne و Shirley و Susanne Somers؟». إن البرامج قد تتغير من سنة إلى أخرى، لكن فتنة التليفزيون تظل كما هي[26].

ومع ذلك، لا يرغب كثير من المدرسين اليوم في التخلي التام عن الواجب المنزلي، في ظل وجود أعداد كبيرة من التلاميذ الذين لا يكملون أداء واجباتهم المنزلية ببساطة، نتيجة للمشاهدة التليفزيونية المنزلية في كثير من الحالات. ويتمثل الحل الوسط الشائع اليوم في تخصيص برامج تليفزيونية للواجبات المنزلية، فإما أن يعين المدرسون صراحة برامج تربوية خاصة على غرار National Geographic، آملين على الأقل أن يتحول الأطفال عن برامجهم التليفزيونية المعتادة إلى موضوعات جديرة بالاهتمام، أو أن يحددوا البرامج المعتادة بأنفسهم، وهو أمر غير مستبعد، لما قد يكون لها من قيمة تربوية. أحد المدرسين، مثلا، حدد لتلاميذه البرنامج الذي حظي بشعبية ذات يوم «Lou Grant» كواجب منزلي. وأقر في تبرم بأن ذلك «هو الواجب الوحيد الذي أعرف أنهم سيؤدونه».

بالنسبة لمعظم المدرسين، فإن تحديد مشاهدة تليفزيونية للواجب المنزلي ليس مناورة يستخدمونها باستخفاف للتخلص من واجباتهم، بل هي عمل من أعمال اليأس الحقيقي. ففي مواجهة فصل دراسي من الأطفال ذوي المهارات اللفظية الضعيفة وفاقدي الميل للقراءة والكتابة، يتعلق المدرسون بحبال واهية على أمل أنهم بإشراك طلابهم في دراسة وسيلتهم الإعلامية المفضلة قد ينجحون في تمرير بعض الدروس ذات الطابع التقليدي. ويشرح مدرس بإحدى المدارس الثانوية ـ تم تخصيص فصله الإنجليزي بالكامل

لعمل برامج فيديو ودراسة البرامج المقدمة على شاشة التليفزيون - ذلك بقوله: «إن أحد أهدافي الأساسية في هذا الفصل استخدام الفيديو كأداة حفز على القراءة والكتابة. نحن نكتب النصوص ونقرأ عن التليفزيون وحينما أكلف الطلاب بمشاهدة التليفزيون يكونون على وعي بالمضمون بالإضافة إلى الجوانب الفنية. إنهم يعرفون أنها ترتبط ببعضها البعض كما يرتبط شكل الكتاب بمضمونه»(27).

ليس من الصعب أن ندرك سبب وجود قائمة من أجل دخول الصف «الإنجليزي» لهذا المدرس، أو السبب في أن عددا متزايدا من المدرسين يتحولون إلى التليفزيون لجعل صفوفهم أكثر جاذبية للأطفال من جيل التليفزيون. إن عمل أفلام فيديو في حجرة الصف ومشاهدة كوميديات المواقف لأجل الواجب الدراسي المنزلي نوع من اللهو. لكن المكابدة مع تعقيدات إحدى السونيتات، والمجاهدة من أجل المعاني الدقيقة، والتعبيرات الساخرة، أو النماذج التي تحتذى يمكن أن تعد عملا بصرف النظر عن مدى ما تبرهن عليه تجربة القراءة الأخيرة من إشباع.

إن المشكلة التي تنجم عن استعمال التليفزيون كوسيلة حفز تأتي حين يتعين على الطلاب الانتقال من القراءة والكتابة المرتبطتين بالتليفزيون، واللتين تبدوان إلى حد كبير نوعا من اللهو في حجرة الدراسة، إلى تلك الأشكال من القراءة والكتابة التي تقود إلى التفكير الواضح والفهم الأفضل لعالم الناس والأحداث، أي إلى قراءة الأدب والتاريخ، أو إلى كتابة الأفكار والحجج المنطقية، جيدة العرض. فكما شرح أحد طلاب الصف «الإنجليزي» المتمركز حول التليفزيون، حين سئل عن سبب اختياره هذا الصف بدلا من صف المقرر الإنجليزي المتركز حول الكتاب «إن الصف الإنجليزي العادي يغدو مملا، إذ عليك الجلوس فحسب وقراءة الكتب».

تتزايد شعبية برامج الدراية بوسائل الاتصال وغيرها من البرامج التي تتمحور حول التليفزيون. وتحضر أعداد قياسية من المدرسين هذه الأيام اجتماعات وحلقات دراسية حرة حول موضوعات مثل «تنمية الوعي التليفزيوني» و«القراءة والتليفزيون» وما شابه ذلك(28). وترمز هفوة غير مقصودة صدرت عن مشارك في أحد هذه الاجتماعات (أو ربما عن المراسل الصحفي الذي وصف هذا الاجتماع في مقال للجريدة)، إلى الخلل الخطير

الناجم عن استخدام التليفزيون كأداة تعليمية. ففي ندوة بعنوان «كيف يمكن تحويل التليفزيون من عامل سلبي مؤثر في القراءة إلى معين سمعي بصري على القراءة؟»، قالت إحدى المدرسات المشاركات علنا: « إن التليفزيون حقيقة واقعة، وعلينا أن نساعد الآباء والمدرسين على إدراك تأثيرات التليفزيون، وأن نطور استراتيجيات لزيادة المشاهدة إلى أقصى حد». زيادة المشاهدة إلى أقصى حد؟ ولما كانت قد استطردت كي تعدد الخطط والأساليب التي ينبغي على الآباء استخدامها للحد من مشاهدة الأطفال للتليفزيون، فإن من المرجح أنها قصدت أن تقول إن القراءة، وليس المشاهدة، هي التي ينبغي زيادتها إلى أقصى حد. ومهما يكن، فإن هفوتها كانت ملائمة بصورة لافتة للنظر.

فبرامج الدراية بوسائل الاتصال، والبرامج التليفزيونية الرامية إلى تشجيع القراءة، وتخصيص برامج تليفزيونية للتحليل والدراسة ـ كل هذه الخطط أقل ملاءمة لتحسين مهارات القراءة أو الكتابة منها إلى زيادة الوقت الذي ينفق على المشاهدة التليفزيونية. فمع بقاء المدرسة المعقل الأخير للكلمة المطبوعة والفرصة الأخيرة لضمان بقائها، فإن أي تحرك للمؤسسة التربوية بعيدا عن هذا الهدف المتميز، المهم بكل ما في الكلمة من معنى، لابد أن ينظر إليه على أنه عديم الجدوى بل محفوف بالمخاطر. ولقد أكد ذلك دانيل بورستين Daniel Boorstin أمين مكتبة الكونجرس، في دعوة أطلقها أخيرا للقراءة. فقد كتب يقول: «من أجل أن نستفيد من شعب من القراء، لابد أن يكون لدينا مواطنون يستطيعون القراءة. إن واجبنا المحدد الأول هو عدم السماح للصورة الإلكترونية المنشورة أو الكلمة الشائعة بأن تحول بيننا وبين الجهد الأساسي لتربيتنا. لابد لنا من تنشئة مواطنين مؤهلين لاختيار تجربتهم بأنفسهم، من كتب الماضي والحاضر، وبذلك نؤمن الاستقلالية التي يستطيع القارئ وحده أن يستمتع بها»[29].

أجهزة الكمبيوتر في حجرة الدراسة

ماذا عن أجهزة الكمبيوتر؟ هل تنطبق جميع المشاكل التربوية المرتبطة بمشاهدة الأطفال للتليفزيون واستخدام البرامج المتمركزة حول التليفزيون في المدارس على مجال «تعلم الكمبيوتر» الذي ينتشر بسرعة ويرسي قواعده،

جنبا إلى جنب مع «الدراية بوسائل الاتصال» بوصفها منهجا مهما في التربية الأمريكية؟

إن اشتمال غالبية أجهزة الكمبيوتر المستخدمة في البرامج التربوية على شاشة عرض شبه تليفزيونية تظهر عليها المواد، يشجع الميل إلى مساواة استعمال الكمبيوتر بمشاهدة التليفزيون. بيد أنه لابد من توضيح فارق مهم. فبينما تعرض برامج التليفزيون، سواء في البيت أو المدرسة، مواد بصرية متحركة بمصاحبة الصوت، وبذلك تقدم تجربة تهيمن فيها العناصر البصرية على اللفظية (كما تبين الأدلة الواردة في فصول عديدة من هذا الكتاب)، فإن المواد التي تظهر على شاشات الكمبيوتر إما أن تكون بصرية (كما في برامج ألعاب الفيديو مثل Pac Man) أو لفظية في الأساس. وعلى سبيل المثال، فإن معالج الكلمات ينتج كلمات، وليس صورا، على شاشته المرئية. أما الكمبيوتر المتصل ببنك ذاكرة فقد يمكنه اكتشاف كنز دفين من المعلومات التي ترتهن بإشارة من صاحب الحق في الاستخدام عن طريق الكلمات التي تظهر على الشاشة المرئية. وهناك بعض الشك في أن أجهزة الكمبيوتر قد تكون مصدرا قيما للطلبة المتقدمين المشتغلين بالبحث، كما هي الحال مع العلماء والصحافيين، وغيرهم ممن يحتاجون إلى الوصول بسرعة إلى كم كبير من المواد المصنفة.

أما بالنسبة لطلاب الدرجات الأدنى من السلم التربوي، فقد يكون وجود أجهزة الكمبيوتر في حجرة الدراسة أقل نفعا مما يعتقد الكثيرون حاليا. وقد تؤدي أجهزة الكمبيوتر في بعض الحالات إلى تعقيد وتشوش المسائل البسيطة.

ويمكن رؤية مثال على ذلك في عدد من برامج الكمبيوتر التي تقترح مساعدة مستخدمي الكمبيوتر على تحسين مستوى تهجئتهم - وهو بالتأكيد ما يحتاج إليه عدد كبير من تلاميذ المدارس الابتدائية. لكن عملية تحميل برنامج تهجئة على الكمبيوتر من أجل مراجعة تهجئة مادة مكتوبة ستأخذ حتما، كما أشار أحد النقاد أخيرا، وقتا أطول مما يتطلبه استعمال القاموس العادي[30].

ومما لاريب فيه أن هناك أعدادا من برامج الكمبيوتر المتاحة لاستخدام المدارس والتي تضطلع بعمل تربوي قيم من خلال توفير الممارسة للأطفال

في مهارات لفظية متنوعة. إلا أنه على الرغم من الجانب المشرق لكمبيوتر عصر الفضاء في حجرة الدراسة، فقد يمكن مع ذلك مقارنته مع وسيلة تعليمية أكثر تواضعا بكثير ظلت لوقت طويل الدعامة الأساسية لمدرس حجرة الدراسة الابتدائية ألا وهي: كتاب العمل(*) ففي كل حالة تتوافر المادة المقننة لملء وقت الطالب بطريقة مأمولة الفائدة، ومن دون حاجة إلى تدخل المدرس، الذي يتفرغ نتيجة لذلك للعمل مع أحد الأطفال أو مع عدد قليل منهم. ولاشك في أن المدرس الذي يعمل بمفرده مع أحد التلاميذ، المدرس الكفء الذي يمكنه أن يدرك الحاجات الخاصة للطفل، وأن يشرح، ويناقش، ويحلل، وربما أن يلهم، سيوفر دائما تجربة تربوية أكثر نفعا من كتاب العمل أو برنامج الكمبيوتر. ومادام المدرسون الأكفاء قد باتوا سلعة نادرة، وأصبحت الفصول الصغيرة ميزة للأقلية المتفوقة، فإن هناك حاجة باستمرار إلى وسائل تعليمية جذابة، لملء الوقت.

لكن المقارنة بين برامج التعليم بالكمبيوتر وكتب العمل ربما تفيد في تذكرة جمهور مفعم بالأمل، بأنه في الوقت الذي قد تصلح فيه هذه الوسائل الآلية لتعزيز مهارات نوعية محددة، فإن الأهداف المهمة للتربية ـ وهي القدرة على التفكير بوضوح، والقدرة على استيعاب أفكار الآخرين المعقدة، والقدرة على التوصل إلى أحكام صائبة، وما إلى ذلك، مثل هذه الأهداف ليس من المحتمل أن تتحقق من دون مرشد بشري: المدرس القادر على تقديم المصادر المميزة، التي لايمكن التنبؤ بها ـ المصادر المرنة، والخصبة ـ لجهاز الكمبيوتر الشخصي المدهش الخاص به (أو بها)، الدماغ البشري.

(*) Work book كتاب عمل: كتاب يحتوي على تعليمات للتنفيذ وفراغات للكتابة. (قاموس التربية).

7 التليفزيون والعنف (مدخل جديد)

البحث عن صلة

ظل موضوع العنف على شاشة التليفزيون وتأثيراته المحتملة في الأطفال مثار خلاف في الرأي لفترة طويلة، وقد أجريت دراسات في هذا الموضوع، بناء على طلب الكونجرس الأمريكي في الأعوام 1954 و1961 و1964 و1970 و1977. وحينما نشر تقرير إدارة الصحة العامة عن «التليفزيون والسلوك الاجتماعي»، خصصت أربعة من مجلداته الخمسة للدراسات التي تناولت تأثيرات مشاهدة برامج العنف التليفزيونية. والواقع، أن معظم الندوات، والمقالات، والدراسات التي تعرض لتأثيرات التليفزيون في الأطفال تركز بحثها على هذه المسألة وحدها.

ولهذا الاهتمام الشديد بتأثيرات العنف في التليفزيون في الأطفال ما يبرره: فعدد الأحداث الذين ألقى القبض عليهم لارتكابهم جرائم عنف خطيرة ارتفع بنسبة 1600 في المائة بين عامي 1952 و 1972، استنادا إلى أرقام مكتب المباحث الفيدرالي FBI[1]. وطبقا لما جاء في دراسة متميزة أجريت

في مركز دراسات علم الإجرام والقانون الجنائي بجامعة بنسلفانيا، تمت مقارنة مجموعتين كبيرتين من شباب المدن بلغت إحداهما سن الرشد في الستينيات والأخرى في السبعينيات. وقد أظهرت مجموعة السبعينيات أن معدل عمليات القتل والعنف الأخرى كان أكثر ثلاث مرات من نظيره في مجموعة الستينيات[2]. ولما كانت الفترة ما بين عامي 1952 و1972 هي الفترة الفعلية لتعاظم شأن التليفزيون في حياة الأطفال الأمريكيين، لأن الأطفال الذين بلغوا سن الرشد في عام 1960 يعدون، جوهريا، من جيل ما قبل التليفزيون، ومع تشبع البرامج التي يشاهدها الأطفال بالجريمة والتخريب، فقد بدا أن من الصواب البحث عن صلة بين المسألتين.

بيد أن هذه الصلة لاتزال تراوغ علماء الاجتماع والباحثين، على الرغم من جهودهم الكبيرة لإثبات وجودها. فالعنف البغيض حقا، السادي، المذهل في تنوعه، الذي يظهر على شاشات التليفزيون في البيوت لابد أن تكون له تأثيرات عميقة في سلوك الأطفال، إلا أن من الواضح أنه لن يجعلهم يتصرفون بصورة خطيرة ضد مصلحة المجتمع. وعلى أي حال، فإن غالبية الأطفال الأمريكيين يتعرضون بانتظام لتلك البرامج العنيفة التي طرحت على بساط البحث كعامل مسبب في زيادة العنف عند الأحداث، ثم إن الأطفال الذين تتضمنهم إحصائيات المباحث الفيدرالية ليسوا سوى نسبة بسيطة من جمهور المشاهدين.

وفي حين توصل التحديث الذي أجرته الحكومة الفيدرالية في عام 1982 على تقرير إدارة الصحة العامة الصادر في عام 1972 إلى وجود دليل، بالفعل، على أن العنف «الزائد» على شاشة التليفزيون يؤدي مباشرة إلى سلوك عدواني وعنيف بين الأطفال والمراهقين، يتضح أن ذلك السلوك كما شوهد في مختبرات البحث لا يشمل الاغتصاب والقتل، وهي الجرائم الخطيرة المتضمنة في تقرير المباحث الفيدرالية، بل شمل عمليات اعتداء طفولية مألوفة مثل الدفع، والدسر، والضرب، وما إلى ذلك.

والقول إن العنف على شاشة التليفزيون سيجعل من الأطفال الأسوياء أحداثا جانحين فكرة يتردد الإدراك السليم أمامها. والواقع أن اليقين الحدسي لدى الآباء بأن مشاهدة برامج العنف في التليفزيون لن تحول أطفالهم إلى مغتصبين وقتلة هو ما يسمح لهم بالتساهل إزاء انغماس

أطفالهم في برامجهم الأثيرة، العنيفة باستمرار على الرغم من النصائح الجادة التي يسديها علماء النفس والمربون.

والواقع أن من الصعب خاصة بالنسبة للآباء تقبل فكرة أن التليفزيون يحرض على السلوك العدواني حين تكون وظيفته في البيت جد مختلفة. فهناك، يبقي التليفزيون الأطفال هادئين وسلبيين، ويقلل من شدة اللعب وصخبه، ويحول دون حدوث انفجارات انفعالية بين الإخوة والأخوات، ويزيل عددا من «التجارب» المنزلية المخربة المحتملة التي قد ينغمس الأطفال فيها إن لم تشغلهم حلقات تليفزيونية مثل The Dukes of Hazzard أو The Incredible Hulk.

لقد قدمت الراحلة سيلما فريبرج Selma Fraiberg سببا معقولا لرفض وجود صلة مباشرة بين مشاهدة الأطفال الأسوياء لبرامج العنف وبين استشراء وبائه:

إنني لا أقصد... أن الروايات الخيالية السوقية التي يقدمها التليفزيون قادرة على تحويل أطفالنا إلى جانحين. فتأثير روايات كهذه في اتجاهات وسلوكيات الأطفال أبعد غورا في الواقع.

إننا في حاجة إلى أن نتذكر أن الآباء هم أسلاف الضمير وأن الطفل الذي تشده روابط قوية إلى أبويه، لن يلقي بتعاليمهما خلف ظهره بسهولة أكثر مما لو تخلى عنهما شخصيا. ولست أظن أن أيا منا يحتاج إلى الخوف من هذا النوع من الفساد[3].

ثمة شائبة أخرى في النقاش حول احتمال أن يجعل العنف التليفزيوني تصرفات الأطفال أكثر عنفا. وقد عبر عن ذلك أحد النقاد التليفزيونيين مشيرا إلى أنه إذا كان ذلك صحيحا، فإن تأثيرا ملازما سينجم بفعل الجوانب الأخلاقية الحتمية و«الخيرة» لتلك البرامج العنيفة ذاتها:

إذا كان تراكم المشاهدة سيحولنا جميعا، شيئا فشيئا، إلى مخلوقات فاسدة، فإن تراكم المشاهدة للخير يجب أن يجعل منا، بالتدريج، قديسين! فأنت لاتستطيع الحصول على هذا دون الآخر، اللهم إلا إذا كنت مستعدا لإثبات أن الشر شيء يشبه الكوليسترول - شيء يتكدس ببطء ويعوق حركة الجسم، بينما يشبه الخير السبانخ، في سهولة الهضم وسرعة الإبراز[4].

لكن إذا لم يكن المضمون العنيف لبرامج التليفزيون هو ما يفضي إلى

السلوك العنيف، فهل كان محض مصادفة فحسب أن دخول التليفزيون إلى البيت الأمريكي جلب معه أحد أسوأ أوبئة العنف لدى الأحداث في تاريخ الأمة؟ يقول أحد أساتذة القانون وعلم الاجتماع ردا على الإيحاء بأن التليفزيون عامل مشارك في عنف الأحداث:« إنني لا أقترح وجود صلة مباشرة (مع التليفزيون) إلا أن مما لا يمكن تصوره عدم وجود أي تأثير»[5].

والحق أن هناك أسبابا للاعتقاد بأن التليفزيون أسهم إلى حد بعيد في الارتفاع المفاجئ الجديد لظاهرة تعدي الأحداث، وبخاصة في نمو نسل جديد مخيف من الأحداث المسيئين[*]، لكن أولئك الباحثين عن صلة مباشرة بين برامج العنف وأعمال العنف يحيدون عن جادة الصواب، وقد تكون التجربة التليفزيونية ذاتها (بصرف النظر عن المضمون) وتأثيراتها في إدراك الطفل للواقع أكثر فائدة في سياق البحث.

لماذا كل هذا العنف؟

عند محاولة فهم العلاقة بين المشاهدة التليفزيونية والسلوك العنيف، ينبغي أن يواجه المرء أولا هذه الحقيقة الغريبة، وهي أن برامج العنف تهيمن على التليفزيون في الوقت الحاضر. غير أن الحال لم تكن هكذا دائما.

فمن الجدير بالملاحظة أن الزيادة في حوادث العنف على شاشة التليفزيون كانت 15 في المائة في الفترة ما بين عامي1951 و1953. وفيما بين عامي 1954 و1961 ارتفعت النسبة المئوية لبرامج وقت الذروة المخصصة لحلقات المغامرات العنيفة من متوسط 17 في المائة إلى 60 في المائة من مجموع البرامج. ومع حلول عام 1964، وطبقا لبيانات الجمعية القومية من أجل راديو وتليفزيون أفضل The National Association for Better Radio and Television خصصت مائتا ساعة تقريبا في الأسبوع لمشاهد الجريمة، بما في ذلك تنفيذ أكثر من 500 عملية قتل على الشاشة المنزلية! ويعكس هذا زيادة تبلغ نسبتها عشرين في المائة في العنف التليفزيوني طوال برامج عام 1958، وتسعين في المائة زيادة منذ عام 1952[6].

(*) حدث مسيء: Juvenile offender حدث ارتكب إساءة لم تصل إلى حد الجنوح. (قاموس التربية).

لماذا أصبح التليفزيون الذي اتسم باللاعنف نسبيا في بدايته، مرتعا لمشاهد الجريمة والأذى بالتدريج كما هي حاله الآن؟ هل بات الناس أكثر ولعا بالعنف اليوم مما كانوا عليه عام 1950؟

إن الإجابة على السؤال الأول بسيطة: الناس يريدون العنف على شاشة التليفزيون. فنظام تصنيف البرامج الذي يراقب بصورة فعالة ما تقدمه شاشة التليفزيون القومي، بيّن أن الجمهور يفضل بانتظام اختيار البرامج العنيفة على البدائل الأكثر هدوءا. ومن الواضح أنه لا توجد مؤامرة شريرة خطط لها معلنون أراذل مع المديرين التنفيذيين للشبكات من أجل تدمير الأخلاقيات والقيم الأمريكية، عن طريق تغذية المواطنين بجرعات مطردة من الموت والدمار. فعلى النقيض من ذلك، يؤكد المعلنون في أناة أنهم يودون أن يقدموا للجمهور بسرور «تفاؤلا فرحا» Pollyanna على مدار الساعة إذا ما رغب في ذلك. لكن نظام تصنيف البرامج يثبت أن الناس لن يشاهدوا «التفاؤل الفرح» إذا كان بمقدورهم مشاهدة «Hill Street Blues». ويريد المعلنون التأكد من أن أكبر عدد من الناس سيشاهدون برنامجهم، وقد تعلموا أن فرصهم ستكون أفضل لو حفل هذا البرنامج بالحركة المثيرة. إن إجابة السؤال عن سبب اختيار الناس مشاهدة العنف التليفزيوني، وزيادة برامج العنف على الرغم من الاحتجاجات العالية المتكررة للجان التقصي الحكومية، والمربين، واتحادات الآباء، تكمن ، شأن جميع الإجابات عن الأسئلة المتعلقة بالمشاهدة التليفزيونية، في طبيعة التجربة التليفزيونية ذاتها، أي في سلبيتها الجوهرية.

فأثناء مشاهدة التليفزيون يستفيد الراشد، كما هي الحال مع الطفل، من الفرصة المتاحة أمامه بسهولة للانسحاب من عالم النشاط إلى دنيا اللاعمل، واللاتفكير، واللاوجود المؤقت، في واقع الأمر. لكن المشاهدين لايختارون مشاهدة البرامج المهدئة، الباعثة على الاسترخاء من خلال شاشة التليفزيون، على الرغم من أن هدفهم الرئيسي من المشاهدة غالبا ما يكون تحقيق الهدوء والاسترخاء. وبدلا من ذلك فإنهم يؤثرون البرامج شديدة الهياج، الحافلة بأعنف الحوادث التي يمكن تخيلها، كحوادث الموت، والتعذيب، وتصادم السيارات، وكل ذلك بمصاحبة الموسيقى المسعورة. وتتحول الشاشة إلى مستشفى للمجانين بينما يستريح المشاهد في حالة

من الهدوء التام تتسم بالمفارقة.

إن اختيار المشاهدين أكثر البرامج المحتملة حركة وإثارة يجعلهم قادرين على الاقتراب من الشعور بالحركة، مع كل أحاسيس المشاركة، في الوقت الذي يستمتعون فيه بالسلامة والأمن اللذين تتيحهما لهم السلبية الشاملة. إنهم يستمتعون بمحاكاة النشاط آملين أن يعوضهم ذلك عن حقيقة اندماجهم في تجربة سلبية، أحادية الاتجاه.

ومادام قد تم الاعتراف بجاذبية العنف التليفزيوني كتعويض عن السلبية المفروضة لدى المشاهد، يمكن فهم الزيادة التدريجية للعنف على شاشة التليفزيون خلال العقود الأخيرة. ففي تلك الفترة لم تزد فحسب حيازة التليفزيون بصورة هائلة، بل بدأ الناس إنفاق المزيد من الوقت على المشاهدة التليفزيونية أيضا.

وعلى سبيل المثال، زاد استعمال التليفزيون في المنازل في الفترة من عام 1950 إلى عام 1982، من أربع ساعات وخمس وعشرين دقيقة يوميا إلى ست ساعات وثمان وأربعين دقيقة في اليوم[7]. ومن الجلي، أنه مع زيادة المشاهدة التليفزيونية قياسا إلى التجارب الأكثر حيوية في حياة الناس، فإن حاجتهم إلى ضروب الإشباع الزائف من محاكاة النشاط على شاشات تليفزيوناتهم تزداد بالمثل. إن برنامجا هادئا، تأمليا، بطيء الإيقاع قد يؤكد فحسب الحقيقة المزعجة وهي أنهم لا يحققون في الواقع أي تجارب إطلاقا في أثناء مشاهداتهم التليفزيونية.

الواقع والوهم

إن فكرة أن التجارب التليفزيونية يمكن أن تفضي إلى شعور بالنشاط، وأن المرء يمكن بصورة ما أن ينخدع شعوريا بأنه يعايش بالفعل تلك الحوادث التليفزيونية تثير سؤالا بالغ الأهمية حول التجربة التليفزيونية: ما هو تأثير التعاطي المتواصل للواقع المقلد في إ دراك المشاهد للواقع المعيش؟

لقد درس اثنان من أساتذة كلية أننبرج للاتصالات بجامعة بنسلفانيا، وهما لارى جروس وجورج جيربنر بعض تأثيرات «الواقع» التليفزيوني في أفكار الناس ومعتقداتهم، فيما يتصل بالعالم الحقيقي. وتشير نتائج أبحاثهما إلى أن التجربة التليفزيونية تؤثر تأثيرا مهما في الإدراكات الحسية

الواقعية للمشاهدين.

وقد طرح جيربنر وجروس أسئلة معينة عن العالم الحقيقي على أشخاص كثيري المشاهدة لبرامج التليفزيون وعلى آخرين قليلي المشاهدة. وطرح اختبار الاختيار من متعدد Multiple - Choice quiz إجابات دقيقة علاوة على إجابات عكست خصيصة متحيزة لعالم التليفزيون. واكتشف الباحثون أن الأشخاص كثيري المشاهدة للتليفزيون اختاروا الإجابات المتحيزة للتليفزيون على نحو يفوق بكثير اختيارهم الإجابات الدقيقة، بينما كان الأشخاص قليلو المشاهدة أقرب إلى اختيار الإجابات الدقيقة.

وعلى سبيل المثال ، فقد طلب من الأشخاص موضوع الدراسة أن يخمنوا احتمالات تعرضهم للعنف في أي أسبوع مفترض. وكانت الإجابات المتوقعة التي أعطيت لهم هي 50-50 و10-1 و100-1 . إن الاحتمالات الإحصائية لتعرض الشخص العادي لعنف شخصي في غضون أسبوع هي حوالي 100-1، لكن مشاهدي التليفزيون بكثرة اختاروا بثبات الإجابتين 50ـ 50 أو 10-1، على نحو يعكس «الواقع» التليفزيوني البرامجي حيث يفرض العنف سيادته. أما الذين قليلا ما يشاهدون التليفزيون فقد اختاروا الإجابة الصحيحة بصورة أكثر ثباتا.

وأجاب الأشخاص كثيرو المشاهدة عن أسئلة كثيرة أخرى بطريقة تفصح عن أن مشاهدتهم التليفزيونية غيرت إدراكاتهم عن العالم والمجتمع. وكانوا، مثلا، أميل من الأشخاص قليلي المشاهدة إلى المغالاة في تقدير نسبة حجم السكان في الولايات المتحدة إلى حجم السكان العالمي. كما بالغوا في تقدير النسب المئوية للأشخاص العاملين كمهنيين، ورياضيين، وفناني إحياء الحفلات في «عالم الواقع»، تماما كما يبالغ التليفزيون في التأكيد على أهمية هذه الجماعات.

ولم يلعب التعليم دورا ذا مغزى في تحسين تشوهات الواقع الناجمة عن المشاهدة التليفزيونية الكثيرة. ففي غالبية الحالات تشابه الأفراد المتعلمون في الكليات مع أولئك الحاصلين على تعليم ابتدائي لاغير في اختبار الإجابات المتحيزة للتليفزيون[8].

ليست المفاهيم غير الصحيحة عن العالم الحقيقي لدى المشاهدين وليدة نشرات إخبارية مضللة أو برامج واقعية. فهذه المفاهيم الخاطئة تنبع

من المشاهدة المتكررة للبرامج الخيالية التي يتم تنفيذها بأسلوب واقعي وضمن إطار واقعي. وتبدأ هذه البرامج، كما يظهر للعيان، في اتخاذ شكل الواقع المشوش لدى المشاهد، تماما مثلما يحدث أحيانا حين يخلق حلم شديد التأثير تشويشا بشأن ما إذا كانت واقعة لاحقة حلما أم أنها حدثت بالفعل. فبعد أن يرى المشاهدون العنف يوزع عليهم يوما إثر يوم في برامج التليفزيون، يدمجونه في واقعهم، على الرغم من أنهم في أثناء المشاهدة يعرفون أن البرامج من نسج الخيال. ويشوه العنف التليفزيوني الإدراكات الحسية الواقعية للمشاهدين، وتعكس توقعاتهم للعنف في الحياة تعرضهم للعنف التليفزيوني.

غير أنه بمجرد أن يندمج الخيال التليفزيوني Television fantasy في واقع المشاهدين يأخذ العالم الحقيقي مسحة من الخيال ـ أو التبلد، لأنه يفشل في تأكيد التوقعات التي خلقتها الحياة المتلفزة، ويصبح التمييز بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي غائما، ويغدو كل ما في الحياة أشبه بالحلم إذ تندمج التخوم بين الواقعي والوهمي. وتظهر عواقب هذا الاندماج في صحفنا اليومية وفي نشرات الأخبار: أناس يحضرون أحد الاستعراضات الحقيقية يجدون هذا الاستعراض باعثا على الملل ويقولون:« كان ينبغي البقاء في البيت ومشاهدة الاستعراض على شاشة التليفزيون. كنا سنحصل على إثارة أكثر» [9].

امرأة تمر بجوار بناية تحترق وتقول لصديقتها:« لا تقلقي، من المحتمل أنهم ينتجون فيلما تليفزيونيا» [10].

أفراد أسرة حقيقية من كاليفورنيا يعيشون حياتهم على شكل حلقات أسبوعية كجزء من مسلسل تليفزيوني، مع وقائع خيانة زوجية، وشذوذ جنسي مكشوف، وطلاق، تجري أمام عيون المشاهدين المجردة، «كشيء حقيقي» في التليفزيون [11].

سبعة وثلاثون شخصا يرون امرأة شابة تتعرض للقتل في ساحة دارهم دون أن يحركوا ساكنا أويهبوا لمساعدتها كما لو كان ما يحدث أمام أنظارهم دراما تليفزيونية [12].

شاب في السابعة عشرة، بقي حيا بعد إعصار مدمر، ويقول:«يا رجل كان الحال أشبه تماما بما يجري على شاشة التليفزيون [13].

تبليد الحساسية(*)

قد يثير الانزعاج أن التجربة التليفزيونية لم تلق فقط ظلالا معتمة على الفروق بين الواقعي والوهمي لدى المشاهدين المثابرين، بل إنها بفعل ذلك أصابت بالتبلد قدرتهم على الإحساس بالحوادث الحقيقية. ويرجع ذلك إلى أنه حين تتناقص واقعية موقف ما تصبح قدرة الناس على الاستجابة له أقل انفعالا، ويكونون أشبه بالمتفرجين.

لقد قام د. فيكتور كلاين بإجراء تجربة في مختبرات جامعة يوتا Utah لمقارنة الاستجابات الانفعالية لمجموعتين من الأولاد بين سن 5 سنوات و14 سنة تجاه أحد برامج العنف التليفزيوني عن طريق الرسوم البيانية[14]. ولم تكن إحدى المجموعتين قد شاهدت إلا القليل على شاشة التليفزيون أو لم تشاهد شيئا بالمرة في العامين السابقين. أما المجموعة الأخرى فكانت قد شاهدت الكثير، وبمتوسط بلغ 42 ساعة أسبوعيا لمدة عامين على الأقل.

وعند مشاهدة مجموعتي الأولاد حلقة مدتها 8 دقائق من فيلم كيرك دوجلاس عن الملاكمة، «البطل» Champion، تم تسجيل الاستجابات الانفعالية للأولاد على فيزيوغراف، وهو جهاز لايختلف عن جهاز كشف الكذب الذي يقيس حركة القلب، والتنفس، والتعرق، واستجابات الجسم الأخرى.

وطبقا لردود أفعالهم كما سجلها الجهاز، كان الأولاد الذين قضوا وقتا طويلا في المشاهدة التليفزيونية أقل انفعالا بما شاهدوه بصورة واضحة. وكما خلص الباحثون، فإن هؤلاء الأولاد كانوا قد تعودوا على الأحداث المثيرة للانفعال على شاشة التليفزيون إلى حد أن قدرتهم على الإحساس اعتراها الكلال. ولما كانوا قد شاهدوا الكثير من البرامج التليفزيونية العنيفة حتما في غضون الاثنتين والأربعين ساعة أسبوعيا، فقد افترض الباحثون أن تبلد حساسيتهم desensitization كان أحد تأثيرات التعرض المستمر لمضامين العنف على شاشة التليفزيون.

وقد ركز د. كلاين في كتاباته اللاحقة جل همه على انتقاد العنف في التليفزيون. وفي مقالة له تحت عنوان «العنف التليفزيوني كيف يؤذي أطفالكم» اختتم تحذيراته بشأن أخطار العنف التليفزيوني بنداء من أجل برامج أفضل، بل إنه أثنى في معرض كلامه على برامج مثل «The Waltons»[15].

(*) Dulling Sensitivity

على أن الأطفال الذين بنى د. كلاين استنتاجاته على ردود أفعالهم الانفعالية المتناقضة كانوا يشاهدون 42 ساعة أو أكثر أسبوعيا على شاشة التليفزيون، بينما الأطفال الذين لم تتبلد ردود أفعالهم لم يشاهدوا التليفزيون بالمرة تقريبا. ويوحي الإدراك السليم بأن اثنتين وأربعين ساعة من المشاهدة أسبوعيا لأي برنامج تليفزيوني، قد ترجح الكفة من الواقعي إلى الوهمي في حياة الأطفال بما يكفي لإضعاف مستوى الإثارة لديهم. ويبدو أن ست ساعات يوميا من برنامج The Waltons، يمكنها أن تؤثر في قدرة استجابة الأطفال بصورة سوية للحقائق الإنسانية تماما مثلما يفعل مقدار معادل من برامج العنف الفظيعة التي أثارت قلق د. كلاين وآخرين.

نوع جديد من المجرمين

تحتاج تجربة د. كلاين إلى جهاز حساس لقياس الاستجابات الانفعالية، أو الافتقار إليها، لدى الصغار موضوع دراسته. فتأثيرات المشاهدة التليفزيونية في الإدراكات الحسية للأطفال الأسوياء واستجابتهم لمواقف الحياة الحقيقية دقيقة بالتأكيد وقابلة للقياس عن طريق جهاز معايرة ممتاز فقط، إذا أمكن ذلك. إلا أن هناك موقفا مختلفا يغلب على الأطفال ذوي الخلفيات المرضية. ذلك أن المشاهدة التليفزيونية قد تؤثر في هؤلاء الأطفال بدرجة أكثر عمقا.

جاء في ملاحظة كتبها أحد الاختصاصيين في علاج الأطفال:

«إنني أخلص إلى أن مشاهدة التليفزيون أشد تدميرا للأطفال الذهانيين Psychotic Children(*). فالشيء الوحيد الذي أريد مساعدتهم على فهمه هو العالم الحقيقي، وزيادة وعيهم بالواقع، والسبب والنتيجة. وهذا الذي أريده هو ما يتعرض لأشد الضرر بفعل لا منطقية شخصيات الرسوم المتحركة القادرة على الطيران في الهواء، مثلا، أو تلك الأشياء العجيبة التي تبدو جد حقيقية على شاشة التليفزيون. إن لبعض هؤلاء الأطفال خيالات غير محدودة القدرة. فهم يظنون أن بمقدورهم الطيران أيضا، وهم يرون أحد الأشخاص يحرك يده بسرعة وقوة فيتلاشى على الفور

(*) ذهان Psychosis اضطراب شديد يصيب وظائف التفكير والانفعال والسلوك الاجتماعي، مما يؤدي إلى فقدان صلة المريض بواقعه في الحالات الشديدة. (عالم المعرفة - العدد 180).

شخص آخر، وهو ما يعزز خيالهم اللا محدود في نهاية الأمر. وبالطبع، فإن فكرة قيام شخص بجعل آخر يتلاشى هي الأخرى فكرة مروعة لطفل ذهاني، لأن ذلك هو ما يعتقده بشدة على أي حال».

إن ملاحظة أن التليفزيون يشوه الواقع بالنسبة لطفل مضطرب بدرجة أكبر مما هي الحال مع الطفل السوي، قد تكون ذات علاقة بوباء جرائم الأحداث في العقود الأخيرة. إذ مما لاريب فيه أن الأطفال المتورطين في جرائم خطيرة في أيامنا هذه غير أسوياء. وتكشف بيانات حياتهم بلا استثناء عن خلفية من الفقر، والتفسخ، والإهمال، والفشل الدراسي، والإحباط، والمرض العائلي... والمشاهدة التليفزيونية لفترات طويلة. غير أنه بينما لم يظهر الفقر والمرض العائلي لأول مرة في المجتمع الأمريكي في السبعينيات، ظهر نسل جديد مرعب من الأحداث المسيئين. كتب أحد المراسلين الصحفيين في جريدة نيويورك تايمز يقول: «لكأن مجتمعنا قد أنتج سلالة جينية جديدة، الطفل ـ القاتل الذي لا يشعر بأي ندم ونادرا ما يعي تصرفاته» [16].

وفي تواتر رهيب، تروي الصحف عن جرائم الأحداث التي تملأ قلوب القراء العاديين رعبا واستنكارا: اثنان من قطاع الطرق أحدهما في العاشرة من العمر والآخر في الثانية عشرة يسرقان الكهول،ثم،عرضا، يستديران ويقتلان الضحايا الضعاف؛ ومن أجل كسب هزيل في غالب الأحيان، شبان يهاجمون بعنف راكب دراجة هوائية في أحد المتنزهات ويضربونه بسلسلة حتى الموت قبل أن يهربوا بدراجته؛ أطفال يقتحمون إحدى الشقق ويطرحون أحد المسنين أرضا ويغرقون امرأة في حوض الاستحمام [17].

لقد خصص اثنان من الأساتذة ضمن ما كتباه في المجلة الدولية للقانون والطب النفسي اسما لهذه الفئة الجديدة من الأحداث، هو «القتلة عديمو المشاركة وجدانيا» non - empathtic murderers، ووصفا هؤلاء بأنهم «أطفال يفتقدون القدرة السيكولوجية على وضع أنفسهم في مكان الشخص الآخر». وقد نقل عن أحد هؤلاء القتلة، وكان يواجه الاتهام خلال عام واحد بقتل امرأة مسنة وطفلة عمرها ست سنوات، أنه قال «لست أعرف الطفلة، فلماذا ينبغي أن أحمل أي مشاعر بشأن ما حدث لها؟» [18].

كثيرا ما ينحي ضباط الشرطة والسلطات باللائمة على القوانين

المتساهلة بسبب وقوع هذه الجرائم. ولما كان منتهكو القانون في معظم الولايات تحت سن السادسة عشرة يتم التعامل معهم عن طريق محكمة الشؤون الأسرية family court، التي تقوم فلسفتها التوجيهية على إعادة التأهيل أكثر مما تقوم على العقاب أو الاحتجاز حماية للمجتمع، فإن هؤلاء المجرمين الصغار لايحتاجون إلى الردع بواسطة الخوف من العقوبة القاسية: فأقسى إجراء يواجه الشاب تحت سن 16 سنة إذا ارتكب جريمة قتل ـ في كثير من الولايات ـ هو الحبس مدة تبلغ ثمانية عشر شهرا في إحدى المؤسسات العامة أو الخاصة. غير أن هناك شيئا جديدا بالنسبة لهؤلاء الأطفال، وهو شيء لايمكن تقديم الأعذار عنه بوصفه اعتقادا متغطرسا بأن القانون سيتساهل معهم، إلى حد الإفلات واقعيا من عواقب جريمة القتل.

يقول ضابط شرطة بروكلين: «إن القانون ينص على أنه ينبغي معاملة الطفل بطريقة مختلفة، لأنه يمكن إعادة تأهيله. لكن الأطفال لم يكونوا يرتكبون هذا الصنف من الجرائم التي نراها الآن... لقد تغير الأطفال»[19].

يبدو أن العامل المشترك الذي يميز هؤلاء الأطفال «المتغيرين» الذين يقتلون، ويعذبون، ويغتصبون هو نوع من الانفصال الانفعالي الذي يسول لهم ارتكاب جرائم يعجز عنها الوصف، وفي غياب تام للمشاعر الطبيعية كالشعور بالذنب أو الندم. إن الأمر يبدو وكأنهم يتعاملون مع أشياء بلا روح، وليس مع مخلوقات بشرية على الإطلاق. يقول المدير المسؤول عن التأهيل في ولاية نيويورك: «كأني بهم قد رأوا في الشخص الذي قتل نافذة كانوا على وشك خلعها عنوة، أو عائقا يقف في طريقهم»[20]. ويصف أحد اختصاصيي الطب النفسي ذوي الصلة بمحكمة بروكلين للشؤون الأسرية هؤلاء الأطفال بأنهم يظهرون «نقصا تاما في الشعور بالذنب واحترام الحياة. إن الشخص الآخر بالنسبة لهم مجرد شيء ـ إنهم كائنات وحشية لاتستطيع السماح لأحد بأن يعترض طريقها»[21].

لقد بدأت بعض المحاكم في الوقت الحاضر وضع الأحداث في مؤسسات مأمونة استجابة «للنوع الجديد من الأطفال الذي بدأ في الدخول إلى المجتمع».

والواقع أن عددا من الولايات قام في السنوات الأخيرة ـ وكرد فعل على

إدراك الجمهور للخطر الجديد الذي يحيق بالمجتمع ـ بسن قوانين تقضي بمثول الأطفال المتهمين بارتكاب جرائم عنف خطيرة أمام محاكم الراشدين وتلقي أحكام قانونية بالسجن إذا ثبتت إدانتهم.

فإذا كان نسل جديد من الأحداث المسيئين قد ظهر حقا في السنوات الأخيرة، فهل يمكن تفسير ذلك بالعامل الجديد الخطير الذي دخل حياة الأطفال في هذه الفترة الزمنية، أي التليفزيون؟ إن الفقر، والمرض العائلي الذي تنجم عنه اضطرابات خطيرة في الشخصية ، والإهمال، وعدم كفاية المدارس، كل هذه، وياللحسرة! علل قديمة ومألوفة عند أقسام معينة من المجتمع الأمريكي.

لكن الساعات الخمس، أو الست، أو السبع التي يقضيها الأطفال المضطربون انفعاليا في مشاهدة التليفزيون يوميا، والتي تفوق الوقت الذي يقضونه في ممارسة أي نشاط حقيقي من أنشطة الحياة، هي ظاهرة جديدة دونما ريب.

فهل يمكن أن تشجع كل هذه الساعات هؤلاء الأطفال المضطربين على فصل أنفسهم عن تصرفاتهم المعادية للمجتمع بطريقة جديدة ومرعبة بينما هم يقضونها في تجربة تعتم الحدود بين الواقعي والوهمي، وتعكس الصور البشرية وخداع المشاعر الإنسانية، في حين لا تتطلب من المشاهد أي استجابات إنسانية؟

إذا كانت الحال كذلك، فإن إبعاد العنف عن شاشة التليفزيون تماما لن يخفف من تأثيرات تجريد الأطفال المضطربين انفعاليا ـ بفعل فترات المشاهدة الطويلة ـ من الخصائص الإنسانية، لأن المشكلة لا تكمن في أنهم يتعلمون كيف يرتكبون العنف من مشاهد العنف على شاشة ا لتليفزيون (ربما يفعلون ذلك أحيانا)، وإنما لأن التليفزيون يفرض عليهم التعامل مع الناس الحقيقيين كما لو كانوا على شاشة التليفزيون. وهكذا فإن بمقدورهم «التخلص منهم» ببساطة تامة سواء بمطواة أو بندقية أو سلسلة، وبقليل من الندم كأنهم يغلقون جهاز التليفزيون.

8 التليفزيون واللعب

لعب أقل

على فرض عدم وجود أي تليفزيون ـ ماذا تظنين أن طفلك كان سيفعل في الوقت الذي يقضيه حاليا في مشاهدة التليفزيون؟

كان هذا السؤال أحد الأسئلة التي وجهت إلى عدد كبير من أمهات أطفال الصف الأول في الدراسة المسحية التي نشرت في تقرير إدارة الصحة العامة لعام 1972 حول التليفزيون والسلوك الاجتماعي. ولم يكن من المستبعد أن يجيب تسعون في المائة من الأمهات بأن طفلهن كان سيلعب بصورة أو بأخرى إذا لم يكن هو أو هي يشاهد التليفزيون[1].

يكاد الأمر يتطلب فريقا من علماء الاجتماع لكي يثبت أن مشاهدة التليفزيون تمنع الأطفال من اللعب، لأن اللعب هو الشغل الشاغل للطفولة. ومن المؤكد أن أي نشاط يأخذ من ساعات يقظة الأطفال الثلث أو أكثر لابد أن يجور بشدة على وقت لعبهم.

لقد قيل إن المشاهدة التليفزيونية تستحوذ بوضوح على مكان الأنشطة الأخرى «المشابهة وظيفيا»، مثل القراءة[2]. لكن تقليل المشاهدة التليفزيونية للعب أكثر من القراءة قد تأكد عن

طريق تجربة قام خلالها عدد من الباحثين بتقسيم الأطفال إلى فئات طبقا لاستخدامهم النسبي للتليفزيون والكتب. وقد اكتشف الباحثون أن الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون لفترات قليلة لكنهم يقرأون كتبا كثيرة، حققوا مستوى من اللعب اليومي أعلى من الأطفال الذين شاهدوا التليفزيون بغزارة وقرأوا كتبا قليلة، أو من أولئك الذين استخدموا التليفزيون لفترات طويلة وقرأوا بنهم[3]. والمعاني الو اضحة لذلك أن القراءة لا تقلل وقت لعب الأطفال بصورة مهمة، بينما تفعل المشاهدة التليفزيونية ذلك.

إن المسألة أكثر بساطة فيما يتعلق بأطفال ما قبل سن المدرسة. ذلك أن جميع النشاطات التي ينشغل بها هؤلاء الأطفال عادة خلال ساعات يقظتهم (فيما عدا مشاهدة التليفزيون) تندرج واقعيا ضمن فئة اللعب. فحين يبني طفل السنوات الثلاث قلعة من المكعبات مع طفل آخر، نعتبر هذا النشاط عموما نوعا من اللعب. وحين يبعثر الطفل جميع الكتب من خرانة الكتب، أويتبع أحد الكبار متظاهرا بكنس أرضية الحجرة، أو يلتقط التليفون ويجري مكالمة وهمية، أو يخربش الحائط طولا وعرضا، أو يختفي مع الدب الدمية تحت الفراش ـ فهو لايزال يلعب. ومن الواضح أن الأطفال ممن هم في الثانية أو الثالثة أو الرابعة من العمر الذين يقضون ساعتين أو ثلاثا في مشاهدة التليفزيون يوميا، يمضون وقتا أقل في اللعب بصورة بارزة مما لو لم يشاهدوا التليفزيون إطلاقا.

إن مشاهدة التليفزيون لا تؤدي إلى تقليل وقت اللعب فحسب، بل ثمة دليل يوحي بأنها أثرت في طبيعة لعب الأطفال ذاتها، وبخاصة اللعب الداخلي في المنزل أو في المدرسة.

تجربة طبيعية

الطريقة المثلى لاكتشاف تأثيرات مشاهدة التليفزيون في لعب الأطفال هي مقارنة سلوك عينة كبيرة منتقاة بعناية من المشاهدين الأطفال في أثناء اللعب بمجموعة مناظرة من غير المشاهدين. وليس من الممكن إجراء هذه التجربة حاليا لسبب بسيط هوعدم وجود المشاهدين الذين يصلحون للدراسة. ذلك أن جميع الأطفال الصغار يشاهدون الكثير مما يعرض على شاشة التليفزيون.

ومع ذ لك، فقد حدثت ذات مرة تجربة مقارنة لعب الأطفال التليفزيونيين وغير التليفزيونيين. لكن أحدا لم يلتفت للنتائج، ربما لأن التجربة لم تكن قد صممت عمدا، بل على العكس يمكن نعتها بأنها «تجربة طبيعية»؛ أي تجربة جرت على نحو تلقائي. وكان مكان التجربة في مدارس الحضانة ورياض الأطفال في أمريكا عندما دخل التليفزيون لأول مرة كوسيلة اتصال جماهيري.

إن مدارس الحضانة ورياض الأطفال هي ـ بطبيعة أسلوبها الخاص ـ مختبرات لملاحظة لعب الأطفال. فطوال عدد من السنين يستطيع المدرسون المدربون أن يلاحظوا أنماطا سلوكية بين تلاميذهم الصغار، قد لا تكون واضحة للآباء أو المهنيين الذين يعملون مع الأطفال كأفراد لا مع الأطفال كمجموعات. وفي هذه المختبرات «الطبيعية» أمكن للمدرسين ملاحظة التغييرات التي حدثت في أنماط لعب الأطفال، حين تحول جمهور غيرتليفزيوني إلى جمهور يشاهد التليفزيون في غضون عقد واحد من الزمن تقريبا.

لايزال المدرسون الذين يجسرون الثغرة بين جيل ما قبل التليفزيون وجيل التليفزيون يقومون بالتدريس في المدارس في شتى أرجاء البلاد. ولاشك في أنهم من بين أكثر معلمي الطفولة المبكرة تفانيا وخبرة ببقائهم في هذه المهنة ردحا طويلا من الزمن، إلا أن عددهم يتناقص سنة بعد أخرى. وخلال العقدين التاليين ستكون هذه المجموعة الفريدة التي شهدت أحد أبرز التغييرات التكنولوجية في مجتمعنا قد اختفت من الحياة المهنية الفعلية.

إن شهادة هؤلاء المدرسين بشأن تأثيرات التليفزيون في سلوك اللعب عند الأطفال كما يلاحظ في حجرة الدراسة جديرة بالانتباه.

يقول مدير إحدى المدارس الابتدائية الخاصة في نيويورك، وهو مدرس سابق بإحدى مدارس الحضانة، وذو خبرة تدريسية تتجاوز ثلاثين عاما: «الأطفال لا يلعبون كما اعتادوا أن يلعبوا. ولست أقصد بذلك اللعب الخلوي بالتحديد. فهم في الهواء الطلق لايزالون نشطاء. لا يزالون يتسلقون ويركضون ويستخدمون الدراجات الهوائية والعربات. إن الذي تغير هواللعب في داخل المنزل. فأنت لا ترى منهم لعبا مثيرا كثيرا كما تعودت. إنهم أكثر

اهتماما بالجلوس مع ما يسمى بالمواد التعليمية في سن مبكرة جدا. ولايبدو أن لديهم من الخيال الشيء الكثير، سواء فيما يتعلق بالتعبير اللفظي أو في طرق اللعب أو في الأشياء التي يقومون بعملها».

ويقول مدرس آخر له من الخبرة خمسة وثلاثون عاما في ياض الأطفال: «إن في لعبهم سلبية أكبر. فهم قد يهتمون بأمر ما، إلا أنهم إذا ما وجدوا أن ذلك يعني أن عليهم أن يعملوا شيئا بأنفسهم، سرعان ما يفقدون الاهتمام».

ويقول مدرس من دنفر، ذو خبرة تدريسية تغطي تسعة وعشرين عاما :« لقد حدثت نقلة من الأطفال النشطاء، المندفعين، الذين كانوا جد راغبين في فهم الأشياء والشروع في العمل، إلى أطفال أكثر حذرا،وسلبية ذوي اتجاهات تفتقر إلى التسلية والتوجيه. إنهم حتى لا يريدون التقدم واكتشاف الأمور بأنفسهم».

ويقول مدرس آخر في مدرسة ابتدائية عن أيام ما قبل التليفزيون:« إن الأطفال ينتظرون أن يجدوا التسلية في المدرسة. وهم طيعون بصورة ممتازة حين يكون العمل المدرسي مسليا. لكن اتجاههم هو: هل سيكون الأمر مسليا أم باعثا على الضجر؟ فإذا شعروا بالضجر، فما عليك إلا أن تحول الاتجاه. وستكون المسألة صعبة نوعا ما في المدرسة فقط لأنك لاتستطيع دائما تحويل الاتجاه».

ويقول مدرس بإحدى مدارس الحضانة في ريفرديل، نيويورك:« إنني أجد نفسي مضطرا للترويج لأشياء هي بذاتها نشاطات رائعة لم أضطر أبدا من قبل للترويج لها، لأن الأطفال لا ينتظرون بما يكفي ليكتشفوا ما فيها من تسلية إذا لم تشدهم اللحظات الأولى. ولذلك فإنني أجد أن علي أن أقدم الأشياء بطريقة مختلفة نوعا ما. إن بعض الأطفال ببساطة يخرجون عن النغمة بسرعة بالغة».

ويقرر مدرس آخر في رياض الأطفال تغطي خبرته العهدين:« لقد تعين علي أن أغير أسلوبي في التدريس تغييرا كبيرا خلال السنوات الماضية. فقد تعودت أن أكون حرا في المبادرة بنشاطات رائعة كثيرة؛ لأن الأطفال كانوا آنذاك قادرين تماما على البدء بنشاطات خاصة بهم أيضا. لكنني أشعر الآن بأن الأطفال يريدون أن أبادر بكل شيء. وهم سيجارونني في

النشاطات التي أقدم عليها. وحينما لا أشرع في عمل شيء، سينتظرون في صبر إلى أن أبدا العمل. إنه نوع من الانسحاب من جانب الأطفال. أحاول حاليا تشجيع الصغار على الانخراط في النشاط. وأحاول أن أنتظر وأصبر حتى تؤثر البيئة الخصبة لحجرة الدرس في الطفل ويقبل الدعوة لعمل البناء الخاص به بدلا من قبول بناء يعد له. لكن ذلك صعب أحيانا ـ إذ على المرء أن يكون صبورا جدا وهناك ما يغري المرء بكل المبادرة حقا، لأن الأطفال سيوافقون دائما على ذلك بابتهاج بالغ».

ويروي مدرس آخر: «إنني أشعر في أيامنا هذه حقيقة بالحاجة إلى تشجيع الأطفال على أن يكونوا أكثر فاعلية. وهو شعور لم يكن يخامرني منذ عشرين عاما مضت. عجبا! لقد كان الأطفال نشيطين جدا حينئذ».

فهل يمكن أن تعكس شهادة هؤلاء المدرسين مجرد تحامل على تكنولوجيا جديدة، أو رؤية العالم من خلال منظار أن الأمور كانت أفضل في الأيام الخوالي؟

أغلب الظن أن الإجابة هي لا، لأن ثمة نمطا يظهر في إفاداتهم، وهو نمط لا يختلف من مدرسة إلى مدرسة أو من منطقة إلى أخرى. ويعكس هذا النمط جوانب معروفة من التجربة التليفزيونية ـ سلبيتها الأساسية وسرعة إشباعها للأطفال ـ بحيث إن هؤلاء المدرسين يصفون تغييرات حقيقية في لعب الأطفال وليس تغييرات وهمية.

إن المدرسين الأصغر سنا الذين قاموا بالتدريس للأطفال ذوي التنشئة التليفزيونية فقط، لا يشاركون زملاءهم القدامى أيا من آرائهم بشأن تأثير التليفزيون. لكن الأطفال الذين يدرسون لهم، وبقدر ما يعرفون، يمثلون حقائق الطفولة. وتبدو فكرة أن التليفزيون ترك تأثيره في سلوك الأطفال الصغار بالنسبة لهم بعيدة الاحتمال... لماذا؟ لأنهم هم أنفسهم تربوا وهم يشاهدون التليفزيون!

ألعاب الفيديو

هل يشبه اللعب بألعاب الفيديو مشاهدة التليفزيون؟ سؤال يطرحه كثيرون من الآباء المهمومين هذه الأيام، الذين شعروا بالقلق بشأن عدد الساعات التي يقضيها أطفالهم أمام شاشة التليفزيون. ولأن ألعاب الفيديو

توفر الفرص للتعامل مع الجهاز، فمن المحتمل أن تندرج في فئة الألعاب أكثر مما هي الحال مع جهاز التليفزيون، وقد يمكن اعتبار تجربة الطفل مع ألعاب الفيديو شكلا من أشكال اللعب بصورة أكبر من المشاهدة التليفزيونية، غير أنه بينما يتيح نوع اللعب الذي تقدمه هذه الأجهزة هامش أمان أوسع للنشاط العقلي، وحتى لتفريغ الخيال من مجرد مشاهدة جهاز التليفزيون ، إ لا أنه لا يرقى إلى أشكال كثيرة من اللعب أقدم وأكثر بساطة. ومن بين هذه الأشكال نشاطات الأطفال التي تؤدي إلى توسيع مجموعة من المهارات (عمل نماذج الطائرات مثلا)، أو تنمية الاهتمامات التي يمكن أن يحملها الطفل إلى سن الرشد (جمع الطوابع، مثلا) ، أو أشكال اللعب التي لاتتضمن الحاجة إلى التركيز البصري المجهد الذي يكرس للحديث والنقاش واكتساب المهارات الاجتماعية (لعب الورق، أو ألعاب اللوحات، على سبيل المثال).

وفضلا عن ذلك، فمن المحتمل أن يسأم الأطفال الدمى واللعب وينصرفوا إلى شيء جديد. إن ذلك يشجعهم على المشاركة في تجارب متنوعة ويساعدهم على تحقيق نوع من التوازن الطبيعي في لعبهم. لكن عناصر الإدراك الحسي ذات الصلة بالعرض التليفزيوني لألعاب الفيديو، قد تعطيهم بعض ما في المشاهدة التليفزيونية من خاصية تنويمية مغناطيسية مسببة للإدمان، على نحو يجعل الأطفال يقضون وقتا أكبر بكثير أمام هذا الشكل المحدد من أشكال اللعب.

اللعب المنزلي

كما تظهر شهادات المدرسين، فإنهم يبذلون جهودا كبيرة لمعادلة التغييرات التي لاحظوها في الأطفال ـ السلبية المتزايدة، نفاد الصبر، الإحجام المتنامي عن تحمل البداية البطيئة على أمل الفوز بمكاسب لاحقة ـ وتشجيع اللعب الفعال، والتخيلي في المدرسة.

لكن ماذا عن لعب الأطفال في البيت؟ لما كان البيت هو المكان الذي يقبع فيه الجهاز، فلاشك في أن الأطفال يمارسون لعبا أقل في البيت مما كانوا يفعلون في السابق. فماذا عن الوقت الذي يتبقى بين البرامج؟

إن أحد التغييرات المرتبطة بالتليفزيون هو درجة اندماج الآباء في

اللعب التخيلي لأطفالهم. فقبل التليفزيون كان من مميزات الآباء البارزة إعطاء الأطفال شيئا من المساعدة في لعبهم «على سبيل الاستهلال»، إذا صح التعبير. فقد يشرع الأب في لعبة وهمية، ويقترح إقامة حفل شاي تخيلي ، على سبيل المثال، أو يساعد الطفل على البدء في لعبة لتمضية الوقت يمكن أن تستمر من دون مساعدة. وكانت هذه الممارسة مفيدة للطرفين: فالأب يحصل على وقت حر والطفل، الذي تحفزه مساعدة الكبار، كان يمكنه اللعب وحده على نحو أكثر فائدة.

واليوم يفضل الأب غالبا تشغيل جهاز التليفزيون على تجشم عناء جعل الطفل يشرع في نشاط من أنشطة اللعب، لاسيما أن الطفل يبدو مشوقا هو الآخر ـ وربما أكثر شوقا ـ إلى مشاهدة التليفزيون.

إن عواقب هذا التغيير في أنماط اللعب تثير القلق. ففي إحدى مطبوعات جماعة تقدم الطب النفسي، وهي جمعية تضم قرابة ثلاثمائة من الأطباء النفسيين البارزين، وردت الملاحظة التالية :«إننا نشك في أن التليفزيون يعوق تطور القدرة التخيلية بقدر ما يستولي على وقت اللعب التلقائي. وقد أوضحت التجربة أن الأطفال الذين يكفون عن مشاهدة التليفزيون يلعبون بطرق توحي بوضوح بالإفادة من عالم خيالي نشيط. ومع استئناف المشاهدة، يقلل الأطفال هذا النوع من اللعب». ويدعم مؤلفو المطبوعة شكوكهم بذكر الدليل الذي عرضه مدرسو الحضانة في ملاحظاتهم عن قلة اللعب التخيلي والتلقائي اليوم بالمقارنة مع سنوات ما قبل التليفزيون[4].

لكن أليس من الممكن أن يثير برنامج تليفزيوني بارع التخطيط والإعداد خيال الطفل ويوحي بمستوى رفيع من اللعب التخيلي؟ هناك ما يدعو للاعتقاد بأنه مهما حظي التوجيه الذي يصدر عن جهاز التليفزيون بعناية التصميم وسلامة القصد، فمن المستبعد أن يحرك خيال الطفل على نحو أفضل من الشخص الحي.

لقد شرعت مجموعة بحثية تابعة لجامعة Yale في تقييم تأثيرات مشاهدة برنامج تليفزيوني، تم تصميمه خصيصا لإثارة خيال أطفال ما قبل سن المدرسة (جيرة السيد روجرز Mister Rogers Neighbourhood)، في اللعب التخيلي للأطفال.

وقد خضعت أربع مجموعات من الأطفال للملاحظة في أثناء اللعب.

وشاهدت المجموعة الأولى برنامج «جيرة السيد روجرز» كل يوم طوال أسبوعين، وشاهدت المجموعة الثانية البرنامج طوال المدة نفسها مع أحد الراشدين لربط المحتوى التخيلي للبرنامج، ولم يشاهد أطفال المجموعة الثالثة التليفزيون بالمرة، لكنهم أمضوا هذا القدر نفسه من الوقت مع مدرس كان يعطيهم تمرينات وألعابا تشتمل على لعب وتخيل إيهامي. أما المجموعة الضابطة من الأطفال فلم تشاهد أي تليفزيون ولم تحصل على اهتمام خاص من الراشدين.

وكشفت النتائج أن الأطفال الذين تركوا مع الراشد النشط ولم يشاهدوا التليفزيون إطلاقا، أظهروا أعلى زيادة في القدرة على التخيل التلقائي واللعب التخيلي. وحل الذين شاهدوا البرنامج في حضور الوسيط الراشد في المركز الثاني. أما المجموعتان اللتان لم تحصلا على اهتمام الراشد فأظهرتا قدرا ضئيلا من المكاسب أو لم تظهر أي مكاسب في اللعب التخيلي[5].

أشكال اللعب

لما كانت المشاهدة التليفزيونية تجور بشدة على لعب الأطفال وتترك أبرز التأثيرات المرئية فيه خلال سنوات الطفولة المبكرة، فإن من الضروري بحث وظيفة اللعب في نمو أطفال ما قبل سن المدرسة إذا شئنا فهم التأثير الشامل للمشاهدة التليفزيونية.

يحجب الطابع « اللاهي» للعب الأطفال أهميته في أحيان كثيرة أهميته. فاللعب بعيدا عن أنه مجرد تسلية أو شغل لطيف لوقت الطفل، يتضمن مجموعة متنوعة ومهمة من السلوكيات التي تفي بأغراض مهمة في النمو الاجتماعي، والانفعالي، والعقلي للطفل. والواقع أن الظهور الشامل للعب في مملكة الحيوان بأسرها والتعقد المتزايد للعب في أثناء صعود المرء سلم النشوء والتطور النوعي، يؤكدان فكرة أن اللعب لابد أن تكون له بعض قيم البقاء لجميع الأنواع التي تشارك فيه. ومن أجل اكتشاف هذه القيم، من المفيد أن نفحص سلوك اللعب بمزيد من الدقة ونميز الأشكال المختلفة التي يشترك فيها الأطفال عموما، منذ المراحل الأولى التي تحدث ربما قبل أن يجذب جهاز التليفزيون الطفل إليه، وحتى تلك الأشكال المتقدمة التي

قد تحل المشاهدة التليفزيونية محلها في حياة أطفال اليوم.

إن التحسسات والملامسات الأولى التي يقوم بها الأطفال الرضع، وتلك الغمغمات والتذوقات والتشممات المتنوعة التي تغدو ذات معنى أكثر فأكثر خلال السنة الأولى من الحياة، يجوز النظر إليها كبدايات للعب. ويمثل إمكان تسمية هذه الأفعال الاستطلاعية الأولى «لعبا» مشكلة دقيقة تتعلق بعلم المعاني إلى حد ما، بما أنها من إملاء غرائز فطرية عموما ومصحوبة بالقليل من اللهو الذي يميز اللعب في أشكاله الأكثر تقدما. ربما خلال تلك «المنطقة الشفقية» twilight zone في الشهور الأولى لمولد الطفل، حين يكون الأطفال الرضع مازالوا بعد في طور تنمية البنى الفسيولوجية العصبية المهمة، قد تصح تسمية نشاطاتهم بنشاطات «ما قبل اللعب» pre -play. غير أنه بغض النظر عن الكلمة المستخدمة، فإن تلك الاستكشافات المبكرة تساعد الأطفال في الحصول على الإمكانات الأولى لفهم الذات فيما يتعلق ببيئتهم. وباستكشاف الغرائز الفطرية عمليا، يبدأ الأطفال في تمييز أنفسهم عن أمهاتهم والعالم ككل، ويشرعون في تعلم بعض الأشياء عن هذا العالم.

وإضافة إلى تزويدهم بقدرات الفهم الأساسية، تتيح الحركات اليدوية للأطفال الصغار ممارسة مهارات التنسيق المهمة الآخذة في النمو لديهم . فالطفل، في محاولته الوصول إلى إحدى الدمى، مثلا، ينمي التنسيق البصري - اليدوي وهي قدرة بقاء حاسمة.

إن الأطفال الرضع لا يستكشفون فقط عن طريق اللمس، والتذوق ، أو الشم ، بل يفعلون ذلك لفظيا أيضا، بالمناغاة، وإصدار مجموعة متنوعة من الأصوات. فمن الواضح أن الطفل الذي يناغي يستكشف، «ويجرب»، إن صح التعبير، محدثا أصواتا بطريقة هادفة مع اهتمام واضح بالنتائج وبالعملية أيضا. ويجب النظر إلى هذه التجارب اللفظية كإرهاصات مهمة لاكتساب اللغة .

وهناك شكل آخر من اللعب يظهر مبكرا في الطفولة ويشمل التقليد. فحتى قبل أول عيد ميلاد له سيقلد الطفل بعض حركات وإشارات الكبار بطريقة عابثة . (الوالدان يصفقان، والطفل يصفق بدوره). فألعاب المحاكاة المبكرة هذه توفر الفرص الأولى لاتصال حقيقي ثنائي الاتجاه حتى قبل اكتساب القدرة على الكلام. وبهذه الوسيلة سيبدأ الأطفال في التقدم من

مرحلة القابلية الكاملة للتأثر إلى علاقة يمكنهم فيها الإسهام شخصيا بشيء ما. ويشمل اللعب المقلد أيضا مرحلة مهمة أخرى من تعلم اللغة، ينتقل خلالها الأطفال من المناغاة العشوائية إلى التقليد المتعمد لأصوات المحيطين بهم.

ويشاهد شكل آخر من اللعب الذي يحقق وظيفة أخرى حين ينهمك الأطفال الرضع في لعبة الاختباء والظهور مع أمهاتهم. فهذا النشاط لا يحسن مهارات الرضع البدنية أو يزودهم بالمعلومات عن أنفسهم أو بيئتهم، كما يفعل اللعب الاستكشافي والمقلد. فالأصح، أنه في هذه النسخة الأولية من اللعب الإيهامي أو التخيلي، يبدأ الأطفال في استعمال اللعب لخدمة حاجاتهم الداخلية. لقد اكتشفوا أخيرا فقط أن أمهم، ذات الأهمية الحيوية في توفير الطعام، والدفء، والأمان لهم، ليست في الواقع جزءا دائما منهم وإنما مخلوق مخادع يستطيع أن يتركهم وحيدين أحيانا، وربما جائعين، غير آمنين، ممتلئين فزعا من استمرار التخلي عنهم. ويعاد تمثيل هذا الانفصال المؤلم، بصورة رمزية، في لعبة الاختفاء والظهور، ولكن من غير العواقب المؤلمة لفراق حقيقي. ففي اللعبة تأتي الأم وتروح، إلا أنها تظل هناك! وهكذا يساعد اللعب على جعل مظاهر الواقع الصعبة أكثر تقبلا لدى الطفل الصغير.

من المؤكد أن هناك وظيفة مماثلة، تواؤمية في كثير من اللعب الإيهامي الذي يختاره الأطفال الصغار للمشاركة فيه والابتهاج به. ذلك أنه من السهل إثبات أنهم لا يبتهجون في جميع الألعاب الرمزية التي يقدمها الكبار. دع أحد الوالدين يأخذ من الطفل لحافه الأثير أو دميته التي تغري بالاحتضان، على سبيل المثال، ويتظاهر (كل على سبيل المزاح) أنه على وشك تحطيمها أو إلقائها من النافذة. إن الطفل لن يقبل هذه اللعبة بروح طيبة، ورد الفعل الثابت هنا هو الشعور بالاستياء والقلق. ويتضح أن هذه المسرحية الخاصة لا تخدم هدفا مفيدا للطفل، فهي لن تساعد على تخفيف القلق أو توفير الطمأنينة بشأن مظهر الواقع الكريه أو المزعج. إنها لن تجعل الطفل أكثر راحة أو أمانا.

ويجد الأطفال، بالمثل، في أشكال اللعب التخيلي اللاحقة والأكثر تعقيدا، وسائل لمواجهة الصعوبات وتكييف حقائق الحياة لمتطلباتهم الداخلية. ففي

اللعب الإيهامي يستطيع الأطفال القيام بأدوار آبائهم وإصلاح المظالم التي سببت المعاناة لهم، ويمكنهم إعادة تمثيل مشاهد الحياة اليومية المؤلمة وتحويلها إلى تجارب أكثر إشباعا. كما يستطيعون في اللعب عرض، وربما تبديد، المخاوف التي لا يمكنهم الإفصاح عنها بأي طريقة أخرى.

وربما تكون الفرصة التي يتيحها اللعب التخيلي للأطفال من أجل ممارسة التجربة بنشاط وليس مجرد تلقيها سلبيا ذات أهمية أكبر. ففي الحياة الواقعية يبدو أن الأشياء تحدث للأطفال الصغار، ويتم عملها لهم، وهم مدركون جيدا لعجزهم العام في هرمية السلطة في العالم كما يرونه. لكنهم خلال لعبهم الإيهامي يُسمح لهم بأن يقلبوا هذا الميزان، وأن يسيطروا لا أن يخضعوا للسيطرة. وبواسطة الإيهام، يبني الأطفال لأنفسهم عالما يملكون فيه سلطة التصرف والتأثير في الناس والحوادث. وعن طريق هذا الانقلاب الرمزي، وإن كان مؤقتا في توازن القوى، يستطيع الأطفال الصغار تقبل وضعهم في عالم الواقع، وهو وضع مؤقت أيضا وإن ظل وعيهم بذلك غامضا.

ويمكننا أن نرى أن لعب الطفل جدي على الرغم من افتقاره الظاهري إلى «الجدية». غير أن أهم وظيفة يقوم بها اللعب في حياة الأطفال ربما لاتكمن في الأشكال النوعية للعب، وإنما في الظروف الاجتماعية التي تحيط به. فمن المحتمل أن يكون لتجارب اللعب هذه التي يشاركون فيها مع أطفال آخرين الأهمية الكبرى في نمو الأطفال.

إن الأطفال الصغار جدا لا يلعبون في الواقع «مع» الأطفال الآخرين، على الرغم من أن حضور الأطفال الآخرين قد يكون مدعاة لبهجتهم وحافزا لهم. إنهم يلعبون وحدهم أو يشاركون فيما يسمى «اللعب المتوازي»(*)، أي أنهم يمارسون نشاطهم الخاص في حضور الآخرين من غير إشراكهم في لعبهم، ومن دون أن ينخرطوا هم في لعب الآخرين. إلا أنه في حوالي السنة الثالثة من العمر يبدأ الطفل مشاركة الأطفال الآخرين في شكل اجتماعي من اللعب أكثر ملاءمة، لعب يتضمن العطاء والأخذ وقدرا معينا من التعاون المتبادل.

(*) اللعب المتوازي Parallel play: لعب الأطفال بلعب متماثلة رغم أن كلا منهم يلعب وحده. (قاموس التربية).

ولاشك في أن اللعب الاجتماعي يعرض الأطفال لمخاطر أكثر من اللعب الانفرادي أو اللعب المتوازي، أو اللعب مع أب مساير. فاللعب مع الآخرين يلزم الأطفال بكتم أمانيهم ورغباتهم الخاصة إلى حد ما. وليست هذه، كما يبدو، إحدى القدرات التي تولد مع الطفل، فضبط النفس ينبغي تعلمه. ولهذا السبب فإن اللعب الاجتماعي يمكن أن يكون صعبا بصورة مبرحة للأطفال في البداية. إذ لايتعين على الأطفال أن يكتشفوا الحاجة إلى كتم بعض دوافعهم الخاصة فحسب، بل يجب أيضا أن يكتشفوا الصعوبات التي تكتنف المستويات المتفاوتة للعدوان الذي عادة ما يوجد بين أقرانهم في اللعب. ولابد أن يتعلم الأطفال الأكثر عدوانية أن يجدوا وسائل غير عدوانية لتحقيق غاياتهم، بينما ينبغي على الأطفال ذوي الطبيعة المعتدلة أن يتعلموا حماية أنفسهم وأن يحافظوا على سلامتهم أمام رفاقهم الأقوى.

ومع نمو الأطفال، ومع اتخاذ لعبهم ـ سواء كان استكشافيا أم تخيليا ـ مجرى اجتماعيا بازدياد، تصبح قدرتهم على ضبط سلوكهم الخاص ذات أهمية متزايدة في نجاحهم كمخلوقات اجتماعية. وفي حين تستمر مظاهر اللعب في أداء الكثير من الوظائف ذاتها التي خدمتها من قبل ـ نمو المهارة البدنية بالإضافة إلى وظائف تخفيف التوتر النفسي ـ يصبح اكتساب المهارات الاجتماعية وضبط الدوافع الآن العامل الحاسم في لعب الأطفال. فتقبل الخسارة بلباقة، وتعلم الاستسلام، والتفاهم السلمي مع الآخرين كل هذه مهارات ينميها الأطفال في أثناء تعلمهم اللعب بنجاح مع الأطفال الآخرين. إن قيمة مهارات كهذه من حيث البقاء في حياة الكبار الإنسانية واضحة، مع أن الحروب بين الدول والعنف في داخل المجتمعات شهود على قصور الإنسان عن بلوغها.

الحرمان من اللعب

فإذا كان من الواضح أن اللعب هو أداة نقل الكثير من المعارف ذات الأهمية البالغة للطفل، والوسيلة التي يستطيع بها أن يمارس ويطور سلوكيات ضرورية لنجاحه ككائن اجتماعي، فما هي عواقب فقدان وقت اللعب على أطفال هذه الأيام؟

لقد قام العالم النفسي هاري هارلو Harry Harlow بتجربة متميزة لتقييم

الوظيفة العامة للعب في نمو نوع من القرود، التي يظهر سلوكها في أثناء اللعب تشابهات كثيرة مع لعب الأطفال من بني الإنسان. وتحمل النتائج التي أظهرتها هذه التجربة والدراسات المماثلة عن الحرمان من اللعب دلالات بشأن الآثار المحتملة لهذا الحرمان في أفراد الأنواع - التي يشكل اللعب عندها نشاطا طبيعيا - والبشر بوجه خاص.

لاحظ هارلو أن القرود التي تقوم أمهاتها على تربيتها بطريقة طبيعية، وتحصل على فرص طبيعية في اللعب تتبع نمطا معينا من السلوك. فخلال الشهور الأولى من حياتها تتعلق القرود بعناد، ودون استثناء، بأمهاتها. وتتضمن تجارب لعبها الأولى مجموعة متنوعة من الممارسات اليدوية من على ظهور الأمهات المريحة. وفي الشهر الثاني أو الثالث تبدأ القيام بطلعات بعيدا عن أمهاتها للعب مع القرود الصغيرة الأخرى. وتقدم أمهاتها العون لها في استقلالها الغض، مشجعة إياها على وقف التعلق بها وعلى اللعب بدفعها بعيدا باطراد في أحيان كثيرة. وخلال الشهر الرابع من العمر تقضي القرود الصغيرة الكثير من وقت يقظتها في مجموعة متنوعة من الألعاب الخشنة العشوائية مع القرود الأخرى، بما في ذلك المصارعة ونوع من لعبة «المطاردة».

وبعد ذلك لاحظ هارلو مجموعة من القرود التي كبرت بصورة طبيعية من جميع الوجوه عدا أنها حرمت من جميع فرص اللعب مع القرود الأخرى.

فبعد ثمانية شهور من حرمانها من اللعب، وحين عرضت هذه القرود أمام قرود من السن نفسها وكبرت على النحو المعتاد، اكتشف هارلو شذوذا سلوكيا غريبا في علاقاتها الاجتماعية الجديدة: فقد أثبتت القرود المحرومة من اللعب أنها، وبصورة دالة، أكثر عدوانية في سلوكها الاجتماعي من القرود التي حصلت على فرص كافية في اللعب في أثناء تربيتها. فرغم أنها تجاهلت محاولات القرود السوية لاجتذابها إلى أنشطة اللعب المألوف وانسحبت من معظم الألعاب الخشنة التي تميز لعب القرود العادي، فإن القرود المحرومة من اللعب شرعت في شن هجمات عنيفة على القرود الأخرى في أوقات غير ملائمة. ولم يبد عليها أي خوف من القرود الأخرى وأظهرت القليل جدا من السيطرة على غرائزها العدوانية.

لم تكن المسألة مجرد زيادة في الغرائز العدوانية بين القرود التي حرمت

من اللعب، لأن جميع القرود السوية تظهر دوافع عدوانية من سن مبكرة. لكنه كان من الواضح أن القرود التي تمتعت بفرص منتظمة في اللعب مبكرا تعلمت التخفيف من غرائزها العدوانية خلال لعبها اليومي، ولم يقع إلا القليل من العنف الفعلي من جانب أحد القرود على قرد آخر في المجموعة التي تربت بطريقة طبيعية. وعلى العكس من ذلك، فقد سولت القرود التي حرمت من اللعب لدوافعها العدوانية أن تظهر بلا ضابط، محدثة عواقب يؤسف لها نحو الآخرين، ولها هي بخاصة، لأنها في أحيان كثيرة هاجمت قرودا أقوى منها[6].

وتثير دراسات هارلو سؤالا جديدا بشأن العلاقة بين المشاهدة التليفزيونية وتعدي الطفولة: هل يمكن أن يؤدي تقليل وقت اللعب عند الأطفال بدرجة كبيرة، نتيجة لاستبدال أنشطة اللعب بالمشاهدة التليفزيونية، إلى زيادة في السلوك العدواني الذي كان يتم تلطيفه وتطبيعه اجتماعيا من خلال تجارب اللعب؟

إن تناقص اللعب قد يكون السبب، حقا، في زيادة التعدي الطفولي العادي - الدفع، والدسر، والضرب، ما شابه ذلك - الذي يرى كثيرون من الآباء والمدرسين أنه خصيصة مؤلمة في سلوك أطفال اليوم. ومع ذلك، فلا ينبغي اعتبار أن ذلك هو التفسير الوحيد لوباء جناح الأحداث الذي أصاب مجتمعنا في العقدين الأخيرين. لقد لوحظ أن قرود هارلو قد تربت تربية طبيعية من جميع الوجوه فيما عدا حرمانها من اللعب. وفي التجارب الأخرى التي تعرضت خلالها القرود للحرمان من الحاجات الأساسية الأخرى، كرعاية الأم، مثلا، شوهدت تغييرات كاسحة فيما يرتبط بالنمو. وبالمثل، فإن الشبان المتورطين في جناح حقيقي ، بالمقارنة مع سوء السلوك الطفولي العادي، لديهم خلفيات من الحرمان تفوق بكثير الحرمان من اللعب.

ربما لا تكون الحاجة إلى ضبط الدافع لدى الأطفال الأسوياء من الأسر العادية أهم العواقب الناجمة عن طفولة محرومة من فرص اللعب العادي. ذلك أن لعب الأطفال يرسخ، قبل كل شيء ، أنماطا سلوكية تفضي إلى أسلوب حياة يتسم بإشباع عميق.

كتب العالم الأنثروبولوجي إدوارد نوربك Edward Norbeck: «إن الهدف

الأساسي للعب ذو أهمية أعمق لكل فرد. فالأطفال الذين يلعبون يتم تحريضهم في المقام الأول على الاستمتاع بالحياة. تلك هي القيمة المجربة rehearsal value البارزة للعب والألعاب، ذلك أنه من دون قدرة الاستمتاع بالحياة قد تصبح سنوات الرشد الطويلة مملة ومرهقة»[7].

والواقع أن ثمة علامات بين أفراد الجيل الذي شب وهو يشاهد التليفزيون على أن حياة الكبار تبدو فعلا مملة ومرهقة، وأن استمتاعهم بالحياة يفتقد شيئا ما، شيئا كان يمكن أن توفره طفولة اللعب العادي.

«كثيرون من متمردي الستينيات مكتئبون وهم على عتبة الثلاثين»، هكذا يطالعنا العنوان العريض المنشور في صحيفة نيويورك تايمز[8]. وتصف المقالة الشبان الذين بلغوا سن النضج خلال أواخر الستينيات، ويعانون حاليا «اعتلالا جيليا من الإحباطات الملازمة، والقلق والاكتئاب» ، وهو اعتلال ينعكس في زيادة الأشخاص ممن هم في العشرينيات وبداية الثلاثينيات الذين يتلقون مساعدة طبية نفسية، وفي ازدياد حالات الانتحار وتعاطي الكحوليات في هذه المجموعة العمرية، وغير ذلك من مظاهر العجز عن «الاستمتاع بالحياة». ويستشهد المقال بقول أحد الشبان:« إن لدي عملا جيدا، وأنا شخص ناجح، وأريد أن أقتل نفسي. فالحياة لاتعني شيئا».

لا يمكن أن تكون مصادفة أن الشباب الذين يعانون هذا الاعتلال الغريب الجديد يمثلون أول جيل تليفزيوني. ولايمكن أن يخلو من الدلالة أنهم يمثلون أول جيل تناقصت أنشطة لعبه العادي (وحذفت واقعيا في بعض الحالات)، نتيجة للانغماس في مشاهدة التليفزيون.

«وا أسفاه للقرود التي لايسمح لها باللعب»، هكذا كتب هاري هارلو في مناقشة لعمله التجريبي. فماذا عن الأطفال الذين قضوا طفولتهم في المشاهدة بدلا من اللعب؟

٩ جيل التليفزيون

لغز الجيل

كيف يكتسب جيل من الأجيال أنماطه السلوكية المشتركة التي يتسم بها وتميزه عن سواه من الأجيال؟

كتب رينيه دوبوس René Dubos: « يبدو أن مما يتعذر اجتنابه أن جميع التغييرات في أساليب الحياة... تغير باستمرار عالم الإدراك الحسي للجسم النامي. فأنماط السلوك الجديدة ومشكلات التكيف الاجتماعي الجديدة تنتج بصورة حتمية تغييرات بيئية من هذا النوع، وهذه ، بدورها، تضفي على الشخصية الفردية بعض الخصائص التي يشترك فيها غالبية أفراد جيل بعينه»[1].

ولابد أن يكتشف المرء تلك التغييرات البيئية المحددة من أجل أن يفهم أسباب العلل والأمراض الخاصة بجيل معين. غير أن ثمة لغزا يظل بلا حل. فالأطفال، برغم كل شيء، يولدون في كل دقيقة يوميا. فهل يبدأ، إذن، جيل جديد كل يوم؟ متى يبدأ أحد الأجيال، ومتى ينتهي آخر؟ ولو كانت التغييرات البيئية تؤثر دونما شك في نتيجة كل جسم نام، إن كانت هذه التغييرات تحدث باستمرار، كما يقترح دوبوس، فكيف يحدث أن يشب جيل

بعينه مختلفا اختلافا شديدا عن جيل سابق له؟

من أجل حل اللغز الجيلي ينبغي أن يبدأ المرء بافتراضين أساسيين: الأول، أنه يجوز تعريف الجيل بتلك الأحداث الكبرى التي تقع خلال فترات معينة، الأحداث التي تبدل على وجه الخصوص أساليب الحياة، والثاني أن وقوع أحداث كهذه، سوف يؤثر بعمق في تلك الأجسام فقط في أبرز مراحل حياتها نشوءا ـ ونعني الأطفال الصغار.

وهكذا فحين يتحدث المرء عن جيل الكساد(*) أو جيل الحرب العالمية الثانية، فليس القصد جميع الناس الذين عاشوا في أثناء تلك الأحداث المفاجئة العنيفة التي تبدل مجرى الحياة، على الرغم من أن حياة جميع الناس قد تأثرت في الواقع. إنما يقصد المرء بخاصة أولئك الذين ولدوا خلال سنوات تلك الأحداث والذين يحتمل أن يكون نموهم قد تأثر في أساليبه الأساسية بتلك الأحداث.

إن التليفزيون، خلافا للحرب أو الكارثة الاقتصادية أو التقدم التكنولوجي في ميدان الاتصال، لم يبدل بصورة مثيرة طرائق عمل الناس أو أساليب معيشتهم، ولم يدفع الناس إلى الانتقال بأعداد كبيرة من الريف إلى المدن، أو إلى العمل في المصانع وليس بالأحرى في الصناعات اليدوية، أو يجعلهم ضمن مجال وتأثير أناس في أجزاء بعيدة من العالم.

لكن هناك مظهرا واحدا يميز التليفزيون عن جميع التكنولوجيات الأخرى السابقة التي أثرت في المجتمع. إذ لم يحدث أن ترك أي تطور جديد آخر تأثيرا في حياة أكثر فئات السكان قابلية للتأثر ـ أطفال ما قبل سن المدرسة ـ بهذه الصورة من السرعة، والانتشار، والمباشرة مثلما فعل دخول التليفزيون إلى البيوت الأمريكية.

لقد تغير الروتين اليومي لطفل السنوات الثلاث بواسطة إتاحة جهاز التليفزيون كوسيلة معاونة في تربية الطفل. فعلى حين غرة، صار الطفل يمضي ساعتين، أو ثلاث، أو أربع، بل ست أو سبع ساعات من يومه في نوع من النشاط لا هو بالنوم ولا هو باللعب بل يقع في مكان ما بين هذا وذاك، نشاط يتسم بتشرب غريب للمواد المرئية والسمعية المصحوبة بسلوكيات

(*) جيل الكساد The Depression Generation: نسبة إلى فترة الكساد الاقتصادي العالمي في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، والتي اتسمت بتفشي البطالة (المترجم).

غير مألوفة تماما بين الأطفال الصغار ـ السكوت، الخمول ، والسلبية العقلية.

إن من الصحيح ، طبعا ، أن أي تطور جديد ذي أثر في تغيير المجتمع مرشح للتأثير في حياة الأطفال الصغار. فإذا خلقت الحرب وأخطارها المصاحبة على الحياة والأمن، مثلا، مناخا من القلق في مجتمع بأسره، فمن المفترض أن يؤثر ذلك في أساليب تربية الآباء لأطفالهم الصغار الأمر الذي يسفر عن تغييرات في جيل بكامله. وعلى سبيل المثال، فإن استعمال السيارة، زاد من قابلية التحرك والانتقال وبذلك نشأت أساليب أسرية جديدة. لقد هجرت أعداد كبيرة من الأسر المجتمعات المستقرة ومزقت صلات الأسرة الممتدة للبحث عن السعادة في ضواحي المدن، وأسفر ذلك عن تغييرات في علاقات الآباء والأطفال وفي تنمية الطفل. لكن التليفزيون يمس حياة الأطفال الصغار مباشرة وبصورة تفوق أي تكنولوجيا أو تغيير آخر في الماضي. ولذلك فمن المرجح أن تكون تأثيراته أقل تدرجا في التطور من حيث طبيعتها، وأكثر فجائية في البداية من تلك التأثيرات التي تنتج عن مبتكرات أخرى.

وهنا تفرض إحدى القضايا المنطقية نفسها. فالأطفال، الذين شاهدوا التليفزيون طوال ربع ساعات يقظتهم (أو أكثر) في أثناء السنوات الحاسمة بين الثانية والسادسة من العمر سيكونون مختلفين، من نواح مهمة يمكن تمييزها، عن نظرائهم الذين لم يشاهدوا التليفزيون. وعلى وجه الدقة، فإن الطفل الذي يشاهد التليفزيون سيكون قد قضى ما مجموعه على الأقل خمسة آلاف ساعة (وربما ضعف ذلك)، في مشاهدة الصور على الشاشة مع بلوغه السادسة من العمر.

وعلى العكس من ذلك، سيكون الطفل الذي لم يشاهد التليفزيون قد حصل على خمسة آلاف ساعة أو أكثر خصصت لأنشطة تنشئته خلال مرحلة الطفولة المبكرة.

فإذا قبلنا هذه القضية، استتبع ذلك حتما وجود كيان يسمى جيل التليفزيون Television generation ، يختلف عن الأجيال السابقة من حيث الجوانب المرتبطة بتجارب مشاهدته التليفزيونية المبكرة.

إن السرعة المذهلة التي جرى بها استعمال التليفزيون تجعل من السهل

تحديد المعنى الدقيق الواضح لجيل التليفزيون. فخلال فترة محددة بأربع سنوات، بين عامي 1948 و 1952، ارتفعت ملكية التليفزيون في أمريكا من آلاف قليلة إلى 15 مليون جهاز. وهكذا فإنه إذا كانت تمضية وقت الأطفال الصغار في تجربة المشاهدة التليفزيونية «تضفي على شخصية الفرد بعض الخصائص المشتركة بين أفراد جيل ما »، فإن هذه الخصائص تظهر بصورة أكثر فجائية وشمولا من التغييرات الجيلية التي تحدث بفعل تأثيرات أكثر تدرجا وترشحا. ويتوقع المرء في غضون فترة محدودة من الزمن رؤية علامات تأثيرات التليفزيون في الجيل الأول من الأطفال وقد كبرت معه كتأثير تكويني.

أعراض

قبل تقييم العلاقة بين أنماط السلوك غير المألوفة لجيل ما وتجارب مشاهدته التليفزيونية، ينبغي ملاحظة أن النمو الإنساني عملية معقدة إلى حد يصعب معه كثيرا على أي عامل مؤثر بمفرده أن يغير الصورة الكبيرة بطريقة مباشرة وواضحة المعالم. ولابد أن تؤخذ في الاعتبار قدرات الجسم والعقل الإنسانيين على التواؤم مع الضغوط البيئية، فهي الآليات ذاتية الانضباط التي تتيح موردا لا ينضب للاحتمالات الثانية والثالثة في الصراع من أجل الوجود(2).

إن الجسم يمتلك آلياته الفيزيائية التي تحافظ، مثلا، على درجة الحرارة الداخلية الملائمة له على الرغم من أقصى درجات الحرارة خارجه، كما أن لديه استراتيجياته لمقاومة العدوى وغيرها من هجمات المرض، وللعقل وسائله السيكولوجية التي يتواءم بها مع الصدمات، والصراعات، والحقائق المؤلمة.

وهذه الآليات التي يتواءم بها الجسم والعقل مع الظروف التي تهدد توازنهما تكشف عن نفسها كأعراض. فالارتعاش، والسعال، والقيء، والحمى، كل هذه أعراض تمثل وظائف الإصلاح الذاتي للجسم السليم، تماما مثلما تمثل الأمراض العصبية النفسية، والأفكار القهرية، وأنماط السلوك «اللاعقلاني» التي يظهرها الناس خلال حياتهم توافقات سيكولوجية أو انفعالية. ويشكل فهم هذا المبدأ حجر الزاوية في الطب النفسي الحديث،

تماما كما يشكل فهم عمل الاتزان الحيوي للجسم أساس ممارسات الطب الحديث.

بيد أنه على الرغم من قدرة الجسم والعقل الإنسانيين على استعادة الحيوية والقدرة على التكيف فإن للعوامل البيئية تأثيرات دائمة. وعلى سبيل المثال فحينما ينهض المرء في صحة تامة بعد فترة من المرض، يكون الجسم قد تغير في نواح معينة: لقد تكونت في الجسم أجسام مضادة لمقاومة البكتريا وهي أجسام تظل تدور في مجرى الدم من الآن فصاعدا؛ ولحق الدمار بخلايا معينة أثناء المعركة التي نشبت ضد الجراثيم وغيرها وتولدت خلايا أخرى. وبالمثل فإن التوافقات السيكولوجية التي يحتاج المرء إلى إجرائها للتكيف مع تجارب الحياة، تترك آثارا دائمة على سلوكه حتى بعد أداء مهمتها العاجلة. وفي كلمات واضحة، إن الناس يتغيرون بواسطة تجاربهم.

وبينما تزيد تجارب معينة قوة الجسم، تضعف تجارب أخرى من حيويته. لكن ذلك ليس مسألة يسهل تقييمها بالمرة. فعقب ساعة شاقة من رفع الأثقال، على سبيل المثال، يشعر الشخص بأنه منهك، ظاهر الضعف. لكن النتيجة الحقيقية للتدريب هي تقوية العضلات وزيادة القدرة على التحمل. وبالمثل، فربما تثبت تجارب معينة كانت تبدو «سيئة» عند وقوعها أنها، على المدى الطويل، أنعشت روح الإنسان الذي خاضها بدلا من إضعافها. وغالبا ما يخلف العمل الشاق الذي يؤدى جيدا بقية من متعة على الرغم من أن التجربة الفعلية لم تكن سارة على الإطلاق. وعلى العكس من ذلك، فالتجارب السارة أصلا ـ فترات الانغماس الذاتي، والإفراط في الأكل، أو شرب الخمر الزائد ـ كثيرا ما تترك مذاقا رديئا، بالمعنى المجازي والحرفي أيضا، نتيجته فقط تعميق الشعور بعدم الرضا الذاتي لدى الشخص.

ما هي إذن آثار إضاعة الوقت أمام التليفزيون على جيل من المشاهدين؟ ومن خلال فهمنا لطبيعة التجربة التليفزيونية والدور الذي تلعبه في مجالات نوعية خاصة من نمو الطفل، قد نبدأ تحديد أي السلوكيات التي ظهرت بين جيل الصغار الذين تعرضوا في البداية لتأثير التليفزيون يمكن أن يحمل تسمية «الأعراض» ـ أي السلوكيات التي استعملها الجسم للشفاء من أوجه القصور والاختلالات الناجمة عن وجود التليفزيون أو حلوله محل

تجارب ضرورية أخرى في حياة الأطفال، وهو أمر له أهمية مماثلة.

التخاطب بلا كلمات

باعتبار أن سنة 1950 هي أول سنة لدخول التليفزيون إلى البيوت الأمريكية على نطاق واسع، كان من المتوقع بالتالي ظهور علامات تأثير التليفزيون في الجيل الأول من الأطفال المتأثرين به حوالي سنة 1964 أو 1965 عشية اقتراب أولئك الأطفال، الذين كانوا في الثالثة من العمر سنة 1950 ، من سن الالتحاق بالكليات. فهؤلاء الأطفال يمثلون أوائل الأعضاء في جيل التليفزيون.

كتب Lawerence Fuchs يقول : «إن الجيل الذي بلغ مرحلة الوعي في الستينيات مختلف عن أي جيل سبقه»[3]. وعلى الرغم من أن المتحدثين باسم هذا الجيل كثيرا ما يسهبون في الحديث عن إحباطاتهم السياسية، وغيرها من الصراعات الأيديولوجية لتفسير اغترابهم عن المجتمع وأساليب حياتهم الجديدة، فإن كلمات التفسير ذاتها، النمطية، المدغمة النطق (مثل« يا رجل... تعرف ... إننا نفعل فعلنا فحسب») وأسلوب كلامهم المغمغم ، المتعثر، غير التتابعي - القريب إلى الكلام غير اللفظي بدرجة كبيرة - تبين أن تغييرا أساسيا أكبر قد حدث، وهو تغيير لا علاقة له بالأفكار أو الإحباط الاجتماعي. ويكاد يكون من الصعب عدم الربط بين الاختلافات التي يظهرها هذا الجيل، والتي قد تصنف بثبات كتعميق لأنماط التفكير غير اللفظي ، وحقيقة أنه هو الجيل الأول الذي اشتد عوده بينما كان يشاهد كما مذهلا مما يعرض على شاشة التليفزيون.

لقد ظهر في أواخر الستينيات جيل لم يكن الحديث العادي بالنسبة له شكلا حاسما من أشكال الاتصال مثلما كانت الحال بالنسبة للأجيال السابقة. إن النشاط الجنسي المباشر كشكل من أشكال الاتصال ظل دون تغيير - فبقاء النوع يعتمد عليه. إلا أنه بدلا من الشبان الساعين فيما مضى من خلال عمل إنساني مألوف لإقامة علاقات وطيدة بين بعضهم البعض، وتحقيق غاياتهم بالتحدث معا، وتبادل المعلومات، وبعد عشرين سنة من استعمال التليفزيون كوسيلة اتصال جماهيري، صارت حلقة الشبان المتشابكي الأيدي، الذين يتحدث أحدهم مع الآخر بلا كلمات، خصيصة

أكثر بروزا من أحاديث المقاهي الكثيفة التي شكلت الخصائص الرئيسية لجيل الخمسينيات. لقد اكتشف جيل التليفزيون فرصا جديدة غير وسيلة الحديث من أجل «الاستمتاع الذاتي» معا، ومن أجل عقد أواصر الألفة عن طريق التجارب المشتركة غير اللفظية، أو بمساعدة الماريجوانا أو العقاقير المخدرة الأقوى في أحيان كثيرة.

لم يكن التليفزيون طبعا العامل الوحيد الذي أسهم في التعريف الخاص للجيل الذي بلغ سن الرشد قرب نهاية الستينيات، فقد لعبت الحقائق الاقتصادية دورا أيضا. وأتاحت فترة غير مبسوقة من بحبوحة العيش خلال الخمسينيات والستينيات خلفية سهلة لرفض واسع النطاق للمادية وقيم المجتمع الإنتاجي، التي اتصف بها «جيل وودستوك woodstock generation»(*) وغذت أسلوب حياته الداعي للعودة إلى الطبيعة، والعاري من الطموحات على الخصوص والمعادي للفكر في أغلب الأحيان. ومع تردي الحالة الاقتصادية في الولايات المتحدة في السبعينيات، بدأ تركيز جديد على النجاح المادي (أو ربما كان عودة إلى تركيز قديم) يظهر في الجامعات الأمريكية. واختفى الشعر الطويل والمظهر الأشعث الذي شاع في الستينيات، وتحول الطلاب عن أفكار التمرد والاغتراب متطلعين إلى المعاهد التجارية ومقابلات العمل. وبينما قد تماثل هذه «الموجة الثانية» من جيل التليفزيون، كما يمكن أن توصف، شبان عهد ما قبل التليفزيون في الأربعينيات والخمسينيات من حيث قصات شعورهم الأنيقة وملابسهم الغالية الثمن، إلا أن أصحابها واصلوا إبداء تلك الأنماط المتغيرة من التفكير والسلوك التى ظهرت لأول مرة في أواخر الستينيات، وذلك في ناحيتين مهمتين هما: استمرار العجز في مهاراتهم اللفظية بالمقارنة مع أقرانهم في فترة ما قبل التليفزيون، واستمرار العقاقير المنشطة، ولاسيما الماريجوانا، كجانب مألوف في حياتهم.

التليفزيون والمخدرات

ربما يكون ظهور المخدرات كجزء مهم من ثقافة جيل التليفزيون هو

(*) جيل وودستوك woodstock generation: نسبة إلى مدينة في ولاية نيويورك، شهدت مهرجانا ضخما لموسيقى الروك في أغسطس عام 1969 (المترجم).

«العرض» Symptom الذي يحمل أوضح مطابقة لتجربة هذا الجيل في المشاهدة التليفزيونية. ففيما بين عامي 1964 و1968، وبالضبط حينما بدأ الأعضاء الأوائل من جيل التليفزيون بلوغ سن الرشد، تضاعفت نسبة الشبان ممن هم بين سن 10 و18 سنة المقبوض عليهم كمتعاطين لمخدرات خطيرة[4]. ولاشك في أن ذلك لا يثبت أن مشاهدة التليفزيون وتعاطي المخدرات مرتبطان سببيا، فهناك عوامل أخرى مهمة تتصل اتصالا وثيقا بالموضوع، منها ازدياد وجود المخدرات. لكن التوافق الغريب في التوقيت بين النقطتين يطرح فكرة الصلة بين التجربة التليفزيونية وتعاطي الشبان للمخدرات.

ويربط الشبان أنفسهم في أحيان كثيرة بين تعاطي المخدرات والتجربة التليفزيونية:

ففي دراسة عن تعاطي المراهقين للمخدرات ورد على لسان شاب في التاسعة عشرة قوله:« من المؤكد أنني أتعاطى الماريجوانا. إنه شعور طيب. الماريجوانا تبطئ العالم قليلا. أنا أصغي إلى نفسي بصورة أفضل. بطيء وضبابي إلا أنه واضح نوعا ما، مثل فيلم بالحركة البطيئة، أو برنامج تليفزيوني ذي شاشة صغيرة إلى حد أنها تدخل مباشرة إلى رأسك، وبذلك يمكنك أن تستشعر ما تعرضه في الصور».

ويروي شاب في السابعة عشرة:« ياللجحيم، لقد تعاطيت الماريجوانا منذ كنت في الرابعة عشرة. وتعاطيت عقار الـ LSD لبعض الوقت في هذه السنة... وجعلتني جميع الصور في داخل مقلتي عيني أفكر في الريف وفي نفسي... لقد شاهدت ذلك من هنا كأنما في برنامج تليفزيوني».

ويلاحظ أصحاب الدراسة أن:« إشارة مماثلة إلى التليفزيون تظهر مرة ومرات في مقابلاتنا [5]».

ويدافع كاتب شاب من جيل التليفزيون عن تورطه في تجارب تعاطي المخدرات:

«تحت تأثيرها (الماريجوانا)... أنت لاتضطر لأن تقول شيئا من أ جل تقوية الإدراك الحسي والإدراك الداخلي لديك. فمن الممكن من دون كلمات تقييم تكوينك الذاتي النفسي... وأول شيء تتعلمه هو أنك لا يمكنك بعد الآن إصدار حكم قيمي بين ما هو واقعي وما هو غير ذلك. تماما كما هي الحال مع التليفزيون»[6].

ويختتم الكاتب الجدل لمصلحة تعاطي المخدرات بجملة معبرة:« سيتعين على أمريكا ببساطة أن تدرك وأن تجيز فكرة أن التجريب واسع الانتشار للمخدرات ليس علامة تفسخ وانحطاط، بل، على العكس، علامة تكيف ومواءمة».

إنها لفكرة غريبة أن يمثل انغماس أبناء أحد الأجيال في مخدرات تغيب العقل تكيفا ومواءمة مع بعض مظاهر بيئتهم. يرى ألفين توفلر Alvin Toffler في «صدمة المستقبل» Future Shock أن زيادة الإثارة على المستوى الحسي تتعارض جوهريا مع قدرة الناس الفعلية على التفكير، وتؤدي إلى استجابة تكيفية، تشمل الانسحاب والخمول، ورفض العقل والتفكير العقلاني إجمالا. وكتب توفلر: «الولايات المتحدة دولة يهرب عشرات الآلاف من شبابها من الواقع عن طريق اختيار النوام (السبات) lethargy تحت تأثير المخدرات... إذا كنا على نحو أعمى نزيد معدل التغيير، ومستوى الجدة والغرابة، ونطاق الاختيار، فإننا نحكم على الملايين بالصدمة في المستقبل. إننا نتلاعب في طيش بالشروط البيئية المسبقة للعقلانية[7]».

لكن هناك شيئا غير مرض فيما يتعلق بالفكرة القائلة إن عوامل كزيادة معدل التغيير أو التنوع المذهل في الخيارات، أدت إلى تغيير سلوكي بهذه الأهمية مثل تعاطي جيل من الأطفال المخدرات على نطاق واسع. إذ من المؤكد أن الشروط المسبقة للعقلانية ليست بيئية، بل تكمن في النمو العقلي للفرد الذي ينشد العقلانية. غير أن المؤكد أن التلاعب الأشد تأثيرا يشمل تجارب الطفولة المبكرة، حيث تتشكل هذه البنى الأساسية للعقلانية.

الوعى المجرد

إذا كان من المفهوم أن التجربة التليفزيونية التي تلعب دورا بهذه الأهمية في حياة الأطفال الصغار اليوم، تتضمن نشاطات عقلية أقرب إلى تلك التي تحدث في حالة التخدر منها إلى تلك المرتبطة بشعور اليقظة العادي، فربما يبدو من الممكن وجود صلة بين استغراق جيل في المخدرات وبين تجاربه التليفزيونية المبكرة.

قارن حالة اليقظة الشعورية، التي نقيس في مقابلها جميع حالات الوعي الأخرى التي قد تعتبر شاذة أو متغيرة، ببعض المظاهر الشائعة للتجربة

التليفزيونية. إن عقولنا، في معظم لحظات يقظتنا، تتلقى مجموعة متنوعة من المواد الحسية وتشرع في تحويلها إلى أفكار. ومع مرور كل لحظة من لحظات اليقظة، يقارن العقل، ويفكر، ويزن الأمور، ويراجع، ويضفي المعاني على المادة الحسية الآتية إليه من العالم الخارجي. أي يمكن القول إن العقل يفسر البيانات حتى في أثناء إدراكه لها. إننا لا نستطيع أن نتوقف عن التفكير ، فهو نشاطنا العقلي العادي ونحن نقوم بذلك بطريقة تلقائية. والواقع، أننا تعودنا على هذا النشاط العقلي لدرجة أن غيابه يجعلنا نشعر بأننا غرباء «غير حقيقيين».

وحين تنهمك عقولنا في تجربة تليفزيونية فإنها تستقبل بيانات إدراكية، لكن إحساسات التجربة تملأ العقل تماما على نحو يفوق بكثير التجارب العادية للحياة الواقعية. وفي الجانب الأكثر من الإدراك التليفزيوني العادي، لا يصحب المشاهدة سوى القليل من التفكير أو التفسير أو التذكر. فالمشاهد، لاسيما المشاهد صغير السن، تستغرقه التجربة التليفزيونية كلية إلى حد يجعل إتمام ممارسة الإحساسات أصعب من ممارسة الأشياء الواقعية، إن العقل يتلقى الصور التليفزيونية عند وصولها ويقوم بتخزينها سليمة.

ليست الحالة الشعورية في أثناء المشاهدة التليفزيونية بعيدة عن الحالة التي أطلق عليها المتعاطون للمخدرات وصف الوعي المجرد pure awarenss، وهي التي «يكون فيها»... الشخص على وعي كامل ونشط بتجربته، ودون أن يكون هناك وجود لعمليات تفكير، أو ممارسة أو تفسير. فالإحساسات تملأ انتباه الشخص، وهو انتباه سلبي، إلا أنه مستغرق فيما يحدث، وهو ما يكون في العادة قويا ومباشرا. إن الوعي المجرد اجتياز للتجربة من دون أي ارتباطات بما يكون هناك [8].

القسم الثالث
التليفزيون والأسرة

10 الحياة الأسرية

أصبحت مشاهدة التليفزيون جانبا حتميا ومألوفا من جوانب الحياة اليومية عقب أقل من خمسين سنة من دخوله إلى المجتمع الأمريكي، وهي فترة شهدت ترسخ هذه الوسيلة الإعلامية بعمق في الحياة الأمريكية، إلى حد أن جهاز التليفزيون حصل في إحدى الولايات المتحدة على الأقل على منزلة الضرورة الشرعية، التي تحمى من الاسترجاع - في حالة الدين - مع الملابس، وأدوات المطبخ، وما شابه ذلك[1]. وفي السنوات الأولى للتليفزيون وحدها كان لدى الكتاب والمعلقين ما يكفي من الفطنة للفصل بين المشاهدة التليفزيونية والمضمون الفعلي الذي تقدمه للمشاهد. وفي تلك الأيام المبكرة كثيرا ما ناقش الكتاب تأثيرات التليفزيون في الحياة الأسرية. لكن نوعا من قصر النظر الغريب أصاب أولئك المراقبين الأوائل. فهم، من غير استثناء تقريبا، نظروا إلى التليفزيون كعامل إيجابي مؤثر، ومفيد، بل رائع، بالنسبة إلى الأسرة.

«سيكون التليفزيون قيمة حقيقية في كل بيت يوجد به أطفال»، هكذا تنبأ أحد الكتاب في سنة 1949[2].

«سيباشر التليفزيون إدارة أسلوب حياتكم ويغير

عادات أطفالكم، لكن هذا التغيير يمكن أن يكون تطورا رائعا»، هكذا زعم معلق آخر[3].

وكتب أحد النقاد في صحيفة نيويورك تايمز عام 1949:

« لا حاجة بطبيعة الحال إلى عمل دراسة مسحية، لإثبات أن التليفزيون قد لمّ شمل الأسرة في حجرة واحدة»[4].

كان كل مقال من المقالات المبكرة عن التليفزيون بلا استثناء مرفقا بصورة أو رسم يظهر أسرة جالسة معا في جو حميمي أمام جهاز التليفزيون. سيس Sis في حضن أمه. بودي Buddy يجلس على ذراع كرسي أبيه، والأب يلف ذراعه حول كتف الأم. فمن كان يمكنه أن يخمن أنه بعد عشرين سنة أو نحو ذلك ستشاهد الأم عملا مسرحيا في المطبخ، وينهمك الأطفال في النظر إلى الرسوم المتحركة في حجرتهم، بينما يتابع الأب على الشاشة الصغيرة مباراة الكرة في حجرة المعيشة؟

طبعا كانت أجهزة التليفزيون غالية الثمن جدا في تلك الأيام الأولى. ولم يكن واردا بحال أن يمتلك ما يزيد على نصف الأسر الأمريكية، بحلول عام 1982، جهازي تليفزيون أو أكثر، كان ذلك في حكم المستحيلات. كذلك لم يكن تجزؤ الأسرة ذات الأجهزة المتعددة ليخطر على بال الكتاب الأوائل. كما لم يتصور أحد عدد الساعات التي سيخصصها الأطفال في آخر المطاف للتليفزيون، ولا التغييرات التي سيحدثها التليفزيون في أساليب تربية الطفل، ولا سيطرة متطلبات مشاهدة الأطفال المتزايدة على البرامج اليومية للأسرة - وباختصار، قدرة التليفزيون على التحكم في الحياة الأسرية.

وعقب السنوات الأولى، ومع زيادة تسلط الوسيلة الإعلامية الجديدة على الأطفال، وقلق الآباء من التأثيرات المحتملة للمشاهدة التليفزيونية الطويلة، ساعدت عبارة تكررت بانتظام على تهدئة وطمأنة قلق الآباء. ففي دراسة مبكرة ومؤثرة عن تأثيرات التليفزيون في الأطفال، قال مؤلفو الدراسة: «إن التليفزيون يدخل دائما إلى نمط من التأثيرات الموجودة بالفعل: البيت، جماعة الأقران، المدرسة، دار العبادة، والثقافة عموما»[5]. وبكلمات أخرى، إذا كانت حياة الطفل الأسرية على ما يرام، فليس هناك ما يدعو لقلق الآباء بشأن تأثير المشاهدة التليفزيونية برمتها.

لكن التليفزيون لم يؤثر فقط في الطفل، ذلك أنه ترك أثرا عميقا في

ذلك «النمط من التأثيرات» الذي تمنى كل شخص أن يحسن تأثيرات الوسيلة الإعلامية الجديدة. لقد تغيرت جوانب مهمة في المنزل والحياة الأسرية منذ دخول التليفزيون. فأصبحت جماعة الأقران تليفزيونية التوجه، وشغلت مشاهدة التليفزيون مساحة كبيرة من الوقت الذي يمضيه الأطفال معا. وتحول مسار الثقافة بفعل التليفزيون على وجه العموم. ولذلك ليس من الملائم أن يعزى للتليفزيون القيام بالدور الثانوي الذي يصر عليه كثيرون من المدافعين عنه (وهم في أغلب الأحيان أعضاء في الصناعة التليفزيونية). إن التليفزيون ليس مجرد عامل واحد من بين مجموعة العوامل المهمة المؤثرة في الطفل. فالتليفزيون يبرز من خلال التغييرات التي أحدثها في حياة الأسرة، باعتباره العامل المؤثر المهم في حياة أطفال اليوم.

نوعية الحياة الأسرية

ظل إسهام التليفزيون في الحياة الأسرية مسألة يحوطها الالتباس. فبينما حال التليفزيون، في الواقع، بين أفراد الأسرة والتشتت، إلا أنه لم يفلح في تقريبهم معا. ومن خلال سيطرته على الوقت الذي تقضيه الأسر معا، دمر التليفزيون الطابع الخاص الذي يميز أسرة عن أخرى، وهو طابع يعتمد إلى حد بعيد على ما تفعله الأسرة، وما يجمعها من طقوس خاصة، وألعاب، ودعابات متكررة، وأغان شائعة، وأنشطة مشتركة.

كتب يوري برونفنبرنر Urie Bronfenbrenner يقول: «مثلما كان الساحر القديم يفعل، يلقي جهاز التليفزيون بتعويذته السحرية، باعثا الجمود في الحديث والفعل، محولا الأحياء إلى تماثيل صامتة مادام السحر مستمرا. إن الخطر الأول لشاشة التليفزيون لا يكمن إلى حد كبير في السلوك الذي ينتج عنها ـ على الرغم من وجود خطر هنا أيضا ـ بقدر ما ينجم عن السلوك الذي تقف حائلا دونه: الأحاديث، الألعاب، المباهج والمجادلات الأسرية التي من خلالها يتعلم الطفل الكثير وعن طريقها تتكون شخصيته. إن تشغيل جهاز التليفزيون يمكن أن يوقف عملية تحويل الأطفال إلى عائلة»(6). ومع ذلك فقد قبل الآباء قبولا تاما الحياة الأسرية الخاضعة لسيطرة التليفزيون، إلى درجة أنهم لا يستطيعون أن يروا مدى تورط الوسيلة الإعلامية فيما قد يصادفهم من مشاكل. يروي أحد مدرسي الصف الأول:

لدي تلميذة واحدة في المجموعة وهي طفلة وحيدة. وقد أردت أن أعرف المزيد عن حياتها الأسرية لأن هذه البنت الصغيرة كانت منعزلة تماما عن المجموعة، ولم تتخذ لها أصدقاء، ولذلك تحدثت إلى أمها. قالت الأم إنه ليس لديهم وقت لعمل أي شيء في المساء. يعود الأبوان إلى المنزل بعد أخذ الطفلة من جليسة الأطفال. وبعد ذلك تعد الأم العشاء بينما تشاهد الطفلة التليفزيون. وعقب تناول العشاء تأوي الطفلة إلى الفراش. قلت لهذه الأم «حسنا، ألا يمكنها مساعدتك في إعداد الطعام؟ سيكون ذلك الوقت ملائما لتبادل الحديث بينكما»، وقالت الأم: «أوه، لكني أكره أن أحرمها من مشاهدة «زوم» Zoom، إنه برنامج رائع!

حتى حينما تبذل الأسر جهودا للسيطرة على التليفزيون، فإن وجوده المجرد كثيرا ما يعادل النواحي الإيجابية للحياة الأسرية. وصفت إحدى الكاتبات - وهي أم لولدين في الثالثة والسابعة من العمر - البرنامج اليومي لتليفزيون أسرتها في مقالة في صحيفة النيويورك تايمز:

كنا في معمعان حرب شاملة. كان كل يوم معركة جديدة وكل برنامج مناوشة كبرى. وقد اتفقنا على أن الوضع مزعج من جميع النواحي وأننا على استعداد للدخول في مفاوضات دبلوماسية. من حيث المبدأ تم الاتفاق على ساعتين ونصف الساعة من المشاهدة التليفزيونية يوميا، شارع السمسم Sesame Street والشركة الكهربائية Electric Company (مع ازدراد العشاء فيما بينهما)، ونصفي ساعة من البرامج بين السابعة والثامنة والنصف، وهو ما يتيح للكبار أن يأكلوا في سلام ويمنع الولدين من أن يفتك أحدهما بالآخر. أما خيارهما الخاص لما قبل النوم فقد كان مفزعا لأنه، كما اعترف جوش Josh أخيرا «لا شيء مما يعرض يروق لي حقيقة»، ولذلك... فهي What's My Line أو To Tell the Truth... من الواضح أن هناك حاجة إلى برامج أطفال ممتازة في هذا الوقت(7).

فكر في «الحياة الأسرية» الموصوفة هنا: من المفترض أن يعود الأب إلى البيت من العمل في أثناء عرض «شارع السمسم». ويكون الطفلان إما أنهما يشاهدان التليفزيون أو يزدردان عشاءهما، أو يفعلان الشيئين في الوقت نفسه. وبينما يتناول الأبوان عشاءهما في عزلة آمنة، يشاهد الطفلان ساعة أخرى من التليفزيون. عندئذ يتبقى نصف ساعة قبل وقت الرقاد،

بما يكفي فقط للذهاب إلى الحمام، وارتداء البيجامات، وتنظيف الأسنان، وما إلى ذلك. إن أمسية الطفلين تخضع لنظام ضبط شبه عسكري. فهما يشاهدان برامجهما الأثيرة، وحينما «لا يتبقى ما يروق لهما حقيقة»، يشاهدان أي شيء آخر على الشاشة لأن المشاهدة هي الشيء المهم. وأمهما لا ترى أي خطأ في مشاهدة برامج لمجرد المشاهدة، فهي تتمنى فقط عرض بعض برامج الأطفال الممتازة في تلك الأوقات. ومن غير استحضار لذكريات العهد الفيكتوري ذات الألعاب الأسرية ووجبات الطعام الطويلة المتمهلة، والعائلات كبيرة العدد، يثور السؤال: ألا توجد حياة أسرية أفضل من هذا الترتيب الكئيب، الآلي الذي يسمح للأطفال بأطول وقت من المشاهدة التليفزيونية، مساء بعد مساء؟

مما لاشك فيه أن الأسر لاتزال تمارس ألوانا خاصة من النشاطات المشتركة أحيانا: إقامة المخيمات صيفا، الذهاب إلى حديقة الحيوان في أحد أيام الآحاد اللطيفة، الخروج في نزهات ورحلات متنوعة. لكن حياة أفرادها اليومية المألوفة بعضهم مع البعض تقلصت. ذلك الجلوس حول مائدة العشاء، ذلك الشروع التلقائي في نشاط ما، تلك الألعاب الصغيرة التي يخترعها الأطفال من وحي اللحظة حين لا يجدون ما يفعلون، خربشات الكتابة أو الرسم، الثرثرة، بل حتى التشاجر، وكل تلك الأشياء التي تشكل نسيج أسرة من الأسر، والتي تحدد معنى الطفولة. لقد صار للأطفال، بدلا من ذلك، برنامج يومي منتظم لمشاهدة برامج التليفزيون والنوم، وصار للوالدين عشاؤهما الهادئ معا.

ويلاحظ مؤلف المقال الذي نشرته التايمز Times أن «الحفاظ على سلامة عقل الأسرة يعني التوفيق بين حاجات كل من الأطفال والكبار»[8]. لكن من المؤكد أن تلبية حاجات الكبار يتحقق على نحو أفضل من حاجات الأطفال، الذين يبعدون فعليا ويوصفون بأنهم غير مزعجين، بينما الوالدان يستمتعان بحياة خالية من المطالب كأنما هي حياة أي زوجين لا أطفال لهما. والواقع أن تلك المطالب بعينها الملقاة على كاهل الأسرة من جانب الأطفال الصغار هي التي تمهد السبيل إلى النمو، وأن تلك الطريقة التي يقبل بها الوالدان تلك المطالب هي التي تبني العلاقات التي يعتمد مستقبل الأسرة عليها. فإذا كانت الأسرة لا تجمع زادها من الخبرات المشتركة،

والتجارب اليومية المشتركة التي تحدث وتتكرر ثانية، وتتغير وتتطور، فليس من المحتمل أن تبقى إلا كمؤسسة للرعاية.

الطقوس الأسرية

يعرف علماء الاجتماع الطقس ritual بأنه «ذلك الجانب من الحياة الأسرية الذي تحبه الأسرة في نفسها، وتفتخر به وتريده شكليا أن يستمر»[9]. ويورد نص آخر أن «تنمية طقس ما في إحدى الأسر هو إشارة إلى اهتمام أعضائها المشترك بالأسرة كجماعة»[10].

ما الذي حدث للطقوس الأسرية، تلك الحوادث المنتظمة، المتكررة، المركون إليها، التي أعطت أعضاء الأسرة شعورا بالانتماء إلى بيت ما وليس مجرد العيش ابتغاء الراحة والدعة، تلك التجارب التي تمثل دور المادة اللاصقة في وحدة الأسرة وبصورة تفوق أي منفعة مادية؟

طقوس وجبات الطعام، طقوس الذهاب إلى الفراش، طقوس المرض، طقوس العطلات ـ كم طقسا من هذه الطقوس نجا من غائلة جهاز التليفزيون؟

ها هي ذي فتاة ممن كبرن بالقرب من شيكاغو تستغرق في ذكريات طفولتها وتعطي فكرة عن تأثيرات التليفزيون في الطقوس الأسرية:

كان لدي كطفلة عدد هائل من الأقارب؛ فأبواي ينحدران من أسرتين كبيرتين نسبيا. كان لأبي تسعة من الإخوة والأخوات. ولذلك كان يحدث في كل عطلة ذلك الانقضاض الكبير للعمات والأعمام، وأبنائهم الكثيرين للغاية. إنني أتذكر جيدا كم كان ذلك رائعا. هذا الجمع الغفير من أبناء الأقارب كانوا يأتون وكان كل واحد يلعب، ثم في النهاية، بعد العشاء، كانت النسوة جميعا يشغلن صدر البيت، وهن يرشفن القهوة ويتحدثن، بينما جميع الرجال في خلفية البيت يشربون ويدخنون ، وكان الأطفال عن بكرة أبيهم يلعبون لعبة الاختفاء والبحث في المكان كله طولا وعرضا. وكانت فترة عيد الميلاد لطيفة بخاصة، لأن كل واحد كان دائما يحضر جميع الدمى واللعب الخاصة به. وكان في بيتنا غرفتان بهما خزانتان يمكن المرور منهما، ولذلك كان الأطفال يجرون باستمرار في طريق دائري كبير. أتذكر كم كان ذلك رائعا بحق.

ثم أتذكر أنني على حين غرة في إحدى السنوات أدركت بين عشية وضحاها كم اختلفت الأمور. فالأطفال ما عادوا يلعبون المونوبولي Monopoly أو المفتاح clue أو غيرهما من الألعاب التي اعتدنا أن نلعبها معا. كان ذلك لأن جهاز التليفزيون الذي صار لدينا راح يعرض مباراة لكرة القدم. كل تلك التنشئة الاجتماعية التي حدثت سلفا قد انتهت. وصار كل شخص يجلس الآن أمام جهاز التليفزيون، في أثناء العطلة، وفي الحفل الأسري! إنني أتذكر كيف أصبت بالصدمة إلى أقصى حد. فقد أصبح التليفزيون بطريقة ما أكثر جاذبية.

ومع تعود الأسر تمضية المزيد والمزيد من الوقت وبلا انقطاع في نشاط المشاهدة التليفزيونية وحده، صارت هذه الطقوس وأساليب التسلية التي أعطت الحياة الأسرية طابعها الخاص فيما مضى نادرة أكثر فأكثر. ولم يحدث أن بلغت الأسر هذا المستوى من التماثل التام منذ أزمنة ما قبل التاريخ، حين كانت الأسر التي سكنت الكهوف تمارس الصيد، وجمع الغذاء، والأكل، والنوم، ولايتبقى إلا القليل من الوقت لتراكم ثقافة ذات مغزى.

أناس حقيقيون

إن النشاطات التي قد تنشغل بها الأسرة بلا انقطاع ليست وحدها التي تقلصت بسبب الحضور القوي للتليفزيون في البيت. لقد تأثرت أيضا علاقات أفراد الأسرة بعضهم مع البعض الآخر، في أساليبها الواضحة والغامضة على السواء. فالساعات التي يقضيها الأطفال في علاقة أحادية الاتجاه مع الشخصيات التليفزيونية، وهو اندماج لايسمح بتواصل أو تفاعل، تؤثر من دون ريب في العلاقات مع الناس الحقيقيين.

وتبين الدراسات أهمية الاتصال العيني المباشر، في علاقات الحياة الواقعية، على سبيل المثال، كما توضح أن طبيعة أنماط الاتصال العيني للمرء، سواء نظر إلى الآخر مباشرة في العينين أو نظر إلى جانب الوجه أو نقل نظرته المحدقة من جانب إلى آخر، قد تلعب دورا مهما في نجاح المرء أو فشله في العلاقات الإنسانية [11].

لكن الاتصال العيني غير ممكن في علاقة الطفل بالتليفزيون، على الرغم من أن المتحدثين في بعض برامج الأطفال التليفزيونية يوحون بأنهم

يتحدثون مباشرة إلى الطفل، وتدعم الكاميرا هذا الوهم بالتركيز مباشرة على الشخص الذي يجري تصويره . (والمثال على ذلك مستر روجرز Mister Rogers، الذي يقول للطفل «أنا أحبك ، أنت طفل مميز» الخ). فكيف يمكن أن يؤثر تشويه العلاقات الحياتية الواقعية بهذه الصورة في نمو ثقة الطفل، وانفتاحه وقدرته على الاتصال الجيد بالأشخاص الآخرين الحقيقيين؟

كتب برونو بيتلهايم Bruno Bettelheim:

إن الأطفال الذين تم تعليمهم أو تكييفهم على الإصغاء في سلبية طوال غالبية ساعات اليوم إلى الرسائل الودية الشفهية التي تصلهم من شاشة التليفزيون، وإلى الجاذبية العاطفية العميقة لما يسمى بالشخصية التليفزيونية، غالبا ما يعجزون عن الاستجابة للأشخاص الحقيقيين لأنهم يثيرون شعورا أقل بكثير من الممثل الماهر. والأسوأ من ذلك، أنهم يفقدون القدرة على التعلم من الواقع لأن خبرات الحياة أكثر تعقيدا من تلك التي يرونها على الشاشة...[12].

وتدلي إحدى المدرسات بملاحظات مماثلة عن خبرات مشاهدتها الشخصية:

إنني أعاني المتاعب في حشد قواي والتعامل مع الناس الحقيقيين بعد مشاهدة التليفزيون عدة ساعات. فمن الصعب تماما تحقيق ذلك الانتقال من مشاهدة التليفزيون إلى علاقة حقيقية. وأفترض أن السبب في ذلك هو عدم الحاجة إلى بذل جهد من جانبي في أثناء المشاهدة، ذلك أن التعامل مع الناس الحقيقيين يتطلب دائما بعض الجهد. تخيل، إذن، كم سيكون الشيء ذاته أصعب بالنسبة لطفل صغير، لاسيما إذا كان يشاهد التليفزيون بكثرة يوميا.

لكن الضرر الأكثر وضوحا الذي يحيق بالعلاقات الأسرية هو إزالة فرص الحديث، وربما الأكثر أهمية، فرص النقاش، والتعبير عن الشكاوى، بين الآباء والأطفال والإخوة والأخوات. إن الأسر تستعمل التليفزيون غالبا لتفادي مجابهة المشكلات، وهي مشكلات لن يبعدها التجاهل، بل يجعلها تتقيح ويصبح إمكان حلها أقل سهولة بمرور الوقت.

تروي إحدى الأمهات:

إن لدي ثلاثة أطفال، وحين يتشاجرون أجد نفسي راغبة في تشغيل

جهاز التليفزيون. ويتعين علي في الواقع أن أقاوم حتى لا أفعل ذلك لأنني أشعر بأنني أقول لهم بذلك إن هذا هو الحل للشجار ـ لكن الأمر مغر إلى حد أنني كثيرا ما أفعله.

ويناقش أحد اختصاصيي العلاج الأسري استعمال التليفزيون كآلية تجنبية(*):

في إحدى الأسر التي أعرفها يعود الأب إلى البيت من العمل ويشغل جهاز التليفزيون. ويجيء الأطفال للمشاهدة معه وتقدم الزوجة لهم وجبتهم أمام الجهاز. وبعد ذلك يذهب الأب للاستحمام، أو ينشغل بالعمل في السيارة أو غير ذلك . وعندئذ تذهب الأم وتتناول عشاءها أمام جهاز التليفزيون. من المؤكد أن هذا عرض من أعراض مشكلة عميقة الجذور. لكن التخلص من الجهاز سيساعدهم جميعا. سيكون من السهل أكثر معرفة ما يعنيه هذا العرض حقا من دون التليفزيون. إن التليفزيون ببساطة يشجع كلا منهم على تجنب الآخر. ومن الممكن لهم أن يدركوا جلية الأمر بسرعة أكبر إذا لم تكن لديهم القدرة على الاختفاء خلف التليفزيون... طبعا لن تصبح الأمور أفضل بالضرورة، إلا أنهم لن يكونوا مخدرين.

إن تناقص فرص المحادثة البسيطة بين الآباء والأطفال في البيت المتمركز حول التليفزيون، ربما ساعد في تفسير تلك الملاحظة التي أبدتها ممرضة حجرة الطوارىء في أحد مستشفيات بوسطن. فقد ذكرت الممرضة أن الآباء لا يفعلون شيئا سوى الجلوس، حين يحضرون إلى هنا، في هذه الأيام مع طفل مريض أو مصاب إصابة خطيرة، على الرغم من أن الحديث إلى الطفل يصرف انتباهه عن الألم ويشجعه. وتلاحظ الممرضة: «يبدو أنهم لايعرفون كيف يتحدثون إلى أطفالهم لأي وقت ممكن». وبالمثل ، يكتب ناقد تليفزيوني في صحيفة نيويورك تايمز «منذ يوم واحد فقط أخذت ابني إلى جناح الطوارىء في أحد المستشفيات لخياطة بعض الغرز فوق عينه اليسرى، ولم تبد المناسبة أكثر واقعية بالنسبة لي من معالوت Maalot أو الشارع الرابع والخمسين، جنوب وسط لوس أنجلوس.

كان هناك تباعد وفقدان للحس وعجز عن الخروج على الجو العام. ولم أتصرف على الإطلاق، بل شاهدت فحسب... »(13).

(*) avoidance mechanism

ويبرهن عدد من الدراسات البحثية على صحة الافتراض القائل إن التليفزيون يتدخل في النشاطات العائلية وفي تشكيل علاقات الأسرة. إذ توضح إحدى الدراسات المسحية أن 78 في المائة من أصحاب الإجابات أشاروا إلى افتقاد الأحاديث في أثناء المشاهدة باستثناء أوقات معينة كالإعلانات التجارية. وتلاحظ الدراسة أن «الجو التليفزيوني في غالبية البيوت يتسم بالاستغراق الهادئ من جانب أفراد الأسرة الحاضرين. ويمكن وصف طابع الحياة الاجتماعية الأسرية خلال البرنامج بأنه «مواز» وليس متفاعلا. ويبدو الجهاز مسيطرا بالفعل على الحياة الأسرية في أثناء تشغيله»[(14)]. كذلك أشار 36 في المائة من أصحاب الإجابات في دراسة أخرى إلى أن مشاهدة التليفزيون كانت النشاط الأسري الوحيد الذي شاركوا فيه خلال الأسبوع[(15)].

ويشير جيمس جاربارينو James Garbarino في تلخيصه لنتائج بحثه حول تأثير التليفزيون في التفاعل الأسري إلى أن «النتائج الأولى توحي بأن التليفزيون كان له تأثير معطل في التفاعل، ومن ثم في النمو الإنساني في أغلب الظن... ولن نجانب الصواب إذا ما تساءلنا: هل هو واقع أن الأسرة الأمريكية العادية إبان عقد الخمسينيات ضمت الأبوين، وطفلين ، وجهاز تليفزيون يرتبط بطريقة ما بالخصائص السيكولوجية للراشدين الصغار أبناء السبعينيات؟»[(16)].

تقويض الأسرة

لعب التليفزيون دورا مهما في تفكك الأسرة الأمريكية، من خلال تأثيره في العلاقات الأسرية، وتسهيله انسحاب الأبوين من القيام بدور فعال في التنشئة الاجتماعية لأطفالهم، وفي حلوله محل الطقوس الأسرية والمناسبات الخاصة. إلا أن التليفزيون لم يكن طبعا العامل المشارك الوحيد، بل ربما لم يكن أهم العوامل. فالارتفاع المطرد في معدل الطلاق، وزيادة عدد الأمهات العاملات، والضعف التدريجي للأسرة الممتدة، وتفكك جماعات الجيرة والمجتمعات المحلية، والعزلة المتزايدة للأسرة النووية nuclear family[(*)] كل

(*) أسرة نووية nuclear family : هي الأسرة التي تتكون من الزوج والزوجة والأولاد فقط ولاتضم أي أقارب آخرين.

هذا أثر بصورة خطيرة في الأسرة.

ويرى يوري برونفنبرنر أن أسباب انهيار الأسرة لا تنشأ من ذاتها، بل من الظروف التي تجد الأسرة نفسها فيها، ومن أسلوب الحياة الذي تفرضه عليها تلك الظروف . كتب يقول: «حينما تقوض تلك الظروف وأسلوب الحياة الذي تتمخض عنه علاقات الثقة والأمان العاطفي بين أعضاء الأسرة، وحين تجعل من الصعب على الوالدين رعاية أطفالهما، وتعليمهم وتوفير الاستمتاع لهم، وحين لا يلقى الأب أو الأم العون أو الاعتراف من العالم الخارجي بالدور الذي يقومان به، وحين يعني الوقت الذي يقضيه المرء مع أسرته الإحباط في المجال المهني والإنجاز الشخصي وراحة البال، فإن نمو الطفل عندئذ يتأثر عكسيا»(17).

لكنه في الوقت الذي تضرب فيه جذور الاغتراب عميقا في نسيج التاريخ الاجتماعي الأمريكي، فإن وجود التليفزيون في البيت يخصب تلك الجذور، ويشجع نموها المفرط والجامح.وقد يكون صحيحا أن ارتباط أمريكا بالتجربة التليفزيونية يخفي فراغا روحيا، وأسلوب حياة خاويا وعقيما، وغلبة طاغية للنزوع المادي. لكن الدور المسيطر للتليفزيون في الأسرة هو الذي يخدرها للقبول بوضعها التعس والحيلولة بينها وبين النضال لتحسين حالها، وتطوير علاقاتها، واستعادة جانب من ثرائها المفقود.

لقد التفت آخرون إلى دور وسائل الاتصال الجماهيري في إدامة وضع راهن ليس على ما يرام. فنشاط وقت الفراغ، كما كتب ايرفنج هاو Irving Howe «يجب أن يوفر لنا الراحة من رتابة العمل دون أن يجعل العودة إلى العمل لاتطاق؛ وأن يمدنا بالتسلية بلا تبصر، وبالمتعة من دون قلق ـ وهو ما يختلف عن الفن الذي يهب المتعة من خلال القلق. وهكذا تُوجه الثقافة الجماهيرية نحو جانب رئيسي من جوانب المجتمع الصناعي هو فقدان الشعور بشخصية الفرد »(18) ويرفض Jacques Ellul، بالمثل، فكرة أن التليفزيون وسيلة مشروعة لتربية المواطن: «التربية ... تحدث عرضا فقط. فتشويش شعوره له الغلبة...».(19)

وهكذا تتخبط الأسرة الأمريكية في سيرها، مدركة على نحو مبهم وجود نقص ما، إلا أن سيل الصور التليفزيونية الذي لا ينتهي يصرفها عن إدراك المأزق الذي وصلت إليه. وفي الوقت الذي تصبح فيه الصلات الأسرية

أكثر ضعفا وغموضا، وتغدو حياة الأطفال أكثر انفصالا عن حياة الآباء، ويستولي التليفزيون والمدارس على الدور التربوي للآباء في حياة أطفالهم، يزداد عدم الرضا لدى الآباء والأطفال على السواء عن الحياة الأسرية. إن كل ما يبدو أنه تبقى هو الحب، وهو فكرة مجردة يعرف أفراد الأسرة أنها ضرورية، لكن كلا منهم يجد صعوبة بالغة في منحها للآخر، لأن الفرص التقليدية للتعبير عن الحب داخل الأسرة قد تقلصت أو أصابها التلف.

بالنسبة للأبوين المعاصرين، بات حب أحدهما للآخر يعني على نحو متزايد العلاقات الجنسية الناجحة، وهو ما يشهد عليه تكاثر كتيبات الجنس واختصاصيي العلاج الجنسي. أما فرص التعبير عن أشكال الحب الأخرى من خلال الدعم المتبادل، والفهم ، والتنشئة والرعاية، بل ـ إذا ما استخدمنا كلمة غير شعبية ـ «خدمة أحدهما للآخر»، فقد أصبحت تتضاءل باستمرار لأن الأمهات والآباء يبحثون عن مصائرهم المستقلة خارج الأسرة.

أما عن حب الأطفال ، فإن هذا الحب يجري التعبير عنه باطراد من خلال تقديم وسائل الراحة المادية، وأدوات التسلية، والفرص التعليمية. ويظهر الآباء حبهم لأطفالهم بإرسالهم إلى مدارس ومعسكرات ملائمة،وتوفير الطعام الجيد والأطباء الأكفاء لهم، وشراء الدمى، والكتب، واللعب ، وجهاز تليفزيون خاص. بل يمضي الآباء أبعد في التعبير عن حبهم بحضور اجتماعات جمعيات الآباء والمعلمين PTA لتطوير مدارس الأطفال، أو بالانضمام إلى الجماعات العاملة من أجل تحسين نوعية برامج الأطفال التليفزيونية.

لكن هذا الحب حب على مبعدة، ونادرا ما يفهمه الأطفال. فالصور الأكثر صراحة للحب الوالدي تتطلب الوقت والصبر، الوقت المنتظم، الموثوق به ، الذي يعطيه الآباء بلا شكاة أو تذمر، والذي يقضونه مع الأطفال فعليا، في القراءة لهم، وتوفير الراحة لهم، واللعب معهم وتبادل النكات والعمل معا. لكن حتى إذا كان الآباء تواقين ومستعدين للتعبير عن ذلك النوع من الحب المباشر لأطفالهم اليوم، فإن الفرص تتناقص . فبسبب المدرسة والعصبة الصغيرة Little league ودروس البيانو و، طبعا، برامج التليفزيون التي يتعذر تجنبها، يبدو أن اليوم لا يتيح من الوقت إلا ما يكفي فقط لقبلة «طابت ليلتك».

11 آباء الماضي

إن تنشئة طفل صغير ليست عملا هينا. فنشاط الطفل وفضوله، ولا معقوليته، وإلحاحه، وتقلبه الانفعالي، والأهم من ذلك، عدم إمكان التنبؤ بأفعاله ـ وكلها خصائص النمو الطبيعي ـ كثيرا ما تجعل تربية الطفل عملا شاقا.

على الرغم من أن أساليب تنشئة الطفل قد تغيرت من فترة تاريخية إلى أخرى، وأن الاتجاهات نحو الأطفال مرت بثورة فعلية، فإن بإمكاننا أن نفترض أن الحاجات والسلوكيات الأساسية للأطفال في سنواتهم الأولى لم تتغير، وأن أطفال الماضي تصرفوا خلال السنوات الخمس الأولى من حياتهم بأساليب لا تختلف كثيرا عن الأساليب التي يتصرف بها الأطفال حاليا. ويعني هذا أنهم كانوا في أحيان كثيرة مزعجين، بحكم طبيعة عدم نضجهم ذاته. أما الذي تغير إلى حد بعيد فهو سلوك الآباء نحو الأطفال.

لقد أتاح التليفزيون للوالد العصري تخفيفا سريعا ومباشرا من صعوبات رعاية الطفل بتحويله ثلث ساعات اليقظة أو أكثر لدى طفل ما قبل سن المدرسة من نشاط لا يمكن التنبؤ به إلى سلبية يعتمد عليها. وبغية إدراك كيفية وسبب استعمال

الآباء العصريين التليفزيون من أجل التكيف مع صعوبات العيش مع الأطفال الصغار، فمن المفيد العودة إلى الوسائل التي استطاع بها آباء الماضي معالجة صعوبات مماثلة.

الإهمال والقسوة

كتب المحلل النفسي Lioyd de Mouse: «إن تاريخ الطفولة كابوس بدأنا أخيرا فقط نفلت من قبضته»[1]. ولقد استغرق ذلك الكابوس ـ والذي مثل فيه الإهمال والقسوة عنوانا لتعامل الكبار مع الأطفال ـ القسم الأكبر من التاريخ المدون. فالنصيحة الإنجيلية «وفر العصا تفسد الطفل» كانت متبعة في سالف الزمان بحماسة توقع الرهبة في النفس. وفي الحقب الماضية كان الأطفال يُضربون بانتظام ووحشية، إلى حد الوصول بحياتهم إلى شفا الموت. كما أن ضرب الطفل لم يكن يتم سرا؛ فقد تعرض الأطفال للضرب علنا وعمدا، في حجرات الدرس، وردهات المنازل، وأمام جمهور الأقارب والأصدقاء، حيثما وحينما دعت الحاجة.

وكان إرهاب الأطفال ممارسة شائعة يوما ما. وعلى سبيل المثال، شاع لدى الآباء في القرن السابع عشر إحضار صغارهم من الأبناء والبنات لمشاهدة عمليات الشنق وتنفيذ الإعدام العلنية من أجل إكراههم بالترهيب على الطاعة والإذعان. ومنذ أقدم الأزمنة المعروفة كان الأطفال يتعرضون للتخويف من خلال قصص الساحرات والوحوش، التي تنتظر كي تنقض عليهم إذا أساءوا السلوك أو التصرف. وعلى الرغم من أن آثار هذه الممارسة لاتزال موجودة اليوم في بعض الحكايات الشعبية والأساطير، فإن قصص الرعب التي نشأت منها هذه الحكايات والأساطير كانت تعرض تصويريا ومسرحيا، إلى حد أن مدونات التاريخ تسجل وقائع عن أطفال صغار تعرضوا للتخويف حرفيا حتى الموت[2].

وكان التضور جوعا والحرمان من الطعام أيضا وسيلتين أخريين شائعتين للسيطرة على سلوك الأطفال (ولاتزالان باقيتين في صيغ مثل «لا حلوى إن لم تسلك سلوكا حسنا»). وفوق ذلك، أتيح ذات يوم للآباء الباحثين عن الراحة من تصرفات الأطفال الصغار الطبيعية الحصول على مجموعة كبيرة متنوعة من المسكنات وعقاقير خفض حيوية الأطفال، والتي حملت

تسميات مثل «مساعد الأم» و«بركة الأم». وكانت تلك الجرعات فعالة في كبت النشاط الطبيعي للطفل والتخلص من المتاعب التي قد تسببها هذه النشاطات للأب أو الأم أو القائم على رعاية الطفل، وذلك لاحتوائها على ما يكفي من اللودنوم Laudanum(*) أو الكوكايين أو الأفيون لجعل الطفل الصغير سلبيا إن لم يفقده وعيه كلية.

مما لاريب فيه أنه لم يتم حتى اليوم التخلص من سوء معاملة الأطفال ولا يزال عدد كبير من «الأطفال الذين تعرضوا للضرب العنيف المتكرر» والصغار الذين أسيئت معاملتهم على نحو مؤلم، يفدون إلى عنابر المستشفيات والوكالات العامة ومن ثم إلى اهتمام الجمهور العام. ويظل قدر لا بأس به من العنف ضد الأطفال متواريا خلف الجدران الأسرية. ومهما يكن فإن المعاملة الوحشية والعنيفة للأطفال تعد اليوم انحرافا يعرض فاعله لعقوبات جنائية حقيقية. ويعتبر ضرب الأطفال أوتجويعهم أو ترويعهم عموما أساليب تعامل تستحق اللوم والتوبيخ، على الرغم من أن بعض الآباء لا يزالون يلجأون إليها. لكن هذه الممارسات كانت لاتزال طبيعية ومقبولة حتى مائة سنة خلت فقط.

إن غالبية الآباء اليوم تمنعهم ضمائرهم من إنزال الألم البدني أو العقلي بأطفالهم الصغار، فكيف، إذن، استطاع الآباء فيما مضى معاملة أطفالهم بهذه الطريقة دون إحساس بالذنب أو الندم؟ إن الإجابة واضحة: لم يكن في إمكان أي شيء باستثناء تغيير عالمي في الوعي بطبيعة الأطفال والطفولة، أن يؤدي إلى انقلاب في التفكير بهذا الحجم إلى حد أن ذلك السلوك الذي كان ذات يوم شائعا ومقبولا، صار شريرا بل مرضيا pathological.

ويكمن العامل المساعد الحاسم في تغيير التفكير على هذا النحو في الوعي الجديد بالحاجات الخاصة للأطفال الصغار، وهي حاجات لابد من تمييزها عن حاجات الآباء. ذلك أنه من غير هذا الوعي كان الآباء يتصرفون كما يروق لهم نحو الأطفال بشتى الطرق التي تؤكد حاجاتهم الخاصة، ويستخدمون أساليب تنشئة للطفل لمجرد أنها فعالة ومؤثرة، بغض النظر عن تأثيراتها المحتملة في نمو الطفل. ولم يتسن إجبار الآباء على تعديل سلوكهم نحو أطفالهم ووقف معاناة الأطفال، إلا بعد أن بدأوا يعتبرون

(*) اللودنوم laudanum : مستحضر أفيوني.

الطفل مخلوقا له حاجات خاصة، وبعد أن شرعوا يفهمون هذه الحاجات ويفرقون بينها وبين حاجاتهم هم.

ومن دون هذا الإدراك الذهني بوجود شيء خاص ومختلف عن طبيعة وحاجات الطفل، غالبا ما اعتبر الأب في الماضي السلوك «الطفولي» الذي يصدر عن الطفل بصورة طبيعية مظهرا لميوله الخاصة غير المرغوب فيها. وعن طريق ضرب الطفل أو إرهابه كان في إمكان الآباء التعامل من دون قيد مع خصوماتهم الخاصة، وإخفاقاتهم، ومخاوفهم، ورغباتهم الخفية. ولم يشعروا بأي ذنب أو ندم بسبب قسوتهم تجاه الطفل، لأن الطفل لم يكن موجودا في الواقع ـ بل كان مجرد تجسيد للحاجات الداخلية للآباء.

إن أحد الأمثلة على هذا الإسقاط الوالدي نجده في حادثة من حوادث التاريخ الأمريكي. فحينما سقطت طفلة القس والمؤلف الأمريكي المعروف كوتون مازر في النار وتعرضت لحروق خطيرة، صرخ أبوها: «واحسرتاه، بسبب خطاياي يلقي الرب العادل طفلتي في النار!»[3]. فاعتقاد الأب أنه كان الشخص الذي يعاني في هذه الحالة وليس الطفلة الصغيرة، وافتقاره للتعاطف مع معاناة الطفلة (إن لم نقل افتقاره للندم بسبب الإهمال الذي أدى إلى وقوع حادثة كهذه)، يوضح أنه نظر إلى طفلته في ضوء مختلف تماما عن الضوء الذي ينظر به الآباء اليوم إلى أطفالهم.

ضوء جديد على الطفولة

ابتداء من كتابات روسو Rousseau في القرن الثامن عشر، صارت هناك نظرة جديدة إلى طبيعة الطفولة وحاجاتها الخاصة. وانتشرت بتدرج واطراد أفكار جديدة وتغلغلت في جميع شرائح المجتمع، إذ بدأت من الطبقات المتعلمة ثم شقت طريقها شيئا فشيئا إلى تلك الطبقات الاجتماعية الأكثر مقاومة للتغيير. وقد بلغ تحول التفكير فيما يتعلق بالأطفال ذروته بكتابات فرويد ومريديه، ونشوء فرع جديد تماما من فروع المعرفة هو علم نفس الطفل. لقد جاء العصر الذي ينظر فيه إلى الطفل بوصفه مخلوقا له حاجاته الخاصة. ومثلما أدى تغير الشعور فيما يتعلق بالمرأة اليوم إلى تغييرات عميقة في سلوك الرجال نحو النساء (وسلوك النساء نحو الرجال ونحو بعضهن البعض)، أحدثت الأفكار الجديدة بشأن الطفولة والأطفال

ثورة حقيقية في رعاية الطفل، ثورة تميزت بالانتقال من التأكيد على حاجات الآباء إلى التأكيد على حاجات الطفل المعترف بها حديثا. لقد بزغ أسلوب للمشاركة الوجدانية في تنشئة الأطفال، كانت له أصداؤه ليس في أساليب تعامل الآباء الجديدة مع سلوك الأطفال فحسب، بل أيضا في أساليب تصرف وتكيف الأطفال أنفسهم.

وبدلا من استخدام العقاب البدني، والحرمان من الطعام، والوعيد، وغيرها من المعدلات السلوكية القوية، بدأ الآباء في التحول إلى أساليب تأديبية أكثر «سيكولوجية» ـ الحجج والبراهين، والإقناع والملاطفة ، وصرف الانتباه وسحب الموافقة، وما إلى ذلك. غير أنه بينما عبرت هذه الأساليب عن فهم جديد لنمو الطفل وعززت الحاجات الأساسية له، كانت هناك مشكلة من وجهة نظر الآباء.ذلك أن هذه الأساليب لم تعمل بكفاءة دائما. فالحجج والبراهين مع طفل صغير منشغل بمخالفة سارة نادرا ما تجدي بصورة فعالة، ناهيك عن أنه ليس سريعا بأي حال، مثلما تفعل ضربة شديدة. ونتيجة لذلك فإنه في الوقت الذي شعر فيه الأطفال الصغار بأنهم في أفضل حالاتهم في ظل نظام لتنشئة الطفل أكثر إنسانية، وجد الآباء المكافحون بضمير حي لتلبية الحاجات التنموية للطفل صعوبة أكبر في تلبية حاجاتهم الخاصة، بوصفهم كبارا، في أحيان كثيرة.

إن إحدى الصعوبات التي تواجه الآباء في تنشئة الطفل خلال عهد المشاركة الوجدانية الجديد، نبعت من الوعي المتزايد بأنه لم يكن بالضرورة «ملائما» للطفل أن يكون طيبا. ففي أيام الجهالة الغابرة كان التأكيد في تنشئة الطفل على نمو الشخصية. وكانت غاية الأمل أن يصير الطفل طيبا. وبما أن الطفل «الطيب» طفل غير مزعج، وربما تتطلب طيبة الطفل منه أن يسلك سلوكا لا يتصادم مع حاجات الكبار، فقد ينظر إلى هذا المعيار على الفور بصفته مظهرا لمنهجية علمية لتنشئة الطفل قائمة على حاجات الكبار.

لقد وجد الآباء في العهد الجديد أنهم مضطرون للتعامل مع سلوكيات تتعارض بصورة خطيرة مع حياة الكبار، سلوكيات كالتحسس،والخطف، والرمي، والمقاطعة، ورفع الصوت، والإلحاح ـ وهى سلوكيات طبيعية كانت تعتبر ذات يوم «سيئة» وغدت مهجورة ـ بوسائل جديدة تتطلب المزيد من الوقت والجهد. ومع استبدال نموذج «الطيبة» ونمو الشخصية بالخير الأسمى

الجديد Summum bonum للأمان العاطفي، صار حمل الآباء أثقل.

وزادت صعوبة الأمر بسبب ما جد من وعي بأن تلك السنوات نفسها التي يكثر فيها إلحاح الأطفال على وقت ونشاط الآباء، السنوات التي تزداد فيها صعوبة التعامل معهم ـ سنوات الطفولة المبكرة تلك ـ ذات أهمية حاسمة في اكتساب الطفل لذلك الأمان العاطفي المنشود إلى حد بعيد. ولم يعد مطلوبا من آباء اليوم أن يكونوا أكثر تحملا لسلوك الطفل الذي يتصادم مع حياتهم ككبار فحسب، بل هم يشعرون بالاضطرار إلى قضاء وقت أطول مع أطفالهم، معتقدين ـ عن حق ـ أن ذلك يساعد في بناء الأسس الراسخة لمستقبل الطفل العاطفي والفكري.

وفضلا عن ذلك، فإن مشاعر المشاركة الوجدانية الخاصة، في عهد رعاية الأطفال الجديد، لا تمنع الآباء من استخدام القسوة فحسب، بل يجدون أنفسهم عاجزين عن اللجوء إلى أسلوب اللامبالاة والإهمال الذي جعل مهمة الآباء هينة في الماضي. وقد يبدو أن الأعباء الثقيلة التي حملها آباء الأمس ، وعدم وجود أجهزة لتوفير الوقت والخدمات، قد جعلتهم أكثر تهاونا وأقل حذرا فيما يتعلق بصحة أطفالهم البدنية والعقلية. لكن حتى أشد الآباء فقرا وإنهاكا اليوم يراعي احتياطات الصحة والسلامة بالتردد على العيادات الصحية، وبذل الجهود اتقاء للحوادث، وما إلى ذلك. وربما تتمثل أبرز دلالة على هذا الحرص الجديد في استعمال الأمهات العاملات جهاز التليفزيون «كجليسة أطفال إلكترونية»، لإبقاء صغارهن بمنأى عن الأذى عند خروجهن من البيت.

وفور تشرب الآباء الشعور الجديد، لم يسمحوا بعد ذلك لأطفالهم بالتجوال على هواهم، أو السقوط في النار، أو الغرق في الآبار المكشوفة، أو الوقوع تحت عجلات العربات، كما حدث كثيرا من قبل. ولن يعود في الإمكان أن تعزى حوادث من هذا القبيل إلى رب منتقم ينزل القصاص بسبب خطايا الآباء الخاصة. لقد تكشفت الآن للآباء معاناة الطفل بكل عناصرها المثيرة للشفقة، وشرعوا في بذل مجهودات كبيرة لمنعها أو للتخفيف منها على الأقل. إن عهد جليسة الطفل (وأخيرا جليسة الطفل الإلكترونية) قد بدأ.

نجح الاهتمام المتواصل بحاجات الأطفال في الأسرة المتمركزة حول

الطفل أكثر فأكثر من وجهة نظر الطفل، وعلى نحو يفوق الأساليب السابقة. واستطاع الأطفال تنمية قدرات بدنية، وانفعالية، وفكرية أتاحت لهم التفوق في نواح عديدة على أطفال الأمس. غير أن زيادة يقظة الوالدين أدت إلى ظهور نتيجة ثانوية طبيعية. فقد صار الأطفال أكثر إلحاحا. ولابد أن نفهم أن هذا لم يشكل تغييرا في الطبيعة الجوهرية للطفل ، إذ استمر الصغار في اتباع الأنماط السلوكية التي درجوا عليها دائما .لكن كثرة مطالبهم كانت نوعا من التكيف مع التسامح الجديد في تنشئة الطفل، تماما كما كانت سهولة الانقياد والخضوع ذات يوم تكيفا مع القسوة المهددة للحياة. وظل الأطفال على حبهم للذات، كما كانوا دوما . إلا أنهم، بسبب إعطاء آبائهم الآن المزيد من الوقت والاهتمام لهم كما لم يحدث من قبل، لم يستمروا على «طيبتهم» وضبط دوافعهم الطبيعية. وعلى العكس، فإن إعطاء الآباء الكثير لأطفالهم جعل هؤلاء يطلبون المزيد.

إن هذا الإلحاح الجديد، الذي اقترن بنشاط ونضج عقلي مبكر نابعين من الإشباع الأفضل للحاجات الأولية، تضاعف أكثر بزيادة الوقت والجهد اللذين تستلزمهما التنشئة الحديثة للطفل من قبل الوالدين. وأسهمت هذه العوامل في المأزق الذي واجه الآباء عند منتصف القرن، ومهد الطريق بدوره لاستعمال التليفزيون على نطاق واسع كأسلوب للحياة مع الأطفال الصغار.

وتكمن المشكلة في عجز الآباء المتزايد عن تطويع أطفالهم، ذوي المطالب الكثيرة والمستمرة، من خلال أساليب تنشئة حديثة للأطفال تستند إلى حاجات الطفل وحده. لقد أصبح الضرب والتجويع في خبر كان. بل إن الصفع الرقيق وأخف كلمات الوعيد (لن يحضر بابا نويل أي هدايا إن لم تسلك سلوكا حسنا) كانت تقابل بعدم الرضا. غير أنه في حين زادت حاجة الآباء إلى وقت الفراغ والراحة نتيجة لزيادة أعباء رعاية الطفل، تناقصت فرصهم لإشباع هذه الحاجات بطرق مقبولة. وهكذا حين ظهر التليفزيون، جرى انتهاز الفرصة كوسيلة للخروج من المأزق: فنقرة على المفتاح تغير الطفل تغييرا تاما، وإن يكن مؤقتا، من مخلوق نشيط، ضوضائي، مقتحم، شديد الرغبة في النشاط والتجربة وفي حاجة إلى إشراف وانتباه متواصلين، إلى كائن طيع، هادئ، سهل الإرضاء. وقد تحقق هذا التغيير المذهل بالتعاون

مع الطفل! فالطفل أراد أن يشاهد التليفزيون، وأحب أن يشاهده، وبدا أنه عاجز عن الاكتفاء منه.

ربما كان التواطؤ غير المسبوق من جانب الأطفال في تهدئة أنفسهم بواسطة التليفزيون، هو الذي سمح لآبائهم باستعماله على هذه الصورة من دون هوادة أو قيود. وربما لأن تشجيع الأطفال على مشاهدة التليفزيون كان أكثر سهولة ومدعاة للسرور عند مقارنته بأساليب الماضي الكريهة أو الصعبة، تغاضى الآباء عن حقيقة أن هذه السلوكيات ذاتها التي تسبب المتاعب لهم - أي هذه الاستكشافات ، والممارسات، وتجارب السبب والنتيجة التي لانهاية لها - سلوكيات مفيدة وأنشطة ضرورية حقا للطفل الصغير، وأن التعامل مع سلوكيات الأطفال الصعبة من خلال التخلص منها كلية بواسطة جهاز التليفزيون لا يختلف عن قمع السلوك الطبيعي للطفل وتهديده بالعقاب البدني، ويشبه على نحو مدهش تخدير الطفل وتسكينه باستعمال اللودنوم أو الجن.

وفضلا عن إفراغ حياة الأطفال من الأنشطة والسلوكيات النافعة والضرورية للنمو الأمثل، أزال التليفزيون أيضا سلوكيات تنشئة الطفل من جانب الآباء والتي ربما كانت ذات أهمية مماثلة. ذلك أن الآباء بسبب اعتمادهم المتزايد على التليفزيون في حياتهم اليومية مع أطفالهم، ينسحبون من دورهم الفاعل في تربية الأطفال، ويصبحون تدريجيا أقل قدرة على التعامل بنجاح مع أطفالهم الأقوياء، المفتقرين، مع ذلك، إلى الانضباط.

بيد أن الآباء المعاصرين يواصلون استعمال التليفزيون بطريقة تشبه المخدر، ويشغلون أنفسهم في المقام الأول برقة المخدر أو فظاظته («باتمان» شرير، «مستر روجرز» طيب). وحين نفكر مليا في أن الأطفال يقضون ما يتراوح بين ثلاث وسبع ساعات يوميا خلال أهم سنوات تكوين حياتهم في مشاهدة التليفزيون؛ يتضح لنا أن كابوس إهمال الطفل لم ينته، وأنه بعد صحوة قصيرة وواعدة، انحرف الآباء إلى الخلف نحو أسلوب مدمر من أساليب تنشئة الطفل.

12

كيف عاش الآباء قبل التليفزيون؟

في العقود التي سبقت التليفزيون، وفي قمة تحول تنشئة الطفل من نشاط متمركز حول الوالدين إلى نشاط متمركز حول الطفل، تأثرت أسس الفلسفة الجديدة لتنشئة الطفل بالضرورة بالواقع العملي للحياة اليومية مع الأطفال. فمن أجل أن يواصل الآباء الحياة، كانوا في حاجة إلى بعض الوقت لأنفسهم بعيدا عن مطالب أطفالهم الصغار المتواصلة. وهكذا كان لزاما عليهم أن يطوروا أساليب معينة تتعارض مع الاتجاه الحديث، بحكم أنها كانت أكثر تمركزا حول الوالدين منها حول الطفل. لكن هذه الأساليب أثبتت أنها ذات قيمة للأطفال أنفسهم لأنها وازنت بعض تجاوزات التنشئة المتمركزة حول الطفل.

ولقد تخلى الآباء عن الكثير من قواعد الانضباط السلوكي تلك حين طرح التليفزيون نفسه كبديل أسهل. ومن المهم، في محاولة تقييم معنى التجربة التليفزيونية في حياة الأطفال اليوم، أن نمعن النظر فيما كان يفعله الآباء في الثلاثينيات، والأربعينيات، والخمسينيات عمليا حين كان يتعين

عليهم ببساطة أن يبتعدوا قليلا عن أطفالهم. وقد نكتشف عن طريق دراسة أساليب التصرف تلك ما قدمته هذه الأساليب للطفل، في الوقت نفسه أيضا الذي قدمت فيه للآباء قسطا من الراحة.

الملاحظة بعينين مفتوحتين

قبل التليفزيون كانت أم الطفل الصغير في حاجة ماسة إلى تنمية قدرة طفلها على اللعب وحده لفترات من الوقت. لكن ذلك لم يكن عملا سهلا بالمرة. فقد كان يتعين أن تجد الأم أساليب تضمن انشغال الطفل فعلا في اللعب لبعض الوقت، تاركا الأم لمتابعة شؤونها الخاصة.

وهكذا جرت عادة الأم في الماضي على إبقاء عينيها مفتوحتين دائما على صغارها الأطفال حتى تتوافر لديها صورة دقيقة عن تغيرات نموهم، ليس بدافع الفضول العقلي بالضرورة، وإنما لأن هذا التراكم المعلوماتي كان يتيح لها إيجاد الوسائل التي تجعل أطفالها يقومون بتسلية أنفسهم بصورة ناجحة ومضمونة. وكان على الأم، مثلا ، أن ترهق نفسها لكي تكتشف ما إذا كان طفلها ذو السنوات الثلاث قادرا على تعلم القطع بمقص كليل. فإذا حقق هذا العمل تسلية للطفل، كان جديرا بأن تبذل الأم له من الوقت والجهد ما يساعد الطفل على تعلم كيفية القطع كما ينبغي، وتزوده بأوراق ملونة أو مجلات قديمة، وربما بجرة من عجينة اللصق، لأن مكافأتها ستكون طفلا ذاتي التسلية حالما يتم اكتساب المهارة. وربما، ولأسباب مماثلة، تقدم الأم للطفل أزرارا أو حبات من الفول والفاصوليا واللوبياء لفرزها، أو عجينة لتشكيلها، أو مكعبات للبناء، من دون أن يكون دافعها إلى ذلك الإخلاص في تحقيق سعادة طفلها فحسب، بل أيضا قدرا معينا من المصلحة الذاتية المفيدة.

إن انتباه الأم لاهتمامات طفلها الناشئة والإفادة منها في خدمة حاجاتها الخاصة كان عنصرا مهما للنجاح كأم فيما مضى. لكن معرفة الأم الحميمة بطفلها، والمكتسبة من خلال ملاحظة يقظة لتقدم النمو، قادت الأم أيضا إلى علاقة أكثر إشباعا مع طفلها، في واقع الأمر، مع توافر فرص أكبر للمتع المشتركة، وتقليل احتمالات سوء الفهم والمعاناة غير المقصودة التي تنجم عن ذلك.

ومن وجهة نظر الطفل فإن فترة اللعب الانفرادي التي عززتها جهود الأم للتأكد من نتائجها أدت إلى تنمية مهارات مهمة وإلى منجزات واقعية، ملموسة ـ إنشاءات، رسوم، تماثيل، ملصقات، عروض للحيوانات، وما شابه ذلك. وبدورها، أعطت هذه المهارات والمنجزات للطفل شعورا بالكفاءة، ومن ثم ساعدت على إلغاء مشاعر العجز والاعتماد التام التي تسيطر على مرحلة الطفولة المبكرة.

والواقع أن الانتباه المكثف لحاجات واهتمامات الأطفال الذي أظهره الآباء فيما مضى كان له تأثير مفيد في الأسرة كلها. فقد أصبح الآباء خبراء في شؤون الأطفال، وساعدتهم معلوماتهم الوفيرة على تربية أطفالهم بطريقة أكثر إنسانية وفعالية.

ولا ريب في أن إتاحة التليفزيون كوسيلة لتنشئة الطفل قللت من حاجة الآباء الملحة إلى معرفة أطفالهم جيدا. ورغم أن الآباء ظلوا بدافع العاطفة أو الشعور بالواجب يلاحظون أطفالهم ويتواصلون معهم بطرق متنوعة، فإن جهودهم لفهم أطفالهم تتناقص، وذلك لأن حاجاتهم الخاصة لم تعد قوة دافعة.

الإغفاءة The Nap

كانت الإغفاءة، من ناحية ثانية، هي أهم ما تعتمد عليه الأم في اقتناص بعض الراحة من عبء الأطفال. ففي الماضي غير البعيد جدا كان هناك وقت يغفو فيه الأطفال بانتظام خلال مرحلة طفولتهم المبكرة كلها، وفي الغالب حتى بداية المدرسة. ولم يكن الأطفال بالضرورة في حاجة إلى إغفاءة قصيرة، وما كانوا يريدون ذلك، وإنما كانوا مضطرين لأن يغفوا ، ببساطة تامة. كانت الإغفاءة جزءا محتوما ومقبولا من الحياة كالذهاب إلى الفراش ليلا أو ارتداء الملابس أو تنظيف الأسنان، أو عمل أي من تلك الأشياء التي لايريد الأطفال عملها بوجه خاص، وإنما كان يتعين عليهم ببساطة عملها في مسار طفولتهم.

كانت الإغفاءة لا مناص منها، لأن الأمهات يحتجن إلى تلك الراحة القصيرة المنتظمة من رعاية الطفل. كن يقتصدن في مكالماتهن الهاتفية، وكتابة الخطابات، والقراءة، أو التفكير المتواصل من أجل تلك الفسحة من

النهار حين لاتحتاج العين أو الأذن إلى التوجه في انتباه باتجاه طفل صغير.

لايزال الأطفال الرضع يقضون معظم أوقات يومهم نائمين، وخلال السنتين الأوليين من العمر يواصل الأطفال النوم فترات عدة منفصلة في أثناء النهار. لكن عددا كبيرا من أطفال اليوم يكفون عن أخذ ذلك القسط الخفيف من النوم خلال السنة الثالثة من عمرهم، حين تنقطع فسيولوجيا حاجتهم إلى فسحة نهارية للنوم. وكانت تلك هي المرحلة التي يتعين على أمهات الأمس بذل مجهود كبير فيها للإبقاء على الإغفاءة. فبما أن الأطفال بعد سن معينة لا ينامون تلقائيا في وقت الإغفاءة، صار من الطبيعي أن يفعلوا كل ما في وسعهم لكسب وقت الأم واهتمامها. وهم يفعلون ذلك عن طريق «الهرج والمرج»، كما أسمته الأمهات. لكن أمهات الأمس، نتيجة للحزم الذي يستند إلى نوع من اليأس وإلى الحاجة الجسمانية إلى بعض الوقت بعيدا عن الطفل، ثابرن على جهودهن للإبقاء على الإغفاءة، وتحولت إغفاءة النوم تدريجيا إلى إغفاءة لعب، كان الأطفال خلالها في السابق مطالبين بأن يمكثوا في حجرتهم، وهم يلعبون أو يحلمون أو يشغلون أنفسهم في هدوء من دون هدف. ونجحت الأمهات عموما في الحفاظ على الإغفاءة كجزء منتظم من الروتين اليومي إلى أن تتيح المدرسة الفرصة لراحة نهارية جديدة.

إن الوالدين، في أيامنا هذه، « لا يعملان» للحفاظ على الإغفاءة. فالبديل الذي أمامهما، عقب الراحة التي شعرا بها حين كان طفلهما نائما في الليل، هو العمل على تشجيع أطفالهم الصغار على مشاهدة التليفزيون لفترات كافية من الوقت، وهو عمل أسهل بكثير من محاولة إقناع الطفل بأخذ سنة من النوم. وربما يتجذر جانب من تعلق الأطفال العميق بالتجربة التليفزيونية خلال سنواتهم المتأخرة في تجاربهم المبكرة مع الوسيلة الإعلامية، حين بذل آباؤهم جهودا خاصة ومغرية «لربطهم» بالتليفزيون ، الذي رأوا فيه وسيلة نجاة.

ها هي أم شابة، حسنة التعليم تحتاج إلى الراحة من مشقات الحياة مع طفل صغير، تصف جهودها من أجل وضع طريقة محددة لمشاهدة طفلها التليفزيونية:

في الربيع الماضي، حين بلغ جيرمي سنة ونصف السنة، كف عن إغفاءة

الصباح. كان ذلك وقتا صعبا، بالنسبة له ولنا. وفي ذلك الوقت بدأت أولا بتجربة «شارع السمسم»، وبذلت جهدا لإثارة اهتمامه بالبرنامج. كنت أشغل الجهاز وأقول،« انظر ! ها هي سيارة» وما شاكل ذلك. لكنه لم يظهر أي اهتمام على الإطلاق. وبدا الأمر غير مجد آنذاك.

ثم، انقطع في الخريف، حين كان عمره سنتين عن إغفاءته تماما. وبدا النهار طويلا إلى الحد الذي جعلني أبدأ جهدا آخر لإثارة اهتمامه ببرنامج «شارع السمسم». كان حينئذ أكثر قدرة على التعبير بالألفاظ ، وفكرت أن الفرصة باتت أفضل لأن يفهم البرنامج. كنت أقوم بتشغيل الجهاز، وكان يبدي اهتماما أوليا في اللحظات الأولى. كان ذلك حدثا مهما. كان ينظر إلى البرنامج لفترة قصيرة، ثم ينصرف إلى أمور أخرى. وكنت أترك الجهاز يعمل بينما يمر هو بجواره وينظر إليه وهو في طريقه إلى مكان آخر، وربما جلست أنا نفسي أمام الجهاز هنيهات، لكي أحاول أن أجعله أكثر جاذبية له، أو أن أقنعه تدريجيا بالمشاهدة. وكان إذا طلب الحصول على زجاجة حليب أمام جهاز التليفزيون، أدعه يحصل عليها بالتأكيد هناك. بل إنني كنت أقترح أحيانا إحضار زجاجة الحليب له.

كنت أقوم بتشغيل جهاز التليفزيون خلال وجودنا في المنزل في أي وقت أثناء عرض برنامج »شارع السمسم». وفي نحو الساعة الرابعة، كنت أقوم بتشغيل الجهاز وأحاول إثارة اهتمامه بالتعليق على الأشياء المعروضة على الشاشة. «أوه، انظر إلى الثلج» وأشياء من هذا القبيل. ثم اشتريت كتابا عن «شارع السمسم» ورحنا نقلب صفحاته معا. أظن أن ذلك ساعد في إثارة اهتمامه. لقد استغرق ذلك تقريبا الفترة من أكتوبر إلى عيد الميلاد. وأخيرا «تحقق» ذلك بالتدريج تماما. لكنه حاليا يشاهد التليفزيون كل يوم، مع زجاجة الحليب، دائما، في الصباح وبعد الظهر. ويشاهد «مستر روجرز» Mister Rogers أيضا، في معظم الأوقات، وهي حقا فترة راحة كبيرة لي.

إنني أعرف أن من المحتمل ألا يكون التليفزيون شيئا رائعا للصغار، لكن سويعات قليلة يوميا لا يمكن في الواقع أن تكون سيئة جدا. وأتصور أنه لو لم يكن عندي جهاز تليفزيون لحاولت ترتيب نوع من الوقت الهادئ الروتيني في حجرته، كإغفاءة للعب. لكن ذلك كان سيغدو صعبا، فهو ولد صغير عنيد. ومن المحتمل أنه ما كان سيمكث هناك.

إن الآباء اليوم، بتفضيلهم التليفزيون على الإغفاءة. يتبعون قاعدة بسيطة من قواعد الطبيعة البشرية: اختر دائما الأسهل من بين طريقتي العمل اللتين في الإمكان، إذا تساوت جميع الظروف الأخرى. والأمهات اللواتي ثابرن قبل التليفزيون على فرض إغفاءة منتظمة كن يعملن وفق القاعدة نفسها - ففي حالتهن كان البديل الأصعب هو وجود طفل بين أقدامهن طوال النهار. لكن هل ثمة اختلاف جوهري بين هاتين الطريقتين «الأسهل»، الإغفاءة والمشاهدة التليفزيونية؟ الإجابة هي نعم، فحين يتجاوز الأطفال الذين يأخذون إغفاءات يومية منتظمة في أثناء سنواتهم الأولى الحاجة إلى النوم بالفعل، تبدأ فترة الإغفاءة في أداء وظيفة جديدة: إنها تتيح لهم الفرصة المنتظمة الأولى لاكتشاف وقت الفراغ. ويكشف فهمنا لأهمية وقت الفراغ في حياة الطفل مدى الحرمان الذي قد ينجم عن خسارته.

13 التليفزيون ووقت الفراغ

إن إلقاء نظرة على بعض الطرق الروتينية التي فرضها الآباء فيما مضى - الإغفاءات المنتظمة، اللعب الانفرادي، وما إلى ذلك - كفيل بأن يوضح أن الأطفال في تلك الأيام كانوا مواجهين بفترات منتظمة من الوقت تتطلب منهم التعامل معها بطريقتهم الخاصة. أما في الوقت الحالي فإن حياة الأطفال ليست مشحونة فحسب بعدد أكبر من اللقاءات، والدروس، وغيرها من النشاطات المنظمة عن ذي قبل، بل إن جميع الفجوات المحتملة من الوقت الخالي الذي يبرز على نحو غير متوقع بين هذه النشاطات تمتلئ بدوي التليفزيون. فهذه السلعة التي لا تأخذ حقها من التقدير والاعتبار والمسماة وقت الفراغ أزيلت بالكامل تقريبا من حياة الأطفال.

فلنلق نظرة على الروتين اليومي لحياة بعض الأطفال:

جيمس هاريسون عمره ثلاث سنوات. يستيقظ في السابعة صباحا، ويرتدي ملابسه بمساعدة قليلة، ويشاهد «Woody Woodpecker» حتى الإفطار. وهو يقضي فترة الصباح في مدرسة للحضانة. وبعد وصوله إلى البيت من المدرسة، يتناول الغداء،

ويشاهد مسلسلات تليفزيونية تعالج مشكلات الحياة الأسرية Soap operas مع أمه، من الساعة الثانية عشرة والنصف حتى الساعة الواحدة والنصف. وبعد ذلك تأخذه أمه إلى الحديقة حيث يركب دراجته ذات العجلات الثلاث ويتأرجح على الأرجوحة. ومن الحديقة يذهب للتسوق مع أمه. ويعود إلى البيت، فيشاهد الرسوم المتحركة أو «Mister Rogers» بينما تعد أمه العشاء. وبعد العشاء، يلعب مع أبيه، ويشاهد مسرحية فكاهية مع شقيقته الأكبر سنا، ويستحم، ويذهب للنوم.

مارجو براون عمرها سبع سنوات. تنهض في السابعة والنصف صباحا وترتدي ثيابها، وتشاهد «Bugs Bunny» وتتناول الإفطار، وتمضي إلى المدرسة. تعود إلى البيت في الثالثة والنصف، وترتدي ملابس اللعب، وتلعب في الخارج لمدة ساعة مع صديقاتها إذا كان الطقس ملائما. فإذا لم يكن الطقس كذلك، تشاهد هي وصديقاتها التليفزيون في منزل إحداهن. وعند الساعة الرابعة بعد ظهر أيام الاثنين تأخذ درسا في العزف على البيانو. وفي الرابعة والنصف من بعد ظهر أيام الأربعاء تذهب إلى حصة الرقص. وبعد ظهر أيام الخميس يجتمع آل براون. وفي أيام الجمع تمكث بعد المدرسة من أجل برنامج الفنون والحرف. وعادة ما تشاهد برامجها المحببة بعد نشاطات فترة بعد الظهر المنتظمة إلى أن يصبح العشاء جاهزا. وهذه البرامج هي «Superfrinds»، إذا وصلت مبكرة إلى البيت بما يكفي، ويعقبها Happy Days، و Little House of Prairie، وأحيانا «Love Boat». وفي العادة تشترك شقيقتها الكبرى معها في المشاهدة. وبعد العشاء تؤدي الواجب المنزلي، وتمارس العزف على البيانو، وعادة ما تشاهد برنامجا تليفزيونيا آخر قبل موعد الذهاب إلى الفراش في الثامنة والنصف أو التاسعة (يتوقف ذلك على البرنامج) ـ إما أن يكون M*A*S*H، « Fantasy Island»، أو « All in the Family» أو That's Incredible (وهو ما يتوقف على اليوم).

داني إيفانز في الرابعة عشرة وهو في الصف الدراسي الثامن. ينهض في السابعة، ويرتدي ملابسه، ويتناول الإفطار، وينظر إلى صفحة الرياضة في جريدة الصباح، ويمضي إلى المدرسة في الثامنة. ويعود إلى البيت في الرابعة والنصف، ويختطف شيئا يأكله، ثم يتجه إلى الملعب حيث يلعب الكرة مع مجموعة منتظمة من الأصدقاء كل يوم. فإذا تساقط المطر أو

كان البرد شديدا، لعبوا في سرداب منزل داني. وحين يعود في حوالي الخامسة والنصف أو السادسة، يجلس أمام جهاز التليفزيون ويشاهد ما يشاهده أخوه الأصغر أيا كان، وعادة ما يكون «Buck Rogers». ثم يتناول العشاء في المطبخ مع أخيه وأخته الصغيرة أثناء مشاهدة التليفزيون، بما أن والديه يتناولان العشاء فيما بعد.

ويشاهد الأطفال في العادة M*A*S*H أو Family Feud أثناء العشاء. وبعد العشاء يؤدي الواجب المنزلي، وعادة ما يفوته أحد البرامج التي يشاهدها الأطفال الأصغر سنا، لكنه أحيانا يقوم بأداء واجبه المنزلي ويشاهد التليفزيون في الوقت ذاته. وكثيرا ما يشاهد برنامجا تليفزيونيا آخر مع أمه وأبيه بعد أن يذهب الأطفال الأصغر سنا إلى النوم، فيلما سينمائيا أو «روائع المسرح» Master Theatre. ويحين وقت ذهابه للنوم في العاشرة والنصف. إن هناك شيئا مشتركا بين كل هؤلاء الأطفال الثلاثة وبين عدد كبير من الأطفال في أمريكا، هو أنه ليس لديهم وقت فراغ.

التنافس مع التليفزيون

يملأ الآباء في كثير من الأسر وقت فراغ أطفالهم كنتيجة مباشرة للمنافسة التي نشأت مع جهاز التليفزيون. ويتخوف الآباء من أنهم إذا لم «يفعلوا» شيئا فإن الأطفال سيتحولون إلى جهاز التليفزيون. وبالتالي فهم يستهلكون كما هائلا من النشاط لحرف اهتمام أطفالهم عن التليفزيون. وحين يفتر النشاط أو تشغلهم واجبات أخرى، يلجأ الآباء إلى التليفزيون في يأس يكشف عن خسارة موقعهم في صراع القوة الذي يخوضونه ضد المنافس الآلي. تقول أم لديها ثلاثة أطفال صغار: «الشيء الذي ألاحظه أنني أنفقت الكثير من وقتي ومن طاقتي الذهنية كي أتحاشى التليفزيون. لقد كان لزاما علي أن أواصل التفكير في أشياء أقوم بها لكي أبعد الأطفال عن مشاهدة التليفزيون. إن ميلهم الطبيعي هو مشاهدة التليفزيون حيث لا يكون لديهم نشاط محدد، وليس في وسعي منعهم من ذلك إذا لم أبذل بعض الجهد».

وتقول أم لديها طفلان في سن السابعة والخامسة في مقابلة جرت معها :«لا أستطيع أن أتحمل فكرة وجود أسر يعود أطفالها إلى البيت من

المدرسة ويقومون بتشغيل التليفزيون، إذ لا يمكنك أبدا أن تتحدث إلى أطفالك . لكن الأمر معقد، كما ترون. لست أريد التليفزيون كجليسة أطفال في الساعة الثالثة والنصف حين يعود الأولاد من المدرسة، ولذلك فإنني لا أريدهما أن يشاهدا التليفزيون عندئذ. أنا أحتاج إليه بين الخامسة والسابعة في أثناء إعداد العشاء. هذا هو الوقت الذي أريدهما أن يشاهدا فيه. وهما يشاهدان التليفزيون بالفعل في ذلك الوقت. ومن المؤكد أن ذلك يجعل الحياة أسهل كثيرا بالنسبة لي. والمشكلة أنهما يريدان أن يشاهدا في الساعة الثالثة والنصف أيضا. وإن لم أخترع لهما شيئا رائعا يفعلانه، فلن يرغبا حتى في اللعب. وهما يزعجانني ويضايقانني لكي أتركهما يشاهدان».

وتروي أم من بروكلين: «أنا أقضي نهايات الأسبوع في التجوال بالسيارة مع الأطفال بين الأماكن لمجرد الحيلولة بينهم وبين التليفزيون. ومنذ أسبوعين قدت السيارة من بروكلين إلى هرشي، في بنلسلفانيا، لا لشيء إلا لكي أبتعد بالأطفال عن جهاز التليفزيون. إنها نزهة بالسيارة لثماني ساعات!».

أما القصة التالية، التي ترويها أم من نيويورك لا تشاهد التليفزيون، فهي مثال جيد على منافسة من أجل وقت الطفل التي غالبا ما يرسخها جهاز التليفزيون.

«منذ أسابيع قليلة ذهبت إلى المستشفى لزيارة ولد صغير كسرت ذراعه وهو ولد في السادسة من عمره أحبه حقيقة. كان هناك جهاز تليفزيون عند نهاية سريره، وجهاز التحكم في متناول يده. كانت أمه قد أبلغتني أنه ينتظر زيارتي له، ومع ذلك فقد سيطر وجود جهاز التليفزيون على الزيارة بأسرها. وصلت ومعي كتابان قصصيان رائعان وشرعت في قراءة إحدى القصص له لكنني سرعان ما أدركت أن القصة لم تكن شائقة بما فيه الكفاية، فقد كان على وشك تشغيل ذلك الجهاز التليفزيوني. وقد فعل ذلك في الحقيقة مرارا، لمجرد أن يرى ما يعرضه الجهاز. ورحت أواصل باستماتة قراءة القصص، ولعب الورق، والجلاد(*) hangman والتكتكتو(**) tic-tac-toe، وإلقاء النكات، لأنني كنت مصممة على عدم ترك ذلك الجهاز اللعين

(*) الجلاد hangman: لعبة كلمات يلعبها اثنان.

(**) لعبة يتناوب فيها كل من اللاعبين رسم علامة خاصة به ضمن مربع من مربعات رقعة ما. ويفوز فيها من يوفق قبل غيره إلى ملء ثلاثة مربعات متوالية بعلامته الخاصة. (قاموس المورد).

يفوز . كنت بلا ريب أخوض منافسة ضد ذلك الجهاز طوال ساعة قضيتها هناك. وعمليا كان يتعين علي أن أفعل المستحيل، لكني أعتقد أنني انتصرت، ولكنه لم يكن انتصارا كاملا، فقط حوالي 75 إلى 25 نقطة لمصلحتي».

تعكس المنافسة مع جهاز التليفزيون، بالنسبة لبعض الآباء، حاجة ضمنية إلى الثقة في قدرة أطفالهم على تسلية أنفسهم. وتبين أم من نيويورك، لديها طفلان، فهمها للعلاقة بين استعمالها لجهاز التليفزيون وخوفها من الوقت الشاغر:«إنني أقول للطفلين، لا تضايقاني واذهبا لمشاهدة التليفزيون»، لأنني لا أتخيل تركهما وشأنهما من غير وجود شيء يثيرهما ـ أظن أن ذلك هو السبب في أن التليفزيون مشكلة إلى هذا الحد في بيتنا».

وشرعت أم لديها طفلان صغيران في تحديد الوقت الذي يمضيانه أمام التليفزيون بساعة واحدة يوميا. وتقول في إحدى المقابلات:

«بدأت أدرك أن الرسالة التي أعطيها للطفل في كل مرة استسلمت فيها وقلت:

نعم، من الممكن مشاهدة برنامج واحد آخر، كانت لا ، لا يمكن التفكير في عمل شيء على أى نحو آخر بجانب مشاهدة التليفزيون. وكنت أعني أنني لا أظن أن لديه المقدرة على الإفادة من وقته بنفسه ومن كنت أعطيه مهربا من التليفزيون».

يملأ الأطفال في كثير من الأسر، طبعا، وقت فراغهم بأنفسهم عن طريق تشغيل التليفزيون. غير أن المنافسة التي ينهمك فيها الآباء ضد جهاز التليفزيون، حتى في تلك الأسر التي تضع قيودا على المشاهدة التليفزيونية، تؤدي فعليا إلى إزالة وقت الفراغ من حياة أطفالهم. فإذا تيسر جهاز التليفزيون أو جانب من النشاط المنافس دائما ، فلن يتوافر للطفل خلال اليوم بطوله وقت حرٌّ من فعل أي شيء.

وقت بلا شيء أفعله

ما هي وظيفة وقت الفراغ في حياة الطفل؟ ألا يكون من الملائم أيضا أن تمتلئ حياة الطفل بأشياء يفعلها إلى حد حذف مسألة «عدم وجود شيء يفعله» برمتها؟

يوضح كتاب مصور كتبه راسل هوبان Russel Hoban تحت عنوان Nothing

To Do [1] قيمة وقت الفراغ بالنسبة لطفل صغير، بالإضافة إلى المشاكل التي يواجهها الآباء فيما يتعلق بوقت الأطفال الذي يعوزه التنظيم.

ويتناول كتاب هوبان موضوع الصغير والتر بوسوم، وهو أحد أفراد أسرة ذات سمات معينة. إن الصغير والتر يضايق أبويه بسبب عدم وجود ما يفعله. ويشير الأب بوسوم على ولده بأن «يلعب بالدمى التي لديه» لكن والتر لا يود ذلك. يخصص له الأب عملا ـ هو جمع العشب. غير أن والتر سرعان ما يفقد اهتمامه بذلك. إن العمل الوحيد الذي يبدو أنه يخفف ضجره هو الشجار مع أخته شارلوت ، وهي طفلة مزعجة نكدة.

وحين تحتاج الأم بوسوم إلى تنظيف المنزل، يعطي الأب ابنه حجرا بنيا أملس ويوعز إليه أن يحكه حين لا يجد ما يفعله. ويخبره أبوه بأن الحجر سحري «عليك أن تنظر حولك وتفكر قليلا وأنت تحك الحجر، وحينئذ سيمنحك الحجر شيئا تفعله».

وبطبيعة الحال، فإن الاعتقاد بأن الحجر سحري يقود الصغير والتر إلى اكتشاف جميع الأشياء التي يمكنه عملها، فهو يعثر على كرة مفقودة منذ وقت طويل، ويزور صديقا، ويبتكر لعبة عن كنز مدفون. بل إنه يتوصل إلى طريقة بارعة لمنع أخته الصغيرة المزعجة من تعطيل لعبته بإعطائها عصا ذات قوى سحرية مزعومة. وبالإضافة إلى تسلية نفسه، فهو لا يزعج أبويه طوال فترة ما بعد الظهر.

إن كتاب Hoban، على غرار جميع كتب الأطفال الجميلة، يرشد الآباء فضلا عما يحمله من تسلية للأطفال. فالمؤلف يوحي بأن الأطفال يحتاجون إلى المساعدة من أجل اكتشاف قدراتهم الداخلية. والأب البارع الذي يدعي عدم الاهتمام، حين يكتشف أن الرفض المباشر من نوع «امض وابحث بنفسك عن شيء تفعله ولاتزعجني» يعزز ميول التعلق والتبعية عند طفله، يشجع الطفل المتظاهر على التماس المتعة من خلال قدرته الإبداعية الخاصة بواسطة صنع لعبة من مجرد فكرة التفكير في شيء يفعله . والطفل الذي يتظاهر بعدم الاهتمام ليس مخدوعا في الحقيقة . وتلك نقطة حاسمة (وهو يبرهن عليها باستعمال الحيلة نفسها لكي يجعل أخته تسلي نفسها). لكن الحجر السحري لايزال فعالا، على الرغم من أن الطفل يدرك بوضوح عدم احتوائه على أي أفكار، وأنه هو نفسه صاحب الأفكار الجيدة.

ما هو الحجر السحري الذي أعطاه الأب بوسوم لولده؟ إنه تحرير ضروري له، وتجسيد لفكرة موافقته على أن يصبح أقل تبعية، وعلى سماح أبويه له بالتصرف كما يشاء وعلى مسؤوليته، واستغلال وقته بطريقته الخاصة. وهو ما كان والتر يحتاج إليه حتى يصبح قادرا على معالجة وقت فراغه.

لو أن الأب بوسوم أعطى ولده نوعا آخر من الأدوات السحرية، كأن يعطيه صندوقا، على سبيل المثال، تتغير فيه الصور باستمرار وتسليه، لكان من الممكن أن يفي ذلك بغرض الوالدين (إبعاد والتر عن الطريق)، ولكن حتى لو كان الصندوق أكثر مصادر التسلية إثارة للبهجة، لظل امتدادا للأب. فعلى الرغم من افتتان الطفل به، فإنه لم يكن سيجد فيه ما يحرره من عجزه، أو يشكل مصدرا للنمو أو الثقة لديه. ومع ذلك ، فإن تلك هي الوظيفة الأولية لوقت الفراغ في حياة الأطفال، أي توفير الفرص الضرورية لتقليل اعتمادهم وتطوير ذواتهم المستقلة،. ولايمكن أن يتحقق هذا في عيد من الأعياد أو في عيدين أوحتى في عشرين مناسبة كهذه، وإنما فقط عبر تراكم تدريجي لخبرات وقت الفراغ يوما إثر يوم، وسنة بعد سنة، بحيث توفر كل منها كشفا، ربما يكون من الصغر إلى حد يعجز معه كل من الطفل أو أحد أبويه عن تمييزه. ومن خلال تجارب وقت الفراغ هذه فقط، تلك النشاطات ذاتية الدفع التي يبتكر فيها الأطفال الألعاب ويحلمون الأحلام، سيكتشفون الذات التي يعتمدون عليها بما يكفي لمدهم بأسباب الحياة عوضا عن أولئك الناس والأشياء التي ظلوا عالة عليها لوقت طويل. ومن دون تجارب كهذه، سيكبر الأطفال في النهاية وهم أقل اتكالية على آبائهم، لكنهم قد يستمرون في الاعتماد على جماعة الرفاق، أو رموز السلطة، أو على التجارب الأخرى التي تتيح لهم أن يظلوا سلبيين، لا أن يكونوا مشاركين نشطين في الحياة.

الارتباط والانفصال

يبدو دور التليفزيون مؤثرا في ضياع وقت الفراغ من حياة الأطفال. ومع ذلك، أليست مشاهدة التليفزيون نفسها نشاطا من نشاطات وقت الفراغ؟

إن كلمة «حر» free التي تقترن بالوقت في حديثنا عن «الوقت الحر» أو وقت الفراغ تقبل غالبا كوصف للوقت، كما لو أن الوقت شيء حقيقي له خصائصه المميزة بصرف النظر عن الناس والأشياء، وكما لو أن بعض أنواع الوقت حرة وتحمل صفات معينة للحرية، في حين أن أنواعا أخرى من الوقت ليست حرة. لكن الوقت، بالطبع، ليس شيئا ماديا. إن حقيقته الوحيدة تكمن في علاقته بالشخص الذي يعيشه. ولذلك فإن وقت الفراغ، لابد أن يفهم كوصف للشخص الذي يعيش ذلك الوقت المحدد، وليس للوقت ذاته، بمعنى أن وقت الفراغ هو الوقت الذي يتحرر المرء فيه من قيود معينة مفروضة من نواح أخرى على وقته، وهو الوقت الذي يستطيع المرء فيه أن يتصرف بمحض اختياره وإرادته، بسرعته الخاصة، طليقا من جميع الضغوط والمطالب باستثناء تلك التي يضعها المرء بنفسه.

لكننا إذا وصفنا وقت فراغ الأطفال بأنه الوقت الذي يُتركون خلاله لرغباتهم الخاصة، أحرارا في اللجوء إلى قدراتهم الذاتية، صار واضحا أن هناك فترة عند بداية الحياة لابد خلالها من تنمية تلك الرغبات والقدرات أولا.

إن الأطفال الرضع لا يفرقون بين ذواتهم وبين أمهم أو العالم الخارجي، فليس لديهم «أنا» منفصلة عن الآخرين. وتندمج حقائقهم الداخلية ـ من جوع، وشبع، وألم، ولذة ـ بمن حولهم من أشخاص وأشياء في إخلاص طاغ للهدف: أن يعيش، أن يحصل على الطعام، والهواء، وعلى مجموعة كبيرة من الرسائل البصرية، والسمعية، والحسية اللمسية.

إن أولى المهمات الكبرى للأطفال في الحياة هي تحرير أنفسهم من هذه الكتلة غير المتمايزة والظهور للعيان كذات. وتأتي إحدى العلامات على بدء هذه العملية حين يكفون عن التعامل القلق مع حضور أو ذهاب أمهاتهم. إذ يلاحظ عامة أن الأطفال الرضع عند سن سبعة أشهر أو ثمانية يبدأون في الصراخ والاحتجاج كما لو أن الدنيا توشك أن تنتهي حينما تترك أمهم الحجرة. وهذا التصرف مؤشر إلى أنهم قد خطوا الخطوة الأولى على طريق فصل أنفسهم عن أمهم وعن العالم ككل. ذلك أن الطفل الرضيع لايمكن أن يحزن على غياب الأم إلا حين يدرك حسيا أنها شخص منفصل[2].

وتستمر عملية الانفصال تدريجيا خلال مرحلة الطفولة المبكرة. فعلى

الرغم من أن الأطفال سرعان ما يفهمون أنهم منفصلون جسمانيا عن غيرهم من الناس والأشياء، فإن فترة من الوقت تعقب ذلك لايميزون بعد خلالها بين مشاعرهم الخاصة والحقيقة الموضوعية. ويكاد فهمهم لقوانين السببية الطبيعية، مثلا، أن يكون متمركزا حول الذات وتسيطر رغباتهم ومخاوفهم على إدراكهم الحسي للواقع. إن تلك السنوات الأولى من الحياة «سنوات سحرية» حقا، إذ يكون العالم الداخلي للطفل والوسط الخارجي لا يزالان مرتبطين بروابط فطرية، لا منطقية[3].

إن وقت الأطفال الشاغر خلال تلك السنوات المبكرة، الوقت الذي لا يستنفد في الأكل أو النوم أو الانهماك بنشاط مع أحد الكبار، لاتزال تحكمه قوى وضغوط خارج ذاتهم الواقعية. ولايمكن أن يكون الوقت حرا بالنسبة للطفل الذي تكون أحداث الزمن خارج سيطرته إلى حد أن المصادفة وحدها هي التي تجعل العلة تتبع المعلول دائما. فغياب الذات المحددة بوضوح يمنع الأطفال الرضع والأطفال الصغار جدا من استغلال الوقت بطريقة حرة، فهم لا يزالون في أسر عبودية مباشرة للأشخاص الآخرين وللأشياء. ولابد من تنمية قدرة الأطفال على التخاطب اللغوي، والسيطرة على أجسامهم والعمل، باختصار، بقدر من الاستقلالية، قبل أن يمكنهم استثمار الوقت بطريقتهم الخاصة.

إن معظم الآباء يعملون بفهم غريزي لحاجة أطفالهم إلى نوع ما من شغل الوقت خلال السنوات الأولى من الحياة. ولما كان الآباء يعرفون أن أطفالهم لا يستطيعون استخدام وقت يقظتهم جيدا بما يعود عليهم بالنفع، ويدركون أن النمو العقلي للأطفال يتأثر على نحو حاسم بطبيعة احتكاكاتهم الإنسانية خلال فترات يقظتهم التي تطول تدريجيا، فإنهم يتدخلون عن قصد خلال السنوات الثلاث الأولى للحياة. وبكلمة أخرى، يقوم الآباء باحتضان أطفالهم، وتدليلهم، والغناء لهم أغنيات قصيرة، واللعب بأصابع الأيدي والأقدام، بدلا من تركهم لرغباتهم الخاصة.

لقد فهم الآباء أن الارتباطات الأولى التي تقاوم الانفصال باحتجاجات عالية، تعمل على إرساء الأسس المستقبلية لقدرة الأطفال على الحب والتعاضد كحق شخصي لهم.

ويفيد هذا الفهم في جعل وقت الأطفال أقل حرية خلال سنواتهم

الأولى، لأن من الواضح أن ترك الأطفال لرغباتهم ووسائلهم الخاصة (أيا كانت)، سيؤدي إلى ضمور القدرات الأصلية ونمو الشخصية لديهم.

لكن موقفا مختلفا تماما يطرأ حين يقترب الأطفال من سن ثلاث السنوات. ففي هذا الوقت يحدث تدهور واضح في قوة ارتباطهم. فهم يتوقفون عن الصراخ بصوت عال وغضب حين تتركهم أمهم . ولا يعودون يتعلقون بها طلبا للأمان في المواقف الجديدة. لقد وضعت الأسس الانفعالية، إذا جاز التعبير،وها هي مرحلة نمو جديدة يشرع الطفل خلالها في استكشاف البيئة من حوله في اهتمام وتشبث متزايدين. ويبدأ حافز الفضول في تخطي حافز الأمن والاعتماد.

ولاشك في أن سلوك الارتباط لايختفي تماما. فالأطفال الصغار يعودون بسرعة إلى الأمان الذي توفره الأم حين يشعرون بالخوف أو الأذى . لكن الارتباطات التكافلية تضعف بعد أن خطوا الخطوات الأولى نحو الاستقلالية.

إن هناك هدفا ارتقائيا في هذا التعاقب السلوكي من التوجه السلبي، القابل للتأثر، المتمركز حول الأم إلى أسلوب الحياة التعلمي، الفعال، المتمركز حول البيئة. ذلك أن بقاء الفرد في المجتمع هو بالضرورة مهمة السلوك الفعال، التكيفي. لكن من المرجح، عند هذه النقطة من نمو الطفل، وفي وقت ما بين السنة الثانية والثالثة من عمره، أن تبدأ الأمهات في تشغيل جهاز التليفزيون لأطفالهن الصغار ، لملء المساحات الشاغرة في يوم الأطفال بتجربة تعيدهم مؤقتا ولكن بصورة لاتلين إلى حالة الارتباط والاعتماد على الغير.

ويجب النظر إلى عواقب ذلك على الأطفال باعتبارها نكسة للنمو. فالأطفال الصغار حين يشاهدون التليفزيون يصبحون مرة ثانية آمنين، مطمئنين، قابلين للتأثر كما كانوا بين ذراعي أمهم. فهم لايحتاجون إلى تقديم أي شيء من أنفسهم أثناء المشاهدة، كما يجب أن يفعلوا ، مثلا، حين يلعبون مع طفل آخر.

ولا يتعرضون لأي من الأخطار الصغيرة التي يستتبعها سلوكهم الاستطلاعي الطبيعي: إنهم لن يتعرضوا للأذى، ولن يقعوا في المتاعب، أو يجلبوا على أنفسهم غضب الوالدين. فهم لا يكادون يبدأون الخروج من

عجزهم الطفولي، حتى ينكفئوا إلى السلبية بفعل مغريات جهاز التليفزيون.

الوقت الشاغر والوقت الملآن

إذا بلغ الأطفال مرحلة يستطيعون عندها تكييف الوقت لحاجاتهم الخاصة، فإنهم عن طريق المشاهدة التليفزيونية، قد يملأون الوقت الشاغر بطريقة تؤثر في حريتهم وتحرمهم من فرص النمو التي تتاح لهم حقا خلال هذا الوقت «الشاغر». ويمكن وصف مثل هذا الوقت بأنه «الوقت الملآن» filled time لتمييزه عن الوقت الشاغر free time. ويتضح الفرق بين الاثنين بصورة جيدة من خلال هذا المثال الواقعي:

يأخذ طفل في الرابعة من عمره فترة راحة منتظمة في حجرته بعد الغداء. وهذه الحجرة مزودة بالدمى، وأدوات الرسم، وفونوغراف سهل التشغيل وأسطوانات. وهناك نافذة تطل على الشارع. ذات مرة نام الطفل فعلا في أثناء فترة راحته ـ وكانت تلك إغفاءة حقيقية. ومن المرجح الآن أن ينشغل بمجموعة من النشاطات التي يختارها بنفسه. وهو اليوم يبدأ في استخدام مكعبات البناء في تشييد مجموعة من الأبراج العالية. في ذلك الصباح في مدرسة الحضانة كانت سفينة الصواريخ الطويلة المعقدة التي بناها من المكعبات قد ألقيت على الأرض عمدا من قبل طفل آخر. وهو الآن، في حجرته الخاصة، يدمر كل برج من أبراجه بضربة عنيفة قاسية، ويصب جام انتقامه التخيلي على الوغد الذي خرب سفينته في الصباح. لقد سيطر على نفسه للتو، بعد أن ابتكر وسيلة للتنفيس عن غضبه المكتوم. وعلى الرغم من أنه لم يفعل شيئا سوى شغل وقته خلال فترة راحته، فإنه طوع الوقت على هواه ليلائم حاجاته الداخلية.

وبعد ذلك يحاول تشييد جسر بواسطة المكعبات. لقد رأى شخصا آخر يشيد جسرا متقن الصنع، لكن الجسر الذي يبنيه هو لايفي بالغرض، لأن أجزاءه ما تفتأ تتساقط. وهو لا يستطيع أن يفهم كيفية عمل ذلك. ويشرع في إنشاء جسر بجسده ذاته بدلا من ذلك الجسر، عن طريق ثني ظهره على شكل قوس في الهواء. ويعوض النجاح الذي يحققه في هذا النشاط بعض الشيء فشله في بناء الجسر الذي استخدم فيه المكعبات. لقد بدأ يفهم ويعمل على أساس مبدأ أولي: إن شعور المرء بالسعادة يعتمد على قدر

معين من النجاح؛ أما الفشل فيشعر المرء بالضيق. ولو كان قد استمر في بناء الجسر حتى وصل إلى حل للمشكلة المعمارية، لربما تعلم درسا آخر، وهو درس يتصل بالعلاقة بين المثابرة والعمل الشاق وصولا إلى النجاح. ولكنه بدلا من ذلك مضى في اتجاه آخر.

فبعد أن يتعب من الألعاب البهلوانية، يضع أسطوانة ويرقد في سريره مصغيا. وهي أسطوانة سمعها مائة مرة على الأقل. ويمد يده إلى وسادة خاصة ذات غطاء ناعم ويمتص إبهام يده بينما يمسد الوسادة بطرف إصبعه. إنه يصغي جزئيا إلى الأسطوانة، أما الجزء الآخر من ذهنه ففي مكان آخر، مكان رقيق، غامض ومريح. وهو يميز هذا الشعور جيدا، بما أنه سافر إلى ذلك المكان مرات عديدة. لكنه لا يعي بشكل مبهم وجود تغير ما. وبينما هو يمسد ويمص ويصغي تبدأ كلمات وصور عرضية عن أشياء حقيقية الدخول إلى الفراغ الملتبس ـ ظنون ، تداعيات ، أفكار. وفي كل مرة يحرك فيها إبهامه ليفحصها، ويلعب بأصابعه الأخرى، يحاول أن يمص إصبعا أخرى ليرى ما إذا كانت اللذة نفسها.

حين تنتهي الأسطوانة يذهب لتشغيل أخرى، إلا أن اهتمامه يتحول إلى قرص الفونوغراف الدوار الحامل للأسطوانة، فيضع قطعة من الورق على القرص ويشاهدها وهي تدور وتدور. وسرعان ما ابتكر لعبة كاملة بقطع صغيرة من الورق تدور على قرص الفونوغراف الدوار. وهذه اللعبة لعبته هو، فقد نبعت من فكرة في رأسه. وعقب ذلك تدخل أمه إلى الحجرة. وتنتهي فترة الراحة.

لقد أمضى الطفل وقتا كان حرا في استغلاله بطريقته الخاصة. وكان استخدامه للوقت، ومن دون أي قيود أوضغوط، خطوة باتجاه اكتشاف الذات.

تأمل طفلة من السن نفسها يمتلئ وقتها الشاغر فيما بين الغداء ونزهة الأصيل بعدة ساعات من المشاهدة التليفزيونية. حقا إن وقتها يمتلئ بالتجربة التليفزيونية، لكنها في الوقت الذي تنشغل بالبرنامج لاتملك حرية عمل شيء إلا المشاهدة والاستماع. إن إرادتها غير موجودة، وحاجاتها الشخصية لا صلة لها بالموضوع. وهي لاتنشغل بأفكارها الخاصة في أثناء مشاهدة التليفزيون مثلما تفعل حين تبتكر ألعابها الخاصة؛ فالبرنامج

التليفزيوني هو الذي يفكر لعقلها. إن علاقتها بالبرنامج التليفزيوني يمكن وصفها بأنها عودة إلى أحادية الطفولة الأصلية، التي لاشكل لها. فالطفلة والصورة التليفزيونية تندمجان بكل ما في الكلمة من معنى إلى حد تصبحان معه كيانا واحدا . وبينما تشاهد الطفلة الشاشة، تغدو الحدود بين الداخلي والخارجي معتمة غامضة، وغير مختلفة عن حالتها في الماضي غير البعيد، حين كانت ذاتها لاتزال مندمجة مع العالم ومع ذات أخرى منفصلة . وهي لاتملك سلطة على الوقت بينما تشاهد التليفزيون.

إن ذلك التجمع الخاص للموهبة الطبيعية الوراثية والسلوك التكيفي الذي يعين الذات الجديدة للطفلة، يعمل بدرجة أقل كثيرا حين تشاهد التليفزيون منها حين تنشغل بأي نشاط آخر. والواقع أن الذات كثيرا ما تطمس، بشكل مؤقت أو كامل، حين تهبط الطفلة إلى حالة شعورية تشبه الغشية.

لا ينبغي ، طبعا، أن يترك الآخرون وقت الأطفال كله دون نظام أو قيود حتى بعد بلوغهم المرحلة التى يستطيعون فيها الإفادة من وقت الفراغ. فهناك أشياء يمكنهم تعلمها ومهارات يستطيعون اكتسابها وتتطلب منهم أن يضعوا وقتهم بين أيدي الآخرين. غير أنه لابد أن تكون لهم سيطرة على جانب من وقت الفراغ إذا ما أرادوا تحقيق النجاح. ومع وجود التليفزيون في البيت، فإن ذلك تحديدا هو مالا يملكون.

الفردوس المفقود

إذا كان حصول الأطفال على وقت الفراغ يضطلع بدور ضروري في نموهم، وإذا كان الاتجاه السائد نحو الأطفال حاليا يتمركز حول الوفاء بحاجات الطفل الخاصة، فلماذا يصر الآباء كل هذا الإصرار على شغل وقت أطفالهم؟

إن جانبا من التفسير يكمن في التحول الصعب الذي يجب على الأم القيام به عندما ينتقل الطفل من ارتباطه الأول الشامل إلى مرحلة النمو التالية. فمن الطبيعي عند هذا المنعطف أن تضطرب الأم وتقلق بشأن نشاطات الطفل الجديدة المستقلة. وحيث إن الطفل ظل على مقربة منها وتبعها كالجرو فيما مضى، فلابد الآن أن تتابعه وتنأى به عن المتاعب.

وفوق ذلك، تميل الأم، التي مازالت فترة الارتباط القوية حية في ذهنها، إلى الشعور بأنها أضحت منبوذة بسبب اندماج الطفل المتزايد مع العالم الخارجي خارج المنزل. ويتسبب شعورها الباطني بالفردوس المفقود إزاء تناقص أهميتها السامية في جعل هذه الفترة أكثر صعوبة لها. وبما أن علاقتها بالطفل تتغير بسرعة، فيتعين أن تجد أساليب جديدة للتعامل مع المستوى العالي لفعالية الطفل بينما تتكيف مع مشاعر الخسارة الخاصة بها. وذهنيا، ستجري الأم تغييرات في إجراءاتها اليومية بحيث لن تعمل على نحو يتعارض مع حاجات النمو عند الطفل.

ربما تكون مشاعر الأم المتضاربة بشأن الاستقلالية الجديدة للطفل هي التي تجبرها إلى حد ما على استعمال التليفريون لشغل وقته. فبدلا من التكيف مع الانفصال الانفعالي ورغبة الطفل الشديدة في النشاط، تقيد الأم فعليا اندماج طفلها بالعالم الخارجي، وتنجح في منعه من إنشاء ارتباطات جديدة بتشجيع تجربة المشاهدة التليفزيونية السلبية. وربما تشعر بأنها مادامت لا تستطيع وحدها أن تسلي طفلها فسوف توفر له البديل على شكل جهاز التليفزيون. وهكذا تتعلق بوهم البقاء كمركز الكون الخاص لطفلها، كما كانت في الواقع منذ وقت قريب. وهي بالتالي تحتفظ بسيادتها على الرغم من المجهودات الشجاعة التي يبذلها الطفل للعثور على هوية مستقلة عن هويتها.

المنفذ السهل

لكن التفسير الأوضح للجوء آباء الأطفال الصغار إلى التليفزيون يكمن في تقديمه الوسيلة الأسهل والأوثق للخروج من صعوبات رعاية الأطفال المتزايدة، فالأساليب التي استخدمها الآباء في الماضي للعيش مع الأطفال الصغار تبدو ببساطة لآباء اليوم شديدة الوطأة. وتقول إحدى الأمهات:

أظن أنني حين ولدت سالي ولم يكن لدينا جهاز تليفزيون شعرت بضغوط أقل لعمل أشياء أخرى، لأنه لم يكن لدي خيار. كانت إذا احتاجت إلى الاهتمام بها أثناء إعداد العشاء قلت «أوه... ليذهب العشاء إلى جهنم ـ لن يتأخر عشاؤنا إلا ربع ساعة»، وكنت أجلس وأقرأ لها قصة أو أجعلها تبدأ اللعب بشيء ما. إلا أنني حينما ولدت هنري وكان لدينا جهاز تليفزيون،

بدأت في استعماله بكثرة، لقد وفر لي منفذا وحل محل قدر من الجهد من جانبي.

إن هذا المنفذ السهل لايسمح للأب والأم ببذل جهد أقل فحسب، بل يتيح أيضا عملا هادئا متواريا عن الأنظار. ولهذا السبب يشعر عدد كبير من الآباء بأنهم لايستطيعون مواصلة الحياة من دون برامج الرسوم المتحركة صباح السبت.

تقول أم لثلاثة أطفال:

إنني بالفعل أرجوهم أن يشغلوا جهاز التليفزيون صباح أيام السبت حتى يهدأوا ويمكنني أن أنام. فحين يلعب أحدهم مع الآخر يحدثون أشد الضوضاء. وهم دائما يلعبون لعبة الطوارئ ويقلدون ضجة الصفارات «وي ي ي ووأووو»! وحين يلعب أحدهم مع الآخر فكل دمية تخرج، وكل قبعة توضع على الرأس، وكل شاحنة تتحرك ـ وأظن ذلك لطيفا، لكني لا أستطيع احتماله! أنا أريد قسطي من النوم. طفلي ذو السنوات الست عادة ما يستيقظ مع أول ضوء للفجر، ولو لم يفعل من أجل التليفزيون، فسيلعب بجميع الدمى الأخرى، أيضا ، لكنه حاليا يشغل الجهاز ويشاهد بهدوء إلى أن نستيقظ في التاسعة.

وربما تثبت الفوائد المباشرة التي يجنيها الآباء من قدرات التليفزيون المهدئة للطفل بسرعة أن كلفتها عالية على المدى البعيد. ولو أننا ألقينا نظرة على بعض نتائج استعمال الوالدين للتليفزيون لاتضح أن حظ الوالدين يصبح أصعب في النهاية، وليس أسهل، بسبب استعمال التليفزيون لملء وقت أطفالهما.

زملة الانشغال الجزئي(*)

يمكن توضيح العواقب غير المثمرة التي تنجم عن الاعتماد على التليفزيون في ملء الفترات الشاغرة في يوم الطفل، من خلال مجموعة الظروف التي يمكن تسميتها بزملة الانشغال الجزئي. وترسم هذه الزملة دورة تنشغل فيها الأم جزئيا طوال الوقت. فهي تنشغل بواجباتها المتنوعة ونشاطات وقت الفراغ العرضية في همة، وتوقف عمل أي شيء كي تعنى بهذا أو ذاك،

(*) The Half - Busy syndrome

وتجيب على أسئلة الطفل المتلاحقة، وتتذوق فطائر وهمية لا حصر لها، وتعبر عن إعجابها بالرسوم. إنها تنشغل ولكن ليس إلى الحد الذي ترفع معه رأسها عن كتابها أو توقف عملها للعناية بحاجات أو رغبات الطفل.

وهي تعتاد على طريقة الانشغال الجزئي في الحياة وتجد ارتياحا معينا في فكرة أنها «أم صالحة» . إلا أنها أحيانا تشعر بضرورة الحصول على الراحة من حضورها الدائم عند الحاجة. وفجأة يبدو جهاز التليفزيون بمنزلة الحل الأخير.

وهي تشعر ببعض الذنب فيما يتعلق باستعمال جهاز التليفزيون كجليسة أطفال، لكن ماذا يمكنها عمله غير ذلك؟ لقد اعتنت، وتعهدت ، واسترضت، وسايرت، وأظهرت صبر أيوب. ويجب الآن أن تفلت بطريقة ما. ومع ذلك، فإن الأطفال هم الأطفال ومن طبيعتهم أن يبحثوا عن الاهتمام. إنها لا تعرف أن هناك شيئا بشأن حالة «الانشغال الجزئي»، والتيسر الدائم يعمل بالفعل ضد حاجاتها الخاصة ، فيجعل طفلها أكثر إلحاحا ويخلق ضرورة اللجوء إلى جهاز التليفزيون طلبا للراحة.

إن الآباء يدركون بداهة أن طلب أطفالهم للاهتمام يتصل اتصالا متينا بوجود الوالدين. وعلى سبيل المثال، فإن من الملاحظ عموما أن الأطفال يكونون مزعجين حين تتكلم أمهاتهم بالهاتف. لكن من المسلم به أن هذه ظاهرة منعزلة . وبصفة عامة، لا تدرك الأمهات اللواتي يخصصن قدرا كبيرا من الاهتمام للطفل يوميا أن نوعية ذلك الاهتمام عامل حاسم.

وتوحي نتائج البحث أن نوعية الاهتمام الوالدي ذات أهمية كبيرة. ففي إحدى التجارب تركت مجموعة منتقاة من أطفال ما قبل سن المدرسة لفترة من الوقت مع راشد متاح ومنتبه باستمرار، بينما أمضت مجموعة ثانية فترة مماثلة من الوقت مع راشد راح يتظاهر بالانشغال بعمل خاص. وقد أثبت الأطفال في المجموعة الثانية التي كان وجود الراشد معها «محدودا»، أنهم أكثر إلحاحا في الحصول على اهتمام الراشد من المجموعة التي كان المشرف عليها موجودا باستمرار. وبدا أن نوعية اهتمام المشرف المتاح سمحت للأطفال باللعب بشكل أكثر استقلالية وعدم الإلحاح في طلباتهم منه. أما المشرف الذي تظاهر بالانشغال فقد كان الطوق حوله أكثر إحكاما[4].

ووضعت دراسة تالية تحت الملاحظة أطفالا في سن الحضانة مع أمهاتهم ، اللائي طلب إلى بعضهن أن ينشغلن وطلب إلى البعض الآخر أن يكن منتبهات، وأظهرت النتائج أن محاولات الحصول على اهتمام الأم في أثناء انشغالها كانت أكثر مما حدث في أثناء تفرغ الأم بالكامل للطفل الذي يلعب[5].

وهكذا يبدو أن تقليل وقت الفراغ في حياة الطفل يؤدي إلى ازدياد الاعتماد على الغير. لأن من الواضح أن الأطفال الذين تنشغل أمهاتهم بصورة جزئية طوال الوقت ليسوا شخصيا أكثر من نصف أحرار. فليس هناك حاجة حقيقية أبدا أمامهم تضطرهم لمواجهة الوقت بطريقتهم الخاصة. ومهما كانت الأسباب فإن الأم تشعر بضرورة الانغماس في وقت الطفل كله، وإذا حدث ذلك بشكل جزئي، كان لهذا السلوك وقع الكارثة لديها؛ إذ سيحرمها في الحقيقة من أي وقت فراغ خاص بها. ومن الممكن أن تحدث عملية عكسية تماما هنا، فالأم التي تحرم من وقت الفراغ تصبح أكثر اعتمادا على طفلها من أجل الإشباع العاطفي الذي قد يأتي بصورة أفضل من مصادر أخرى.

تؤكد خبرات الأمهات اللواتي غيرن نوعية انتباههن احتمال أن يجعل الانشغال الجزئي طوال اليوم الأطفال أكثر إلحاحا واتكالا. وحين تستبدل بفترات الانتباه الكامل فترات عدم الوجود في متناول الطفل، تبدأ كل من الأم والطفل في الاستمتاع بوقت فراغ حقيقي.

تروي أم لديها طفلان في سن ما قبل المدرسة:

أدركت ذات يوم أنني تعودت على رعاية الأطفال بطريقة الانشغال الجزئي طوال الوقت. كنت أكتب نصف الرسالة ثم أتوقف لأن أحد الأطفال احتاج إلى شيء ما. وكانت الأمور تسير على هذا المنوال طوال معظم اليوم وما كنت أتخلص من ذلك تماما إلا حينما أضعهم أمام التليفزيون. كنت أكره عمل ذلك ، غير أنه لم يكن هناك بد. كنت أحتاج إلى الفكاك. وبعد ذلك بدأت أدرك أنني داخل نوع من الحلقة المفرغة، فلا أنا قادرة في الواقع على إنجاز أموري الخاصة ، ولا قادرة حقا على إسعاد الأطفال إلى أقصى حد. وكان يساورني في الوقت ذاته شعور بالخشية من أن الزمن يمضي، وأن سنوات الطفولة الباقية قليلة، وأنني بطريقة أو بأخرى لم أقيد نفسي

بهم في الواقع أبدا، ولا تحررت منهم بالكامل يوما.

كنت قد أدركت ذلك متأخرة وتعين علي بالفعل أن أسعى جادة لإحداث تغيير ما. ربما كان هذا التغيير سيغدو أسهل لو كنت قد شرعت في ذلك منذ البداية. إلا أنهم طبعا وهم صغار كانوا يحتاجون إلى نوع مختلف من العناية. أليس كذلك؟ وما أردت أن أفعله توا هو أن أكون معهم حقيقة حينما أكون معهم، لا أن أعطيهم فقط نصف اهتمامي. كنت أدع أي شيء لبعض الوقت وألعب فعلا معهم، على الأرض في معظم الأحيان. وما عدت أحاول العودة إلى كتابة رسالتي أو عمل أي شيء آخر.

لكن الجانب الآخر من المسألة يتمثل في أنني عملت من أجل الخلاص تماما، من دون ربطهم إلى جهاز التليفزيون. وبطريقة أو بأخرى بدا أن من العدل أنني إذا أعطيتهم وقتي بكامله فإنهم أيضا يمكنهم إعطاء بعض الوقت لي.

بل إننى لم أفكر حينئذ في أنهم سينتفعون بالوقت كله لأنفسهم. غير أنني حقيقة بدأت أدرك أن ذلك هو ما حدث في أحيان كثيرة. كنت أقول لهم إنني سأقوم بعمل شيء لفترة قصيرة وعليهم ألا يقاطعوني، وأنني حين أفرغ من ذلك سأبدأ العمل معهم. وبعد ذلك أتشبث بموقعي!

وقد شرعت في ذلك تدريجيا، لأنهم لم يرغبوا في البداية أن يتركوني لشأني. كنت أقول سأجلس هنا وأقرأ حتى نهاية الصفحة ثم كنت أصر، مهما فعلوا، حتى وإن تطلب ذلك تجاهل أمور السقوط على الأرض أو العراك. لم يصل الأمر أبدا إلى حالة الحياة أو الموت ـ إذ أفترض أنني كنت سأتدخل حينئذ. وشيئا فشيئا زدت الوقت الذي أكون خلاله غير موجودة، ببطء، صفحة بعد صفحة.

لقد نجحت هذه الطريقة. والواقع أنها كانت جذابة هينة. وهم الآن يعطونني الوقت، من دون أن يطلبوا الاهتمام أو يحصلوا عليه بطرق ملتوية ـ كأن يؤذي أحدهم نفسه، مثلا، أو يحدث جلبة مريعة. وبطريقة ما، حقق إعطاؤهم اهتماما صادقا تماما من جانبي فرقا. ويبدو أن ذلك يشبعهم تماما، من بعض النواحي بصورة ما، كما لو أنهم حصلوا على ما يكفي للأكل. فهم يصبحون أهدأ، وأقل تشبثا. ويبدو أنهم أكثر قدرة على أن يتصرفوا على هواهم لفترات أطول من الوقت.

خدمة الأطفال

حين يستعمل التليفزيون لملء وقت فراغ الطفل، كثيرا ما يدفع ذلك الآباء إلى محاولة تعويض الفرص الضائعة بالاقتراب أكثر من أطفالهم لخدمتهم بصورة تتجاوز ما قد يمكنهم عمله في العادة. وربما يثير دهشة الكثيرين من الآباء أن يعرفوا أن الخدمات الكثيرة الصغيرة التي يقدمونها للأطفال الذين يستطيعون بسهولة مساعدة أنفسهم تنهك هؤلاء الأطفال. بل قد يندهش الآباء أكثر حين يدركون أن اضطرارهم لخدمة أطفالهم يتصل بالدور الذي يلعبه التليفزيون في حياتهم الأسرية.

لقد كان هناك دائما آباء يحبون «تدليل» أطفالهم بلا داع لذلك. وتمتلئ صفحات الأدب بنماذج رهيبة من أمثال هؤلاء الآباء الذين يؤدون خدمات مضحكة لأطفالهم القادرين تماما (والجاحدين عادة)، ويكافحون علنا للتشبث بأطفالهم عن طريق جعلهم عالة على الغير عقليا وجسمانيا.

لكن الأمهات اللواتي يأتين بالمشروبات والوجبات الخفيفة لأطفالهن الذين يشاهدون التليفزيون، واللواتي يحررنهم من مهامهم الروتينية لكي يشاهدوا برامجهم المحببة، لَسْنَ جميعا أمهات مفرطات في القلق. فبينما قد تتمثل التأثيرات الطفولية في نمو أطفالهن، فإن دوافعهن لخدمة أطفالهن كثيرا ما تتصل باستعمالهن للتليفزيون كبديل والدي.

وتتقدم كارولين ل. ، وهي موسيقية وأم لطفلين في سن المدرسة، توضيحا للعلاقة بين مشاهدة الأطفال للتليفزيون وخدمة الآباء للأطفال:

لقد جدولت حياتي وعملي بطريقة أستطيع معها أن أكون في البيت حين يعود الطفلان من المدرسة. أريد أن أكون عونا لهما، أن أحييهما، وأن أجعلهما يشعران بأنهما على ما يرام بطريقة ما. حسنا ... (وتضحك في ارتباك) يؤسفني أن أقول إنهما يرميان أنفسهما أمام التليفزيون فور وصولهم إلى البيت، وأحيانا أستطيع بالكاد أن أنتزع منهما جملتين قبل أن ينغمسا في برنامجهما. ومن غير الممكن أن أحصل منهما بعد ذلك على كلمة أخرى.

وهكذا فإنني أحضر لهما قطع الجزر والبسكويت والجبن كوجبة خفيفة، ويساورني شعور بالسخف إزاء ذلك، لأنهما بالتأكيد كبرا بما يكفي لأن يقشرا الجزر لنفسيهما ويعدا الوجبة الخفيفة التي يأكلانها. لكنني بطريقة

أو بأخرى أسمح لنفسي بعمل ذلك. أقصد مادامـا يحبـان تلك البـرامـج التليفزيونية إلى هذا الحد».

إن السيدة كارولين . تحضر لأطفالها الوجبات الخفيفة لأنها لا تستطيع أن تجد طريقة أخرى للإبقاء على التواصل معهم في أثناء مشاهدة التليفزيون.

وهي تشعر أنها مرفوضة، ومعزولة عن الاتصال الطبيعي مع أطفالها. وهي، فوق ذلك، تشعر بالذنب لأنها كانت السبب في هذا الوضع، عن طريق استعمال التليفزيون بانتظام من أجل راحتها الخاصة حين كان الأطفال أصغر سنا.

وهي تعي هذا الاعتماد على التليفزيون عند الإشارة إلى البدائل التي لديها، كما تراها:

الشيء المضحك هو أنني حين يعود الطفلان إلى البيت من المدرسة أشعر حقيقة بالرغبة في الجلوس والتحدث إليهما عما يفعلانه في المدرسة. وأود لو أسمع عن ذلك. لكنهما لا يريدان التكلم. وأنا واثقة من أنني لو رغبت في عمل شيء مهم بعد الظهر، شيء يحبانه في الواقع، فعلى الأقل ستكون هناك فرصة لأن يرغبا في عمل ذلك عوضا عن مشاهدة التلفزيون. ربما. غير أنني أتمنى لو كرست وقتي تماما لتسليتهما إلى درجة عدم الرد على الهاتف. والواقع أن ذلك أمر شاق لي. ولقد حاولت.

وبهذه الطريقة فإن أعدادا لا تحصى من الآباء الذين تضررت اتصالاتهم العادية بأطفالهم بواسطة التليفزيون، والذين «ينصرف» أطفالهم عنهم بانتظام حبا في جهاز التليفزيون (مثلما «ربطوا» أطفالهم أيام كانوا أصغر سنا)، يقدمون حاليا خدمات غير ضرورية لكي يظهروا حبهم وإخلاصهم، ويبينوا لأطفالهم بالأفعال لا بالقول أنهم يحبونهم وأنهم يريدون لهم السعادة. وهم يشعرون أن تلك هي الإمكانية الوحيدة التي بقيت لهم، يشعرون ، مادامت كلماتهم قد حلت محلها كلمات التليفزيون الإلكترونية.

تعلق اختصاصية العلاج النفسي للطفل، والاستشارية بإحدى مدارس نيويورك الخاصة على تأثيرات خدمة الأطفال:

إن من الطفولي جدا بالنسبة للأمهات أن يخدمن الأطفال، فيرفعن أطباقهم عن المائدة، ويحضرن لهم المشروبات والوجبات الصغيرة الخفيفة

في حين يجلس الأطفال لمشاهدة التليفزيون. فبعد أن يبلغ الأطفال السن التي يجب عليهم أن يبدأوا خلالها الاعتماد على الذات، ليس في وسعهم عمل شيء إلا مواصلة اعتبار آبائهم أفراد خدمة... طبعا، لا يرى الأطفال الرضع آباءهم كأفراد خدمة فهم يحتاجون إلى الرعاية. لكن حينما يطلب الأطفال في سن سبع أوثماني سنوات من آبائهم حسبما جرت بهم العادة إحضار كوب من الماء لأنهم يشاهدون برنامجا تليفزيونيا، ويذعن الآباء صابرين، فثمة شيء كريه يحدث.

وتلاحظ اختصاصية العلاج النفسي، من ناحية أخرى أن «الآباء نادرا ما يعرضون هذه النقطة كقضية. إنني فقط ألتقطها في أثناء الحديث. فهم سيصفون موقفا معينا ويذكرون أن فلانا طلب إحضار شطيرة ـ وأنه يشاهد التليفزيون ـ وأن فلانا هذا في العاشرة من عمره ! » وكان هناك قدر ما من العجب في صوت اختصاصية العلاج النفسي وهي تروي هذه الحادثة.

وتستطرد قائلة :« إن الآباء يشعرون بالذنب من جراء ترك أطفالهم يشاهدون التليفزيون بغزارة. ولذلك فهم يحاولون التعويض عن ذلك بخدمة الأطفال. ليست المسألة أنهم يحاولون إبقاءهم عالة على الغير، كما يفعل الآباء أحيانا، بل يبدو فقط أن هؤلاء الآباء لا يعرفون شيئا آخر يقدمونه. وبطريقة ما صاروا يرون أن من الواجب عليهم تقديم كل تضحية . وهذا ما يدهشني...»

الانطلاق

إذا عن للمرء البحث عن تأثيرات الانكماش الواسع النطاق في وقت الفراغ بين جيل الأطفال الذين كبروا مع التليفزيون، فإن فهم أهمية وقت الفراغ في حياة الأطفال سيفضي به إلى البحث عن علامات الاعتماد المتزايد. لقد بدأ عدد قليل من المراقبين المتمرسين في شؤون الطفل، بالفعل، ملاحظة هذه العلامات. فمثلا، لاحظ مؤسس ومدير مخيم ممتاز للأطفال في فيرمونت زيادة غريبة في الحنين إلى الوطن في منتصف الستينيات. لقد كان هناك على الدوام عدد محدود من نزلاء المخيمات الذين يعانون من الحنين إلى الوطن، إلا أنه بدا في ذلك الوقت أن وباء قد

أصاب المخيم. وكان المخيم قد توصل إلى ابتكار عدد من أساليب مقاومة الحنين إلى الوطن الناجحة، التي طبقت الآن بنجاح مماثل. وبرغم ذلك صارت الزيادة في معدل حدوث حالات الحنين إلى الوطن تشكل مشكلة سنة تلو أخرى. وحينما راجع المدير المسألة مع مستشارين من مخيمات أخرى، علم أنهم لم يصادفوا مشكلة مماثلة. وصارت المشكلة بمنزلة اللغز. وربما يمكن العثور على الإجابة في اختلاف بعض أوجه الحياة في المخيم الذي يختلف عن غيره من المخيمات.

وكان هناك في الواقع اختلاف كبير. فبينما كانت المخيمات الأخرى تملأ كل دقيقة من يوم النزلاء بالنشاطات المبرمجة، والراحة، والوجبات، نشر هذا المخيم بالتحديد بين برامج أنشطته أربعة أنصاف ساعة كان الأطفال خلالها أحرارا في متابعة اهتماماتهم الخاصة. وسميت هذه الفترات بفترات الانطلاق. فقد وضع مدير المخيم عن قصد برنامجا يجمع بين الأنشطة المبرمجة والفترات الشاغرة، اعتقادا منه أن الفرص التي توفرها فترات وقت الفراغ للأطفال تماثل في الأهمية فترات الأنشطة المبرمجة. وشعر المدير أن أي تطور تحقق خلال أشهر المخيم، اعتمد على انتشار الأطفال في فترات الانطلاق مثلما اعتمد على نجاحهم في الأنشطة المبرمجة. ومن ناحية ثانية، فلم يكن من العسير على المدير ومساعديه ملاحظة أن الحنين إلى الوطن كان على أشده خلال فترات وقت الفراغ تلك.

كان المخيم يدار بالأسلوب نفسه ، وبهذا النوع ذاته من المساعدين، طوال أكثر من عشرين سنة، كما أن نزلاء المخيم كانوا من أطفال الطبقتين المتوسطة والمتوسطة العليا. فلماذا في ذلك الوقت، بدءا من منتصف الستينيات، جعلت فترات وقت الفراغ أعدادا من الأطفال يشعرون بالضيق إلى درجة الحنين إلى الوطن؟

وبما أن أصغر أطفال المخيم كانوا في التاسعة من العمر، فإن أوائل أطفال التنشئة التليفزيونية يكونون قد وصلوا إلى المخيم في منتصف الستينيات. وكان هؤلاء الأطفال أقل تجربة بكثير فيما يتعلق بوقت الفراغ في حياتهم من الجيل السابق. وحين تعرضوا فجأة لجرعات منتظمة من وقت الفراغ، اتسم رد الفعل من جانبهم بالقلق والحنين إلى الوطن.

إن هناك علاقة بين حنين نزلاء المخيم إلى الوطن ونقص تجربتهم مع وقت الفراغ. فالحنين إلى الوطن هو دائما صيحة ضد الإفراط في الاستقلالية، صيحة من أجل العودة إلى وضع أكثر تبعية لايحتاج فيه الطفل إلى العمل كذات مستقلة. إنه يمثل اشتياقا للعودة إلى الجماعة الأسرية الدافئة المريحة التي كان الطفل فيما مضى عضوا مكملا طبيعيا وحقيقيا لها، والتي لابد لجميع الأطفال، ذات يوم، من أن يحرروا أنفسهم منها انفعاليا إذا شاءوا أن يكبروا بنجاح.

حين تتقلص فرص الأطفال في شغل وقت الفراغ، فمن المرجح أن يظلوا في حالة اعتماد داخلي صامت. وفي الوقت الذي تمتلئ حياتهم بالبرامج التي ينسج الكبار خيوطها على شاشة التليفزيون، لن يكون اعتمادهم ظاهرا، فقد أريحوا من الحاجة إلى العمل بطريقة مستقلة. غير أن الأطفال الذين يضطرون لمواجهة حالة غير محسوبة، مثلما حدث لأطفال المخيم الذين عانوا من الحنين إلى الوطن، سيجدون أنفسهم بلا حيلة، وستتكشف تبعيتهم أمام الآخرين.

«قانون جريشام» جديد لنشاط الطفل(*)

ما أسهل أن يغني الناس تمجيدا لوقت فراغ الأطفال وأن يحضوا الآباء على إغلاق أجهزتهم التليفزيونية. لكن حقيقة وقت الفراغ هي التي تجعل من الصعوبة بمكان على الآباء أن يلتزموا بتصميمهم على تحديد الوقت الذي يقضيه أطفالهم في مشاهدة التليفزيون.

إن الموقف الذي يواجه الآباء المعاصرين عند إغلاق جهاز التليفزيون كثيرا ما يثبت أنه مثبط للعزيمة. فبعد أن يحلم الآباء بأن أطفالهم قد تحولوا فجأة إلى أطفال العصر الفيكتوري الذين يمارسون الهوايات والمغامرات المأمونة، ينتابهم الحزن وهم يرونهم يتسكعون لايعملون شيئا. فمن خلال وسائل عديدة فظة يرفض الأطفال ضروب النشاط الجميلة، الإبداعية التي من المفترض أن يملأوا بها الفراغ، ويدعون آباءهم في تحد إما إلى تسليتهم بأنفسهم أو الخضوع وتركهم يشاهدون التليفزيون. فهل يرجع تدني قدرة الأطفال على استثمار وقت الفراغ جزئيا أو كليا اليوم إلى

(*) A New Gresham's Law of Child Activity

تجاربهم التليفزيونية المبكرة؟ وهل يواجهون صعوبات في مقارعة الملل تفوق ما كان لدى أطفال ما قبل عصر التليفزيون؟

يبدو أن ضربا من قانون جريشام لنشاط الطفل Gresham's Law of child Activity يعمل هنا: سوف تطرد وسائل التسلية السلبية الوسائل العملية. فبما أن وسائل التسلية السلبية تستلزم مجهودا أقل مما هو الحال مع الوسائل العملية، فإن الطبيعة البشرية تفرض واقع أن من الأفضل، في حالة تساوي جميع الظروف، عمل الشيء الأسهل وليس الأصعب.

راقب طفلة تلعب بشاحنة خشبية بسيطة أهديت لها قاطرة ميكانيكية معقدة. فبينما كانت مضطرة من قبل إلى تسلية نفسها بدفع المركبة الرمزية لتدور على أرض الحجرة، وترسم لها مسارا عبر الأثاث وخارجه وحوله (مستخدمة مؤثراتها الصوتية الخاصة)، فها هي الآن تشاهد اللعبة الجديدة بافتتان، مندهشة من الدخان المنطلق من المدخنة، مسحورة بإيقاع توت ـ توت الصادر عن المحرك، مبتهجة بقدرة هذه اللعبة على دفع نفسها إلى الأمام وإلى الخلف.

إلا أن ابتهاج الطفلة باللعبة الجديدة سرعان ما يبدأ في التناقص بعد فترة قصيرة. فاللعبة الآسرة، برغم كل شيء تؤدي مجموعة محددة من الأفعال: تتحرك، وتنفث الدخان، وتطلق توت ـ توت. وتنتزع الطفلة آخر لحظة من التسلية من اللعبة عن طريق تفكيكها إلى أجزاء لترى كيف تعمل. وتنتهي اللعبة.

أما لعب الطفلة بالشاحنة الخشبية البسيطة فلا يؤدي إلى تعويد مماثل لأن نطاق نشاطاتها يحدده فقط خيالها الخاص.

غير أن الجانب المزعج في قانون جريشام لنشاط الطفل يصبح جليا. فعلى الرغم من أن جاذبية الشيء الميكانيكي قصيرة الأمد، فإن ثمة جانبا إجباريا يتعلق بالمتعة السلبية التي تمنحها للطفل إلى حد أن إغراء لعبة أخرى تتطلب مشاركة فعلية، يتناقص. وحين تتحطم اللعبة الميكانيكية، فليس من المرجح أن تعود الطفلة إلى الشاحنة الخشبية. فذلك النوع من اللعب يبدو مملا بعض الشيء وخاليا من المتعة، وأصعب قليلا الآن. فلكم يبدو دفع شاحنة حول المنزل والتظاهر بأنها واقعية شيئا سخيفا، في حين أن قاطرة مطلية بالألوان ذاتية الحركة أكثر واقعية إلى حد بعيد!

إن الطفلة لن تفضل فحسب هذه اللعبة الميكانيكية الخاصة على اللعبة الرمزية التي تتطلب مجهودا أكبر وقصد بها أن تحل محلها، بل إنها ستميل في المستقبل إلى تفضيل العمل السلبي على العمل الأكثر نشاطا. فتجارب اللعب السلبي تجعل اللعب النشيط أقل جاذبية حتما، وبالتالي تجعل حدوثه أقل احتمالا بصورة تلقائية.

لكن جهاز التليفزيون هو اللعبة الميكانيكية الوحيدة التي لا تؤدي بسهولة إلى التعويد والملل، برغم أن انغماس الأطفال معه يتسم بالسلبية كما هو الحال مع أي لعبة ميكانيكية أخرى. فالتليفزيون تصدر عنه أصوات وحركات قصيرة يتابعها الطفل في عجب ودهشة لكن الحركات والأصوات لا تتكرر بكثرة كلعبة القطار، ولذلك يمكن للطفل المشاهد أن يحتفظ بالعجب والافتتان إلى ما لانهاية تقريبا.

بيد أنه مثلما تغير اللعب الميكانيكية علاقة الأطفال باللعب الرمزية، تغير المتع السلبية للمشاهدة التليفزيونية علاقتهم بوقتهم الخاص. فالمتع القوية لتلك التجربة المأمونة، غير المجهدة، ذات التسلية المستمرة تجعل المتع التي تمنحها وسائل التسلية العملية تبدو أشبه بالعمل إلى حد بعيد.

ولا يعني ذلك أن الأطفال الأسوياء سيربضون أمام التليفزيون طوال اليوم مفضلين ذلك على لعب البيسبول أو الذهاب مع أبيهم إلى إحدى اللعبات، أو صنع كعكة شيكولاته أو الاشتراك في بعض أوجه النشاط الأخرى التي تروق لهم.

ذلك أن أنشطة معينة ستربك قانون جريشام لنشاط الطفل بفضل جاذبيتها الخاصة: الرحلات والأنشطة الخاصة، لاسيما مع الآباء، والرياضة والألعاب المحبوبة، ووجوه النشاط التي تتداخل مع اهتمامات الطفل الخاصة. غير أنه يتعين على هذه النشاطات أن تكون جميلة بكل ما في الكلمة من معنى، وإلا فإن التليفزيون موجود دائما.

تشكو إحدى الأمهات: «التليفزيون يقتل وقت أطفالي. أفكر في أنهم ينبغي أن يفعلوا أي شيء بدلا من مشاهدة التليفزيون. لو أنني وجدت لهم شيئا يحبون عمله وشاركتهم في العمل، فسيكونون سعداء تماما. سوف يفضلون ذلك على مشاهدة التليفزيون. كل ما في الأمر أن الجهد الذي يبذلونه في مشاهدة التليفزيون أقل بكثير من التفكير في أي شيء. ولذلك

فإنهم إن لم يجدوا شيئا خاصا يعملونه، مثل إعداد زي الهولوين(*) أو حتى الذهاب إلى بيت صديق، صارت الفكرة الأولى هي مشاهدة التليفزيون».

وتقول أم أخرى: «إن ما أجده لدى طفلي الذي يبلغ السابعة من العمر إنما هو المبرر التليفزيوني، أي مجرد وجود التليفزيون حين لا يعرف ماذا يفعل بوقته، أو في يوم لا يأتي إليه صديق آخر لمشاركته اللعب، وهو ما يمنعه من التفكير في عمل شيء. وبدلا من ذلك ستنتابه الرغبة في الجلوس أمام التليفزيون لمجرد استقبال ما يصدر عن الجهاز. وذلك أقسى شيء لي فيما يتصل بالتليفزيون. لو لم يكن التليفزيون هناك، لو لم يوجد، لما تعرض الطفل لتلك المشكلة».

تلاحظ أم لطفل في الخامسة: «طفلي ليس من نوع الأطفال الذين يثورون أو تنتابهم نوبة غضب. كل ما في الأمر أنه سيقطب جبينه ويشعر بالضجر. وأنا أجد صعوبة شديدة في تحمل ذلك. ويضايقني التفكير في عجزه عن الإفادة من وقته. إن وجود التليفزيون هو العذر. فهو يعرف في قرارة عقله أنه حين يصل فعلا إلى الدرك الأسفل يستطيع الذهاب إلى ذلك الجهاز التليفزيوني».

ولاحظت معلمة تُعد حجة في ميدان الطفولة المبكرة، من واقع خبرتها لمدة أربعين سنة كمدرسة ومديرة، تغيرا في سلوك الأطفال منذ دخول التليفزيون. وهي تشرح ذلك بقولها: «يتمتع الأطفال الصغار في أيامنا هذه بحصيلة معرفية أكثر تعقيدا ناجمة عن مجمل احتكاكاتهم بالعالم الخارجي عبر التليفزيون، لكن الحصيلة المعرفية والنضج ليسا الشيء نفسه.

فالأطفال اليوم أقل نضجا غالبا من حيث قدرتهم على تحمل الإحباطات الصغيرة، أو إدراك أن شيئا ما يستغرق وقتا أطول لعمله، وأنه ليس ابن لحظته. وهم لا يتحملون الانهماك في عمل يبدو على شيء من الصعوبة في البداية، أو تنقصه الإثارة على الفور. إنني أمضي وقتا كثيرا في المدرسة قائلة للأطفال إن عليهم أن يشاركوا في ضروب النشاط ويجربوا عمل الأشياء حتى إن بدا الأمر غير شائق بما فيه الكفاية في بادئ الأمر».

ويلاحظ مدرسون آخرون أن الأطفال الصغار اليوم يجدون صعوبة أكبر في العمل بأنفسهم مما كان عليه حال نظرائهم في عصر ما قبل

(*) عشية عيد جميع القديسين Halloween: مساء أو ليلة 31 أكتوبر.

التليفزيون، وأن هناك حاجة مستمرة للإشراف أو التسلية من جانب الكبار.

وسواء أكان الأطفال قد اعتادوا الإشباع المباشر عبر جهاز التليفزيون إلى حد ضمور قدراتهم على تسلية أنفسهم، أو أن النقص الطبيعي في التجربة المتصلة بوقت الفراغ أدى إلى تخلف قدراتهم، فإنه يبدو واضحا، مع ذلك، أن الأطفال في الوقت الراهن يعانون صعوبة أكبر من أطفال العهود السابقة في قضاء وقت الفراغ.

فحين لا تتوافر تلك النشاطات الخاصة، الأثيرة (كما هي الحال غالبا، وهو ما يجعلها خاصة ، إلى هذا الحد)، فليس من المرجح اليوم أن يوسع الأطفال اهتماماتهم بتجربة شيء جديد. إنهم لن يقوموا بتلك الخطوات المتهورة لمقارعة الملل التي شعر أطفال الماضي بالحاجة إلى اللجوء إليها: ابتكار اللعبات، اللعب الإيهامي، القراءة، وإعادة القراءة، والكتابة إلى أصدقاء القلم، ممارسة الهوايات ـ وهي نشاطات تستحوذ على الطفل وتعزز نموه. فمع وجود مصدر للتسلية السلبية في كل بيت، متاح بسرعة للطفل عند أول علامة من علامات الملل، يصبح وقت الطفل خاضعا باطراد لسيطرة هذه الفعالية الوحيدة المعطلة للوقت.

المرض كحدث خاص

كانت هناك مناسبات في حياة جميع الأطفال تقريبا قبل ظهور التليفزيون يجدون خلالها في مواجهتهم مساحة كبيرة من وقت الفراغ غير المتوقع: تلك هي الأيام التي لا مناص منها حين يبعد المرض الأطفال عن برنامج نشاطاتهم العادي.

إن معظم الكبار الذين شبوا عن الطوق قبل التليفزيون يحملون إلى اليوم ذكريات عميقة عن أسقام طفولتهم.

تتذكر إحدى الأمهات: «كانت أمي تعمل أثناء طفولتي، لكنها كانت حين يعتريني المرض تمكث في البيت لعدة أيام على الأقل. ولذلك فإنني أتذكر تلك الأوقات جيدا. أتذكر ألعاب الورق المتصلة، ولعبة «الجلاد» مئات المرات، وقص الصور من المجلات معها. أتذكر الرقاد في الفراش والنداء عليها كي تحضر لي هذا الشيء أو ذاك، مرارا وتكرارا. وأتذكر كم كان رائعا أنها كانت توافيني دائما! أظن أنني أرهقتها، لكن تلك الذكرى مهمة جدا لي

حتى هذا اليوم».

ويروي أب آخر: «أتذكر كيف كنت أشعر بالملل بشكل موجع حينما كنت أمرض. لكن ذلك الملل كان أحيانا يفضي إلى نشاطات غريبة. كنت أؤلف القصص وأرسمها، بدافع القنوط المحض. كنت أقرر أن أتعلم الفرنسية بقراءة قاموس اللغة الفرنسية (وصلت إلى الصفحة الثالثة فقط). أو كنت أفحص بعناية ألبومات الصور القديمة وأستغرق في أحلام اليقظة عن الحياة في الأيام الخوالي».

إن من اللافت للنظر أن مشقات المرض الجسدية الحقيقية كثيرا ما تغيب عن ذكريات الطفولة هذه، على الرغم من أن الأعراض والتغييرات الذهنية المصاحبة لها تسيطر على مرض الطفل: الحمى، الغثيان، الضعف ، السعال، الحكاك، الألم، وما يرافقها من تململ، وعدم أمان، واكتئاب، وغير ذلك من الانحرافات، أو المبالغات الخاصة بحالة الطفل الذهنية الطبيعية.

غير أنه في حين تتريث ذاكرة الكبار عند الجانب الرومانسي لأسقام طفولتهم ـ بالتأكيد على الإخلاص الوالدي، والقلق الإبداعي الذي توحي به في أحيان كثيرة ـ فإن تلك الأسقام كانت حقيقة مرهقة لآبائهم في ذلك الوقت. لقد شعر الآباء دائما بالجزع أثناء الأيام التي عانى خلالها أطفالهم من المرض. إن أشد ما يؤلم الآباء هو معاناة القلق الطبيعي الذي يثيره مرض الطفل، باعتباره تذكرة قاسية لقابلية الطفل المحبوب للمرض والوفاة. كما تضاعف عودة الطفل المفاجئة إلى التبعية وحاجته الملحة إلى الرعاية المستمرة الشعور بالكدر لدى الآباء. وتختلط بثبات مشاعر الشفقة والعطف لدى الآباء تجاه تعب الطفل بنفاد الصبر والإجهاد من السلوك الصعب الذي يتعين عليهم مواجهته مؤقتا.

لقد غير التليفزيون تجربة المرض فيما يتصل بالآباء والأطفال في أمريكا تغييرا جذريا. إنه عقار أكثر فاعلية من الأسبرين في تخفيف أعراض المرض.

فالتليفزيون يجعل الوقت يمضي بسرعة أكبر، ويتيح للأطفال تركيزا أقل على المغص، والوعكة، والحكاك، أو أي تعاسة تصيبهم بسبب هذه البلية. ويشعر الآباء بارتياح شديد بعد أن تحملوا عبء مساعدة أطفالهم

على تمضية الوقت وصرف أذهانهم عن متاعبهم الجسدية. لقد انتهت احتياجات الآباء المرهقة إلى الوقت والصبر وما في ذلك من قراءات قصصية لاتنتهي، وألعاب ورق مضجرة، وإصغاء إلى الشكايات المنتحبة ، والحاجة المطردة إلى كبت نفاد الصبر، وتأكيد التعاطف، والتصرف بطريقة أكثر رقة من أي وقت مضى.

غير أنه مهما كان المرض مرهقا وبغيضا، فإن الوقوع فريسة له كان من غير شك حدثا خاصا في أيام ما قبل التليفزيون. فقد كان لدى الأطفال آنذاك أشياء خاصة يفعلونها، وعلاقات مميزة مع الآباء والأقارب. وأتاحت خصوصية المرض للأطفال بطريقة غريبة تحديد معنى المعايير الطبيعية للحياة، وساعدهم طول الوقت في فراش المرض على تطوير فهم مبدئي للعلاقة بين الزمن والنشاط. وكثيرا ما كشفت الفرص التي أتاحها المرض للأطفال من أجل علاقة أكثر تعمقا مع الوالدين عن جوانب جديدة من شخصية كل منهم للآخر. وخير الأمور، من وجهة نظر الطفل، حين يداهم المرض، هو التوقف المؤقت للعراك المعتاد بين الإخوة. ولم يعد الآباء يتجشمون المتاعب لكي يعدلوا فيما يتعلق بتخصيص الوقت أو العاطفة، فالمرض كان خاصا، وكان في وسع الوالدين منح الطفل المريض جرعات هائلة من الوقت والحنان بلا خوف من إثارة غيرة تتسم بالتمرد لدى إخوته (في الحقيقة ، كان يجري كبح هذه الغيرة فحسب، فهي شيء لا يهدر على الطفل المريض ويختزن في ذاكرة لاحقة).

منذ ظهور التليفزيون، صارت الأوقات التي يمرض فيها الأطفال خاصة فقط بقدر ما يسمح لهم بمشاهدة تليفزيونية أكثر من السابق.

تقول أم اعتادت تحديد المشاهدة التليفزيونية لأطفالها: «حين يمرض الأطفال فمن الملائم أن أدعهم يشاهدون كل ما يريدون، وإلا فإنني سأضطر لأن أقرأ لهم طوال اليوم. إنه تعويض طفيف لهم عن الوقت البائس الذي هم فيه».

وتعلق أم أخرى:« حين يمرض الأطفال ـ وبقدر ما يتعلق الأمر بالتليفزيون ـ فالوقت مسموح به. إننا نميل إلى التشدد عادة بشأن التليفزيون ، غير أنني حين يمرض الأطفال أشعر بأن من الضروري أن يحصلوا على متعة خاصة، بطريقة أو بأخرى». وتضيف في تفكير عميق: «من الغريب إلى

حد ما أن تحصل المتعة من شيء لا أوافق عليه عادة. غير أن عدم السماح لهم بالمشاهدة فكرة مغرية جدا».

إن من قبيل القسوة ألا نقترح على الأب ا لذي يواجه شدائد التكيف مع طفل عليل أن يستغل وسيلة ميكانيكية مساعدة لتسهيل المهمة. لكن على الآباء أن يفكروا مليا في عواقب ذلك على الطفل. ذلك أن حدثا خاصا من أحداث الطفولة أضحى عاديا وعرضة للنسيان، وضاعت فرصة تدعيم العلاقات الأسرية. وفوق ذلك، فقد بولغ في إضفاء الغرابة وعدم الواقعية على المرض بواسطة ساعات من الخيال التليفزيوني. وبرغم أن مهمة الآباء صارت أسهل، فإنه ليس هناك خلاف عدا أن تلك القصص التي كانت تقرأ، وألعاب الورق التي كانت تلعب، وتلك الأوقات الهادئة معا تغني حياة الطفل وهي خسارة خاصة لأطفال الأسرة اليوم، حيث يعمل الوالدان كلاهما في أغلب الأحيان، وتقلصت إلى حد كبير فرصة الأطفال في الحصول على تجارب خاصة مشتركة مع الآباء المنشغلين.

اختفاء «الحياة الواقعية»

كان من المتوقع في الماضي القريب أن يكون الأطفال مشاركين سلبيين في تجاربهم المدرسية. وكانت الفكرة المعتادة أن لدى المدرس مجموعة من المواد لتدريسها، وأن على الأطفال أن يتشربوا هذه المواد كجزء من عملية تسمى «التعليم» ،وفي هذه العملية ذات الاتجاه الواحد كان أي نشاط من جانب الأطفال عدا ذلك النشاط الموجه من المدرس بخاصة يعتبر غير ملائم.

وقد اعتمد جانب كبير من نجاح هذا النظام التربوي على شخصية المدرس، فإذا كان المدرس واسع المعرفة والخبرة، وعطوفا، ومالكا لتلك القدرة الكاريزمية التي يتعذر تعريفها وتميز المدرسين والممثلين الموهوبين، فإن الأطفال، كجمهور مسرحية ناجحة، سيحاولون عندئذ التكيف مع أي متطلبات سلوكية صارمة وبذلك ينجحون في تشرب المعلومات المطلوبة. وإذا لم يمتلك المدرس أيا من هذه المواهب، فلن يتحقق إلا النزر اليسير جدا من التعلم.

حين كان جرس الانصراف يدق كان الأطفال يخرجون من المدرسة في

الماضي مندفعين إلى الشارع كالمجانين. وخارج حجرة الدرس، كانوا يجرون، ويلعبون، ويحلمون، ويدبرون المكائد، ويخططون، ويصرخون، ويلقون بالأحجار في الماء، ويشعلون النار، ويقيمون الأسوار، ويخبزون الكعك، ويتدحرجون في الوحل، لاعبين على هواهم. وفور انتهاء المدرسة، كان الأطفال ينصرفون إلى نشاطهم الخاص.

أما في غضون العقد الفائت فقد طرأ تغير في حجرة الدرس. إذ صار يجري تشجيع الأطفال على المبادرة، والاكتشاف ، والممارسة اليدوية، وتحولت عملية التعليم ذات الاتجاه الواحد إلى موقف تفاعلي بين المدرس والطفل. وما عاد الأطفال مقيدين بمبادئ سلوكية جامدة بل سمح لهم بحرية الحركة، والتخاطب فيما بينهم، أو بينهم وبين المدرس بطريقة مألوفة خلال أنشطتهم المدرسية. ويعتمد نجاح هذا الأسلوب التربوي بصورة أقل على الشخصية الكاريزمية للمدرسين وبصورة أكبر على ذكائهم وحدسهم، فضلا عن الأجهزة المتاحة في حجرة الدرس من أجل استخدامات الأطفال واستكشافاتهم. وكما كانت الحال في الماضي، يتعلم بعض التلاميذ ويقاوم البعض الآخر، لكن الأطفال في كلتا الحالتين يقضون يومهم المدرسي في حالة من النشاط أكثر ألفة.

إن الجو عند الساعة الثالثة اليوم أكثر هدوءا. فلم يعد الأطفال عند خروج المدرسة يسلكون سلوك حيوانات تخرج من الأقفاص. ويبدو أنهم قد تخففوا في حجرات الدرس التي تتمركز حول الطفل من قدر ملائم من الطاقة.

غير أن النشاط بالنسبة لكثير من هؤلاء الأطفال يكون قد انتهى تقريبا ذلك اليوم. ويتجه هؤلاء الأطفال إلى البيت لكي يقبعوا أمام أجهزة التليفزيون. وها هم يشاهدون ما تعرضه الشاشة ويتشربون الصور، والكلمات، والأصوات بطريقة سلبية ساعة بعد ساعة، كما لو أنهم في حلم.

وقد يبدو أن المسألة متكافئة. فإذا كانت المدرسة قد أصبحت تجربة نشطة، فلماذا إذن لا ينبغي أن يمضي الأطفال ساعات سلبية قليلة في مشاهدة التليفزيون؟ والجواب هو أنه مهما كان موقف المدرسة متمركزا حول الطفل و«حرا»، فإنه لايزال منظما ومتمركزا حول هدف. ليس للأطفال

حرية الاختيار وحرية التحكم في وقتهم الخاص الذي يمتلكونه بعد المدرسة، حين يمكنهم أو لا يمكنهم أن يلعبوا إحدى اللعبات، وحين يكون في وسعهم إلقاء الأحجار أو عدم إلقائها، والاستغراق أو عدم الاستغراق في أحلام اليقظة. وبرغم أن الساعات في حجرة الدرس الحديثة قد تكون أكثر نشاطا، وتسلية، وأقل تنكيلا وكبتا مما كانت عليه حجرة الدرس القديمة، فإن أطفال المدرسة ظلوا عرضة للتأثير فيهم في اتجاهات معينة، بواسطة المدرس، ومن خلال الأجهزة في حجرة الدرس، وعن طريق تنظيم وقت اليوم. فإذا قضوا وقتهم غير المدرسي في مشاهدة التليفزيون، كان ذلك الوقت أيضا منظما ومبرمجا بالفعل لهم. فمتى ـ إذن ـ سيعيشون حياتهم الواقعية الحقيقية؟

١٤ آباء مدمنون

هبط التليفزيون على مسرح حياتنا هبوط «الإله من الآلــة»(*) deus ex machina لمسـاعـدة الآبـاء المحاصرين على الخلاص من مشاق تربية الطفل الحديث. غير أنه مع حلول التليفزيون محل الاستراتيجيات الأخرى، وجد الآباء أنفسهم عاجزين أكثر فأكثر عن تربية أطفالهم من دون اللجوء إلى استعماله.

تعترف أم لثلاثة أطفال: «إنني أخشى ألا يكون لدي جهاز تليفزيون، وإن كنت أعرف أن من المحتمل أن يكون الأطفال أفضل حالا من دونه. ماذا يمكنني عمله لو احتجت إليه؟ ستنهار أعصابي ببساطة. لا أستطيع تدبير الأمور من دونه. لقد أدمنت استعماله».

لماذا يدمن الآباء؟

يشترك عاملان في جعل الآباء يدمنون استعمال التليفزيون: قدرته الفريدة على تهدئة الأطفال ووجوده الجاهز.

(*) الإله من الآلة deus ex machina : في المسرحية اليونانية القديمة هو الإله الذي كان يهبط بالحبال أو غيرها على ساحة المسرح لينقذ البطل أو يحل العقدة حلا مصطنعا ...(معجم مصطلحات الأدب ـ د. مجدي وهبه).

وقد يبدو جليا أن الأطفال حين يشاهدون التليفزيون يقل إزعاجهم للمشرفين عليهم عما لو كانوا يشاركون في لعب عادي. ومع ذلك فقد تم إعداد وتنفيذ دراسة بحثية للتحقق من صدق هذه الفرضية.

وعرضت الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية: هل يكون الأطفال أكثر هدوءا في أثناء مشاهدة التليفزيون منهم في أثناء اللعب؟ ما هي ضروب النشاط التي تشغلهم خلال المشاهدة التليفزيونية قياسا إلى ألوان النشاط التي تحدث في أثناء وقت اللعب الاعتيادي؟ هل هناك حاجة أقل إلى رقابة وإشراف الآباء خلال المشاهدة التليفزيونية منها في أثناء اللعب؟

لقد زار فريق من المراقبين المدربين الأطفال الصغار في بيوتهم وقارنوا سلوكهم في أثناء مشاهدة التليفزيون بتصرفهم خلال اللعب مع أطفال آخرين. وقد لوحظت الأفعال التالية وجرى تسجيلها عند ظهورها، إما في أثناء مشاهدة الطفل للتليفزيون أو في أثناء لعبه: التحدث، الضحك، الصياح، الجلوس، المشي، الجري، الإثارة الذاتية (حك الجسم، العبث بالشعر، مص الأصبع... الخ)، الاعتداء على شخص آخر، اللعب التخريبي، ترك الحجرة. ولوحظ أيضا سلوك ضابط من جانب الأم عند حدوث ذلك.

وكشفت نتائج الدراسة حدوث سلوكيات مختلفة جديرة بالملاحظة خلال كل حالة ـ المشاهدة واللعب. وأثبتت المشاهدة التليفزيونية أنها ترتبط بجلوس أكثر، ومشي أقل، ومحاولات أقل لترك الحجرة، وعدوان أقل تجاه الآخرين، وما هو أكثر أهمية، حاجة أقل إلى التدخل الوالدى[1].

إن الوجود المحض لجهاز التليفزيون عامل مهم في تزايد اعتماد الآباء عليه. فالجهاز موجود في كل الأوقات، في كل بيت (وأحيانا في كل حجرة). وحين يواجه أحد الوالدين بسلوك مزعج من جانب الطفل، يكون إغراء اللجوء إلى التليفزيون قويا، وأقوى إلى حد بعيد مما لو لم يكن الجهاز قريبا إلى هذه الدرجة، وسهل الاستعمال، وسريع التأثير.

تروي أم لطفلين صغيرين من مدينة نيويورك:

«إن زوجي، أكثر قلقا مني بالتأكيد فيما يتعلق بمشاهدة الأطفال للتليفزيون. وهو يعتقد أن التليفزيون يحول بينهم وبين التفكير. حسنا، ربما كان على حق، لكني أظن أن البقاء مع الأطفال طوال اليوم يجعل موقفك مختلفا عما لو كنت تراهم في المساء فقط. فلو كان نهارك محموما ويريدون

هم الذهاب إلى حجرتهم ومشاهدة التليفزيون وتركك وحدك، حسنا، أنت لن تقول لا تفعلوا هذا. إن ذلك ليس مفيدا فكريا أو عقليا، إنك ستقول، إنني أريد بعض الهدوء. أعتقد أن ما أقوله لن يكون مفهوما لك ما لم تقض اليوم بطوله مع الأطفال. أما زوجي فسيقول: لا ينبغي أن تخضعي على هذا النحو. لقد وضعنا القواعد فيما يتعلق بالتليفزيون وعليهم أن يلتزموا بها. لكن الرجال الذين لايمضون اليوم كله مع الأطفال لا يفهمون حقيقة الحال. أحيانا حين تشعر بالإنهاك، يكون من السهل كثيرا أن تخضع».

وتصف أم عاملة لديها طفل في الثالثة موقفا مشابها:

«أعود إلى البيت في الخامسة إلا الربع، وأنا مرهقة فعلا وأحتاج فقط إلى أن أجلس ، وأتفحص بريدي، وأرتمي لدقائق قليلة قبل أن أعالج بعض الأمور مع ابني. ويتيح برنامج «مستر روجرز» لي ذلك. فهو يعرض في الساعة الخامسة. وأنا أستثمر ذلك البرنامج لإعطائي فسحة قصيرة من الوقت عقب العمل، على الرغم من أنني أوافق في الحقيقة على أن مشاهدة التليفزيون ليست جيدة لأطفال ما قبل سن المدرسة، وأقول للآباء في مدرستي الشيء نفسه دائما. لكن مستر روجزر أفضل من برامج أخرى. يعجبني التركيز على زاوية قيمة الذات. ومع ذلك، فليس هذا هو السبب بصدق الذي يجعلني أفتح التليفزيون».

كيف يدمن الآباء؟

تكشف المقابلات مع الأمهات نموذجا من الاعتماد المتزايد على التليفزيون كوسيلة لتنشئة الطفل. ويحدث هذا حتى عندما لاتشرع الأم في استعمال التليفزيون ليتلاءم مع أغراضها الخاصة بل تستخدمه من أجل الطفل وحده.

تقول أم من دنفر لديها طفلتان في سن ما قبل المدرسة:

حين بدأت تشغيل التليفزيون لأول مرة لأجل الطفلتين، لم يكن ذلك من منطلق الحاجة، بل لأني ظننت أن تلك الفكرة ملائمة. كنت أشغل جهاز التليفزيون وأقول جاء وقت عرض «شارع السمسم»، حتى لو كان ذلك يعني مقاطعة الطفلتين في أثناء اللعب. لم تكونا في حاجة إلى استمالتهما إلى المشاهدة. كانتا تستمتعان بذلك، وكثيرا ما كنت أشاهد معهما.

لكن التليفزيون أخذ مظهرا مختلفا في بيتنا بعد فترة. كان التغير طفيفا، لكني حين أستعيد ما جرى الآن، يتضح لي أن تغيرا حقيقيا قد حدث. أظن أن ذلك يرجع إلى أنني أكتشفت كم كان التليفزيون وسيلة تسلية يمكن الوثوق بها، أكثر من أي وسيلة أخرى. وبعد فترة حين كانت تجد أمور منزلية ملحة وصغيرة جدا ـ كأن يتعين عليّ أن أتحدث بالهاتف مع شخص ما، أو حينما كان أحد الأشخاص يأتي إلينا بغتة، أو عندما كان زوجي يتصل ليقول لي إنه سيحضر شخصا معه على العشاء ـ كنت، في مثل تلك الأثناء، أتجه إلى التليفزيون طلبا للمساعدة.

وأدركت فجاة أنني ماعدت أستعمل التليفزيون كتجربة أقدمها للأطفال، وإنما كشيء له قيمه لي. غير أنه كان من الصعب في ذلك الوقت أن أغير طريقة عملي. ولم أعد مضطرة لأن أذكر الأطفال بأن موعد برنامجهم قد حان، أو أقاطعهم أثناء اللعب. لقد أرادوا في الواقع المشاهدة ورفضوا تماما البحث عن وسائل أخرى للتسلية حين كنت لا أستطيع اللعب معهم بنفسي».

وتكشف أم أخرى عن تناقض مماثل بشأن استعمال التليفزيون:

عندما بدأ روبي مشاهدة شارع السمسم، كنت أنا التي شرعت في ذلك. إنه يذهب إلى المدرسة بعد الظهر، وكان يشاهد «شارع السمسم» في الصباح، من التاسعة حتى العاشرة، حسبما أذكر. وقد أردته أن يشاهد البرنامج. وفكرت في أنه برنامج جيد، وأنه سيتعلم الأعداد ـ وتلك مسألة تربوية كما تعلمون. وبعد ذلك، حينما توقفت عن العمل، وصرت أمكث في البيت في أثناء الصباح، كانت الساعة التي يمضيها في مشاهدة التليفزيون رائعة بالنسبة لي. فقد كان حصولي على تلك الفسحة من الوقت راحة لي بكل معنى الكلمة. وتلك هي بالتحديد نظرتي لها. إنني أقصد أن الأعداد، وكل تلك الأشياء الأخرى، أيضا، كانت مفيدة، ولكن....

وفي حين أن بعض الأمهات يضعن أطفالهن للمرة الأولى أمام التليفزيون من أجل مصلحة الطفل أساسا، نجد الوالدين في أغلب الحالات يبدأون في استعمال التليفزيون في بحث صريح عن الراحة. وهم يتطلعون باشتياق إلى تلك الساعات من الهدوء إلى حد أنهم أحيانا يدفعون الطفل دفعا إلى المشاهدة.

وتستعيد أم إيان ، ذي السنوات الست، وإيما، ذات السنوات الأربع، ذكريات بداية من هذا القبيل:

بدأ إيان مشاهدة التليفزيون للمرة الأولى حين كان في الثانية إلا أنه لم يدمن المشاهدة حقا إلا حينما بلغ ثلاث سنوات. في بادئ الأمر أخافته برامج كثيرة، حتى إن شارع السمسم كان عنيفا جدا بالنسبة له ورفض مشاهدته. إلا أنه كان راغبا في مشاهدة كابتن كانجارو، وأظن أنني شجعته على مشاهدته. كنت أكره أوقات الصباح وكانت تلك هي الطريقة التي أتيح بها لنفسي بعض الوقت لإطعام الطفل والحصول على الهدوء أثناء مشاهدته «كابتن كانجارو» . ولم أستطع أن أقاوم ذلك.

كان من المستبعد أن تزدري أم إيان المنافع التي يقدمها التليفزيون لها، مثلما كان من المستبعد أن تقلع عن الإفادة من خدمات ماكينة غسيل الملابس الخاصة بها مفضلة على ذلك تنظيف غسيلها على صخور أقرب جدول للمياه. إلا أنه كان هناك ثمن يتعين دفعه، وهو ثمن لم تتكهن به حين كانت تنعم بالهدوء والسكينة، فاليوم يفضل إيان مشاهدة التليفزيون على عمل أي شيء آخر.

ففي الوقت الذي يعتمد الآباء على التليفزيون أكثر فأكثر إلى أن يجدوا أنهم لايستطيعون تدبير الأمور من دونه، يتسلل التليفزيون ببطء إلى الحياة الأسرية.

ويكتشف الآباء في انزعاج ذات يوم أنهم فقدوا السيطرة على مشاهدة أطفالهم التليفزيونية.

بدأت هيلين س.، وهي موسيقية غير متفرغة وأم، استعمال التليفزيون كمسكن جاهز للطفل في أثناء إعدادها للعشاء. وها هي تصف نشوء إحدى المشكلات التليفزيونية الخطيرة:

في ذلك الوقت كانت كيتي وجون مازالا صغيرين، حوالي سنتين وثلاث سنوات، وتقتصر مشاهدتهما على «مستر روجرز». وكان جدول عشائنا بكامله قد وضع ليتوافق مع ذلك البرنامج، بحيث يتعين أن يكون العشاء جاهزا في الخامسة والنصف بالضبط وهو وقت انتهاء البرنامج. وكان ذلك وقتا لطيفا مفيدا أتر كهما فيه لمشاهدة التليفزيون. كنت أنا التي فتحت الجهاز في ذلك الوقت، ولم أفتحه في أي وقت آخر. لكن ذلك

البرنامج كان ملائما جدا. ثم جاءت فترة شاهدا خلالها شارع السمسم ومستر روجرز. ولم يتضح لي أن تلك المشاهدة التليفزيونية كانت أكثر مما ينبغي. غير أنه بعد ذلك بقليل جاء وقت صار فيه مستر روجرز يفتقر إلى الحرارة والمتعة بالنسبة لجون. وحين بلغ الرابعة اكتشف «باتمان» Batman. وهكذا أصبح لدينا «شارع السمسم» و«باتمان»، وأحيانا «الضحية» underdog، الذي راق لهما كثيرا.

وبعد ذلك ازداد ولعهما ببرنامج «The Flinstones» ولست أدري أين أثارت اهتمامها جميع هذه البرامج الأخرى، ربما من جليسة الأطفال، التي كانت تسمح لهما بمشاهدة التليفزيون دائما.

وفي ذلك الحين بدأت أشعر بالضيق قليلا من التليفزيون. وكما ترى، فقد كنت في البدء مسيطرة تماما على الأمور. ثم بعد ذلك، وببطء تسللت كل هذه البرامج الأخرى، وبدا أنهما يرغبان في مشاهدة أشياء كثيرة جدا!

ولذلك قررت أن أحدد وقت المشاهدة لهما بدلا من القلق الشديد بشأن ما يشاهدان من برامج، بما أنه بدا أنهما يحبان بعض البرامج بشدة.

لكني بدأت أنزعج لأن جون رفض في أحيان كثيرة الخروج وركوب دراجته بعد الظهر لأنه فضل البقاء في البيت ومشاهدة التليفزيون. حسنا، قاومت ذلك بالظفر والناب! وكان يحدث أن أنفجر وتنتابني نوبة غضب وأقول، لن نشاهد أي تليفزيون إذا كانت سيطرته عليكما بهذا الشكل! وكان يحدث أن أثور بسبب ذلك وأعلن أننا بصدد وضع قواعد جديدة خاصة بالتليفزيون.

لكن ذلك لم يستمر طويلا جدا. وتحدثت، أيضا، إلى الإخصائية النفسية المدرسية عن مشكلة التليفزيون فقالت لي إنه لا مبرر لقلقي، وإنه إذا كان جون يريد أن يشاهد التليفزيون لساعة أو ساعتين، فربما كان هذا أفضل ما يفعله.

حسنا، كان ذلك يتعارض مع جميع غرائزي، لكن أسهل شيء كان يمكنني أن أفعله، هو أن أتركه يشاهد فحسب.

«وحينما كانا في السادسة والسابعة من العمر اكتشفا الرسوم المتحركة التي تعرض صباح أيام السبت، فهاما بها وكانا على استعداد لمشاهدتها طوال الصباح. ولا أنكر أن ذلك كان رائعا لنا، لأنه يتيح لنا أن نستلقي في

الفراش إلى وقت متأخر ولطيف بينما يشاهدان برامجهما.

وبعدئذ اكتشفا في العام الماضي «جيني» Jeannie. والرسالة المشتركة لبرنامجي «جيني» و«The Flinstones » جنسية إلى حد يجعلني أتميز غيظا . لكن الإخصائية النفسية المدرسية أكدت لي أن التليفزيون ليس سوى تليفزيون وأن الأطفال يعرفون أنه غير حقيقي.

وفي العام الماضي كان النموذج الذي لدينا رهيبا. فقد كان «جيني Jeannie » يعرض من الخامسة والنصف إلى السادسة والنصف. وكنت أقول للصغيرين إنه إذا كنتما تصران على مشاهدة «جيني» فإن عليكما أن تغلقا الجهاز حين يكون العشاء جاهزا. وكانا يقولان: « نعم... مؤكد... سنغلقه»؛ ثم كنت أجيء وأخبرهما أن العشاء سيكون جاهزا بعد خمس دقائق. ثم كنت أدخل وأطلب إليهما إغلاق الجهاز عند الإعلان التالي. وطبعا، لايغلقانه. وكان علي دائما أن آتي وأغلقه وهما يستشيطان غضبا لذلك.

كانا يقولان: «أنا أكرهك»، ويأتيان إلى العشاء وهما يدفعان ويرفسان أحدهما الآخر، غاضبين وعابسين، غاضبين جدا جدا. وبذلك يصبح وقت العشاء كريها جدا لنا جميعا.

وكان يحدث أن يظلا نكدين طوال تناول الوجبة. كان ذلك أسوأ أوقات اليوم، حقيقة! وقد استمر هذا طوال السنة. وفي كل مرة من المرات القليلة التي كنت أشعر فيها بالضجر وأطلق تهديدات مثل «لن نشاهد التليفزيون بعد ذلك إذا كان هذا ما يحدث عند المشاهدة»، لا أظن أنني أنجزت شيئا قط بتلك التهديدات الخيالية.

وتوقفت الأم عند هذه النقطة من الحكاية وقالت لمن أجرى المقابلة في صوت مختلف:« إنها في الواقع قصة مريعة، أليس كذلك؟»

أطفال بلا ضابط

الصورة التي يخرج بها المرء من الأحاديث مع الآباء بشأن مشاهدة أطفالهم للتليفزيون هي صورة آباء يفقدون السيطرة باطراد، وينسحبون تدريجيا من القيام بدور فاعل في تنشئة أطفالهم. وبينما يغدو الآباء أقل قوة، يكتشفون أنهم صاروا أقل قدرة على مواجهة أطفالهم الأقوياء غير المنضبطين، النكدين، المتوعدين. ويوحي الإدراك السليم بأن الآباء ما كان

في وسعهم البقاء في مثل هذه الظروف من دون التليفزيون؛ فلقد كان يتعين عليهم تنشئة أطفالهم اجتماعيا بمزيد من المثابرة، والعمل بإصرار لجعلهم يتكلمون بطريقة أكثر ملاءمة أو يسلكون سلوكا أكثر مراعاة لمشاعر الآخرين. لكن التليفزيون، كما تبين شهادات الأمهات، يلغي الحاجة إلى إرساء هذه القواعد السلوكية. فلم تعد هناك القوة الدافعة التي تضمن نوع السلوك الذي يتيح للأم أن تطهو العشاء أو تتحدث بالهاتف أو تؤكد ذاتها كأحد الوالدين بأي طريقة من دون أن تؤكل حية من قبل أطفالها، إذا جاز التعبير.

إن التنشئة الاجتماعية المتواضعة للأطفال في أيامنا هذه أسهمت بالتأكيد في خروج الأمهات الجماعي من البيت. ومما لاشك فيه أن حركة تحرير النساء لعبت دورا أساسيا في إبعاد الأمهات عن حياة رعاية الطفل والمسؤوليات المنزلية. غير أنه ليس من المستبعد أن يجعل العناد المتزايد، والإلحاح وسوء الطبع من جانب الأطفال غير المنضبطين من البقاء في البيت، أمرا أقل جاذبية من معظم الأعمال المكتبية الروتينية المملة التي تختارها نساء كثيرات في المقابل.

وربما يكون تورط التليفزيون في هروب الأبوين من الأطفال شكلا آخر أيضا. فعلى الرغم من أن الأبوين يحاولان الهرب من أطفالهما لأنهما قاما بتنشئتهم وصار من الصعب العيش معهم، فإنهما مع ذلك يواصلان حبهما لهم بقدر ما أحب الآباء أطفالهم في كل آن وحين. وهما يعلمان أن مربية الطفل أو جليسة الطفل بديل غير كاف عن الوالد المحب، وهو ما يجعلهما يشعران بالذنب. وفوق ذلك، يتضاعف الشعور بالذنب والقلق لديهما بسبب مخاوفهما بشأن المعاملة التي يلقاها الطفل في أثناء غيابهما. فإذا كان الوالدان ذاتهما سيتركان البيت لصعوبة التعامل مع الطفل أو لسوء طبعه أو ما إلى ذلك، وهما اللذان يحبان الطفل، فإلى أي حال سيدفع الطفل الأم البديلة؟ وكيف ستتكيف هي مع الموقف؟ ألا يمكن أن يدفعها ذلك إلى ضرب الطفل؟

وقد تؤدي هذه المخاوف عادة إلى بقاء الوالدين في البيت وتقبل العواقب ـ ربما يمضون بعيدا إلى حد العمل على تدريب وترويض أطفالهم الجامحين ـ لكن التليفزيون، مرة أخرى يتدخل للإنقاذ. ويخف بدرجة كبيرة عبء

شعور الوالدين بالذنب والقلق، إذ يعرفان أن الطفل يمكنه في غيابهما تمضية وقته في هدوء أمام جهاز التليفزيون عوضا عن إغاظة الجليسة إلى درجة الجنون. فالآن يمكن للآباء أن يتركوا البيت مرتاحي البال. إن الآباء كثيرا ما يؤكدون أن جليسات الأطفال يصررن على استعمال التليفزيون، وأن من المحتمل عدم حصولهم أبدا على جليسة للطفل إذا لم يكن لديهم جهاز تليفزيون (وهناك ما يؤكد ذلك)،وأن إفراط أطفالهم في استعمال التليفزيون هو نتيجة لاعتماد جليسة الطفل على التليفزيون لجعل حياتها أسهل. لكن الآباء نادرا ما يعترفون بأن راحة بالهم تعتمد على معرفة أن تنشئة أطفالهم اجتماعيا وثقافيا تجرى مؤقتا في غيابهم بواسطة جهاز التليفزيون.

تقول أم اعتادت تحديد وقت المشاهدة لأطفالها بساعة واحدة يوميا :

«حينما تكون لدي جليسة أطفال، وأدرك أنها مضطرة للسيطرة عليهم، فإنني أتركهم إذن يشاهدون التليفزيون في أي وقت يشاؤون. في إحدى المرات عدت إلى البيت ووجدت أن الأطفال ظلوا يشاهدون التليفزيون من حوالي الساعة الثانية إلى الثامنة . لكنني لا أدري ما إذا كان يمكن للجليسة أن تنجح من دون التليفزيون».

15 خارج السيطرة

تروي أم لثلاثة أطفال: «حين أفكر الآن في التليفزيون أشعر كالتي ظنت باستمرار أنها كانت تتعاطى الشراب بطريقة معتدلة، ثم جلست يوما وحسبت مجموع ما تستهلكه من الكحول، فاكتشفت أنها سكيرة! كان أول اتجاه لي أن القناة التعليمية هي الوحيدة التي يمكنني السماح للأطفال بمشاهدتها. لكنه (أي التليفزيون)، فجأة، بدأ يتسلل إلينا. في بادئ الأمر، كان هناك «باتمان». وبعد ذلك صار «باتمان» و«سوبرمان» و«الحارس الوحيد». وبعد ذلك أرادوا مشاهدة Star Trek أيضا! وفكرت بعد عدة أسابيع، يا إلهي! ماذا يحدث في عالمنا؟».

إن معظم المشاكل التي تواجه الآباء مع التليفزيون لا تتصل مباشرة بالتليفزيون ذاته، بل بالسيطرة عليه، وكان هذا الفهم هو الذي أدى بمقالة في إحدى الدوريات حملت عنوان «تليفزيون الأطفال رهيب ـ فماذا سنفعل؟» إلى أن تقترح غاضبة: «هناك علاج عاجل متاح لا يبدو أنه خطر على بالهم ـ أغلقوا الجهاز»(1).

ومع ذلك، فهذا هو بالتحديد ما لا يبدو أن الآباء الأمريكيين يستطيعون عمله.

اقتناع حقيقي

توضح طبيبة أطفال نفسية مشهورة ومؤلفة أن الآباء يخدعون أنفسهم حين يقولون: إنهم لا يستطيعون السيطرة على التليفزيون، وإن ذلك «إزعاج يفوق الحد»، أو «لا يستحق العناء». وهي تعتقد أنهم لا يريدون لعدة أسباب في الواقع أن يسيطروا على مشاهدة أطفالهم التليفزيونية.

وتروي الطبيبة النفسية: «حين يقول لي الوالدان إنهما لا يستطيعان أن يجعلا الطفل يفعل هذا أو ذاك، فمن السهل جدا أن أبين أنهما لم يحاولا، وسأسألهما: «هل تسمحان لطفلكما ذي السنوات الثلاث أن يمشي حاملا سكينا حادة؟ هل تسمحان له بعبور الشارع بمفرده؟ وسيشرحان لي على الفور كيف يمنعان طفلهما من الجري نحو الشارع أو اللعب بأدوات حادة. ولذلك أقول إن الطفل يفهم الرسالة بوضوح حينما يصممان على شيء ما، وأسألهما: ما الفرق فيما يتعلق بهذا الشيء المحدد الذي يقولان إنهما لا يستطيعان السيطرة عليه؟ وسيجيبان: «حسنا، ليس الأمر بهذه الدرجة من الأهمية»، أو «إنها فقط مسألة تتعلق براحتنا». ومن الجلي أنهما لم يوصلا للطفل الرسالة المقصودة، لأنهما في داخلهما لا يشعران بها عن ثقة. إذا أراد الآباء السيطرة على المشاهدة التليفزيونية لأطفالهم فيتعين عليهم أن يوضحوا أن ذلك يماثل في أهميته عدم اللعب بسكاكين حادة أو الجري نحو شارع مزدحم».

إن الكثير من الصعوبات التي تصادف الآباء في السيطرة على المشاهدة التليفزيونية لأطفالهم، تتضاعف بسبب فقدان الثقة في الدور الذي يرغبون أن يضطلع به التليفزيون في حياتهم الأسرية، وبسبب تناقض أساسي فيما يتعلق بالتليفزيون:

تقول أم لديها طفلان صغيران: «حين يقولان إنهما يريدان مشاهدة التليفزيون في نهار مشمس، أجن حقيقة منهما، وأقول لهما إنني سأخرج إلى الحديقة وألعب كرة القدم معهما، فيقولان لا، ويفضلان مشاهدة برنامج تليفزيوني، والواقع أن ذلك يثير فيّ حنقا بالغا وقت حدوثه، لكن كل ما أفعله يعتمد على حالتي النفسية، لأنني أشعر بتناقض إزاءه، ولذلك أقول لهما أحيانا: «أظن أنكما سخيفان جدا لبقائكما داخل البيت في يوم جميل كهذا، لكن ذلك قرار خاص بكما»، وفي أوقات أخرى كنت أصفق الباب

بعنف وأصرخ آمرة كل شخص بالخروج من المنزل».

وتصور أم أخرى مشاعر مشابهة: «كنت دائما أخوض صراعا بيني وبين نفسي بشأن التليفزيون، فالأطفال يواصلون الإلحاح من أجل المشاهدة، «أوه. ماما. نرجوك» حتى لو كان من الممكن عمل شيء أفضل، وأريد أن أقول، «كلا على الإطلاق! سألقي بالجهاز خارج النافذة!» لكني في الواقع لا أريد أن أجعل من هذا الموضوع مشكلة. لا أريده أن يتحول إلى خلاف كبير نتشاجر بسببه باستمرار، وهكذا كنت متقبلة إلى حد بعيد بشأنه، محاولة بكل جهدي أن أقنعهم بأعمال روتينية أخرى لأنني لا أريد أن أتشاجر معهم بسبب التليفزيون...، وفي بعض الأيام أشعر بأنه يجب أن أتشاجر، وفي الأيام الأخرى... لا أريد فحسب، وأظن أن ذلك ليس في مصلحتهم إلى حد بعيد، لكنني أشعر بتناقض شديد بشأنه».

وتعطي أم ـ لديها طفلان في الخامسة والسادسة من العمر ـ دليلا على أن الاقتناع الحقيقي شرط أساسي للسيطرة الناجحة:

ذات يوم بلغ بي الضجر مداه بسبب مشاهدة الأطفال للتليفزيون في الصباح قبل المدرسة، وكان مشهد صباح أحد الأيام مثيرا للشفقة، كان الطفلان جاثمين أمام التليفزيون ويريدان تناول الإفطار هناك، وبالكاد يستطيعان تحريك أذرعهما وأرجلهما لارتداء ملابسهما، كانا يشبهان المومياوات الصغيرة.

والواقع أنني كنت أشكو من تليفزيون الصباح لوقت طويل، وأغلق الجهاز بصورة متقطعة، صارخة فيهم ليرتدوا ملابسهم، وأثير ضجة بسبب ذلك ـ لكن ليس على الدوام، على أن ذلك كله لم يعد بفائدة، وظننت أنه لا أمل في السيطرة على مشاهدتهم التليفزيونية على الإطلاق، ولا سيما أني أستعمل الجهاز في الأمسيات بالفعل لكي أحصل على بعض الراحة منهم، ألا يفعل الآخرون ذلك، على أي حال؟

حسنا، في هذه المرة قررت يقينا أننا لن نستطيع العيش على هذا النحو وأنه لا بد من إيقاف المشاهدة التليفزيونية في الصباح، وكما هي العادة عندما أصدر إنذارا عن اقتناع حقيقي، نجح القرار! وذلك هو الشيء الأكثر إثارة الذي تعلمته كأم، فإذا قلت: «إنني حقا أظن أن من غير الأفضل»، فلن يجدي ذلك نفعا أبدا، أو إذا لم أصمم على أن هذه هي الطريقة

الوحيدة قطعا لمعالجة موضوع ما، فإن ذلك سينعكس في الحركة التي تأتيني من الأطفال.

لم تستغرق مشكلة التليفزيون الصباحية سوى يومين فقط للتخلص منها، انتهت فحسب، عرف الأطفال أنني عنيت ما قلت، وأظن أنني عرفت أنني عنيت ذلك أيضا، بل ربما كان ذلك أكثر أهمية.

السلطة المتناقصة للأسرة

لا يفسر اعتماد الآباء الخفي على التليفزيون وحده فشلهم في السيطرة عليه، فهناك أيضا فقدان الثقة في اعتقاداتهم الخاصة وفي قدراتهم على العمل بنجاح وفق هذه الاعتقادات.

ومما لا شك فيه أن السلطة المتناقصة للأسرة عموما زادت من صعوبة تعامل الآباء مع مشكلة التليفزيون. وبما أن الحكومات، والمدارس، والجماعات المهنية الطبية، وغيرها من المؤسسات الخارجية قد أثرت تأثيرا سيئا في الهيمنة الأسرية، صار الآباء أكثر اعتمادا على هذه المؤسسات وأقل ثقة في قدراتهم الخاصة على تربية أطفالهم طبقا لأفكارهم ومبادئهم الخاصة. فالآباء أقل استعدادا للاعتماد على الفطرة السليمة وتقديرهم الخاص لما هو صواب أو خطأ حين تجابههم مشكلة مثل كيفية تحديد المشاهدة التليفزيونية لأطفالهم، وهم يميلون إلى انتظار أن تخبرهم الحكومة أو المدرسة أو على الأقل خبراء الطفولة بما ينبغي عمله.

ولسوء حظهم، كانت المساعدة الحقيقية المتاحة لهم من أي من هذه المصادر ضئيلة. فقد انحصرت الجهود الدورية للحكومة في تقييم تأثيرات التليفزيون في الأطفال في مضمون البرامج، ولم تبذل أي جهود لبحث استعمال الآباء للوسيلة التليفزيونية، أو لتأثيرات وجود التليفزيون في تنشئة الطفل أو الحياة الأسرية، ولم يحصل الآباء على أي مساعدة في كفاحهم للسيطرة على التليفزيون في حياتهم اليومية.

كما أن الجماعات المهنية الطبية لم تكافئ الآباء على اعتمادهم الواثق عليها في مسائل تربية الطفل بتوفير التوجيه لمشاكلهم التليفزيونية. ونادرا ما يتلقى الآباء النصح بشأن استعمال أو إساءة استعمال التليفزيون، وهم الآباء الذين تعودوا أن يعرفوا من أطباء أطفالهم كيفية التعامل مع نوبات

غضب الأطفال ومص الإبهام، وغير ذلك من المشكلات السلوكية. وعلى الرغم من أن المشاهدة التليفزيونية قد تكون أكثر التجارب اليومية مضيعة لوقت مرضاهم الصغار، فإن الأطباء يتجاهلون الموضوع إجمالا في مشاوراتهم السنوية ونصف السنوية مع الأمهات. وتوحي دراسة مسحية غير رسمية لأطباء الأطفال بأن عددا قليلا منهم - إن وجد - يتطوع بتقديم معلومات للآباء عن حجم المشاهدة التليفزيونية الملائم لنمو الأطفال الصغار، ويبدو أن الأطباء في معظم الحالات ليس لديهم آراء معينة عن الموضوع عدا الملاحظة البراجماتية بأن «الأمهات في حاجة إلى استعمال الجهاز لتمضية اليوم بنجاح». لكن قسم أبقراط(*) الذي يستحلف الطبيب بأن «أتبع طريقة العلاج التي أراها ذات فائدة لمرضاي»، لا يذكر شيئا عن التزام ما تجاه أم المريض!

أما المؤسسة التعليمية، كما رأينا في الفصل السادس، وبدلا من توفير إرشادات معقولة عن استعمال التليفزيون، تزيد كثيرا مشاكل الأسرة مع التليفزيون بتخصيص برامج يشاهدها الأطفال في البيت وتبني الطريقة المتمركزة «مع» التليفزيون في برامجها التعليمية. وتسليما بذلك، يميل المدرسون إلى تخصيص برامج «مفيدة»، كواجبات للمشاهدة المنزلية، لكن هذه الواجبات غالبا ما تزيد عبء المشاهدة الاعتيادية للأطفال. وفضلا عن ذلك، يدعم المدرسون ببراعة، عن طريق تخصيص برامج تعليمية، مواقف الوالدين الجبرية نحو المشاهدة التليفزيونية لأطفالهم، فبما أن الأطفال سيشاهدون الكثير على شاشة التليفزيون على أي حال، يجوز إرغامهم أيضا على مشاهدة شيء نافع.

والواقع أن تعود المدارس تخصيص برامج للواجب المنزلي، كثيرا ما يردع الآباء الذين لديهم مشاكل تليفزيونية جدية عن اتخاذ الخطوة الوحيدة التي قد تعيد التوازن إلى حياتهم الأسرية، وهي التخلص من جهاز التليفزيون تماما. ويقول آباء كهؤلاء: «إننا لا نستطيع تصريف الأمور من غير تليفزيون»، و«يتعين على الأطفال مشاهدة برامج معينة تحددها المدرسة». وبينما قد يبدو هذا الجواب ضربا من التبرير الذي يعكس عدم رغبة الآباء في «تخليص» أنفسهم من التليفزيون، إلا أن من الواضح أن موقف المدارس

(*) أبقراط Hippocrates (460؟-377 ق.م) طبيب يوناني يعتبر أبا الطب

المذعن أو المتحمس عموما نحو التليفزيون لا يقدم للآباء نوع المساعدة التي هم في أمس الحاجة إليها.

تلقي أم لديها ثلاثة أطفال بعض الضوء على أزمة الثقة التي توجع الآباء الأمريكيين اليوم، بعد أن شعرت بالقلق بشأن عدد الساعات التي يقضيها أطفالها في مشاهدة التليفزيون ولم تستطع، كما يبدو، أن تضع قيودا على هذه المشاهدة: «إن الخطأ في حالتي هو أنني لا أعرف ما هو الصواب وما هو الخطأ كما أن أطفالي لا يعرفون ذلك، أما أمي، فحتى هذا اليوم، تؤمن بالصواب والخطأ، وتعتقد أنها تعرف الفرق بين الصواب والخطأ. أما أنا فلا أعرف على الإطلاق. وفيما عدا بعض المسائل الأخلاقية القليلة جدا، لا أعرف أين الصواب وأين الخطأ بالنسبة للكثير من الأمور. والتليفزيون يدفع ذلك إلى أقصى مدى».

إن الآباء يستجيبون بامتنان يكاد يثير الشفقة لأي مساعدة تقدمها مؤسسات خارجية فعالة. فحينما أرسلت إحدى مدارس الحضانة المشهورة في مدينة نيويورك رسالة إلى هيئة الآباء بها، ناصحة إياهم بتحديد وقت المشاهدة التليفزيونية بساعة واحدة يوميا على الأكثر، قوبلت هذه الخطوة بحماس شبه غامر.

تقول إحدى الأمهات: «لقد أعطتني تلك الرسالة الدفعة الأخيرة لتقليص المشاهدة التليفزيونية».

وتصف أم أخرى جهود ابنها ذي السنوات الثلاث لكي يشاهد «كوكب القردة»، وغيره من الرسوم المتحركة المحبوبة بدلا من برنامجه اليومي «جيرة مستر روجرز»: «كنت أتعرض لضغوط شديدة، ولذلك شعرت حين وصلت الرسالة بارتياح، وأخبرته أن المدرسة لا تريد منه مشاهدة التليفزيون»[2].

وطبقا لما قالته مديرة المدرسة: فقد استخدم بعض الآباء الرسالة ذاتها لإيقاف أطفالهم عن المشاهدة، قائلين: «انظروا ها هي رسالة من المدرسة تقول إن كثرة المشاهدة التليفزيونية ضارة»، حتى إن كان الأطفال أصغر من أن يقرأوا الرسالة بالفعل.

وتشرح المديرة ذلك قائلة: «إن الآباء يشعرون بالذنب بشأن استعمالهم للتليفزيون، فهم يشعرون بأنهم بطريقة أو بأخرى لا ينبغي أن يفعلوا هذا.

وتأمل المدرسة عن طريق اتخاذ موقف من هذه القضية إعطاء الآباء تلك الدفعة الصغيرة الإضافية، وعسى أن يقرروا أخيرا عمل شيء في هذا الصدد». لكن إحدى مدرسات المدرسة، وكانت عضوا في اللجنة التي وضعت مسودة الرسالة، لا تدين أولئك الآباء الذين احتاجوا إلى الرسالة من المدرسة حتى يجدوا الشجاعة للسيطرة على التليفزيون، وتعترف قائلة:

إنني أتعاطف مع ورطة الآباء، وقد خففت من تشددي بصورة عجيبة بما أن عندي أطفالا، ولدي شعور بأن الآباء كثيرا ما يفعلون كل ما في استطاعتهم إلا أنهم لا يعرفون تماما ما ينبغي عمله. فهم يعاملون بشدة من قبل أطفالهم، ويخشون مواجهتهم بجرأة وبعد ذلك يعاشرون أنماطا يصعب ترويضها. فإذا تلقى هؤلاء الآباء المساعدة ممن له سلطة أمكنهم عندئذ أن يقولوا: «انظروا، المدرسة تقول لكم أغلقوا جهاز التليفزيون»، هذا شيء طيب للغاية. وقد يكون من الأفضل لو استطاعوا أن يثقوا في غرائزهم ويستخدموا سلطتهم الخاصة. لكن، إذا أفادت هذه الطريقة في تحقيق الغاية، فلا يسعني إلا أن أشعر بجدوى هذه الوسيلة[3].

ويعكس ارتياح الآباء لعدم اضطرارهم إلى وضع القانون بأنفسهم، الصعوبة الخاصة التي تواجه الآباء العصريين في قول: «لا» لأطفالهم. ويمعن طبيب نفسي للأطفال النظر في المصادر المحتملة لتساهل الآباء المخيف: «أنا لا أقول للناس ما ينبغي عليهم عمله وما لا ينبغي. لكني أجد بين كثير من الآباء، وليس فقط من المرضى بل من الأطفال الذين أقابلهم في المدرسة، الكثير من الصراع حول القدرة على تربية أطفالهم بقدر مواهبهم الخاصة. هناك الكثير من المعلومات الواردة من التليفزيون والكتب والمقالات. غير أن الأكثر أهمية، أنهم يبدون خائفين من إغضاب أطفالهم، خائفين من الإيعاز لهم بإغلاق جهاز التليفزيون. ويشعر هؤلاء الآباء بأن للطفل أن يفعل ما يحلو له، إلا أنهم في الحقيقة خائفون من وجود علاقة مباشرة وشخصية بأطفالهم. أنا أعمل مع آباء لمساعدتهم على فهم مخاوفهم وفهم حاجات أطفالهم، وحينما يبدأون فهم ذلك، سيتوقفون عن شكوكهم فيما يتعلق بإغلاق جهاز التليفزيون، وحين يشعر الآباء بارتباط ما مع أطفالهم، سيبدأون بلا استثناء إغلاق جهاز التليفزيون، بل التخلص منه أحيانا.

السعي وراء الديموقراطية

ربما يساعد السعي وراء الديموقراطية في غير موضعها الصحيح، وهو ضعف أمريكي بخاصة، في تفسير السبب الذي يجعل لدى بعض الآباء صعوبات كهذه في السيطرة على التليفزيون. فهؤلاء الآباء يعتقدون أن تقييد المشاهدة التليفزيونية للطفل تصرف غير ديموقراطي بطريقة أو بأخرى، ويدعم هذا الاعتقاد لدى الآباء عدد من الكتاب بزعم إسداء النصح لهم. ويرى مؤلف كتاب عن الأطفال والتليفزيون أن فرض قواعد صارمة بشأن استعمال التليفزيون «يوحي بالدكتاتورية في المنزل، وليس بالديموقراطية»، ويحذر الآباء من أن الأوامر المطلقة العلنية تؤدي إلى ظهور أفراد متمردين صراحة أو طيعين بأكثر مما ينبغي». وهكذا فإن الخوف من أن يصبحوا لا ديموقراطيين (غير أمريكيين) يجيز للآباء أن يلقوا مسؤولية نتائج تربيتهم العاجزة للأطفال على الأطفال أنفسهم.

تعترف إحدى الأمهات:

«أعلم أن ذلك يبدو ضعفا، لكني أكره فحسب أن أكون شخصا يخيب آمال الناس باستمرار، أو يقوم بتنظيمهم، أو منعهم من عمل شيء يستمتعون به. لا أحب أن أكون الشخص الرصين في الأسرة. فأنا أفضل لو كان الجميع على قدم المساواة، وهذا هو السبب الذي يجعلني أعاني كثيرا في محاولة إقناع الأطفال بالتقليل من مشاهدة التليفزيون، على الرغم من أني أرى أنه ليس من المفيد لهم أن يشاهدوا التليفزيون بكثرة».

وتلاحظ أم إنجليزية:

«إن الشيء الغريب فيما يتعلق بالأمهات الأمريكيات أنهن يضقن بالكثير من أفعال أطفالهن، لكنهن لا يتصرفن على أي نحو إزاء ذلك. إنهن يتركنهم يفعلون أي شيء، ويشعرن بالخوف من أن وضعا تسلطيا، سيكون غير أمريكي. وهن لا يرغبن في مشاهدة أطفالهن للتليفزيون ساعات عدة، ولذلك يعقدن مؤتمرا أسريا ويناقشن وضع قواعد وما إلى ذلك. لكن الأطفال ينتهي بهم الأمر فقط إلى زيادة المشاهدة التليفزيونية»[4].

ويرتبط اعتقاد الآباء بضرورة سيادة المبادئ الديموقراطية في تربية الأطفال، حتى مع أطفال سن ما قبل المدرسة، بالتقليل العصري بخاصة من حقوق الآباء الذي رافق قبول فلسفة لتربية الأطفال أكثر تمركزا حول

الطفل. ويبعد هذا العامل، أيضا، أيدي الآباء عن مفتاح إغلاق التليفزيون.

تروي أم شابة مرهقة أدى عطفها وتفهمها لرغبات وحاجات أطفالها إلى إضعاف وعيها بحقوقها الخاصة: «حين يتصرف أطفالي بطريقة سيئة جدا وفظة أثناء مكالمة هاتفية لي، فإنني بدلا من تهذيبهم أجد صوتا في داخلي يقول: نعم، إنني أتحدث على الهاتف لأطول مما ينبغي». إنها لا تستطيع أن تقول «لا» لأطفالها لأنها فقدت تقديرها للأمور، فرأت الحياة فقط من وجهة نظرهم. ولن تغلق أم من هذا النوع جهاز التليفزيون حين يرغب الطفل في المشاهدة، حتى إن شعرت أن أكثر المشاهدة قد تكون لها تأثيرات ضارة، لأن رغبات الطفل لها الأسبقية على رغباتها هي في معظم المواجهة اليومية.

وتكشف أم لطفلين في الثامنة والرابعة عن عجز مماثل في تقييم شعورها واتخاذ إجراء ما بشأن التليفزيون:

تمنيت لو كان يمكنني رفض السماح لأطفالي بالمشاهدة. أنا أصل إلى البيت في الخامسة والنصف وأعد العشاء. يعود زوجي في الساعة السادسة. ولذلك فمن الساعة الخامسة والنصف حتى السابعة والنصف يشاهد الطفلان التليفزيون، وفي هاتين الساعتين تعرض تفاهات كريهة إلى أبعد حد، برامج لا يمكنني احتمالها، مثل «The Flinstones».

ليست لدي حتى القدرة على أن أجعلهما يغلقان الجهاز، ولدى هذين الطفلين مخزون غير محدود من الدمى، لكنهما مع وجود التليفزيون لا يلمسان أبدا الكثير منها، ومع ذلك، فحين أغلق التليفزيون بالفعل، يدخلان ويلعبان بالدمى.

«افعل كما أقول، وليس كما أفعل»

كثيرا ما تبطل عادات المشاهدة عند الآباء أنفسهم محاولاتهم لتقليل اعتماد أطفالهم على التليفزيون. ويجد الآباء الذين باتوا يعتمدون على التليفزيون في التسلية والاسترخاء، أو الهرب، أن من الصعب أن يضعوا قيودا على مشاهدة أطفالهم. إن الآباء يشعرون بأنهم منافقون حين يضعون سياسة على أساس «افعل كما أقول، وليس كما أفعل» في بيوتهم، وسرعان ما يستغل أطفالهم البارعون افتقار آبائهم إلى الثقة.

وتصف إحدى الأمهات هذه المعضلة بقولها: «أنا أحاول تحديد مشاهدة الأطفال التليفزيونية، لكن ألفرد (زوجها) يرغب في مشاهدة الكثير، ومعنى تحديد وقت المشاهدة للأطفال أن على ألفرد أن يحدد وقت مشاهدته هو، وهو في الواقع لا يريد أن يفعل ذلك».

وتروي أم من نيويورك: «حين كان الأطفال أصغر سنا، وإلى أن صار أصغرهم في حوالي الثامنة، كنت أنزعج بشدة بشأن مشاهدتهم التليفزيونية. وكانت هناك أوقات أشعر خلالها بما يغريني بإلقاء الجهاز خارج المنزل، غير أني لم أفعل لأنني أنا نفسي أحب أن أشاهد الأفلام وكارول بيرنت...».

وتشير أم أخرى: «من المحتمل أني أفتقد التليفزيون أكثر من الأطفال، ومثل هذا الشعور يجعل من الصعب جدا بالنسبة لي أن أقول «لا» لا يمكنكم مشاهدة التليفزيون، إنه ليس مفيدا لكم. تماما مثلما لا أستطيع أن أقول عن اقتناع حقيقي: بيتر، من الخطأ أن تمص أصبعك، بينما أنا أدخن!».

هل يغدو طفلي منبوذا اجتماعيا من دون التليفزيون؟

إن أعدادا كبيرة من الآباء الذين صاروا يعتقدون أن للمشاهدة التليفزيونية تأثيرا معاكسا في نمو الأطفال وفي السعادة الأسرية، لا يتبعون مع ذلك قناعاتهم بالتخلص من أجهزتهم التليفزيونية أو فرض قواعد صارمة بشأن استعمالها؛ ويخشى هؤلاء من أن قلة المشاهدة التليفزيونية أو إلغاءها سيجعل أطفالهم منبوذين اجتماعيا. ومما لا شك فيه أن هذا القلق المنتشر يعد من أقوى العراقيل أمام السيطرة الفعالة على التليفزيون في الأسر الأمريكية.

وتفسر أم لطفلين في سن المدرسة ذلك قائلة: «هذا ما يتحدث عنه جميع الأطفال، هذا البرنامج التليفزيوني وذاك البرنامج. فإذا تخلصت من الجهاز - وأنا بصدق أود ذلك - سينقطع أطفالي عن مجرى الأحداث بالفعل، فكيف سيكون لهم أصدقاء؟».

ويشعر آباء أطفال في سن ما قبل المدرسة أيضا بالقلق لأنهم بوضع قيود على التليفزيون يضرون مستقبل أطفالهم الاجتماعي.

تروي أم لطفل عمره سنتان: «أعتقد حقيقة أن من الأفضل لصغار الأطفال ألا يشاهدوا التليفزيون بالمرة، لكن ما يقلقني هو ما سيحدث حين

يبدأ روجرز الذهاب إلى الحضانة في العام القادم حيث يتحدث جميع الأطفال الآخرين عن «شارع السمسم»، أظن أن من الأفضل أن أسمح له بالبدء في المشاهدة».

وفضلا عن ذلك، يشعر كثير من الآباء بالقلق لأنه في حالة عدم تيسر التليفزيون بحرية في بيوتهم، لن يرغب الأطفال الآخرون في المجيء واللعب مع أطفالهم. أو الأسوأ من ذلك، وهو أن أطفالهم سيفضلون قضاء وقت فراغهم بعيدا عن البيت، في بيوت أطفال يستطيعون فيها مشاهدة كل ما يريدون على شاشة التليفزيون.

والحقيقة أنه لا يكاد يوجد دليل على أن غياب التليفزيون عن البيت أو فرض قيود مشددة على استعماله، يخلقان صعوبات اجتماعية للأطفال. وبالفعل، هناك أسباب تجعلنا نعتقد أن الأمور قد تكون على العكس من ذلك تماما.

تروي أم لطفلة في الصف الثالث، قامت بقصر المشاهدة التليفزيونية على نهايات الأسبوع: «في البداية حين كانت صديقات كاتي يأتين للعب معها بعد المدرسة يسألن: «أين التليفزيون؟» ولكني عندما قلت لهن ببساطة إنه ليس في بيتنا تليفزيون في أيام الدراسة واقترحت عليهن أن يخبزن فطائر أو أخذتهن إلى صندوق الملابس، أو أحضرت بعض اللعب، أو غير ذلك، سعدن تماما بعمل شيء آخر. إن بيتنا يمتلئ دائما بالأطفال، وأعتقد صادقة أنهن يحببن الحضور إلى هنا حيث يجدن متعة أكبر بالمقارنة مع مشاهدة التليفزيون».

وقال طفل ذكي في الصف السادس اختارت أسرته العيش من دون تليفزيون، ردا على سؤال بشأن آثار عدم وجود تليفزيون في المنزل في حياته الاجتماعية: «حسنا، إن أصدقائي يتكلمون كثيرا عن برامج التليفزيون، يقولون: «هل شاهدت كذا وكذا الليلة الماضية؟» وأجيب فقط قائلا: «لا، فاتتني ذلك»، أو شيء من هذا القبيل. أنا لا أهتم بعدم وجود تليفزيون في البيت، ولا يبدو أن أحدا آخر يهتم على أي حال، وجانب التسلية في الموضوع أني شاهدت أغلب البرامج التي يتحدث عنها الجميع مرة على الأقل، ربما في بيت جدي أو لدى الأصدقاء، ولذلك فأنا أعرف أسماء الشخصيات، وتتشابه تلك البرامج إلى حد كبير في معظم الأوقات، وهكذا يمكنني أن

أجاري تلك الأحاديث بصورة جيدة تماما».

ويعبر والد طفلين في سن ما قبل المراهقة عن موقف قد يساعد في تهدئة قلق الآباء بشأن السيطرة على التليفزيون، وتأثيره في حياة الأطفال الاجتماعية: «تعودت أن أقول لأطفالي: إن أصدقاءكم سيحبونكم للطريقة التي تتصرفون بها ـ ما إذا كنتم كرماء أو ودودين أو من هواة التسلية ـ وليس بسبب تشابه مشاهداتكم للبرامج التليفزيونية مع ما يشاهدون، إن ما يهم هو من تكونون». ويقول لمن أجرى المقابلة معه إنه يبدو أن لدى أبنائه أصدقاء كثيرين كأي أطفال آخرين، على الرغم من قصر مشاهدتهم التليفزيونية على ساعتين أسبوعيا.

لذة فطرية

لما كان من الواضح أن الكثير من الصعوبات التي يواجهها الآباء في السيطرة على التليفزيون، ترتبط باتجاهات التربية الحديثة للطفل والميول السيكولوجية ـ التساهل، السلطة المتناقصة للأسرة، نمو الضواحي، وما إلى ذلك ـ فقد يبدو أنه لو أن التليفزيون قد ظهر إلى الوجود قبل قرن من الزمن، لكان الآباء آنذاك، بتكوينهم العائلي القوي وأساليبهم التسلطية الصارمة، أكثر قدرة على الاحتفاظ به تحت السيطرة. لكن حتى أولئك الآباء ربما كانوا قد استسلموا، لأن هناك شيئا فريدا يتعلق بسيطرة التليفزيون على الأطفال، بصرف النظر عن السياق السسيولوجي أو الميثودولوجي.

إن فهم الآباء الحدسي لعمق اندماج أطفالهم مع التليفزيون، والذي تشي به جزئيا ملاحظات عن حدة سلوك المشاهدة عند هؤلاء الأطفال، كما يشي به حجم حزنهم في حالة حرمانهم من التليفزيون، هذا الفهم هو الذي يمنع الآباء من إغلاق أجهزة التليفزيون في بيوتهم، ويجعلهم يقفون عاجزين وهم يرون حياتهم الأسرية تزداد خضوعا لسيطرة التليفزيون.

فالتليفزيون ليس مسألة هينة، عرضية بالنسبة للطفل الصغير. إنه متعة تتصل على نحو خفي بجانب من أعمق الإشباعات الفطرية عند الطفل. ومن الدلائل على الموقع الخاص الذي تشغله المشاهدة التليفزيونية في التسلسل الهرمي للمتعة لدى الطفل الصغير ذلك التواتر، الذي نلمسه

فيما بين الأطباء النفسيين وعلماء النفس والآباء أنفسهم في ربطها بالإشباعات الأساسية الفمية الشرجية.

ويدون الكثير من الآباء ملاحظات مماثلة:

حين يشاهد إريك التليفزيون يستعمل لحافه ـ وتلك هي المرة الوحيدة التي يمتص فيها إبهامه، ليس دائما، وإنما عادة، والمرة الوحيدة الأخرى التي يستعمل فيها لحافه تكون في الفراش».

ويروي أحد الاختصاصيين في علاج الطفل:

حين أطلب من أحد الوالدين حذف التليفزيون من حياة الطفل لأن من الواضح أن له تأثيرا ضارا، فغالبا ما أجد رد الفعل نفسه الذي ألقاه حين أطلب من الوالدين تخليص طفلهما ذي السنوات الخمس من الحفاظات وأصر على استعمال المرحاض، أو إبعاد زجاجة الرضاعة عن طفل عمره أربع سنوات. إن الأم تقول: «هذا مضحك. إنه يخاف المرحاض. ولن يفعلها أبدا»، أو «هذا مستحيل. إنه يحب زجاجة الرضاعة جدا». حسنا، لقد وجدت رد الفعل ذاته من جانب الآباء حين أوقفت فجأة التليفزيون، لقد شعروا بالخوف. فإغلاق جهاز التليفزيون تماما يبدو بالضبط نوعا رهيبا من الحرمان. وحين يشعر الآباء بالاستعداد للقيام بالمخاطرة وتجربة نصيحتي، تعتريهم الدهشة دائما لسهولة ذلك. والفرق الوحيد أنهم لا ينثنون عائدين بالحفاظات وزجاجة الرضاعة، وإن انثنوا عائدين بجهاز التليفزيون.

ويلاحظ أحد المحللين النفسيين: «الآباء لا يحبون أن يشاهد أطفالهم التليفزيون لأنه ساحر للألباب وآسر إلى حد أنه يندرج في فئة تلك التجارب الممنوعة، المؤذية إلى حد ما، والسارة مثل الاستمناء. وهم لا يودون أن يروا طفلهم منزويا، جالسا في ركن يلعب بمفرده، كما لا يحبون أن يروه جالسا في الركن ناظرا إلى صندوق الحملقة Goggle Box (التليفزيون) لساعات من غير انقطاع، إن ذلك مبهج أكثر مما ينبغي».

وكما أن فهم الآباء لعلاقة الطفل بالطعام يقودهم إلى استعمال الطعام كأداة تهديد، وعقاب، وحافز، وبديل عن الحب، كذلك يقودهم فهمهم لأهمية المشاهدة التليفزيونية في حياة طفلهم إلى استعمال التليفزيون كعقوبة أو كمكافأة مهمة.

وقد روى حوالي خمسين في المائة من الأطفال الذين أجريت مقابلات معهم في إطار دراسة مسحية واسعة، أن آباءهم استعملوا الحرمان من التليفزيون كنوع من العقاب. ومن المحتمل جدا أن هذا الحرمان من التليفزيون بات أكثر العقوبات المستعملة انتشارا في أمريكا اليوم[5].

وتعترف أم لديها طفل في سن ما قبل المدرسة: «أفاجئ نفسي وأنا أستعمل التليفزيون كأداة للتهذيب، قائلة لجيمي إنه لا يمكنه المشاهدة إلا إذا تصرف بأدب، ويقول زوجي بذكاء: لا تفعلي ذلك. لكن هناك ما يغري في ذلك، فكأني أقول لا حلوى».

ويستخدم التليفزيون عموما حاليا في تدريب الأطفال على استعمال المرحاض. فالأمهات يضعن قعادة (نونية) أمام جهاز التليفزيون للإيحاء للطفل بقضاء الحاجة. كما يقدم بعض الآباء وعودا ببرامج تليفزيونية خاصة كمكافأة على الإذعان لمتطلبات التدريب المرحاضي. وبالمثل، يستخدم منع التليفزيون كعقاب فيما يتصل بهفوات التدريب المرحاضي.

كيف يتسنى للمرء تعليل الأهمية الخاصة للتجربة التليفزيونية في حياة الأطفال؟ ما هي العوامل التي تساعد على وضع المشاهدة التليفزيونية على المستوى نفسه من الأهمية كالأكل، مثلا، أو غيره من الأفعال التي تبدو للوهلة الأولى أكثر جوهرية من هذا النشاط المنظم بطريقة ميكانيكية؟

إن جانبا من الإجابة قد يكمن في أهمية الإثارة البيئية ـ المشاهد، والأصوات، والروائح، والإحساس بالعالم من حولهم ـ في تجربة الأطفال المبكرة. فمنذ الأيام الأولى للحياة يستجيب الأطفال بصورة انتقائية للمشاهد والأصوات. وبينما يبدو أن حياة الأطفال الرضع تتركز حول الأكل والنوم، فإن المثيرات المتنوعة التي تصل إلى عيونهم وآذانهم ربما تكون ذات ضرورة مماثلة. وتتضح أهمية المثيرات الخارجية بواسطة تجارب تثبت أن الأطفال الرضع سيكفون عن أهم ضروب نشاطهم، أي الرضاعة من الثدي أو الزجاجة، عند إعطائهم شيئا جديدا ينظرون إليه أو يستمعون له[6].

إن لدى الآباء وغيرهم من ذوي التعاملات الحميمة مع الأطفال الصغار فهما عمليا لأهمية الإثارة البيئية، فهم يعرفون أن الأطفال الرضع يمكن صرف انتباههم عن الألم الجسدي أو عن المواقف الانفعالية المؤلمة، مثل الانفصال عن الأمهات بتحريك سوار لامع أمامهم أو بغناء أغنية مفعمة

بالحياة. وأحيانا تعمل رؤية لون معين عملها في تهدئة طفل مهتاج، كما يؤدي الاقتراب بطفل باك من نافذة تطل على شارع يموج بالحركة إلى إحداث تأثير مهدئ بسرعة في أحيان كثيرة.

ومن الممكن أن نفترض أن الأطفال يحتاجون إلى تلقي مادة حسية، تماما كما يحتاجون إلى الطعام والحنان. وقد تكون تلبية هذه الحاجة إلى المثير الحسي، عندئذ، ممتعة للطفل كالأكل والاحتضان.

إن التركيز التليفزيوني الاستثنائي على المتع الحسية في كم واحد من التجربة - الصور المتحركة، والأصوات الجذابة والمثيرة، مقترنة بالطابع المتكرر لهذه المثيرات على الشاشة ومعززة بالمغريات الإدراكية للأصوات والصور الإنسانية المألوفة - ربما وفر تجربة فريدة في الإمتاع. وفي الوقت الذي لا تعد فيه أي من المكونات المنفردة للتجربة التليفزيونية في أي مكان مشابهة على أي نحو للمتع الفطرية الأساسية للأكل أو التخلص من الفضلات من حيث قيمة الإشباع، إلا أن هذه المكونات مجتمعة قد تمنح إشباعا طاغيا لا يقاوم.

على أن من المؤكد أن جانبا آخر من الإجابة على السؤال عن سبب اكتساب التليفزيون هذا القدر الكبير من الأهمية في حياة الأطفال، يكمن في الصراع الإنساني الأساسي بين السلبية والنشاط. إن هذا الصراع قوي بخاصة في أثناء مرحلة الطفولة المبكرة، حين ينتقل الكائن الإنساني من الاعتماد الفسيولوجي والسيكولوجي والسلبية إلى النشاط المسير ذاتيا والاستقلالية. ويصف إريك فروم Erich Fromm «توق الإنسان إلى التحرر من مخاطر المسؤولية، والحرية، والوعي، واشتياقه إلى حب غير مشروط، يمنح له بلا انتظار الاستجابة من المحبوب»[7]، وهما توق واشتياق يشكلان أساس الكثير من أوجه نشاط الإنسان ويحاولان إضعاف حركته نحو السيطرة على بيئته، ونحو الاستكشاف، والقيادة، ومنح الحب لا مجرد الحصول عليه فحسب.

إن الأطفال في تجاربهم التليفزيونية يعودون إلى تلك السلبية المريحة، الارتدادية التي كانت ذات يوم حقا لهم والتي لا بد لهم الآن من أن يتخلوا عنها إذا أرادوا أن يصيروا أعضاء عاملين في المجتمع. إنهم يتحررون من مخاطر الحياة فقط حينما يشاهدون التليفزيون، لكن ما يعوق تقدمهم

باتجاه النشاط، والعطاء «والعمل»، هو اندماجهم مع التليفزيون.

ولا عجب، إذن، أن يجد الآباء صعوبة في الإصرار على مواقفهم حين يقررون تقييد المشاهدة التليفزيونية لأطفالهم. ففي بكاء ونحيب أطفالهم، وفي مناشدتهم وتوسلاتهم، وفي المساومات التي لا تنتهي لبلوغ حل وسط («دعني فقط أشاهد هذا البرنامج الإضافي اليوم ثم لن أشاهد أي تليفزيون غدا»)، يسمع الآباء نغمة اليأس الحقيقية. ومن دون اقتناع راسخ بأن المتعة الخاصة التي يتيحها التليفزيون ليست من فئة الإشباعات الأساسية ذاتها التي تزيد قيمة الحياة، وأن المشاهدة التليفزيونية لا تعزز النمو بل تمنع الأطفال من العمل على نحو يجعلهم يحققون النجاح، فليس لدى الآباء الشجاعة، ببساطة تامة، لإغلاق جهاز التليفزيون.

تتذكر أم قررت التخلص من التليفزيون منذ عامين صراعاتها السابقة للسيطرة على التليفزيون: «أظن أنني كمعظم الأمهات كنت فقط أكره إفساد متعتهم، برغم شعوري بأنهم يحصلون على المتعة من شيء لا نفع منه تماما. لقد بدا أن من القسوة والأنانية أن أحرمهم من برامجهم حينما أرادوا مشاهدة الكثير. والآن يبدو الحال مختلفا إذ لم يعد لدينا جهاز تليفزيون، وبطريقة أو بأخرى لا أشعر أنهم حرموا من شيء، فعلى العكس من ذلك، أشعر بأن التليفزيون كان يحرمهم فعليا من عمل الكثير من الأشياء المفيدة التي يعملونها الآن...».

بعض الأطفال أكثر قابلية للتأثر

تقول طبيبة وأم، من سكارديل بولاية نيويورك: «لدي ثلاث بنات، ولكل منهن علاقة مختلفة جدا مع جهاز التليفزيون، ويتعين علي أن أراقب مشاهدة الطفلة الصغرى للتليفزيون على نحو أكثر صرامة، لأنها ستواصل المشاهدة طوال الوقت إذا استطاعت. أما الطفلتان الأكبر سنا فهما أكثر ميلا لتنظيم شؤونهما ذاتيا وكانتا دوما هكذا».

ليس هناك خلاف على أن بعض الأطفال أكثر قابلية للتأثر بالتليفزيون من الآخرين. ونحن في حاجة إلى بحوث تستجلي بالضبط المكونات النوعية للشخصية التي قد توافق الجاذبية العميقة للمشاهدة التليفزيونية التي يظهرها بعض الأطفال. على أنه في الوقت الذي يستمتع فيه جميع الأطفال

بمشاهدة التليفزيون، يبدو أن بعضهم يحتاج إلى التليفزيون أكثر من غيره بكثير ويرغب في المشاهدة بلا انقطاع.

وتتعاظم المشكلات الأسرية بشأن السيطرة على التليفزيون نتيجة لوجود الطفل ذي القابلية للتأثر بالتليفزيون، وتتكرر على نحو موصول عبارة مثل «لولا ماري ما كانت لدينا متاعب كثيرة مع التليفزيون»، مع تغير الأسماء ما بين داني أو تومي أو آني أو أي من الأطفال الآخرين الذين يذكرهم الآباء. ويبدو أن الأسر التي تضم طفلا أو طفلين أو أكثر لديها طفل من هذا النوع، وكثيرا ما يكون هذا الطفل هو الطفل الذي يدرك الآباء أن لديه مشكلات أكثر بصفة عامة - الطفل الخجول أو السلبي، أو العدواني، الطفل الذي يعاني متاعب في التوافق مع الأطفال الآخرين. وليس من الصعب أن نفهم لماذا يشكل الطفل المضطرب أو سريع التأثر ارتباطا أكثر عمقا بمتع المشاهدة التليفزيونية المأمونة سهلة الإشباع. وفي الوقت ذاته، يبدو ذلك الطفل، في الأسر ذات الطفل الواحد، أكثر ميلا إلى حد بعيد لتنمية تلك العلاقة العميقة مع التليفزيون التي يتسم بها الطفل ذو القابلية للتأثر بالتليفزيون، ربما ببساطة كإبدال للأقارب.

لكن حتى لو كان أفراد الأسرة الآخرون فاتري الحماس نحو التليفزيون، فإن وجود أحد المغرمين بالتليفزيون في الأسرة كاف لخلق مشكلات تليفزيونية خطيرة

فمن الصعب كثيرا الانهماك في ضروب النشاط الأسري وصون المشاعر الأسرية الوطيدة، حين يفضل أحد أفراد الأسرة باستمرار مشاهدة التليفزيون. ففي حالات كثيرة جدا يخضع الطفل سريع التأثر بالتليفزيون أفراد الأسرة الآخرين لمجال تأثيره وينتهي الحال بالجميع إلى مشاهدة تليفزيونية تتجاوز ما قد يعتبره الآباء مرغوبا فيه. ومع ذلك، فإن أطفال الأسرة الآخرين يستمتعون فعلا بمشاهدة التليفزيون، وإن لم يكن بالكثافة نفسها كأقاربهم سريعي التأثر، وليس من الصعب عليهم أن يتحولوا عن أنشطة أخرى إلى مشاهدة التليفزيون، كما قد يبدو عليه حال الطفل المحب للتليفزيون عند صرف انتباهه عن جهاز التليفزيون بواسطة البدائل الجذابة المتنوعة التي يقدمها الآباء أو الأطفال الآخرون. ذلك أن جاذبية التليفزيون، كما يتضح قوية بأكثر مما ينبغي.

زملة أعراض الطفل المُتْعب(*)

يتضح حجم اعتماد الآباء على التليفزيون وعجزهم عن السيطرة على المشاهدة التليفزيونية لأطفالهم في حادثة «زملة أعراض الطفل المتعب» كما نقلتها صحيفة نيويورك تايمز قبل عدة سنوات[8].

فقد شعر أطباء الأطفال في مستشفيين تابعين للقوات الجوية بالحيرة لحدوث زملة أعراض القلق ـ إرهاق متكرر باستمرار، فقدان الشهية، صداع، وتقيؤ ـ في مجموعة من ثلاثين طفلا أحضرهم آباؤهم للتشخيص. وحين اكتشف الأطباء أن الأطفال كانوا يقضون ما بين ثلاث وست ساعات يوميا في مشاهدة التليفزيون، وما بين ست وعشر ساعات في نهايات الأسبوع، ساورتهم شكوك في أن الإفراط في المشاهدة التليفزيونية قد يكون ذا صلة بحالة الأطفال، وأعطوا تعليمات للآباء بإيقاف المشاهدة تماما.

كانت تأثيرات ذلك دراماتيكية لدى الأطفال الاثني عشر الذين اتبع آباؤهم التعليمات بدقة: لقد اختفت الأعراض في غضون أسبوعين أو ثلاثة، لكن آباء الأطفال الثمانية الآخرين عجزوا عن الالتزام بالتعليمات وسمحوا بما يصل إلى ساعتين من المشاهدة يوميا، بالرغم من أوامر الأطباء لهم بإيقاف المشاهدة بالكامل. ومع ذلك، فإن هؤلاء الأطفال، حتى من خلال التقليل المهم لمشاهدتهم اليومية، استطاعوا أن يتخلصوا من الأعراض في غضون ثلاثة إلى ستة أسابيع.

وكشفت متابعة لاحقة عن موقف مفزع: فمن بين الستة والعشرين طفلا الذين استمرت متابعة حالاتهم عدة أشهر، ظل تسعة فقط بمنأى عن الأعراض، وكانوا جميعا خاضعين لقيود المشاهدة. أما ما يتعلق بالباقين، فقد رفعت القيود تماما عن ثلاثة عشر طفلا عانى أحد عشر منهم مرة ثانية من أعراض قاسية، وسمح لأربعة آخرين بمشاهدة محدودة وكانت اضطراباتهم ضمن حدود معينة.

إن من الصعب إثبات أن المشاهدة التليفزيونية كانت السبب المباشر وراء أعراض «زملة الطفل المتعب». فربما ساعدت ألوان النشاط الجديدة التي حلت محل التليفزيون في حياة هؤلاء الأطفال الذين قيدت مشاهدتهم ـ زيادة اللعب، والحديث، والجري، والتصرف كالأطفال بعامة ـ على الشفاء.

(*) The "Tired-Child Syndrome"

على أن ما تكشفه هذه الحادثة عن صعوبات الآباء فيما يتصل بالسيطرة على التليفزيون بالغ الأثر: فأكثر من ثلثي آباء الأطفال المعنيين عجزوا عن تقييد مشاهدة أطفالهم بنجاح، على الرغم من الأوامر الصادرة لهم من أطباء الأطفال بعمل ذلك، وعلى الرغم من عودة الأعراض المرضية للأطفال بمجرد أن لانت قلوب آبائهم.

ونلاحظ إشارة إضافية إلى استعباد التليفزيون لهؤلاء الآباء في تلك الحقيقة القاسية: فقد وصف الأطباء مسكن الكلوربرومازين Chlorprommazine القوي، علاجا لبعض الأطفال لمساعدتهم في أثناء الأيام الأولى من المعالجة. وقد التمس عدد من الآباء الذين وجدوا صعوبة في تقييد مشاهدة أطفالهم التليفزيونية تسكينا إضافيا لأطفالهم، مفضلين ذلك البديل على عناء الحياة من غير تليفزيون.

مدمنون مجهولون

كما أن الخطوة الأولى في علاج إدمان الكحوليات تبدأ بجعل المدمن يواجه حقيقة أن لديه مشكلة مع الشراب، فكذلك بالضبط لا بد أن تكون الخطوة الأولى في مداواة إدمان التليفزيون هي الاعتراف الواسع بأنها حقا مشكلة. وربما يحتاج الأمر إلى منظمة جديدة اليوم من أجل تنبيه الرأي العام إلى وجود إدمان التليفزيون وطبيعة هذا الإدمان ومساعدة الأسر في نضالها للسيطرة عليه.

وعلى خلاف جماعة «العمل من أجل تليفزيون الأطفال» (ACT)، التي تركزت جهودها على تحسين البرامج على شاشة التليفزيون، فإن المنظمة الجديدة ينبغي أن تركز على مشكلات الإدمان التليفزيوني بين الكبار بالإضافة إلى المشاهدين الصغار. ولعل المنظمة الجديدة إذ تشجع الآباء على معالجة مشكلة الاعتماد على التليفزيون، فيما يتعلق بأطفالهم وبهم أيضا، تستطيع في الوقت نفسه تشجيع إحياء ألوان النشاط الأسري الذي يخصص لملء الفراغ الناجم عن غياب التليفزيون، مثل ألوان التسلية التي طال افتقادها كالقراءة، ورواية الحكايات، والغناء العائلي. وربما يمكن استكشاف الوسائل التي تجعل وقت عشاء الأسرة حدثا أكثر متعة، ومن الممكن تشجيع فن الحديث، فمن شأن ذلك أن يعزز أوجه النشاط المتمركزة

حول الناس بدلا من تلك المتمركزة حول الجهاز.

على أن أبرز أدوار هذه المنظمة قيمة، من ناحية ثانية، قد يكون مساعدة آباء الأطفال الصغار على فهم طبيعة التجربة التليفزيونية والتأثيرات المحتملة للمشاهدة التليفزيونية المنتظمة في أطفالهم. فلو صار هؤلاء الآباء أكثر وعيا ببعض العواقب المحتملة على نمو الأطفال بسبب طفولة خاضعة لسيطرة التليفزيون - نموهم اللفظي، مثلا، حالة الاعتماد أو حالة الاستقلالية، حساسيتهم، القدرة القرائية، وفي النهاية إنتاجهم كأعضاء بالغين منتجين في المجتمع - ولو بدأ هؤلاء الآباء التفكير في دور التليفزيون في حياة أطفالهم وفي حياتهم معا كأسرة، بصرف النظر عن الطابع سريع الزوال لما يحدث على الشاشة - فحينئذ فقط يستطيع الآباء التفكير فيما ينبغي عمله في هذا الصدد.

16 السيطرة على التليفزيون

ينشغل بعض الآباء في صراع متواصل، ولا يحالفهم النجاح عموما، للسيطرة على التليفزيون. ويجد آخرون أن من الصعوبة بمكان أن يحافظوا على حياة أسرية خصبة ومتنوعة الخصائص مع وجود جهاز التليفزيون في البيت، ويفضلون العيش من دونه على وجه الإجمال.

لكن عددا من الأسر ينجح في التعايش في هدوء نسبي مع جهاز التليفزيون، ويعاني القليل من مشكلات السيطرة التي يبدو أنها تزعج معظم الآباء والأمهات الأمريكيين.

فكيف ينجح هؤلاء الآباء على حين يتخبط كثيرون آخرون ويخفقون؟ يكمن النجاح أحيانا في مقدرتهم على التشدد فيما يتصل بالتليفزيون، ووضع قواعد صارمة غير قابلة للتفاوض بشأن المشاهدة، وفي حالات أخرى يجد الآباء المساعدة في أشكال «طبيعية» معينة من السيطرة.

قواعد صارمة

إن صعوبات السيطرة على المشاهدة التليفزيونية للأطفال ـ الإغراءات القوية للتجربة التليفزيونية، السلطة المتناقصة للأسرة، قلة الدعم من المدارس

والمؤسسات الأخرى، ضغوط الرفقاء ـ كل هذا يتحالف لكي يستنزف ثقة الآباء ويجعل من الصعب عليهم حرمان أطفالهم من مسرات التليفزيون، ووضع قواعد صارمة والتمسك بها. لكن بعض الآباء ينجحون في استجماع قواهم على الحزم ويتوقف التليفزيون بالتالي عن أن يكون مشكلة.

محلل نفسي متخصص في الأطفال لا ينصح الآباء بأي شكل من الأشكال فيما يتصل بمشاكلهم التليفزيونية، إيمانا منه بأن عليهم في النهاية تربية أطفالهم «طبقا لمواهبهم وقدراتهم الخاصة». ويذكر هذا المحلل النفسي ، وهو أب لأربعة أطفال ولا توجد لديه مشاكل تليفزيونية في داخل أسرته، أنهم نادرا ما يشاهدون التليفزيون. ويضيف: «أطفالنا فاترو النشاط فيما يتعلق بالتليفزيون ونحن لا نحاول أن نثنيهم عن المشاهدة التليفزيونية، بل نغلق الجهاز ببساطة ونقول لهم إن هناك أشياء أفضل يمكن عملها».

ويحل عدد من الأسر مشاكل السيطرة على التليفزيون بمنع التليفزيون خلال أيام الأسبوع الدراسية، وهي قاعدة يتم قبولها كجزء من الحياة الأسرية إلى درجة أنهم يعيشون فعليا خمسة أيام خالية من التليفزيون كل أسبوع، مستمتعين على مهل، بوجبات الطعام الممتلئة بالأحاديث وطريقة حياة تسيطر عليها حاجاتهم الإنسانية الخاصة. ويؤدي الأطفال واجباتهم المدرسية بغير ضغوط من البرامج التليفزيونية التي تجعلهم يسرعون للانتهاء منها. وفي نهايات الأسبوع يستمتعون بالتليفزيون كغيرهم من الأسر، ولكن من دون ذلك القلق الموجع الذي يدمر بالتدريج حياتهم الأسرية وعلاقاتهم العائلية.

ليس هناك إحصائيات متاحة تبين عدد الأسر التي تغلق التليفزيون في أيام المدرسة، لكن من المثير أن نلاحظ أن نائب الرئيس السابق المسؤول عن برامج الأطفال لدى شبكة تليفزيون CBS، قال في مقابلة صحفية إنه «لم يكن يسمح لأطفاله خلال فترة نموهم بمشاهدة البرامج في أيام الدراسة... وكان يتعين عليهم الاهتمام بأمور أكثر حيوية من الناحية الفكرية»[1].

على أن أسرا أخرى تضع حدا زمنيا يوميا صارما لا يزيد على ساعة في اليوم على المشاهدة التليفزيونية لأطفالها، ويؤدي ذلك إلى إنقاص الطابع التليفزيوني لحياة الأسرة بدرجة كبيرة، ولو أن ذلك ليس له التأثير نفسه للفسحة الحقيقية من التليفزيون. وأحيانا يقنع الأطفال آباءهم بوضع

حد زمني يتجاوز الساعة في اليوم. والواقع أن بعض الأسر تشعر بأنها قد أكدت صرامة الأهل الصحيحة بتقييد المشاهدة التليفزيونية لأطفالها بما يصل إلى ثلاث ساعات يوميا. وقد يكون نظام الساعات الثلاث، إذا ما قورن بالمشاهدة التليفزيونية لمدة سبع ساعات يوميا، نوعا من التحسن بالنسبة للطفل؛ لكن مثل هذا التحديد المتساهل لا يشكل فرقا كافيا في أسلوب حياة الأسرة. فالتليفزيون وحديث التليفزيون وخطط التليفزيون تظل مسيطرة. وتصف أم حددت المشاهدة التليفزيونية اليومية لأطفالها بساعتين استمرار ضيقها بتأثيرات التليفزيون في حياتها الأسرية:

«إن ما يقلقني بشدة ليس مسألة السيطرة على التليفزيون، لأننا وضعنا بعض القواعد التي يتعين على الأطفال مراعاتها، لكن ما لا أستطيع منعهم من عمله هو الحديث عن التليفزيون. أود لو استطعت أن أعيد على مسامعك محادثة عادية مما يدور على مائدة العشاء، فالأطفال لا يتكلمون عن شيء سوى ما جرى في هذا البرنامج أو ذاك، من فعل هذا ولمن؟ من قال وماذا قال؟ وما حدث بعد ذلك؟ وفي بعض الأحيان نقول لهم، زوجي وأنا، أن يكفوا عن ذلك، فنحن لا نريد سماع المزيد عن برامج التليفزيون. ونسألهم ماذا حدث في المدرسة اليوم؟ وهكذا نحصل على فاصل إضافي قصير يخبروننا فيه بسرعة عن المدرسة ثم يعودون مباشرة إلى التليفزيون، وإلى الممثل الذي لعب دور كذا... وهكذا دواليك».

وهناك أسرة أخرى (تخلصت أخيرا من جهاز التليفزيون لديها نهائيا) عالجت مشكلة مماثلة بمحاولة وضع قواعد بشأن الأحاديث الأسرية بدلا من وضع قيود على المشاهدة التليفزيونية:

كانت غالبية الأحاديث أثناء وقت عشاء ألكسندر لها علاقة بالتليفزيون، فهو إما أن يردد أغاني مقفاة من الإعلانات أو يروي حوادث من البرامج بإسهاب عمّا فعله أحد سكان الكهوف لساكن آخر وما إلى ذلك - إلى درجة أننا حاولنا وضع نظام تصنيف لموضوعات الأحاديث الملائمة وغير الملائمة، وقد أطلقنا على الموضوعات الملائمة صنف «أ. ع» - أحاديث عامة. وبلا ريب، لم يكن الحديث عن التليفزيون من صنف «أ. ع». وقد بدأت هذا النظام بعد أن ساورني شعور كئيب بأننا لم نحصل أبدا على فرصة حقيقية ليتحدث أحدنا إلى الآخر، ونعرف فيما كنا نفكر، أو نشعر - أو ماذا كنا

نتوي عمله . كانت الأحاديث مجرد امتداد للمشاهدة التليفزيونية.

وتتضاعف مشكلات السيطرة عند بعض الأسر بسبب عدم الاتفاق بين الآباء أنفسهم بشأن الحاجة إلى السيطرة على التليفزيون.

يصف أب لديه طفل في الخامسة موقفا من هذا النوع:

«نحن نحدد وقت المشاهدة التليفزيونية لبيتر بساعة يوميا، والأمور تسير على ما يرام الآن، غير أننا كنا قد تعودنا على الدخول في أفظع المشاجرات مع بيتر بشأن التليفزيون، وقد عانينا الكثير من المتاعب بسبب قول «لا» فيما يتعلق بالتليفزيون، لأنه كان يغمى عليه حقيقة، في ثورة غضب تامة، وكان يخيفنا، أو يخيفني أنا على الأقل، ولم أكن في الحقيقة أسيء الظن بالتليفزيون إلى هذا الحد، ولم أكن أظن أن الأمر يستحق النزاع، مادام هو يريد المشاهدة بهذه الدرجة الملحة. لكن التليفزيون حاليا يظل مغلقا حتى لو أغمي عليه. التليفزيون ساعة واحدة يوميا، هذه هي القاعدة، ونحن نتمسك بها. وبالفعل لم يعد من المزعج أن يغمى عليه، فهو يعرف أن القاعدة موجودة. لكن إرساء تلك القاعدة احتاج منا إلى عدة سنوات - (يضحك) عدة سنوات لزوجتي ولي لنتفق بما يكفي على إرساء تلك القاعدة. وبمجرد أن استقرت، أدرك بيتر ذلك بسرعة، غير أنه عندما كنت وزوجتي غير متفقين تماما بشأن التليفزيون، كان يدرك في الحال أن الفرصة سانحة لمضايقتنا، ودق إسفين بيننا. كما كان يدرك أن بإمكانه بسهولة أن يجعلنا ننشغل بالمسألة التليفزيونية برمتها».

وتعلق إحدى الأمهات: «أحاول أن أجعل أطفالي يتخلون عن هذه العادة لكن ذلك صعب للغاية، فهم يريدون أن يشاهدوا هذا وأن يشاهدوا ذاك وبعد ذلك هناك جميع المواد والفقرات الخاصة التي عليهم مشاهدتها، لأن أصدقاءهم سيفعلون ذلك. وأنا أحاول أن أكون حازمة، لكن أباهم لا ينفر إلى هذا الحد مثلي من هذا الحضور التليفزيوني الطاغي، ولذلك فهو يوافق على ما يريدون».

التلقين ضد التليفزيون

يكتشف بعض الآباء، في أثناء كفاحهم من أجل السيطرة على التليفزيون، أن مواقفهم السلبية الخاصة نحو التليفزيون يمكن أن تفيد في تقليل شغف

أطفالهم به. والواقع أن إحساس الآباء المتساهلين عادة بأنهم أوضحوا مشاعرهم بطريقة مقنعة كثيرا ما يشجعهم على فرض قواعد بشأن التليفزيون.

تقول أم لديها طفلان صغيران «كنت أعبر للطفلين عن شعوري نحو التليفزيون طوال فترة طويلة، وأظن أنني قد قمت بتلقينهما ما أردته. إنني أشرح لهما كيف أن العمل أفضل من مجرد المشاهدة. وحين نكون في مخزن بيع اللعب أشير إلى لعب معينة وأصفها بأنها لعب تليفزيونية، لعب تملؤها فتعمل بينما أنت تجلس بعيدا، وأحط في الحقيقة من قيمة ذلك النوع من اللعب. ويدور الحديث عن لعب يمكن لك أن تؤثر فيها بطريقة ما، مثل الحبال والخيوط والكرات. لعب يمكنك عمل شيء لها، فتصبح اللعبة أي شيء تختاره أنت. وهما يفهمان ما أشعر به، وبينما تشكل اللعب التي تدار يدويا بالنابض واللعب التليفزيونية مغريات لهما، كما تفعل غالبا ضروب التسلية السلبية (ولا شك في أنهما يشاهدانها بين حين وآخر) إلا أن من الواضح أن قدرا من المقاومة نما لديهما، ضد هذه اللعب».

ويصف أب لطفل في السادسة من عمره حادثة أثبتت فائدتها في حل مشكلة تليفزيونية:

في إحدى اللحظات شعر ولدنا بحزن شديد عقب مشاهدة برنامج مغامرات معي قائلا إن هناك شيئا أراد أن يخبرني عنه في أثناء البرنامج لكنه لم يفعل لأنه خشي أن يفوته شيء من البرنامج. قلت له «انظر ماذا يفعل التليفزيون بك؟ أردت أن تتحدث إلي عن شيء مهم ولم يتح لك التليفزيون ذلك. إنه يبعد كلا منا عن الآخر، على الأقل إلى حد ما. نحن أسرة ونريد أن يتحدث أحدنا إلى الآخر، لكن التليفزيون يمنعنا من الحديث». حقيقة لقد فهم ذلك جيدا، صدق أو لا تصدق، فلم يعد يبدو شديد اللهفة على المشاهدة. إن علاقاتنا الأسرية مفعمة بالجدية والاحترام بالنسبة لنا ولأطفالنا. لقد أردت فحسب أن أصور له المسألة على هذا النحو ونجحت المحاولة.

وتروي أم من دنفر قامت بتحديد وقت المشاهدة لأطفالها بساعتين أسبوعيا، في نهايات الأسبوع فقط:

هناك فرق كبير في شعور أطفالي نحو التليفزيون، فلم يعد الجهاز

يشكل بالنسبة لهم الجانب الأساسي في حياتهم، وهم يستطيعون أن يقرروا بأنفسهم ما يريدون بشأنه، لكنهم يلاحظون أن الأطفال الآخرين يشاهدون الكثير من برامج التليفزيون وينظرون بازدراء للأطفال الذين يعتمدون على التليفزيون. شيء من جاذبية التكبر المصطنع! إنهم يدركون أن على الأطفال الآخرين أن يعتمدوا على التليفزيون لتسليتهم بينما هم ليسوا مضطرين لذلك. ومما لا شك فيه أننا تحدثنا إليهم بجدية عن ذلك، وهم يفخرون بأنهم يستطيعون الجلوس وتسلية أنفسهم بالفعل إلى حد كبير.

وينصح أحد الكتاب الآباء بعدم تعريض التليفزيون «للانتقاد»، لأن الأطفال «إذا لاحظوا بعد ذلك أن أمهم وأباهم يشاهدان التليفزيون، فسوف يفقدون احترامهم لهما»[2]. ومما لا شك فيه أن من السهل أكثر السيطرة على مشاهدة الأطفال التليفزيونية إذا كان الآباء لا يقضون وقتا طويلا في مشاهدة التليفزيون أثناء أوقات يقظة الأطفال. ومع ذلك فليس هناك سبب يلزم الأبوين اللذين يضعان قواعد صارمة بشأن وقت مشاهدة أطفالهما للتليفزيون بمشاهدة البرامج التي يريدان مشاهدتها خلسة. فحياتهما الخاصة، برغم كل شيء تختلف في جوانب كثيرة عن حياة أطفالهما الصغار؛ فهما يعملان، ولديهما مسؤوليات الكبار، وهما ينشغلان في عدد من أنشطة الكبار التي لا يجدان داعيا لإدخال الأطفال فيها. إن المشاهدة التليفزيونية ليست سوى لون واحد من ألوان نشاط الكبار.

سيطرة طبيعية

هناك طرق «طبيعية» للسيطرة على التليفزيون لا تتطلب الانضباط أو أي تغيير واسع في أسلوب تنشئة الطفل، وذلك من أجل الآباء الذين يفتقرون إلى رصيد القوة اللازمة لوضع القواعد والالتزام بها برغم من التملق، والنحيب، والاستعطاف، أو صرخات الغضب الأشد ألما من كل ما سبق «أنا أكرهك». وتتعلق هذه الطرق بعوامل طبيعية تتصل بالصوت ووضع الجهاز، واستعمال وسائل السيطرة على الجهاز ذاته بالإضافة إلى الوضع الاجتماعي الطبيعي للحياة الأسرية اليومية. وكثيرا ما تتيح عوامل كهذه للآباء الذين لا يستطيعون قول «لا» بالأسلوب القديم أو ربما غير الديموقراطي، العيش في هدوء نسبي مع أجهزتهم التليفزيونية.

حساسية الوالدين

كثيرا ما تعمل حساسية الوالدين للصوت كقيد طبيعي. فقد أشار عدد من الأمهات والآباء إلى الحساسية كعامل للسيطرة على التليفزيون:

«لا أستطيع بأي شكل تحمل صوته، وبخاصة الصوت الجنوني للرسوم المتحركة وألعاب الكرة، وهو ما يدفعني نحو الجنون وأمضي فأغلق الجهاز».

«أنا شديد الحساسية للأصوات ويزعجني الضجيج أيما إزعاج ولا يمكنني أن أطيق الحديث المتواصل من هذا الجهاز الموضوع في ذلك الركن، إضافة إلى الجلبة العامة، وربما كان ذلك هو السبب الوحيد لتشددي فيما يتعلق بالتليفزيون لأني غير متشدد بشأن أي شيء آخر».

«حين نستمع إلى التليفزيون، يكون صوته أكثر انخفاضا منه في أي مكان آخر أعرفه. لكن الأطفال الآخرين الذين يأتون إلى بيتنا يرفعون درجة الصوت، وأنا لا أحتمل ذلك. غير أنني بسبب عدم تحملي للضوضاء، لا أظن أن الأطفال سيتأثرون إلى حد الخدر حين يعمل التليفزيون بهدوء شديد، ولا يبدو أنه سيؤثر في عقولهم بدرجة كبيرة».

الجهاز نفسه

كثيرا ما يكون جهاز التليفزيون نفسه، من حيث حالته ومكانه في البيت، بمنزلة قيد طبيعي على المشاهدة الأسرية.

يقول طفل في الثامنة من عمره لا يشاهد التليفزيون إلا لماما: «لا أحب مشاهدة التليفزيون كثيرا، لأن لدينا جهازا مريعا في حالة تشوش مستمر، فإما أن يكون الصوت رديئا أو الصورة سيئة أو كلاهما، والأسوأ أن تكون الصورة أحيانا مزدوجة، كما أن جهاز جدتي رديء جدا».

وتتخذ بعض الأسر عن عمد قرارا بالعيش مع جهاز تليفزيوني متواضع.

يروي معلم إنجليزي لديه طفلان صغيران: «لقد ورثنا جهازا قديما. كان الاستقبال شنيعا وفكرت زوجتي في إمكان إصلاحه، أو شراء جهاز أفضل، لكنني أقنعتها بالاحتفاظ بالجهاز القديم. كنا لا نزال نستطيع مشاهدة برنامج من البرامج إذا شئنا، لكن ذلك لم يكن سهل المنال. وأهم ما في المسألة أن ذلك جعل التجربة بكاملها أقل إغراء لنا، وكان هذا ما نحتاج إليه. لقد كنا جميعا نميل إلى كثرة المشاهدة عند تيسر جهاز جيد».

وتضع الكثير من الأسر مشكلة السيطرة على الجهاز وتأثيرات التليفزيون في وحدة الأسرة في الاعتبار عندما تفكر في المكان الذي يوضع فيه جهاز التليفزيون:

لقد وضعنا الجهاز في حجرة الجلوس لأننا نشعر بأن ذلك يقلل احتمال التباعد الأسري، كما يساعد ذلك في تقليل المشاهدة بالنسبة للأطفال لأنهم لا يستطيعون المشاهدة أثناء وجود ضيوف لدينا. وهو أمر ينبغي مراعاته، وهم يتقبلون ذلك بدلا من أن نحاول وضع قواعد بشأن متى يمكنهم المشاهدة ومتى لا يمكنهم.

وتمضي بعض الأسر أبعد من ذلك في جهودها من أجل إيجاد طريقة لتحجيم المشاهدة التليفزيونية للأطفال:

تعودنا أن نضع جهاز التليفزيون في غرفة الجلوس بالدور العلوي، غير أن ذلك جعله سهل المنال ومغريا للغاية. وظهرت لدينا صنوف المشاكل كافة بسبب ذلك، وشعرنا بأن الأطفال - وأننا جميعا، في الواقع - أصبحنا نشاهد التليفزيون أكثر مما ينبغي. ولم نشأ التخلص من الجهاز تماما، فوضعناه في البدروم، وهو مكان متهدم وشبه كئيب، وليس المكان الذي تريده لكي تضطجع وتشاهد التليفزيون طوال المساء.

واتخذت أسرة أخرى قرارا مماثلا:

نحن نحتفظ بجهاز التليفزيون في البدروم لإبعاده عن الطريق، والجهاز موجود هناك لأننا لا نحب الحديث عن التليفزيون، كما يحدث في بيوت أصدقائنا، ولا نود صرف انتباه الآخرين وتشتيت مجرى الحديث. كما أن وضع الجهاز في البدروم يقلل من إغراء تشغيله بمجرد الدخول إلى البيت، ويتعين عليك أن تقوم برحلة خاصة إلى أسفل كي تشاهد شيئا ما.

وتذهب بعض الأسر بعيدا، في إطار العمل بمبدأ «البعيد عن العين، بعيد عن القلب» إلى حد وضع جهاز التليفزيون الخاص بها في خزانة بعد كل استعمال. ويضمن المجهود الذي تبذله الأسرة كلما أرادت المشاهدة قدرا من الانتقائية، كما يمنع الأطفال بصورة فعالة من الإفراط في الاستمتاع بالتليفزيون حين يكون الآباء خارج البيت، حتى إن تجشمت جليسات الأطفال أحيانا عناء إحضار الجهاز من الخزانة لمشاهدة برامجهن الخاصة. وهناك طريقة تستخدمها هذه الأسرة النيويوركية أقل حسما إلا أنها فعالة:

إن إحدى الوسائل التي تساعدنا على عدم زيادة مشاهدة التليفزيون امتلاكنا جهازا تليفزيونيا صغيرا باللونين الأبيض والأسود وهو جهاز غير ثابت، إذ ينبغي وضعه في أحد الأركان على منضدة خصيصا حتى تتاح المشاهدة وهو ما يجعله في مكان غير ملائم. وقد لاحظت في بعض المنازل أنهم يضعون جهاز التليفزيون في مكان مركزي إلى حد أنك لا تستطيع عمليا أن تفعل شيئا آخر سوى المشاهدة حين يكون الجهاز مفتوحا. غير أنه لما كان الجهاز الذي لدينا صغيرا وعليك أن تعاني متاعب جمة قبل وضعه، فإننا نميل إلى استعماله فقط في المناسبات الخاصة.

أما المثال العكسي للسيطرة الطبيعية فهو نزع السيطرة على نحو طبيعي، وهو ما يحدث حين يوضع جهاز التليفزيون في غرفة الطفل الخاصة. ويقول مدير إحدى المدارس الابتدائية:

أحيانا يذكر الآباء في أثناء أحد المؤتمرات أن لدى الأطفال جهازا في غرفتهم الخاصة. وأقول: «بالله عليكم، لماذا تلجأون إلى إعطاء طفلكم جهازا تليفزيونيا خاصا به؟ إن ذلك ينزع السيطرة عن الموقف تماما». ودائما يجيبون : «حسنا، نحن لا نريد أن نضطر للاستماع إلى برامجهم في حجرة الجلوس». لكنهم حين لا يستمعون إلى البرامج، يتوقفون كلية عن محاولة تقليص المشاهدة التليفزيونية.

وسائل السيطرة

أصبح في متناول الآباء خلال السنوات الأخيرة حل آخر للسيطرة على التليفزيون وتجنب صعوبات الحاجة إلى تأكيد سلطتهم مباشرة ومطالبة الأطفال بإغلاق الجهاز. وهذا الحل هو الصناديق ذات القفل وغيرها من وسائل السيطرة. ويمكن استخدام هذه الآليات الإلكترونية بتوصيلها بجهاز التليفزيون، لبرمجة عدد محدد من البرامج التليفزيونية، وبعدها يتوقف الجهاز عن العمل. ويمكن أيضا برمجتها لمنع قنوات معينة بصورة انتقائية (مثل قنوات الكيبل التي تبث مواد جنسية مكشوفة)، وحتى لمنع الأطفال من استعمال الجهاز في ألعاب الفيديو.

غير أنه خلافا للأساليب المادية الأخرى للسيطرة الطبيعية على التليفزيون، مثل وضع الجهاز في مكان غير ملائم، أو السماح بتلف الجهاز

إلى حد يجعله شيئا مشوشا، ضبابيا، خاليا من الجاذبية، فقد يكون هناك شيء معاد للروح الديمقراطية الأمريكية فيما يتعلق بالصندوق ذي القفل الذي يحجم تأثيره.

ذلك أن بعض الآباء باستعمال وسائل السيطرة يشيعون جوا من عدم الثقة مع أطفالهم، مظهرين لهم بكل وضوح أنهم لا يصدقون أنهم سيتبعون القواعد الأسرية الخاصة بالتليفزيون ما لم يغلق الجهاز. وهكذا تشرح إحدى الأمهات كيف كان لديهم صندوق ذو قفل طوال سنة تقريبا إلا أنهم يعتزمون إرجاعه حاليا. «الصندوق ذو القفل عندنا لكننا لا نستعمله، فالمفتاح موجود في الجهاز فحسب». وبخلاف الأشكال الأخرى للسيطرة التي تبدو لا مناص منها وطبيعية بطريقة أو بأخرى (وإن كانت توضع عن عمد في أغلب الأحيان ـ الجهاز في القبو العفن أو الجهاز رديء الاستقبال)، فإن الصندوق ذا القفل يبدو علامة بالغة الوضوح على ضعف الآباء الذين يلجأون إليه. لقد قرر صاحب مصنع لأجهزة التليفزيون عدم تسويق هذا النوع من المنتجات مع أجهزته التليفزيونية

وكما صرح متحدث باسم صاحب المصنع «فإنه لتعليق محزن نوعا ما على مجتمعنا إذا اضطر الآباء للاعتماد على وسائل إلكترونية من أجل السيطرة على برمجة الشبكات»[3]. وربما لهذا السبب اختارت قلة من الآباء الصندوق ذا القفل كطريقة سهلة للسيطرة.

كم عدد الأجهزة؟

يشكل عدد الأجهزة التي تمتلكها الأسرة فرقا كبيرا فيما يتعلق بكيفية سيطرة الآباء جيدا على مشاهدة أطفالهم. فقد لاحظ الباحثون، في دراسة جيدة التصميم للعوامل المؤثرة في سيطرة الآباء على المشاهدة التليفزيونية، أن عدد أجهزة التليفزيون في بيت ما مثّل «المتغير الأسري الحاسم» الذي يتكهن بإمكان نجاح الآباء في السيطرة على التليفزيون.

واكتشف الباحثون أنه كلما زادت الأجهزة، حقق الآباء سيطرة أقل. وأثبت عدد الأجهزة أنه أكثر أهمية كمؤشر على مشكلة السيطرة الأسرية، من مستوى تعليم الأسرة، أو دخلها، أو عاداتها التليفزيونية الخاصة. وخلص أصحاب الدراسة إلى أن «أسهل طريقة للآباء الذين يودون إظهار المزيد من

السيطرة على عادات أطفالهم التليفزيونية، هي إهمال إصلاح جهاز التليفزيون في المرة القادمة التي يتعطل فيها الجهاز»[4].

اقتراح متواضع

مما لا ريب فيه أن أبسط شكل للسيطرة الطبيعية، وهو الشكل الموجود حتى اليوم في عدد من البلدان الأجنبية، هو عدم بث برامج تليفزيونية على الإطلاق في أثناء بعض أو غالبية الساعات التي يكون فيها الأطفال أيقاظا، وبالتالي تخليص الآباء من إغراء «ربط أطفالهم به».

ويمكن رؤية إحدى علامات العجز الذي يشعر به كثير من الآباء تجاه السيطرة على التليفزيون في حالة «أم برايان» Brian's Mother التاريخية، كما ظهرت في مقالة صحفية عن تليفزيون الأطفال[5]. فعلى الرغم من تصميمها الشديد على تقييد المشاهدة التليفزيونية لطفلها الذي لم يكن قد دخل المدرسة بعد، فقد وجدت هذه الأم نفسها تفتح الجهاز لمشاهدة «شارع السمسم» بدافع اليأس حينما أصاب المرض أذن برايان لمدة أسبوع. وشيئا فشيئا، سمحت الأم لابنها بزيادة المشاهدة لـ «مستر روجرز» و«الشركة الكهربائية»، وأخيرا، وفي استسلام تام، للرسوم المتحركة على شاشة تليفزيون الإعلانات التجارية. وحتى بعد أن بدأ برايان يعاني من كوابيس «الوحوش المروعة» التي بدا أنها تخرج من برامج تليفزيونية معينة، لم تجد أمه نفسها قادرة على تسيير الحياة دون تشغيل جهاز التليفزيون لطفلها.

وحين علمت أم برايان أن اللجنة الفيدرالية لوسائل الاتصال FCC Federal Communications Commission، بدأت مداولات عامة لتحديد ما إذا كانت هناك برامج عمرية نوعية كافية للأطفال على شاشة التليفزيون، طرحت على اللجنة اقتراحا له طابع كتابات سويفت Swift الساخرة بالضبط. فقد أعلنت أن هناك بالفعل الكثير من البرامج العمرية النوعية للأطفال الآن على شاشة التليفزيون، وأن الإسهام الأكثر فائدة الذي يمكن أن تقدمه الـ FCC لشباب أمريكا هو ببساطة عدم بث أي شيء عن طريق التليفزيون فيما بين السادسة صباحا والسابعة والنصف مساء. ومن نافلة القول إنه ليس من المحتمل أن يصبح هذا الشكل من أشكال السيطرة الطبيعية حقيقة واقعة.

حياة اجتماعية خصبة

من الممكن أيضا أن تشكل الحياة الاجتماعية الخصبة قيدا طبيعيا على المشاهدة التليفزيونية للأطفال. فقد شعرت أسرة لديها طفلان في سن العاشرة والثامنة وتعيش في شقة فسيحة في نيويورك بأن جهاز التليفزيون قلما يستعمل على الرغم من الموقف المتساهل نحوه. ويشعر الولدان بذلك لوجود عدد إضافي من الأطفال باستمرار في البيت، بصورة مؤقتة، أو شبه دائمة.

وتروي الأم: «أنا شديدة الاهتمام بتنظيم حياة الأطفال الاجتماعية، لكن هناك دائما قدرا هائلا من النشاط في البيت، وعادة ما يعيش معنا طفل أو طفلان أكبر سنا، وبنات لصديقات يعشن خارج المدينة. كما أننا نعيش على الطريق إلى مدرسة لوسي التي تحضر معها صديقات إلى البيت بصورة تكاد تكون دائمة، وأحيانا يصل عددهن إلى عشر في المرة الواحدة! وعادة ما يحضر جيرمي معه إلى البيت طفلين بما أن مدرسته قريبة، أيضا. لكن له صديقا يعيش معنا في الدور الأعلى، وهو طفل وحيد، يشاهد التليفزيون بكثرة. وربما تكون هناك صلة بين المسألتين».

ويتفق أحد الأطباء النفسيين مع الرأي القائل إن مشكلة التليفزيون تعتمد على ظروف الأسرة الاجتماعية:

«ترتبط مشكلة التليفزيون بالأسر الصغيرة. فتسلية الأطفال الصغار تصبح سهلة تماما في حالة وجود أربعة أو خمسة أطفال من أعمار مختلفة طوال الوقت يسلي بعضهم بعضا. أما فكرة الأم التي تسلي طفلا صغيرا فهي فكرة مخبولة بكاملها، ولم تظهر أبدا قبل عام 1900».

وتناقش اختصاصية في علاج الأطفال حاجتها الخاصة إلى أسرة ممتدة وتربط مثل هذه الفكرة بمشكلة التليفزيون:

حين يكون لديك أطفال، فمن المنطقي أن تصل حياة تلك الأسرة النووية الصغيرة إلى نهاية. إن إنهاءها شيء مؤلم. ومن الصعب أن تكون لديك خصوصية أقل بكثير. لكني لا أشعر بأني أستطيع منح طفلي كل العناية التي يستحقها، والتي من المفيد أن يحصل عليها، ويحتاج إليها لتحقيق النجاح والازدهار. إنني في حاجة إلى اهتمام زوجي وإلى نشاطه، كما أحتاج إلى شقيقاتي وأخي وهلم جرا. إن ذلك يوفر لي الراحة، وتغير

المشاهد، ويخلص المرء من ذلك الشعور المربك المحير، إنه شيء رائع للطفل الوليد. وربما يكون هذا هو السبب الأساسي المهم لسيطرة التليفزيون القوية على الآباء - إنه مفوض الأسرة الممتدة. فليس هناك وسائل تسلية كافية تعطى للطفل في نطاق الأسرة الواحدة، والتليفزيون يملأ هذا الفراغ.

كتبت Sarane Boocock: «إن رعاية الأطفال الصغار، وهي نشاط يقتضي وجودا طوال الوقت وليس انتباها وعملا مستمرين فقط، ينفذ بكفاءة قصوى في مكان تتم فيه أنشطة أخرى أيضا»(6). وهكذا، فرض التشغيل الاقتصادي للبيت، فيما مضى، نوعا من التنظيم الذي يتوافر فيه عدد من الأشخاص لمشاركة رعاية الطفل. لكن الأم الوحيدة، المنعزلة ضمن الأسرة الصغيرة هذه الأيام، تتحول إلى جهاز التليفزيون من أجل تلك الخدمة التي كان يوفرها ذات يوم أعضاء الأسرة الآخرون، والجيران، والأصدقاء الذين كانوا موجودين باستمرار.

نزع السيطرة كوسيلة للسيطرة

يحتاج المقام إلى كلمة عن خرافة منتشرة مفادها أن السماح للأطفال بمشاهدة كم غير محدود من المواد التليفزيونية، بل، وتشجيعهم حتى على «التهام» التليفزيون، سوف يفقدهم اهتمامهم بهذه الوسيلة الإعلامية ويجعلهم ينظمون أمورهم بأنفسهم. يبدو أن لكل شخص جارا أو صديقا «كره» أطفاله التليفزيون بعد فترة «الجرعة الزائدة»، على حد التعبير المؤثر لأسلوب الخرافة غالبا. ومما لا شك فيه أن هذه الطريقة في السيطرة تبدو جذابة للآباء المنهمكين في صراع يومي مع أطفالهم حول المشاهدة التليفزيونية، وهو، فوق ذلك، صراع غريب تماما عن فلسفتهم الهادئة عموما في تنشئة الأطفال.

هناك بعض الصدق في هذه الخرافة، فلا ريب أن تراجعا في الاهتمام بالتليفزيون يحدث بعد فترة غير محدودة من المشاهدة. ومن الصحيح أيضا أن الاهتمام الزائد بالتليفزيون قد يحدث نتيجة لنظام أسري صارم. ومشكلة نزع السيطرة كوسيلة لتحقيق أقصى سيطرة هي، من ناحية أخرى، مشكلة الوقت. فإذا كانت المسألة مسألة السماح للطفل بالمشاهدة التليفزيونية غير المحدودة لعدة أيام أو أسابيع أو حتى شهور، لكان ذلك

مطلوبا من أجل جعله يفقد الاهتمام وتحقيق حياة أكثر توازنا له، وتوجب على الأسرة عندئذ التفكير في انتهاج هذه الطريقة.

لكن الواقع أن ذلك سيستغرق على الأرجح سنوات، وليس أياما أو شهورا، وتبدو مواجهة هذه السنوات الخاضعة لسيطرة برامج التليفزيون على الحياة الأسرية، سنوات اللعب المحدود وضعف الاستكشاف الطفولي، من أجل تجنب الحاجة إلى التكيف مع السيطرة التليفزيونية، ثمنا باهظا بأكثر مما ينبغي.

ويمكن أن نجد الدليل المحزن على عواقب سياسة عدم تدخل الوالدين تجاه التليفزيون في كلمات الأسى والحسرة التي تصدر من أطفال كثيرين سمح لهم بتمضية سنوات طفولتهم «مشدودين بالغراء إلى التليفزيون»، من دون أي قيود من الأهل. وقد يفيض الضجر فعلا بمثل هؤلاء الأطفال من المشاهدة التليفزيونية وهم يقتربون من مرحلة البلوغ، لكن أعدادا كبيرة منهم تشعر بمعنى الخسارة. إنهم يعبرون عن الندم على طفولة كانت أحادية اللون بصورة غريبة، رغم أن أجهزتهم التليفزيونية ربما كانت قد قدمت أروع الألوان الحية تألقا وبهاء.

القسم الرابع
التليفزيون

17 قبل التجارب وبعدها

قد تكون إحدى الوسائل لدراسة تأثيرات المشاهدة التليفزيونية المنتظمة في الحياة الأسرية هي المقارنة بين عدد من الأسر التي تشاهد التليفزيون بانتظام وبين عدد مماثل من الأسر التي لا تشاهد التليفزيون على الإطلاق. لكن، بما أن الأغلبية الساحقة من الأسر الأمريكية تندرج في فئة حائزي التليفزيون، فليس هناك ببساطة ما يكفي من الأسر اللاتليفزيونية لإجراء مقارنة متكافئة. أضف إلى ذلك أنه حتى في حالة وجود عدد كاف، ستظل نتائج تجربة من هذا القبيل غامضة متلبسة، فهناك فروق دقيقة كثيرة بين الأسر حتى إن وضعت في موضع المقارنة طبقا للطبقة الاجتماعية، والدخل، والحجم، والتعليم، أو غير ذلك، فضلا عن الكثير من أوجه الاختلاف المحتملة في أساليب الحياة إلى جانب وجود أو عدم وجود جهاز تليفزيوني.

هناك تجربة أكثر بساطة تستخدم طريقة ما قبل ـ ما بعد، خذ أسرة مشاهدة للتليفزيون وأبعد التليفزيون تماما لفترة من الوقت. وبعد ذلك ابحث الفروق بين حياتها اليومية مع التليفزيون ومن دونه. إن كل أسرة في تجربة كهذه تقارن بنفسها فقط،

ولذلك فمن المرجح كثيرا أن تكشف النتائج عن تأثيرات تليفزيونية أكثر مما تكشفه دراسة مقارنة تتناول أسرا مختلفة.

إننا نعرض هنا وصفا لثلاث تجارب من فئة ما قبل ـ ما بعد. وتندرج التجربة الأولى في فئة «التجربة الطبيعية» وتعرضت لها أسرة انتقلت إلى منطقة جبلية لا يصلها البث التليفزيوني. وتشمل التجربة الثانية إحدى الأسر التي بحثت تأثيرات تعطيل التليفزيون طوال أسبوعين، أما التجربة الثالثة فتتعلق بخمس عشرة أسرة أغلقت أجهزتها لمدة شهر على الأقل ودونت الفروق الناتجة في حياتها الأسرية.

شاحنة الكيبل التليفزيوني لم تصل أبدا

تروي السيدة Lee، من مدينة جلينوود سبرنجز بولاية كولورادو كيف أن أسرتها عاشت عامين ونصف العام من دون تليفزيون. وتضيف قائلة:

«أنا في الثامنة والعشرين من العمر وممرضة مسجلة وزوجي في الحاديثة والثلاثين ويعمل في مجال التأمين. أما ابنتي فهي الآن في سن الثامنة، والولدان في سن الخامسة والسادسة.

كنا نعيش في كولورادو سبرنجز قبل أن ننتقل إلى Vail بسبب عمل زوجي، كان الأطفال مدمنين للتليفزيون على الرغم من أني حاولت عامدة أن أراقب ما يشاهدونه وأقيد ذلك نوعا ما. لقد كنت قلقة جدا بشأن مشاهدتهم التليفزيونية، وكنت أشاهد ابنتي تغيب في شبه غشية مادام التليفزيون يعمل ـ دون أن يشكل ما تشاهده أي فرق. كان الولدان عموما أكثر نشاطا من شقيقتهما وبدا في البداية أنهما أقل تحمسا للتليفزيون. على أنه بمرور الزمن، ظهر أنهما، أيضا، صارا سلبيين بالكامل أمام جهاز التليفزيون.

«وفي نوفمبر انتقلنا إلى Vail ـ وتحديدا إلى الشرق خمسة أميال منها. وسرعان ما عرفنا أن بيتنا يقع خارج نطاق الكيبل التليفزيوني، وأنه من دون الكيبل ليس هناك أي استقبال على الإطلاق، فالجبال ببساطة تعوق جميع الإشارات.

«وظننا في البداية أن هذه الحالة مؤقتة وحاولنا ملء وقت فراغنا على أفضل نحو مستطاع، آملين دائما إحياء التليفزيون ذات يوم. وقمنا بتشغيل

مجموعة الأسطوانات التي نملكها إلى حد أنني أتخمت لدرجة السأم من كل اسطوانة، وكنا نتحدث كثيرا عن التليفزيون.

«وقبل أن يمر وقت طويل بدأنا ندرك أننا قد لا نرى أبدا شاحنة الكيبل التليفزيوني وهي تصل لتشبك بالخطاف جهازنا التليفزيوني. واستسلمنا لمصيرنا. وبعد ذلك بدأت الحياة تستقر وتأخذ طابعا عاديا أكثر. بدأنا نقرأ الكتب، وليس قصص المجلات فقط. وكنا نلعب مع الأطفال ما يزيد على ساعة في كل مرة أحيانا، وكانوا يلعبون معا لفترات متزايدة من الوقت، أيضا. وكنا نلهو مع بعضنا البعض على نحو يفوق ما تعودنا عليه من قبل. وبدأت بعض أعمال الحياكة الجادة وجربت طرق تحضير أكلات جديدة، وبدا أن اليوم الواحد فيه من الوقت الكثير.

«صارت ابنتنا بارعة حقا في تسلية نفسها بمحاولة القراءة، ومارست الرسم بالألوان، والتصوير، وتشكيل الصلصال، وكتابة «الخطابات» إلى الأسرة كلها وإلى صديقاتها في اللعب. وكانت تعاونني عدة مرات كل أسبوع في عمل الكعك المحلى والكعك المخبوز في قوالب. وعلمها أبوها إحدى ألعاب الداما الجادة قبل أن تبلغ السنة السادسة. وكنت أقرأ لها وللولدين قصة على الأقل يوميا. وكان لدينا كتاب عن حرف وهوايات الأطفال فننتحي جانبا بعد الظهر عدة مرات في الأسبوع لنصنع أو نلعب شيئا جديدا. كما أنني كنت أحتفظ بصندوق كبير من أزياء عيد هولوين والفساتين القديمة التي كانت ابنتي وصديقاتها بل والأولاد الصغار يحبون أن يلعبوا بها، وبدا أنهم لا يسأمون ذلك. كانوا يحبون أكثر ألعاب المستودع والمدرسة والمستشفى. وكم من أرجل مكسورة، ورؤوس، وأذرع قمت بتضميدها بالقماش من صندوق الملابس الخاص! بالطبع كان هناك لعب خارج البيت لكننا لم نكن نستطيع الخروج في كثير من أيام الشتاء إلا لدقائق قليلة، وكانت جميع الأرجوحات وأجهزة الملعب تدفن تحت الثلج لبضعة أشهر.

«ومع ذلك، كان في وسعنا مشاهدة التليفزيون في بعض الأحايين خلال إقامتنا في Vail. فقد كنا نذهب لزيارة جدتي ثلاث أو أربع مرات في السنة، ويمكننا عندها مشاهدة التليفزيون. كانت تلك متعة حقيقية لنا جميعا، تشبه تماما تعودنا الذهاب إلى السينما قبل أن نرى التليفزيون بالمرة.

«وبعد عامين ونصف العام بلا تليفزيون في Vail، انتقلنا مرة أخرى، بسبب عمل زوجي. وأقسمنا أننا لن ندمن المشاهدة مرة ثانية. لكنني على الرغم من أننا قد لا نشاهد التليفزيون إلى الحد الذي تفعله أسر كثيرة أعرفها، مازلت خائفة من التعلق به من جديد. إنني ربما أستعمل التليفزيون كجليسة أطفال ساعتين يوميا. ونحن نعيش في شقة بأحد المباني ليس بها تسهيلات للعب وأحيانا يكون التليفزيون جذابا للغاية.

«أنا، نفسي، أحاول ألا أشاهد التليفزيون بكثرة، لكن إذا كنت متعبة إلى حد أنني لا أستطيع أن أفعل شيئا آخر، سأشاهده. أما ابنتنا فهي مدمنة على مشاهدة عرض Lassie في الساعة السابعة و The Lone Ranger. وإذا بدأت مشاهدة أحد البرامج المسائية، فستواصل ذلك حتى النهاية. حتى إن لم تكن تفهم القصة.

«زوجي لا يكون موجودا في البيت كثيرا بسبب عمله الجديد، غير أنه إذا جلس في حجرة الجلوس بأي حال، فلابد أن التليفزيون يعمل. ومنذ أن انتقلنا إلى هنا لم يلعب مع الأطفال في البيت. لقد خرجنا كأسرة في جولات، ورحلات بسيارة الجيب، وقمنا بصيد الأسماك، لكن لم يعد في البيت لعب صاخب، أو ركوب على الظهر والكتفين ... إلخ. ولم يعد هناك لعب الداما، أيضا».

تجربة «دون براولي»[1]

قبل سنوات قليلة، انضم دون براولي، وهو رجل شرطة أسود إلى قوة مدينة نيويورك، لبرنامج خاص بضباط الشرطة في «بروكلين كوليج». وكان أحد المقررات في تلك السنة علم الاجتماع، الذي كان يتطلب منه تخطيط تجربة بحثية بسيطة. وقد اتخذ قرارا بتعطيل جهازه التليفزيوني طوال أسبوعين وملاحظة تأثيرات ذلك في حياته الأسرية الخاصة.

وقد حصل براولي على تقدير A عن الدراسة التي قدمها. وفيما يلي أجزاء من تلك الدراسة:

بادئ ذي بدء، ينبغي أن أذكر عدة نقاط عن أسرتي. الدخل السنوي 20 ألف دولار، المستوى التعليمي للكبار سنة واحدة بالكلية. نعيش في منطقة ضواحي تبعد حوالي 35 ميلا عن حدود المدينة. أسرتي تتكون من زوجتي

واثنين من الأبناء، في الخامسة والسادسة. وولداي اللذان يتقاسمان حجرة نوم واحدة، لديهما جهاز تليفزيون في الحجرة. أما زوجتي وأنا فلدينا جهاز في حجرة نومنا.

كشرط أساسي لهذه التجربة، قمت بتحديد الوقت الذي يستعمل خلاله كل تليفزيون طوال أسبوع واحد. استعمل تليفزيون الطفلين لمدة 41 ساعة، أي 6 ساعات تقريبا في اليوم، أما تليفزيون زوجتي فقد عمل لمدة 18 ساعة إجمالا. ومن ناحية أخرى، يمكن الإشارة إلى أن وقت إجراء هذه التجربة هو شهر أبريل الذي كنت خلاله في إجازة لمدة ثلاثة أسابيع.

وعند البداية الفعلية للتجربة، كان يتعين علي أن أتوصل إلى طريقة لإخراج جهازي التلفزيون من الخدمة. وكان الأول هو التليفزيون المحمول الخاص بالطفلين. وقد أبعدت صمام الأمان الكهربائي الموجود في خلفية الجهاز. أما الثاني فكان جهازا كبيرا ملونا ذا خزانة وجدت فيها صمام تحكم رئيسيا لأداة الضبط الأفقية في خلفية الجهاز. وعن طريق لف الزر، عطلت التليفزيون عن العمل.

ولم يظهر اليوم الأول للتجربة أي تأثيرات حقيقية لافتقاد التليفزيون من جانب أهل البيت. فقد تابعت زوجتي عملها الروتيني المألوف وأمضى الطفلان جانبا كبيرا من اليوم في اللعب في الفناء الخلفي. كنت أنا الذي لاحظ في تلك الليلة التأثيرات الأولى لعدم وجود جهاز تليفزيوني عامل. كانت الدنيا قد أظلمت في الخارج إلى الحد الذي لا يسمح بإرسال الطفلين للعب خارج البيت ووجدت زوجتي أن المستحيل تماما أن تقوم بأعمال المساء بينما الطفلان يعوقان حركتها. وأدى ذلك إلى ذهاب الطفلين إلى فراشهما مبكرا، كان هذا هو الحل لأول مشكلة لكنه تسبب في مشكلة أكبر.

في اليوم التالي مباشرة استيقظ الطفلان في السادسة والنصف صباحا. حين كان التليفزيون يعمل، كان الطفلان يفتحانه في حوالي السابعة صباحا. ويقوم التليفزيون كل يوم بأداء مهام جليسة الأطفال منذ أن يستيقظ الطفلان إلى أن تنهض زوجتي من فراشها. وكان الطفلان باستمرار يزعجان زوجتي إلى أن تنهض وتعد الإفطار. أما ابني الأكبر فلم يكن يذهب إلى المدرسة بسبب عطلة الفصح. كان المطر هو سبب المشكلة الكبيرة التي حدثت ذلك

اليوم. عند الثانية عشرة غادرت زوجتي المنزل لزيارة إحدى الجارات ومشاهدة القصص التي تعرض على شاشة التليفزيون بعد ظهر كل يوم، ومع مضي ساعات اليوم، شعر كل فرد في الأسرة بضيق متزايد بسبب أمور صغيرة، ومنذ ذلك الحين فصاعدا أخذت الأيام طابعا روتينيا متزايدا.

أمضى الطفلان جانبا كبيرا من الوقت في عمل أشياء مبتكرة خططت لها الأم كل يوم، تعلم كتابة الألفباء، قص الحروف والرسم على السبورة. وخرجت الألغاز من الخزانة، وسرعان ما شغلت الدمى الأخرى، التي لم يبد الطفلان يوما اهتماما خاصا باللعب بها، جزءا كبيرا من يومهما. وكان يمكنني أن ألاحظ أن الطفلين يقضيان المزيد من الوقت في عمل أشياء ستكون ذات أهمية لهما خلال الدراسة في المستقبل.

وزاد الوقت الذي تقضيه زوجتي فعلا مع الطفلين الآن زيادة كبيرة، كما صارت تقوم بأعمال أكثر في أنحاء البيت. فقد نظفت خزائن حفظ الثياب القديمة والأغراض الأخرى عديمة الجدوى. أما حجرة الضيوف التي لم تستخدم طوال أكثر من ثلاثة أشهر فقد نظفت تنظيفا شاملا. وكان من عادة زوجتي إعداد ثيابها الخاصة وحياكتها بطريقة رائعة. ولما لم يعد لديها ما تفعله في المساء، فقد شرعت مجددا في أعمال الحياكة. ومع حلول منتصف الأسبوع الثاني للتجربة، كانت قد انتهت من حياكة أحد الفساتين وبدأت العمل في فستان آخر.

وكمراقب مشارك في التجربة، وجدت نفسي نهبا لمشاعر الضجر من حين إلى آخر. ومثلما فعلت بقية الأسرة، أجريت تغييرات معينة في أوجه نشاطي اليومي. فأنا أيضا شرعت في عمل تلك الأعمال الروتينية التي كنت دائما وبطريقة أو بأخرى أضعها جانبا حتى الأسبوع التالي. وللمرة الأولى منذ أن كنت في المدرسة، وجدت نفسي غارقا في القراءة الخاصة بمقرراتي الدراسية، وبعد شتاء طويل لم نر خلاله معظم جيراننا، بدأنا في زيارة عدة أسر كنا قد فقدنا الصلة بها خلال أشهر الشتاء.

ولاحظت أثناء التجربة تأثيرا إيجابيا في حياتنا الجنسية، وقد أرجعت ذلك إلى الساعات المبكرة التي حافظنا عليها وإلى الراحة التي توافرت لنا كل يوم، ففي الماضي كنا نأوي إلى الفراش بعد أخبار الساعة الحادية عشرة أو كان أحدنا يشاهد آخر البرامج أو برنامجا آخر يجعلنا بعيدين

الواحد عن الآخر.

وبدا أن الطفلين يتشاجران معا في أغلب الأحيان. لكن، من المحتمل أننا لاحظنا ذلك وأعطيناه اهتماما أكثر لأننا، زوجتي وأنا، ممن تزعجهم توافه الأمور. وفي الوقت نفسه صار الطفلان أكثر قربا منا مع مشاركتنا في عمل الأشياء معا. وكانت نهاية الأسبوع الاعتيادية في بيتي تشمل في صباح السبت عمل كل ما هو ضروري في أنحاء البيت والخروج مع زوجتي في المساء. أما صباح الأحد فكان يوم مدرسة الأحد(*) للولدين والذهاب إلى الكنيسة بالنسبة للزوجة. وبعد الظهر، كنت أمارس ضربا من ضروب النشاط مع الولدين. وخلال الأسبوع الثاني من التجربة، خرجنا ثلاث مرات في أسبوع واحد. وكأسرة، عملنا معا في الأرض المعشبة لتهيئة الحديقة للصيف، وقمنا بأعمال لم تقم بها الأسرة من قبل كمجموعة واحدة.

ومع نهاية الأسبوع الثاني كان جهازا التليفزيون يعملان، وأردت ثانية أن أقارن الفروق بين تملك جهاز وعدم تملكه. لقد اختفت الآن جميع الأشياء النافعة التي كانت قد نمت وازدهرت بسبب غياب جهاز التليفزيون، وعاد كل شيء إلى حالته الروتينية الرتيبة القديمة.

تجربة «اللاتليفزيون» في دنفر

في ربيع عام 1974، ظهرت مقالة في صفحة التليفزيون والراديو بجريدة The Sunday Denver Post، داعية الأسر التي لديها أطفال صغار إلى التطوع من أجل إجراء تجربة غير رسمية يغلقون خلالها أجهزتهم التليفزيونية كلية لفترة من الوقت لا تقل عن شهر[2].

وقد وصل أكثر من مائة من الردود المعبرة عن الاهتمام بالتجربة، واعترف عدد من كتاب الرسائل، برغم أن الموضوع أثار اهتمامهم، بأنهم لا يستطيعون لسبب أو آخر، أن يتخلصوا عمليا من التليفزيون، وكان من بين أسبابهم:

«إنني أخشى لو تخليت عن التليفزيون أن يأخذ الأطفال المزيد من

(*) مدرسة الأحد Sunday School : مدرسة تفتح أبوابها يوم الأحد لتعليم الدين المسيحي، وكان ذلك رد فعل للمدارس العلمانية التي أي تربية دينية. (قاموس التربية).

وقتي- وليس لدي وقت أستغني عنه».

«زوجي لا يشاركني الرأي بشأن مشاهدة التليفزيون وحين يوجد في البيت، يشاهده بصورة شبه مستمرة».

«لو لم يكن مستر روجرز و الشركة الكهربائية، ما استطعت إعداد العشاء أو تنظيف سلالم المدخل بالمكنسة الكهربائية».

«ابني رجله مكسورة ويحتاج إلى مشاهدة التليفزيون، ربما سأحاول في الصيف التالي».

وقال آخرون إنهم تخلصوا من التليفزيون بالفعل. (وترد مقابلات مع بعض هذه الأسر لاحقا في هذا الفصل). وكان هناك آخرون لا يزالون راغبين في التطوع، غير أنهم لم يكن لديهم أطفال صغار في البيت، أو كان أطفالهم أقل من عامين. (كان قد تقرر قصر التجربة على الأسر التي لديها طفل صغير واحد على الأقل في البيت، بما أن آباء الأطفال الصغار هم الأكثر استعمالا للتليفزيون، وبما أن الأساليب الأسرية كثيرا ما تترسخ حين يكون الأطفال لا يزالون صغارا بعد).

وأرسلت استبيانات عن الخلفية الأسرية واستعمال التليفزيون، وكذلك اقتراحات لإعداد الأطفال لفترة اللاتليفزيون وكيفية معالجة المشاكل التي قد تنشأ، إلى خمس وعشرين أسرة. كما أرسل دفتر يوميات لتسجيل استعمال التليفزيون والسلوكيات لعدة أسابيع قبل التجربة، ولتدوين أي تغييرات تحدث في أثناء الفترة اللاتليفزيونية.

ومن بين الأسر الخمس والعشرين التي تلقت الاستبيانات ودفاتر اليوميات، أنجزت خمس عشرة أسرة التجربة، وقدمت الاستبيانات ودفاتر اليوميات الخاصة بها. وقد أجريت مقابلات مع هذه الأسر في بيوتها مرة واحدة على الأقل خلال فترات اللاتليفزيون، ومرة أخرى عن طريق التليفون بعد شهر أو اثنين من انتهاء التجربة.

لماذا تطوعت هذه الأسر لإجراء التجربة في المقام الأول؟ إن نغمة القلق المشترك تتردد في كثير من الإجابات على هذا السؤال:

«صارت مشاهدتي للتليفزيون أكثر مما ينبغي، فأنا أستعمله بديلا لكل شيء».

«من النادر أن نفعل ما نريده ـ لقد تعودنا على التليفزيون أكثر مما

يجب».

«أود أن يفعل الأطفال شيئا آخر غير مشاهدة التليفزيون، وليتهم يدركون أنهم يشاهدون التليفزيون بكثرة، وأن هناك أشياء كثيرة أكثر روعة يمكنهم عملها».

«أود التخلص من بعض المشاحنات المرتبطة بالتليفزيون في أسرتنا، وإعطاء الفرصة للأطفال لاكتشاف وسائل أخرى لتسلية أنفسهم».

«لمساعدة أسرتنا على اكتشاف أشكال بديلة لتنظيم الوقت».

«إنني أعاني المتاعب بالفعل في التواصل مع طفلي ذي الأعوام التسعة، فهو دائم الجلوس أمام التليفزيون مباشرة. حتى الجيران يلاحظون ذلك. سيقولون: آندي، حان الوقت للذهاب إلى البيت لتناول العشاء الآن، وسيبقى جالسا هناك ملتصقا بالجهاز، إنه يشاهد أربع أو خمس ساعات يوميا وذلك يقلقني حقا».

ماذا كانت ردود أفعال الأطفال الذين تطوع آباؤهم لتجربة اللاتليفزيون على فكرة التخلص مؤقتا من التليفزيون في بيوتهم؟

لقد دهش الآباء في تلك الأسر التي لديها أطفال في سن ما قبل المدرسة عند اكتشاف أن الأطفال لاحظوا بالكاد غياب التليفزيون من روتين حياتهم اليومية. وكان بعض أطفال المدارس متحمسين، على الأقل في البداية. ومن ناحية ثانية، عبر البعض عن الغضب والاستياء من آبائهم لحرمانهم من التليفزيون:

«حين عرضنا تجربة اللاتليفزيون - كما نقوم بها - حقيقة على أطفالنا الأربعة (أعمارهم عشر، وتسع، وثمان وخمس سنوات)، كان رد فعلهم غاضبا ضد السيدة التي اقترحت التجربة في المقالة. ووجدت المقالة ممزقة ومسحوقة على المنضدة في اليوم التالي - وأظن أن ذلك كان عملا جماعيا».

«لقد أربكتني ردود أفعال أطفالي على التجربة، فابني ذو السنوات العشر - ويحتمل أن يكون أسوأ المدمنين بيننا - أيد التجربة بقوة، وذكر أسماء جيران رأى أنهم سيتعاونون مع الفكرة، وأثار اهتمامه أن يكون جزءا من دراسة عن التليفزيون. أما ابنتي ذات السنوات التسع فقد شعرت بالجزع والسخط من الفكرة بأسرها، وقال طفلي الذي في السابعة: «موافق، لكن هل يمكن أن نحصل على بيانو بدلا من التليفزيون؟»

وروت إحدى الأمهات: «شعر مايكل (ست سنوات ونصف) بالضيق لأنه سيفتقد الرسوم المتحركة التي تعرض يوم السبت، لكني ذكرته بأنه لم ير إلا أشياء معادة طوال الشهرين الماضيين، وقد أقر بأن ذلك صحيح ولم يعترض على التجربة بعد ذلك».

ذكرت غالبية الأسر أنها واجهت بعض الصعوبات خلال الأيام الأولى للتجربة، وقارن البعض تلك الفترة «بالإقلاع» عن تعاطي المخدرات أو الكحول. وفي جميع الحالات أشار الآباء والأطفال إلى أنه بمرور الوقت، قل افتقادهم للتليفزيون شيئا فشيئا:

كتبت أم شاركت أسرتها في تجربة اللاتليفزيون لمدة شهرين: «كان الأسبوع الأول قاسيا بالنسبة لنا جميعا، ولاسيما على الأطفال وعلي. كانوا يدورون بلا هدف ولا يعرفون كيف يتصرفون. واقترحت عليهم أن يقرأوا، فعلنا ذلك كثيرا، لكن الوقت كان طويلا أحيانا. وبعد الأسبوع الأول أخذ الأمر يصبح أكثر سهولة باطراد بالنسبة للجميع. ومع نهاية الشهر الأول لم نعد نفتقد التليفزيون في الواقع إطلاقا».

وقال طفل عمره تسع سنوات في إحدى المقابلات: «أحيانا، خلال الأيام القليلة الأولى التي تلت تعطيل أبي للجهاز كنت أذهب وأنظر إليه فحسب، على الرغم من أنه كان مغلقا. لقد افتقدت المشاهدة حقيقة، ثم مع مرور الصيف، توقفت عن التفكير كثيرا في التليفزيون».

«استمر الأطفال في البداية يطالبون بمشاهدة التليفزيون، وبدا في الحقيقة أنهم يفتقدونه وبدأنا نتساءل عما إذا كانت المسألة كلها أكثر مما يطيقون. غير أنهم تدريجيا وجدوا أشياء أخرى يعملونها كان من رأينا أنها أفضل بكثير من مشاهدة التليفزيون».

وفي أثناء فترة «الانقطاع» شكا بعض الأطفال من مشاعر مشوشة و «مستوحشة». قالت طفلة في العاشرة: «لم يكن الحال شبيها بالصيف فحسب». وقال طفل في التاسعة لأحد المختبرين: «لقد ظللت أذهب إلى بيت شخص ما وأردت أن أعرف في أي يوم من أيام الأسبوع كنت، إنني دائما أعرف في أي يوم نحن من البرامج التي تعرض».

ومن بين التغيرات في الحياة الأسرية التي سجلها الآباء في يومياتهم ما يلي:

المزيد من التفاعل مع الكبار:

«كان لكاتي صديقة وكانتا تجلسان مع الكبار في المساء، وتصغيان وتشاركان في الأحاديث، وقد سعدنا بذلك وأدركنا أن الأطفال كانوا من قبل يشاهدون التليفزيون في أثناء وجود ضيوف لدينا».

جو أكثر هدوءا في البيت:

«لقد نعمت بهدوء الحياة من غير تليفزيون، وكنت أفكر في أننا ربما ينبغي بعد التجربة أن نجد مكانا آخر للجهاز غير حجرة الأسرة».

«يبدو أن هناك الكثير من الوقت. وقد يعود السبب إلى عدم وجود ذلك الصوت المهتاج، المندفع الذي دائما يصدر عن التليفزيون المنزوي».

«لعلي أقول إن عدم الاضطرار للتوفيق بين مشاهدة التليفزيون واللعب ساعد على وجود جو من الهدوء في المنزل. وقد لاحظت أن «الخروج» من سحر التليفزيون والتكيف مع ظرف من ظروف اللعب كان غالبا عملية طويلة، حافلة بالعداء بين الأطفال».

شعور حميم بالتقارب الأسري:

«لقد صرت والأطفال أكثر قربا لأننا قمنا بعمل المزيد من الأشياء معا».

«أشعر بأن الأسرة تتساند بصورة أوثق نتيجة لغياب التليفزيون».

«كان الفرق هائلا. إننا نشعر مجددا بأننا أسرة، توحدها التجارب والارتباطات المشتركة. لقد عرفنا أشياء كثيرة عن بعضنا البعض في أثناء التجربة، مواهب واهتمامات مخبوءة».

«لقد قمنا بأعمال إضافية مشتركة كأسرة خلال التجربة، كنا نرغب في ذلك وحققناه».

المزيد من المساعدة من جانب الأطفال في البيت:

«اعتدت أن أترك الأطفال يشاهدون التليفزيون بعد العشاء لأن برامجهم المحببة كانت تعرض في ذلك الوقت وبدا أن من الأنانية أن أحرمهم من ذلك. وكان علي حينئذ أن أغسل الأطباق وحدي، وصار لديهم الآن الوقت للمساعدة. ونحن نتحدث كثيرا في أثناء غسل الأطباق، إنه وقت مريح جدا حين يكون من السهل أن تتحدث - ربما يجعلنا الماء بالصابون متبسطين جميعا».

«ساعد بيتي أباه في العمل بالزريبة ثم ساعده في غسل الشاحنة».

«نظف الطفلان غرفتيهما بعناية أكثر من المعتاد، وأمضيا وقتا طويلا في ترتيب الكتب أبجديا في خزانة كتبهما وتنظيم وضع الأشياء على مكتبيهما».

مزيد من اللعب الخلوي:

في الماضي لم نكن نستطيع أن نخرج الأطفال إذا فتح زوجي الباب وقمت أنا بطردهم إلى الخارج. أما الآن فهم يخرجون في أي نوع من الطقس فليس هناك تليفزيون يستبقيهم في الداخل».

«لاحظنا وجود الكثير من اللعب الخلوي، حتى إن لم يكن الطقس صحوا».

تغييرات في وقت النوم والوجبات:

«وجدنا أننا جميعا نذهب إلى الفراش في وقت مبكر كثيرا».

«وجبات العشاء الآن أطول وقتا بما أن الأطفال لا ينصرفون إلى مشاهدة برامجهم».

«أوقات الوجبات تعار للمناقشات العامة بدلا من الخلافات حول كيفية نهوضهم بسرعة ومشاهدة التليفزيون».

المزيد من اللعب الطفولي المشترك:

«يبدو أن الأطفال يتعاملون مع بعضهم البعض بدرجة أكبر من دون التليفزيون. وحين لا يجدون شيئا يفعلونه، يميلون للعب بعضهم مع بعض وينجحون بالفعل في عمل أشياء معا».

«تميل البنات في أثناء غياب التليفزيون حاليا إلى الألعاب المعتادة، المنظمة. لقد كن يلعبن معا من قبل، إلا أنهن حاليا أكثر ميلا إلى الألعاب ذات القواعد، وألعاب اللوحات، وتميل الأكبر سنا إلى المزيد من اللعب مع الأصغر سنا، بينما كان من الأسهل لديها من قبل أن تشاهد التليفزيون فقط ولا تكلف نفسها عناء شرح قواعد اللعب لشقيقتها الأصغر سنا».

«يلعب أطفالنا معا، لعبا حقيقيا قديم العهد، وقد ألف الطفلان الأوسطان مسرحية موسيقية كاملة اليوم بعنوان «الدلافين في الصحراء»».

«بما أن الأطفال باتوا يعتمدون على أنفسهم وعلى بعضهم البعض في التسلية، فقد صاروا يلعبون معا أكثر من ذي قبل».

المزيد من القراءة:

«على الرغم من أن الأطفال كانوا باستمرار يستمتعون بالقراءة، فقد

لاحظنا زيادة واضحة في عدد الكتب المقروءة خلال فترة اللاتليفزيون».

«إن Joey يقرأ الكثير دائما، والفرق أنه سيشرع في القراءة بعد الظهر ويظل يقرأ حتى وقت الذهاب للرقاد، وما كان سيفعل ذلك لو كان التليفزيون متاحا».

علاقات أفضل بين الوالدين:

«زوجي يفتقد الأحداث الرياضية، لكني أستمتع بالحديث معه».

«أنا شخصيا أستطيع أن أتحمل العمل المنزلي يوم السبت كأم عاملة بصورة أفضل حين لا أرى زوجي يتسكع بالقرب من التليفزيون».

أنشطة إضافية:

«هناك زيادة واضحة في ألوان النشاط من قبل الأطفال».

«لدينا المزيد من الوقت للألعاب، والحرف، وبناء النماذج، والقراءة».

«لقد قمنا بتنفيذ عدة أنشطة بديلة هذا الصيف: زرعنا حديقة خضراوات كبيرة، فنون وحرف متنوعة».

«حين لم يكن لدى الأطفال ما يفعلونه، خرجوا وأقاموا مخبأ سريا ـ ولعبوا هناك أياما كثيرة».

«قمت بأعمال حياكة خلال فترة اللاتليفزيون أكثر مما فعلت في سنوات».

ومن بين المشكلات المرتبطة باللاتليفزيون والتي ذكرها الآباء والأطفال:

برامج أثيرة

«كم أفتقد مشاهدة روائع المسرح التي كان لدينا طقس مشاهدتها أيام الآحاد».

«إنني حقا أفتقد مشاهدة Wild Wild West».

علاقات الرفقاء

«دعوت صديقي كلارك للحضور وتأجيل المسألة إلى اليوم التالي فقال ماذا سنفعل في بيتكم، نجلس ونستمع إلى الراديو؟»

«إنني خجل من دعوة أي شخص لزيارتي. إن الأمر يبدو غريبا فحسب لأن لدى جميع الأطفال الآخرين أجهزة تليفزيون».

عقوبة

«كان منع التليفزيون دائما أقسى تهديد لنا، طبعا لم نستطع استعماله خلال التجربة».

ماذا كان تأثير الفترة اللاتليفزيونية في عادات المشاهدة اللاحقة للأسر التي اشتركت في التجربة؟ لقد أصبح معروفا في مقابلات المتابعة أنه على الرغم من التغييرات الإيجابية التي لوحظت خلال الفترة اللاتليفزيونية من قبل جميع الأسر التي شاركت في التجربة، إلا أن أيا منها لم تشأ الاستمرار في العيش من دون التليفزيون. ومن ناحية ثانية، بدا أن الآباء يتذكرون الفترة اللاتليفزيونية بشيء من الحنين، وينظرون إلى عودتهم للمشاهدة التليفزيونية ببعض الأسف:

«كان الأطفال الأربعة يتشاجرون جميعا حول ما يمكن مشاهدته، وتبادلنا النظرات أنا وزوجي وأدركنا كم كان الصيف لطيفا من دون تليفزيون ـ كنا قد نسينا كل شيء عن هذه المشاجرات التي كانت تتركز حول جهاز التليفزيون».

«كان إغلاق الجهاز طوال الصيف سهلا نسبيا، فقد قبل الأطفال ببساطة الواقع مع استثناءات قليلة دونت في دفتر اليوميات، لكن مشاكلنا بدأت حين بدأنا تشغيل الجهاز، ذلك أن طفلنا ذا الثماني سنوات (وهو المشاهد المدمن في الأسرة) عاد خلسة أحيانا إلى مشاهدة برامج ليس من المفترض أن يشاهدها. وعاد الأطفال إلى مشاهدة الرسوم المتحركة في الصباح قبل المدرسة، وتخلصوا من وجبات الإفطار الأسرية الجميلة التي نعمنا بها كلنا».

«حينما استأنفنا المشاهدة، لم يظهر أن الأطفال مهتمون كثيرا بالتليفزيون ـ غير أنهم بمرور الوقت يعتادون الأسلوب القديم، وأنا أعرف أنني كذلك أيضا! ولهذا أظن أن من المفيد أن نفعل ذلك بين حين وآخر».

«عندما انتهى الانقطاع التليفزيوني، حاولت أن أحدد مشاهدة الأطفال بساعتين يوميا، بيد أنه بمضي الوقت، أجد أنهم يفتحون التليفزيون حين يستيقظون ولا يغلقونه إلا وقت النوم. وليس ذلك لأنهم مهتمون بالتليفزيون بشكل واضح، وإنما لشعورهم بالضجر في هذا الوقت من السنة ونفاد صبرهم في انتظار أن تفتح المدارس أبوابها ثانية».

وعبر عدد من الأطفال بأنفسهم عن تناقض معين فيما يتعلق باستئناف المشاهدة بكثرة.

«من الصعب حقيقة إنجاز أعمال أخرى حين يكون التليفزيون قريبا

منك، أنا لا أريد سوى مشاهدته».

«خلال التجربة أبعدت ذهني عن التليفزيون ولذلك لم يعد يشغل تفكيري. وبالتالي، حصلت على تسلية أكبر. كان يجب أن أتحرر من الإدمان».

لماذا عادوا؟

في ضوء التطورات المذكورة في سلوك الأطفال والحياة الأسرية خلال هذه التجارب الثلاث، لماذا استأنفت هذه الأسر أشكال المشاهدة التليفزيونية القديمة بدلا من الإبقاء على التطورات البارزة بالتخلص من التليفزيون بصورة دائمة؟

سئل براولي: «هل فكرت يوما في الحياة من دون تليفزيون إلى الأبد؟»

أجاب بالنفي بعد لحظات من التفكير، وأضاف «في الحقيقة لم أفكر في ذلك يوما. تتساءل لماذا، أليس كذلك؟ ذلك يذكرني بالوقت الذي مرضت فيه قبل فترة مضت، وكان لزاما علي أن أقلع عن التدخين. قلت «طيب، إنني أشعر بأنني أفضل كثيرا لأنني لا أدخن. لقد عاد تنفسي طبيعيا وأشعر بأنني في حالة رائعة! لكن بمجرد أن قال الطبيب إنني على ما يرام ثانية، عدت إلى السجائر. حسنا، إنني أتصور أن التليفزيون إدمان، أيضا، أنت تستمتع به، لكن حين تفكر في الأمر، تجد أن التليفزيون لا يقدم لك الكثير الذي يمكنك أن تعوضه بنفسك، أو تفعل ما هو أفضل منه. ومع ذلك، فما إن تدمن، حتى يصبح من الصعب الاستغناء عنه، مثل السجائر».

ويرى عالم نفسي، طلب إليه الإدلاء برأيه عن سبب عدم تخلي الأسر عن التليفزيون عقب تجارب اللاتليفزيون، أن الآباء كانوا في الحقيقة يخدعون أنفسهم، ذلك أنهم حين ظنوا أن من الواجب المشاركة في ضروب النشاط التي شرعوا فيها خلال فترة اللاتليفزيون ـ القراءة، والألعاب، والمحادثة، لم تلب هذه الأنشطة الحاجات التي تحققها المشاهدة التليفزيونية. وذلك في رأيه، هو سبب عودتهم إلى التليفزيون.

لكن ما هي الحاجات التي يحققها التليفزيون؟ الحاجة إلى السلبية، إلى إفناء الذات، إلى النكوص إلى حالة الاعتماد على الغير... من المؤكد أن المشاهدة التليفزيونية المألوفة تخدم حاجات قليلة ميمونة الطالع أكثر من هذه. وربما يبدو من الصعوبة البالغة، في مجتمعنا المشتت، السعي إلى

تحقيق حياة نشطة، حياة البحث عن الذات والنماء. بيد أن لهجة الأسى والندم التي وصف بها الآباء عودتهم إلى حياتهم الأسرية الخاضعة لسيطرة التليفزيون تثير في الذهن صراعا من أقدم صراعات الطبيعة البشرية. إنه صراع يعبر عنه بولس الرسول في الإنجيل من خلال هذه الكلمات: «فإن ما أفعله لا أملك السيطرة عليه: إذ لا أمارس ما أريده. إن ما أبغضه فإياه أعمل»(*).

(*) أعمال الرسل-رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 7 : 15 (المترجم).

18 التخلي نهائيا عن التليفزيون

ومع ذلك، فإن بعض الأسر تختار بالفعل أن تعيش من دون تليفزيون إلى الأبد. ويبدأ بعض هذه الأسر الحياة الأسرية من غير جهاز تليفزيون وينشئون أطفالهم من دونه. وتتخلى أسر أخرى (أوضح استطلاع لآراء عينة عشوائية أن عددها أكبر بكثير على الرغم من عدم وجود إحصائيات) عن التليفزيون بعد فترة من الوقت كانت خلالها تمتلك جهازا وتشاهده بانتظام.

وغالبا ما يعجل باتخاذ قرار التخلي عن الجهاز نهائيا وجود فترة اضطرارية لا تليفزيونية: تعطل الجهاز، سقوط هوائي سطح البيت في أثناء عاصفة. وأحيانا يصدر القرار عقب رحلة طويلة لم يكن التليفزيون خلالها متاحا. ففي أثناء هذه الفترات اللاتليفزيونية يبدو الآباء وقد تبلور لديهم تقدير للمشكلة التليفزيونية، وتحققوا من إمكان عمل شيء ما في هذا الصدد.

يروي أب من دنفر: «كان الجهاز يتحكم في حياتنا، لقد ناقشنا الأطفال فيما ينبغي أن يشاهدوه وتناقش الأطفال أحدهم مع الآخر بشأن ما يمكن مشاهدته. ولم يشأ الأطفال الجلوس إلى مائدة العشاء لأنهم كانوا يشاهدون شيئا ما. كانت أوسع

المناقشات في الأسرة عن هذا الجهاز التليفزيوني اللعين. وحينما تعطل ذات يوم، عدنا إلى صوابنا. قلنا، فلنر ما يحدث. ولم نمتلك جهازا آخر أبدا بعد ذلك».

وعلى غرار الأسر غير التليفزيونية، يشكل هؤلاء الذين تخلوا عن التليفزيون إلى الأبد مصادر قيمة للمعلومات عن التغييرات التي تحدث عند التخلص من التليفزيون. غير أنه في حين عادت أسر التجربة إلى حالة - ما قبل - في اقتران «ما قبل - ما بعد». كان لدى هؤلاء الذين تخلوا عن التليفزيون نهائيا القوة والعزيمة، لأسباب غير محددة بعد، على التمسك «بما بعد». وتصور القصص الموجزة التالية أربع أسر من هذا القبيل.

صعوبة بالغة في السيطرة

إحدى هذه الأسر هي أسرة جيربر التي وجدت أن من الصعوبة بمكان أن تسيطر على التليفزيون وقررت الاستغناء عنه. يعيش جيم وباربارا جيربر في شقة فسيحة في نيويورك. ويعمل جيم كاتبا، أما باربارا فهي طالبة بالدراسات العليا في علم الاجتماع. وطفلاهما، ند وآني، في الخامسة عشرة والثالثة عشرة حاليا. وتصف باربارا منازعاتهم العائلية حول مشكلة التليفزيون والحل الذي توصلوا إليه: لا تليفزيون على الإطلاق. وفي الوقت الذي جرت فيه هذه المقابلة (من دون حضور جيم جيربر، الذي كان خارج المدينة)، كان آل جيربر قد عاشوا سنة تقريبا من دون تليفزيون.

كان التليفزيون في أثناء وجوده لدينا مصدرا للشكاوى والمشاجرات المريعة باستمرار. وظللنا نجرب أساليب جديدة في التعامل معه، وكان الفشل مآل كل منها ومن ثم نتشاجر بشأن الأسلوب ذاته. كان الوضع برمته شنيعا. وكان التوجيه، والتنظيم فيما يتصل بالتليفزيون يستنفدان قدرا هائلا من الوقت والنشاط.

لم تكن لدينا أي قواعد، غير أنه اتضح أن ند يرغب في مشاهدة التليفزيون طوال اليوم إن استطاع، وكان الأطفال يتجادلون علاوة على ذلك حول البرامج التي يمكن مشاهدتها، ولمن يكون الخيار الأول. ولم يكن في وسعنا الحصول على جهاز آخر. وهب أننا حصلنا على جهاز آخر، فلابد أننا كنا سنريده ملونا وكان من شأن ذلك أن يفتح ساحة جديدة للشجار

المحتمل حول من يمكنه مشاهدة الجهاز الملون.

«غير أن التليفزيون أثار مشاكل أخرى، فضلا عن الشجار التافه. فمن ناحية، جرت العادة على ترتيب عشاء الأسرة طوال برامج التليفزيون، فإما أن يقول أحدهم. «لا أستطيع أن آكل حتى الساعة الثامنة لأنني أشاهد «المهمة المستحيلة Mission Impossible»، أو «لدي خمس دقائق لتناول العشاء لأن المهمة المستحيلة ستعرض، ولذلك تحول العشاء دائما إلى شيء مقحم بين البرامج.

وحينما يأتي أصدقاء إلى الأطفال، كانوا على الأرجح يشاهدون التليفزيون معا عوضا عن اللعب. وكنت أدخل فأجدهم جميعا كالموتى الأحياء، جاثمين أمام جهاز التليفزيون. وكان ذلك يضايقني ويجعلني أغلق الجهاز وأدعوهم للعب. لكن، ويا للغرابة، كانوا أحيانا يجلسون محدقين في الجهاز لدقائق بعد أن أغلقه!

إن ما يدهشني تماما هو كيف استطعنا أن نعيش بهذا الأسلوب المريع سنوات كثيرة، ولماذا لم نتخلص من جهاز التليفزيون منذ وقت طويل؟ إن العجب يتملكني أحيانا إلا أنني فعلا أعرف الإجابة عن هذا السؤال، إنني حقا وصدقا كنت في حاجة إلى التليفزيون حين كان الأطفال صغارا.

كنت ملتصقة بطفلين صغيرين، يفصل بين عمريهما عام ونصف العام، في شقة بنيويورك، بلا أي نوع من المساعدة، لم يكن هناك فناء خلفي، أو أي نوع من النشاط حولنا فيما عدا ما كان يمكنني أن أخترعه لهما كي يعملاه في أنحاء المنزل. ولذلك فقد استعملت جهاز التليفزيون كثيرا، لا أظن أنه كان يمكنني البقاء من دونه.

لقد تركت الأطفال آنذاك يشاهدون التليفزيون بقدر ما يريدون، لأنني غالبا أردت أن يشاهدوا كل هذا الذي شاهدوه، بيد أنه اتضح أن مشاهدة ند كانت أكثر من مشاهدة آني. كان يمكنه الجلوس ساعات أمام الجهاز، وهو يمص إبهامه. وكان يغيب عن وعيه حقيقة في أثناء مشاهدة التليفزيون. في بعض الأحيان كان يشاهد ست أو سبع ساعات. ولم يمل من المشاهدة قط.

طبعا شعرت بالذنب على نحو هائل بسبب ذلك، ولم أتصور أن كل ذلك الكم من مشاهدة التليفزيون شيء مفيد. لكنني بررت الأمر لنفسي. كنت

منهكة، وكنت أحتاج إليه. كان زوجي يعمل بلا كلل للحصول على المال الذي يفي بحاجاتنا في تلك الأيام، ولذلك لم يكن في وسعه مساعدتي.

منذ عام مضى عدنا من رحلة صيفية في الغرب، ظللنا خلالها شهرين بكاملهما بعيدين عن التليفزيون. وقررنا أن الأوان قد آن تماما. فصلنا الجهاز ووضعناه بعيدا في خزانة، ومن يومها ظل هناك، فيما عدا أوقات عرض بطولة البيسبول الدولية والمناسبات الخاصة المشابهة، حين نتجشم عناء إخراجه ثانية.

وسئلت باربارا جيربر، وند وآني في المقابلة كيف كان شعورهم بالحياة من دون تليفزيون في بيتهم. أجابت الأم:

«لست شغوفة بأن يكون لدينا تليفزيون، على الرغم من أنني تعودت الاستمتاع بالمشاهدة إلى حد ما. أشعر كما لو أنني تلقيت عدة ساعات إضافية يوميا كهدية. وليس هذا بالضبط الوقت الذي كنت أقضيه بنفسي في المشاهدة، بل كل الوقت الذي أمضيته للحكم في المشاجرات الخاصة بالتليفزيون وعلاج المشكلة. ولا أحب أن أشعر بالاستياء بسبب وجود شيء أفعله بدلا من مشاهدة برنامج ما أردت أن أشاهده. ولست مولعة بقراءة دليل التليفزيون، أو البحث عنه. ولا أود أن أجن إذا فاتتني مشاهدة برنامج كان يمكنني مشاهدته البارحة. لست أشعر بالأسف على الإطلاق لعدم امتلاك تليفزيون».

فماذا عن ند، أشد أفراد الأسرة نهما للمشاهدة؟ لقد روت والدته أنها دهشت لأن ند لم يتذمر من قرار التخلص من التليفزيون. ووصف ند شعوره تجاه ذلك:

«أعتقد أن الحال أفضل كثيرا الآن. انظر، إن ما تفعله آني هو أداء واجبها المنزلي فور عودتها إلى البيت من المدرسة وتنتهي من ذلك. ولم أكن كذلك، كنت دائما أنتظر حتى اللحظة الأخيرة. كان لوجود التليفزيون باستمرار حولي جاذبية هائلة - وكنت أواصل تأجيل عملي. وقد أشعرني ذلك بالذنب دائما. كنت أعرف أنني ينبغي أن أؤدي عملي، لكنني كنت أشاهد التليفزيون مهما كان الحال.

«الآن أنتهي عادة من قراءة أحد كتبي المدرسية، وعلى الأخص في مجال العلوم الذي أحبه حقا. ومن قبل، حين كان لدينا تليفزيون، لم يكن

من الممكن أن أقرأ كتابا أبدا. وحين كان لزاما علي أن أقرأ من أجل المقرر الدراسي، كنت أرجئ ذلك وأتصور أن علي فقط الإصغاء إلى المناقشة في حجرة الدرس والحصول على المعلومات من هناك. لكنني الآن مضطر للقراءة في غياب التليفزيون، فليس هناك شيء آخر أفعله».

ولم تكن لهجة آني توكيدية إلى هذه الدرجة، لكنها لم تختلف:

«نعم، أظن أننا أفضل حالا من دون تليفزيون. نحن نتحدث أكثر في أثناء العشاء. الجميع يقولون ماذا فعلوا طوال اليوم، وما إلى ذلك. لكني لم أشاهد أبدا التليفزيون بكثرة كما فعل ند، ولذلك فليس هناك فرق كبير عندي بين وجود التليفزيون أو عدمه. أنا فعلا أفتقد بعض البرامج، وأحيانا يكون الأمر صعبا أيضا حين يخصص المعلمون موضوعات للمشاهدة على شاشة التليفزيون لكني راضية نوعا ما عن حياتنا من دون تليفزيون».

لقد رسم آل جيربر صورة لطيفة للتوافق العائلي والرضا. ألم يكن لكل تلك السنوات من المشاهدة التليفزيونية تأثيرات ضارة؟ لأنها إذا لم يكن لها تلك التأثيرات، فلماذا لا يستعمل التليفزيون من دون قيد حين يكون الأطفال صغارا ومزعجين، كما فعلت باربارا جيربر، ثم يتم التخلص منه حين يغدو سير الزمن أسهل؟ لقد ترك تعليق أخير من ند السؤال معلقا في الهواء:

«لم يكن يعنيني فيما تعودنا عليه من قبل البرنامج الذي أشاهده مادمت أشاهد شيئا ما. كان من الممكن أن يكون ذلك «بوبي» أو «شارع السمسم» أو «الأمم المتحدة»، أي شيء. لكني حاليا أقضي خارج البيت أطول وقت مستطاع لأن لدي شعورا بأنه ليس هناك ما أفعله في البيت الآن. إنني فقط لم أتعود أن أتصور أشياء أقوم بعملها. انظر، حين كان لدينا التليفزيون، لم ألاحظ أنني لم أكن أفعل شيئا أثناء المشاهدة في كل تلك الساعات. لكنني حاليا ألاحظ ذلك».

الحاجة إلى الوقت لإخراج التليفزيون من حياتك

يعيش أطفال آل ديفيز الأربعة مع أبويهم في منزل ريفي كبير محاط بالخمائل والحقول في شمال ولاية نيويورك. وتتراوح أعمارهم بين أربع سنوات وثلاث عشرة سنة. ومنذ عامين، وفي نهار ربيعي دافئ - وبدلا من الركض والمرح في الخلاء، وبدلا من قطف الزهور البرية التي تنمو حول

المنزل أو تسلق أشجار الفاكهة القريبة، وبدلا من التحديق في جحر مرموط الخمائل(*) أو مشاهدة السمك السابح في الجدول الرقراق خلف منزلهم - جلس الأطفال الأربعة في صف على أريكة طويلة في حجرة الجلوس وراحوا يحدقون أمامهم في منضدة صغيرة كان جهاز التليفزيون موضوعا فوقها قبل وقت قصير. كانت أنظارهم مشدودة إلى الجهاز.

«لقد جلسوا في الواقع لفترة طويلة، تماما كما لو كانوا يشاهدون» هكذا وصفت أمهم الحال. وأضافت: «كان الأمر مثيرا للشفقة، إلا أنه جعلنا متأكدين على نحو قاطع أننا فعلنا الصواب بإلقاء جهاز التليفزيون في الخارج».

كان الهوائي الموضوع على سطح البيت قد سقط وتحطم أثناء عاصفة، ومن دونه لم يكن هناك أي استقبال تليفزيوني. وتكمل السيدة ديفيز:

كان شراء وتركيب جهاز جديد سيكلفنا غاليا جدا. وفضلا عن ذلك، كنا قد سئمنا كل مشاهدة تليفزيونية - الأطفال، ونحن أيضا. كنا شبه مدمنين. كان الجهاز مفتوحا في معظم الأوقات، ولذلك قررنا أن نتخلص منه ونرى ما يحدث».

كانت الأسابيع القليلة الأولى من دون الجهاز قاسية، كان الأطفال يدورون هنا وهناك كالأرواح الضائعة. وبقوا داخل البيت وقتا طويلا وبات وجودهم المستمر مصدر إزعاج لي. كنت أرسلهم إلى الخارج ولم يكونوا يعرفون كيف يتصرفون.

كنت أفتقد الجهاز بشدة صباح أيام السبت فذلك هو الوقت الذي اعتدنا أن نظل في أثنائه في الفراش وقتا طويلا لطيفا بينما الأطفال في حجرة الجلوس مشدودين للجهاز هادئين، ونادرا ما يتحركون. والآن صاروا في أعقابنا لهذا السبب أو ذاك، أو ربما تشاجروا وأثاروا بعض المتاعب.

غير أن الأمور تحسنت تدريجيا، فقد شرعوا في ممارسة الألعاب مع بعضهم البعض، وهو ما لم يفعلوه من قبل كثيرا، برغم أن لدينا جميع الألعاب - الداما الصينية، والمونوبولي، والبرجيس(**).

(*) مرموط الخمائل Woodchuck: حيوان من فضيلة الأرانب له جسم سمين وشعر كث خشن

(**) البرجيس Pachisi: لعبة هندية تشبه لعبة الطاولة تلعب باستخدام ست ودعات بدلا من النرد.

لقد فكروا في أن عليهم أن يتعلموا اللعب مع بعضهم البعض، وبعد فترة بدأ شجارهم يقل بصورة كبيرة.

ثم بدأوا في قضاء وقت أطول فأطول خارج المنزل. وقد حدث ذلك تدريجيا، بدأ الولد الأكبر في صيد السمك، وصار هو وشقيقه الأصغر يهتمان بمرموط الخمائل ويمضيان أوقاتا طويلة في انتظار أن يخرج من جحره. لم يحدث أبدا أن اهتما بشيء كهذا من قبل. وطلبا الحصول على أحد تلك الفخاخ التي تصطاد الحيوانات الحية وتحقق ذلك لهما في عيد الميلاد. وعقب ذلك كانا نادرا ما يدخلان المنزل قبل حلول الظلام.

لقد حدث ذلك منذ عامين وأعتقد في الحقيقة، أنهم صاروا أطفالا آخرين الآن. حتى هم أنفسهم يعتقدون ذلك، ويعرفون أن تخلصنا من التليفزيون له علاقة بهذه النقطة. وفي هذه الأيام، حين يعودون من زيارة بيت أحد الأصدقاء يميلون إلى الانتقاد، ويتكلمون عن كثرة مشاهدة أصدقائهم للتليفزيون، وعن عدم قيامهم بعمل أشياء كثيرة شائقة.

والشيء المضحك في هذا الصدد أننا نعيش هنا في الريف، وأن الأطفال بالكاد بدأوا يكونون أطفالا ريفيين. وهم يتحدثون عن أصدقائهم «كأطفال بيوت» فهل تتخيل ذلك؟ لكن هذا التغيير تطلب وقتا. فأنت لا تستطيع فقط أن تغلق جهازك لعدة أيام وتتوقع حدوث تغيير كبير. إن إخراج التليفزيون من نظام حياتك يستغرق وقتا.

الحياة كما في سالف الزمان

أغلق بول وبيا وارنر وابناهما، في شهر يوليو منذ سنوات مضت، منزلهم الواقع على مشارف بيتسبورج، وتركوا كلابهم لدى أحد الجيران، وذهبوا إلى أفريقيا لمدة ستة أشهر. كان آدم في الحادية عشرة، وبيتر في التاسعة من العمر. كانت تلك هي الإجازة السبتية(*) لبول من قسم الموسيقى بجامعته، وبفضل منحة صغيرة اعتزم أن يقضي الوقت في تأليف الموسيقى بعيدا عن مسؤوليات التدريس. لقد شعر بأنه في حاجة إلى بعض التغيير في حياته، وكان قد ألف أفضل أعماله بعيدا عن البيت. تقول بيا: «قبل أن

(*) الإجازة السبتية Sabbatical Leave: إجازة للبحث أو للسفر تمنح لأستاذ الجامعة في كل سنة سابعة من العمل عادة.

نرحل إلى أفريقيا كان الولدان حقيقة مدمنين للتليفزيون. «المغفلون الثلاثة» عقب المدرسة، والرسوم المتحركة التي لا تنتهي. كنت في أثناء طهو الطعام في المطبخ أستطيع أن أسمع الحوار الصادر من الجهاز، ومن دون أن أرى البرنامج، كان يمكنني أن أقول إن تلك كانت المرة الخامسة عشرة التي يشاهدان فيها هذا البرنامج اللعين نفسه. وقد أثار ذلك حنقي، وكنت أصرخ فيهما كي يخرجا ولا أظن أنهما أبدا سمعاني. ذلك أنهما كانا في حالة ذهول.

حاولنا إقناعهما بتقليل المشاهدة. وكنا باستمرار نضع كل أنواع القواعد والضوابط، لا يمكننا مشاهدة التليفزيون قبل الانتهاء من المران أو أداء الواجب المنزلي أو ما إلى ذلك. كان كفاحا حقيقيا. وربما كانت الطريقة التي يتمرنان بها حين كانا يندفعان لرؤية أحد البرامج أسوأ من عدم المران على الإطلاق. لقد ضايقنا ذلك، وبخاصة بول، لأن كلا الولدين أرادا في الواقع أن يعزفا على إحدى الآلات. ولم يكن الأمر كما لو أننا نضغط عليهما. لكن من الضروري أن تتمرن إذا أردت أن تتعلم العزف على إحدى الآلات والمران صعب. وإذا كان هناك شيء أسهل يمكن عمله، مثل مشاهدة التليفزيون، فما الذي يدعو الطفل إلى المران؟.

حين وصل آل وارنر إلى أفريقيا، أقاموا، طبقا لترتيب مسبق، في بيت مريح يخص أسرة أكاديمي أمريكي آخر كان قد عاد إلى أمريكا لمدة سنة. كانت الكتب والألعاب تملأ البيت. غير أنه لم يكن به جهاز تليفزيون. فالتليفزيون ببساطة لم يصل إلى تلك المنطقة. وتضيف بيا:

طبعا، كنا في بلد أجنبي، بلد غريب نوعا ما، وكان هناك الكثير مما يمكن للولدين رؤيته وفهمه. ولم يكن الأمر شبيها بالانقطاع المفاجئ عن تعاطي جرعات المخدر كطريقة لعلاج الإدمان التليفزيوني. لكن الشهور الستة وقت طويل وكان علينا جميعا أن نعتمد على قدراتنا الخاصة تماما. وأول ما لاحظناه أن الطفلين شرعا يقرآن أكثر مما فعلا في أي وقت في الوطن. وأظن أن ذلك كان من منطلق الملل الصرف. كان بيتر دائما قارئا جيدا، لكن آدم لم يكن شغوفا بالقراءة. أما الآن فقد بدأ يقرأ بسرعة هائلة. قرأ جميع كتب الطبيعة الموجودة في المكان وأثارت الحياة البرية من حولنا اهتمامه بالفعل. كان في المنزل دائرة معارف صغيرة وبدأ الولدان

بحرف الألف ثم راحا يغوصان فيها! كان ذلك مدهشا حقا، ولم يستطع بول وأنا، أن نصدق ذلك.

لكن أوضح الفروق تمثل في أننا بدأنا نتحدث بكثرة معا. كان ذلك يشبه أسلوب الحياة في سالف الزمان بصورة من الصور. كنا نحن الأربعة نتحلق جميعا ونتحدث فحسب عن أي شيء. كنا نتحدث ونتحدث، تحدثنا عن الاشتراكية لأننا كنا في بلد اشتراكي، وتحدثنا عن المشكلات العنصرية، وتحدثنا عن الموسيقى، وعن الكتب. والواقع أن التوقيت كان مثاليا، فالطفلان كانا قد كبرا بحيث يمكنهما أن يتحدثا، إلا أنهما كانا لا يزالان صغيرين بما يكفي للاعتماد علينا. ولذلك كان عليهما أن يتقيدا بطريقتنا الروتينية المألوفة، إلى حد ما. ولم يكن في وسعهما الذهاب إلى مكان ما وعمل ما يريدان، مثل مشاهدة التليفزيون، إذ لم يكن لديهما شيء يخصهما هناك. كان علينا أن نجد أشياء مشتركة، إذا أدركت ما أعنيه. إنني لن أنسى أبدا تلك الشهور.

حين عدنا إلى الوطن قررنا أنه ليس هناك سبب يحول دون أن نستمر في الحديث معا، وليس هناك ما يمنع الولدين من مواصلة قراءة الكثير من الكتب. وقررنا أن نتخلص من جهاز التليفزيون الخاص بنا.

الوضع هنا، طبعا، ليس هو الوضع نفسه في أفريقيا. فالتليفزيون في الشارع أمام الطفلين، وما إلى ذلك. لكن الأمور أفضل. فلا يزال الولدان يقرآن أكثر، ويبدو أن لديهما المزيد من الوقت. وهما يتسكعان كثيرا في البيت، كما يظهر، وأحيانا أكاد أجن منهما. غير أنهما في بعض الأوقات، ومن حيث لا تشعر، يشرعان في عمل شيء مثير، مثل ترتيب لغز كلمات متقاطعة، أو البدء في تكوين مجموعة ما. وهما يمارسان العزف هذه الأيام أكثر من ذي قبل، وبمحض إرادتهما.

طرد الغريب من البيت

يصف كولمان ماكارثي، أحد كتاب الأعمدة في نيوزويك، نتائج التخلص من التليفزيون:

حين أغلقت التليفزيون للمرة الأخيرة منذ عام مضى، وأخرست الجهاز إلى الأبد، تكهن بعض الأصدقاء، والأقارب، والناصحين المتبرعين في المجمع

السكني بأنني لن أمكث طويلا من دونه. وجادل عدد قليل حول الشكوى العامة من أن التليفزيون أرض قاحلة لا ترويها إلا قطرات نادرة من برامج ذات نوعية جيدة. وبدلا من ذلك، ساورهم الشك في أن إدمان التليفزيون فترة تقارب السنوات العشرين السابقة يمكن التغلب عليه بهذا الانقطاع الفجائي عن الماضي. لقد أدمنت حقيقة، ولم تكن عروقي تهدأ إلا بالتزود بثلاثين إلى خمسة وثلاثين ساعة أسبوعيا، وكانت جرعة زوجتي مماثلة، أما أطفالنا ـ ثلاثة تحت سن السابعة ـ فكانوا بالفعل يستمعون إلى التليفزيون أكثر مما يستمعون إلينا.

والآن، بعد مرور سنة ـ وعائلتنا تعيش كأهل الكهوف المثقفين، كما يقول أحد الأصدقاء الأنثروبولوجيين ـ فإن القرار الذي اتخذناه كان من أكثر القرارات في حياتنا الزوجية حكمة وتعقلا. وتقديراتنا الخاصة خلال هذه السنة من الاستقرار وهدوء الأعصاب كانت عالية، وتوضح أن أفعالا على غرار التحدث مع أطفال المرء، وتبادل الأفكار مع الزوجة، والسير إلى المكتبة المجاورة صباح يوم السبت، والأمسيات الهادئة في قراءة الكتب والمجلات بصوت عال أحدنا للآخر، أو تناول العشاء كأسرة، تثيرنا ذهنيا أكثر من أي شيء على شاشة التليفزيون.

إن قسوة الإدمان التليفزيوني ليست في توصيل الضحية إلى السلبية في أثناء المشاهدة، وإنما في كونها تتطلب منه ضرورة بذل جهد إيجابي من أجل الجلوس إليه.

فإذا عدت إلى المنزل في الساعة السادسة مثلا، وكان العشاء جاهزا في السادسة وخمس وعشرين دقيقة ـ يكون فيلم ما بعد الظهر الذي تشاهده زوجتي قد عرض متأخرا ـ سأزدرد الطعام في خمس دقائق. فالموعد النهائي، الذي يهوي كالمقصلة، هو في السادسة وثلاثين دقيقة. فحينئذ يبدأ «المستشار Chancellor، ثم كرونكايت في السابعة. وإذا كانت شبكة CBS مملة، فإن Smith and Reasoner على شبكة ABC. وإذا لم أكن قد انتهيت من عشائي، سأعود بأقصى السرعة للمائدة في أثناء الإعلانات من أجل ازدراد لقيمات سريعة ثم أعود ثانية إلى جون البارد، والعم والتر أو هاري المتجهم. أما زوجتي، ماف اليائسة، فقد بقيت عند المائدة للسيطرة على هرج ومرج الأطفال، على أثر عدوي السريع دخولا وخروجا. كان

الاضطراب الذي سمعته من حجرة الطعام ملائما إذ كان يتماشى مع الاضطرابات العالمية التي نقلتها أخبار المساء، باستثناء أن الأخيرة التي في «البعيد النائي» الغامض كان من السهل التعامل معها.

ومع ذهاب الجهاز، ذهبت أيضا هذه الأفعال القهرية والتدخلات. نحن نتناول عشاءنا حاليا على مهل وفي هدوء. ونمكث في الفناء إلى أن يأخذ الأطفال كفايتهم من التسلية، وليس إلى الوقت الذي أحتاج إليه للإسراع إلى البيت لمشاهدة ألعاب الجولف في الرابعة عصرا. وأحيانا، يعن لي لي ولزوجتي أن نقوم بتجربة طريفة بقضاء أمسية في حديث هادئ مطمئن، وليس حديث نصف العبارات الذي كان يدور بيننا كممارسة اضطرارية لتواصل الأزواج. وفي تلك الأيام، كنا نغلق الجهاز في منتصف المساء ويحيط بنا في الحال صمت شديد الوطأة.

إن الذي كان يحدث خلال كل تلك السنوات من المشاهدة التليفزيونية، كما أراه الآن، لم يكن إدماننا فحسب، بل كان أيضا، وعلى مستوى أعمق، نوعا من التكيف. لقد تكيف كل منا على العيش مع غريب في البيت. فهل هناك أي تعريف لجهاز التليفزيون أكثر جوهرية من ذلك[1].

١٩ لا تليفزيون أبدا

إن عدد الأسر الأمريكية التي اختارت العيش من دون تليفزيون ضئيل حقا، بما أن 5 ,95 في المائة على الأقل من مجموع البيوت المسكونة لديها جهاز تليفزيون واحد على الأقل. ومن بين هذه الأسر اللاتليفزيونية عدد قليل لم يمتلك جهازا تليفزيونيا في حياته.

ومن بين هؤلاء من قرروا العيش من دون تليفزيون لأنهم ببساطة لا يحبونه. وكان من بين الأسباب التي قدمت بصدد قرار الامتناع عن التليفزيون تماما القول: «لم نشأ تملك تليفزيون لأننا شعرنا بأنه لا وقت عندنا له»، و «لقد رأينا كمتزوجين جدد أنه ليس هناك حاجة حقيقية إلى جهاز تليفزيون، وبعد إعادة نظر عدة مرات بين فترة وأخرى لايزال لدينا الشعور نفسه وهو أن التليفزيون ليس مهما لنا».

ويتحاشى بعض المتزوجين تملك تليفزيون عند إنشاء بيت الزوجية خوفا من عجزهم في المستقبل عن السيطرة عليه. ويعلل أحد الآباء من دنفر ذلك بقوله: «كنت قلقا من احتمال زيادة المشاهدة أكثر مما ينبغي، وهو ما تعودت أن أفعله حين كنت أعيش في البيت. كنت أجلس أمام ذلك الشيء طوال

اليوم». ويقول أب من نيومكسيكو تفسيرا لعدم وجود جهاز تليفزيوني في بيته، «لماذا أحضر العدو إلى منزلي؟»[1]

ويشكل الآباء والأطفال الذين لم يمتلكوا قط جهاز تليفزيون في منازلهم جبهة صلبة: فمن بين الأسر الثلاث عشرة التي لم تمتلك يوما جهاز تليفزيون وأجريت معها مقابلات خاصة بهذا الكتاب، لم يعرب أي شخص سواء من الوالدين أو الأطفال عن الرغبة في حيازة تليفزيون.

والواقع أن الشعور بالفخر الذي يقارب أحيانا شعور الرضا بالنفس كثيرا ما يميز الأسر التي لم تمتلك جهازا تليفزيونيا بالمرة. يقول طفل في الثامنة، «لا نملك جهازا لأن لدى أسرتنا أشياء أخرى تفعلها وعندنا من التسلية ما هو أكثر». ويقول طفل في العاشرة «كثير من الأطفال الذين أعرفهم يشاهدون التليفزيون طوال الوقت. وهو أمر محزن». وتشير إحدى الأمهات إلى أن «الأطفال يشعرون بالفخر لعدم وجود تليفزيون عندنا، ويطيب لهم أن يقولوا إننا لا نمتلك هذا الجهاز». ويتناقض هذا بشدة مع الموقف الذي نجده غالبا بين الأسر التي تتخلى عن التليفزيون بعد سنوات من المشاهدة. ففي هذه الأسر قد يستمر الاستياء بسبب التخلص من التليفزيون بين الأطفال، لفترة على الأقل.

كثيرا ما سئل الآباء اللاتليفزيونيون حول ما إذا كانوا يجدون أن مهمة تنشئة الأطفال أكثر صعوبة في غياب جهاز التليفزيون. لكن هؤلاء الآباء يعتقدون في أحيان كثيرة أن حياتهم أسهل، لأن لدى أطفالهم البراعة وسعة الحيلة من ناحية، ولأن بؤرة من بؤر الصراع قد أزيلت من ناحية أخرى.

تقول أم من دنفر: «إنني أعترض على الذين يظنون أن من الواجب علي أن أتحلى بصبر جميل لتدبير أمور أطفالي من دون التليفزيون. ليس لدي من الصبر شروى نقير. لكن لدى أطفالي الكثير مما يشغلهم، ولم يحدث أن سمعت أيا منهم يقول ماذا سأفعل الآن؟»

وتسلم أم من نيويورك لديها ثلاثة أطفال بأنه «ربما يكون من الصواب في ساعة إعداد العشاء أو ما إلى ذلك صرف الأطفال لمشاهدة التليفزيون. فذلك هو أكثر الأوقات بغضا في اليوم لأن الأطفال جائعون ومتعبون، وأنا جائعة ومتعبة، أيضا. لكني أظن أن القليل من المشاكسة المفيدة والصراخ والصياح بين بعضهم البعض يثير شهيتنا. ومع حلول وقت العشاء يكون كل

شيء على ما يرام. وذلك ثمن بسيط ندفعه لقاء جميع مزايا الحياة من دون تليفزيون».

والمعضلة الوحيدة التي تذكرها الأسر غير التليفزيونية هي صعوبة اجتذاب جليسات الأطفال إلى بيت لا تليفزيوني.

وتقول أم لديها طفلان صغيران ولم تمتلك جهاز تليفزيون أبدا: «مشكلتي الكبرى هي جليسات الأطفال. أحاول اجتذابهن بالحديث عن الستيريو والسماح لهن بإجراء جميع المكالمات الهاتفية كما يردن، لكنها مشكلة كبيرة». وتضيف هذه الأم «إذا كان هناك أي شيء سيؤدي إلى حصولنا على جهاز، فسيكون ذلك لتسهيل الحصول على جليسات الأطفال».

وتتميز الأسر التي لم تمتلك أي تليفزيون بالمزيد من الأحاديث الأسرية التي يدور معظمها في أثناء وجبات الطعام، إذ يبدو أن أفرادها يقضون وقتا أطول وهم يأكلون معا مقارنة بالأسر الأخرى.

تقول إحدى الأمهات: «إن الدهشة تعتري ضيوفنا في البيت دائما حين يأتون للإفطار ويجدوننا جميعا نتحدث معا. وفي بعض الأوقات نجلس إلى مائدة الإفطار ساعة ونصف الساعة. لكننا جميعا نذهب إلى النوم مبكرين للغاية، مبكرين بصورة سيئة، ونستيقظ مبكرين أيضا».

وتصف أسر أخرى لم يكن لديها تليفزيون ذات يوم نزعة مشابهة للتمهل والتأني خلال الوجبات، وعلى العشاء غالبا أكثر مما في الإفطار، من ناحية ثانية. ويتضح ارتباط ذلك بعدم وجود التليفزيون من أقوال الأسر التي حازت أجهزة تليفزيون من قبل، وكثيرا ما تشير إلى وجبات أطول وأكثر ثرثرة وتجاذبا للأحاديث بعد أن تخلصت من التليفزيون. وعموما، يشار إلى أوقات النوم المبكر أيضا من قبل الأسر التي لم تمتلك أجهزة تليفزيون، بالإضافة إلى الأسر التي تخلت عن التليفزيون.

وغالبا ما تحاول الأسر التي تتخلى عن التليفزيون أن تستبدل وقت المشاهدة بألعاب وأنشطة أسرية. على أن الأسر التي لم يكن لديها تليفزيون أبدا لا تقدم دليلا يذكر على أنها تلعب مع أطفالها أكثر من الآباء الآخرين. تقول أم لديها طفلان في سن المدرسة «نحن في الواقع لا نمارس أي ألعاب إطلاقا كأسرة. وأصدقكم القول، إنني لا أحب ممارسة الألعاب، لكننا نتحدث كثيرا جدا معا».

فكيف، إذن، تقضي هذه الأسر وقت فراغها، وبخاصة تلك الساعات من المساء التي تمضيها أسر أخرى في مشاهدة التليفزيون؟

تجيب إحدى الأمهات: «القراءة، الكل يقرأ بنفسه، على انفراد. وفي الصيف يظل الأولاد يلعبون خارج البيت حتى موعد الرقاد».

وفي العديد من هذه الأسر، يستغرق المران على عزف آلة موسيقية وقت الأطفال. وقد مارس العزف على البيانوا أطفال أربع أسر من بين الأسر العشر غير التليفزيونية، التي شملها استطلاع لجريدة النيويورك تايمز لها في مقال عن الأسر غير التليفزيونية[2].

وأمضت الأسر جانبا من الوقت، الذي كان يحتمل أن تقضيه في المشاهدة التليفزيونية، في الاستماع إلى الراديو والأسطوانات، والأنشطة التي تعتبر «مماثلة وظيفيا» للمشاهدة التليفزيونية (غالبا ما يجمع الباحثون هذه الأنشطة الثلاث في صنف واحد). ويروي عدد من الآباء ممن لم يمتلكوا أجهزة تليفزيونية قط أنهم وأطفالهم يقضون وقتا في الاستماع إلى تسجيلات للقصص والمسرحيات وما شابه ذلك، وليس الأسطوانات الموسيقية فقط. لكن هؤلاء الآباء لا يشيرون إلى انغماس أطفالهم في فانتازيا التسجيلات على نحو خطر أو مثير للقلق، كما يفعل آباء كثيرون بشأن انغماس أطفالهم التليفزيوني. ونبهت إحدى الأمهات إلى «أنك تستعمل خيالك في الاستماع إلى الأسطوانات أو القصص الإذاعية». ولاحظ أب آخر: «أحيانا تتعب طفلتي ذات السنوات الخمس وتستمع إلى إحدى الاسطوانات من أجل الاسترخاء، لكنها غالبا ما تنام قبل انتهاء الأسطوانة. ولا أظن أن الأطفال الذين يخدرهم التليفزيون ينامون فعلا في أثناء المشاهدة، إنهم فقط يجلسون أمامه غائبين عن الوعي».

وعلى خلاف الأسر التي تتخلى عن التليفزيون بعد سنوات من المشاهدة وتشعر غالبا بالرغبة في التبشير بأسلوب حياتها الجديد، تميل الأسر التي لم تمتلك جهازا قط إلى قلة الكلام بشأن واقعها اللاتليفزيوني:

يقول أحد الآباء: «نادرا ما نذكر ذلك للناس، على الرغم من أن الجيران يكتشفون أن بيتنا خال من التليفزيون عن طريق أطفالهم».

وتقول إحدى الأمهات: «نحن بالكاد نتحدث عن التليفزيون مع أصدقائنا وحتى معظم الناس لا يعرفون أننا ليس لدينا جهاز، فيما عدا أقرب

الأصدقاء. وحين يسألون عما إذا كنا شاهدنا كيت وكيت من البرامج تقول لا، لقد فاتنا، من دون التطرق إلى عدم حيازتنا التليفزيون».

ربما يكون التكتم لدى الأسر التي لم تمتلك جهازا قط نوعا من الدفاع المكتسب ضد ردود الفعل الحساسة من جانب آباء كثيرين عند التعرض لحجة مناوئة للتليفزيون، لا سيما حين يتم التعبير عنها بلهجة تزكية الذات التي تميز المتحولين الجدد إلى نصرة قضية ما.

تقول أم لا تتردد في التعبير عن صراحة رأيها السلبي في التليفزيون وابتهاجها بحياتها الأسرية من دونه: «لقد اتهمنا مرات كثيرة بحرمان أطفالنا ثقافيا، ويدهشك ما قد تراه لدى الناس من انفعال وغضب حين تعبر عن فكرة عدم استحسانك للتليفزيون. إن ذلك أسوأ من التهجم على الأمومة أو فطيرة التفاح. نحن نصطحب أطفالنا الأربعة معنا إلى الحفلات الموسيقية والمتاحف ولا نشعر بأنهم محرومون من الثقافة. على العكس، أنا مسرورة بنموهم جسديا، وعقليا وعاطفيا فهم نشيطون، متحمسون، محبون للاستطلاع واستقلالية التصرف. وهم يحبون القراءة، ويحققون نتائج طيبة في المدرسة، ولديهم تصورات خصبة، ولا ينتهي ما في جعبتهم من أشياء يفعلونها».

وعلى الرغم من أن الأسر التي لم تمتلك أجهزة تليفزيونية تتهم أحيانا بأن لديها شعورا بالزهو إلا أنه قد يكون لديها ما يبرر هذا الشعور. فكما يروي أحد هؤلاء الآباء:

«يسألني الناس دائما بطريقة اتهامية: ألا تريد أن يشاهد أطفالك «شارع السمسم؟»، لكننا أسرة حميمة ولا نريد فواصل قائمة تبعد أحدنا عن الآخر. نحن نقرأ كثيرا، ونتحدث كثيرا، ونستمع إلى الموسيقى. ونادرا ما نستأجر جهازا من أجل حدث استثنائي كتحقيقات ووتر جيت أو مسابقة رياضية كبيرة. لكن التليفزيون بالنسبة لنا أشبه ما يكون بالطعام الرديء، فهو شيء لا يحدث إلا بين حين وحين.

هناك نهجان للتفكير بشأن التليفزيون في مجتمعنا. فاستعماله وزيادة استعماله قد ينظر إليهما كعرضين لعلل حديثة أخرى: الاغتراب، نزع الطابع الإنساني، فتور المشاعر، الخواء الأخلاقي. والنهج الثاني أن يعتبر المرء جهاز التليفزيون مولدا للمرض، أي مصدر أعراض من هذا القبيل. ويكشف طابع العجز الذي يحيط بمسألة التليفزيون عن سيطرة النهج الأول في التفكير: فالتليفزيون «هنا وهو جزء من حياتنا، ولا يمكننا عمل شيء بصدده».

إن من السخف إنكار وجود الكثير من الأمراض الخطيرة، وربما المستعصية التي تكتنفنا في مجتمع تزداد سيطرة التكنولوجيا عليه. وثمة جوانب عديدة حقا من حياتنا الحديثة خارجة عن نطاق سيطرتنا. فلقد حدثت تعديات مخيفة على خصوصية بيوتنا وعائلاتنا التي لم يسبق انتهاك حرمتها، سواء من قبل الأنشطة الحكومية غير المشروعة أو الانتهاكات اللاقانونية من جانب القوى المضادة للمجتمع التي يبدو أن عددها يزداد باستمرار. ونحن نشعر بأننا عاجزون أكثر فأكثر، ومن المؤكد أن اعتمادنا على التليفزيون هو انعكاس لهذا العجز. فإذا كانت الفاعلية عقيمة في المجتمع الحديث، وإذا كانت جهودنا لا معنى لها أمام بيروقراطية يتعذر ضبطها وفهمها، لماذا، إذن، لا نتعود على متع السلبية التامة؟

وهناك تبرير شائع آخر فيما يتعلق بدور

التليفزيون في حياة الأطفال. يقول مسؤول تليفزيوني: «هناك كثير من العائلات لن يحصل الطفل الذي يشاهد التليفزيون فيها على أي شيء أفضل من جانب الآباء، فكلما زادت لا مبالاة الآباء الذين تتعامل معهم، أصبح التليفزيون وسيلة أكثر نفعا».

إن الدعوى القائلة إن الاستعمال السيئ للتليفزيون مقبول لأنه يحل محل أسلوب حياة لا يستهوي النفس هي حجة مضللة، لأنها تنطوي ضمنا على عدم وجود أسلوب حياة أفضل. غير أن هناك بدائل أخرى موجودة فعلا من أجل الطفل ذي الوضع الأسري التعس، مثلا، أو الذي يتسم أبواه بعدم الاكتراث. ومن ناحية ثانية، فإن وجود التليفزيون في المنزل، واعتماد الطفل عليه من أجل تلك الإشباعات التي ينبغي أن يحصل عليها من خلال علاقاته الأسرية، لا يمكنهما إلا زيادة عدم اكتراث أبوية ودوام الوضع الباثولوجي (المرضي).

ربما كانت الراحلة دوروثي كوهين Dorothy Cohen، أستاذة التربية، المهنية الوحيدة المؤثرة التي تحدثت بطريقة لا لبس فيها عن الدور المخرب للتليفزيون في حياة الأطفال، فقد لاحظت ذات مرة أن: «تأثير التليفزيون في من نسميهم الأطفال المحرومين(*) ظل عند الحد الأدنى من حيث الأهداف مثل تعلم القراءة ـ لكن تأثيره في نموهم كان ضخما. لقد سرق منهم فرصهم الطبيعية في الكلام، واللعب، والعمل. وأعاق فرصهم السوية في النمو. إن الأمر الأهم بالنسبة لي هو حماية الأطفال أثناء تلك الفترة من حياتهم التي تتسم بقابلية التأثر. إنني أعتقد أن الأطفال في تحت سن الخامسة لا ينبغي أن يشاهدوا التليفزيون إطلاقا. لكن أحدا لن يلقي بالا إلى ذلك. وأنا أقول ذلك بقوة وبانفعال حتى يتوصل الناس إلى حل وسط أفضل نوعا ما. وذهنيا، فإنني أعتقد أن الأطفال الصغار لا ينبغي أن يشاهدوا التليفزيون، لكني أخشى أن يكون من المستحيل في الواقع تحقيق ذلك»[1].

وربما يؤدي إدراك الآباء للتأثير المرضي المحتمل للتليفزيون في أساليب تفكير وسلوك الأطفال الصغار. إلى إعادة النظر في قبولهم للتليفزيون

(*) طفل محروم Disadvantaged Child: تنقصه الخدمة التربوية أو الثقافة الاجتماعية (قاموس التربية)

كجزء لابد منه في حياة أطفالهم. وقد ينقل مركز اهتمامهم من الشيء الذي يشاهده الأطفال إلى سبب وكم المشاهدة، وما يفوتهم نتيجة لذلك. إن فهم التغييرات التي تحدث في تنشئة الطفل بسبب إتاحة التليفزيون كمسكن لأطفال ما قبل المدرسة النشيطين والمزعجين . التغييرات التي تفضي إلى تنشئة اجتماعية سقيمة . ربما يحث الآباء على إدراك أن الصعوبات التي يواجهونها كآباء ازدادت في النهاية، ولم تقل، نتيجة لاستعمالهم التليفزيون كمصدر للراحة. وأخيرا، فإن تأمل الانتهاكات التي يقوم بها التليفزيون للحياة الأسرية، وتأثيراته في الوجبات، والأحاديث، والألعاب، والطقوس، قد يقنع الآباء بأن ثمن تقبل التليفزيون كعنصر من عناصر القوة في الأسرة إنما هو ثمن باهظ للغاية.

فعلى الرغم من أننا قد نكون مغلولي الأيدي أمام الآلة المجردة التي صار إليها المجتمع الحديث، فمازال بإمكاننا تأكيد إرادتنا في مواجهة جهاز التليفزيون، تلك الآلة ذات الحضور الفعلي والملموس في بيوتنا . وإن بإمكاننا أن نتعلم السيطرة عليه حتى لا يسيطر علينا .

المراجع

المقدمة

1. Philip Slater, The Pursuit of Loneliness (Boston: Beacon Press, 1972).

مقدمة الطبعة الثانية

1. Nielsen Media Research, National Audience Demographics Report: 1993-1994.

الفصل الأول

1. Nielsen Media Research, National Audience Demographics Report: 1993-1994.

2. Benjamin Spock, Baby and Child Care (New York: Pocket Books, 1963). 3. Ibid., 1976 edition.

4. Evelyn Kaye Sarson, "How TV Threatens Your Child", Parents' Magazine, August, 1972.

5. Quoted in Norman Morris, Television's Child (Boston: Little, Brown, 1971).

6. Sedulus, "Sesame Street," New Republic, June 6, 1970.

7. Nathan Talbot, Raising Children in Modern America (Boston: Little, Brown, 1976).

8. Nat Rutstein, Go Watch TV! (New York: Sheed and Ward, 1974).

9. Joyce Maynard, "Growing Up with TV," TV Guide, July 5, 1975.

10. Jack Gould, "Family Life 1948 AT (After Television)," The New York Times, August 1, 1948.

الفصل الثاني

1. Quote from personal interview, May 7, 1975.

2. T. Berrs Brazelton, "How to Tame the TV Monster," Redbook, April, 1972.

3. Letter from Matthew Dumont, M.D., American Journal of Psychiatry, Vol. 133, April, 1976.

4. Dr. Werner I. Halpern, quoted in Philip Jones, "The Educational TV in Your School May Be Anything But Educational," The American School Board Journal, March, 1974.

5. Gerald Lesser, Children and Television (New York: Random House, 1974).

الفصل الثالث

1. Lawrence Kubie, Neurotic Distortion and the Creative Process (Lawrence: University of Kansas Press, 1958).

2. Stanton Peele and Archie Brodsky, Love and Addiction (New York: Taplinger, 1975).

3. Les Brown, "Democrats Reach Low TV Audience," The New York Times, January 25, 1975.

4. Cyclops, “The West Coast-Is It Live or on Tape? The New York Times, July 20, 1975.
5. John Cheever, Bullet Park (New York: Alfred A. Knopf, 1967).

الفصل الرابع

1. S. Ball and G. Bogatz, The First Year of Sesame Street: An Evaluation, and The Second Year of Sesame Street: A Continuing Evaluation (Princeton, N.J.: Educational Testing Service, 1970, 1971).
2. Thomas D. Cook, Hilary Appleton, Ross F. Conner, Ann Shaffèr, Gary Tamkin, and Stephen J. Weber, “Sesame Street Revisited (New York: Russell Sage Foundation, 1975).
3. Edith Spiegel, “Yes, Sesame Street Has its Detractors,” The New York Times, August 5, 1979.
4. Ibid.
5. Bernard Z. Friedlander, Harriet S. Wetstone, Christopher S. Scott, “Suburban Preschool Children’s Comprehension of an Age-Appropriate Informational Television Program,” Child Development, Vol. 45, 1974.
6. Leifer, Collins, Gross, Taylor, Andrews, and Blackmer, “Develop- mental Aspects of Variables Relevant to Obervational Learning,” Child Development, 1970.
7. Coates and Hartup, “Age and Verbalization in Observational Learning,” Development Psychology, Vol. 1, 1969.
8. S. L. Calvert and B. A. Watkins, “Recall of Television Content as a Function of Content Type and Level of Production Feature Use,” paper presented at the meeting of the Society for Research in Child Development, San Francisco, 1979.
9. See Eric H. Lenneberg, “On Explaining Language,” Science, May 9, 1969, for a discussion of brain lateralization.
10. The idea of two disparate forms of mental organization was suggested by Arthur J. Deikman, Bimodal Consciousness, “Archives of General Psychiatry, December, 1971.
11. Ralph N. Haber, “Eidetic Images,” Scientific American, April, 1969.
12. Jerome Kagan, Change and Continuity in Infancy (New York: John Wiley & Sons Inc., 1971).
13. Ned O‘Gorman, “The Children,” The New York Times Magazine, June 1, 1975.
14. Selnow and Bettinghaus, “Television Exposure and Language Level,” Journal of Broadcasting, 26:2, Spring, 1982.
15. Mark R. Roserszweig, Edward L. Bennet, and Marian Cleeves Diamond, “Brain Changes in Response to Environment,” Scientific Amer- ican, February, 1972.
16. Among these studies are: H. Skeels, “Adult Status of Children with Contrasting Early Life Experiences, “Monographs on Social Research in Child Development, Vol. 31, 1966; Coleman and Provence, “Environmental Retardation in Infants Living in Families,” Pediatrics, Vol. 19, 1957; R. Spitz, “Hospitalism,” Psychoanalytic Study of the Child, Vol. I, 1945; W. Goldfarb, “Effects of Psychological Deprivation in Infancy and Subsequent Stimulation, “American Journal of Psychiatry,

Vol. 102, 1945.

17. Wiesel and Hubel, “Effects of Visual Deprivation on Morphology and Physiology of Cells in Cats‘ Lateral Geniculate Body,” Journal of Neurophysiology, Vol. 26, 1963.

18. A. Riesen, “Arrested Vision,” The Nature and Nurture of Behavior, ed. Greenough (San Francisco: W. H. Freeman Co., 1973).

19. See Maya Pines, “Head Head Start,” The New York Times Magazine, October 26, 1975, and Urie Bronfenbrenner, “Is Early Intervention Effective?” report for Department of Health, Education, and Welfare (Washington, D.C., 1974).

20. Quoted in Lucien Malson, Wolf Children and the Problem of Human Nature (New York: Atlantic Monthly Press, 1972).

الفصل الخامس

1. A discussion of the “acoustic“ image of words is found in H. J. Chaytor, From Script to Print (London: W, Heffer and Sons, 1950),

2. Bruno Rettelheim, “Parents vs. Television,” Redbook, November, 1963. 3. Tony Schwartz, The Responsive Chord (New York: Anchor/Doubleday, 1973).

4. Much of the material in this section is based on a reading of Julian Hochberg and Virginia Brooks’ “The Perception of Television Displays,” a prepublication draft of a survey and analysis of the basic perceptual determinants that may affect viewers‘ responses to the tele- vision experience, commissioned by the Television Laboratory at WNET/13.

5. Ibid.

6. Quoted in Martin Mayer, About Television (New York: Harper and Row, 1972).

7. Lyle and Hoffman, Explorations in Patterns of Television Viewing by Preschool-age Children“, Television and Social Behavior, Vol. IV.

8. J. Feeley, “interest and Media Preference of Middle Grade Children“, Reading World, 1974.

9. California State Department of Education, “Student Achievement in California Schools, 1979-80 Annual Report, Sacramento, California, 1980.

10. Christine M. Bachen et al., “Television Viewing Behavior and the Development of Reading Skills: Survey Evidence“, paper presented at the Annual Meeting of the American Educational Research Association, New York, March, 1982.

11. George Steiner, :After the Book?” Visual Language, Vol. 6, 1972.

12. Quoted in Norman Morris, Television‘s Child (Boston: Little, Brown, 1971).

13. E. Parker, “The Effects of TV on Public Library Circulation“, Public Opinion Quarterly, Vol. 127, 1963.

14. Andrew Malcolm, “Japan‘s Reading Craze at a Peak in Recession“, The New York Times, March 26, 1976.

15. “It‘s Cold Turkey for the Families on 89th Street“, New York Post, April 22, 1977; “Kicking the TV Habit“, The New York Times, March 16, 1982; “Is There Life Without TV?”, Wall Street Journal, February 8, 1984.

16. Grace and Fred Hechinger, “Can TV Lead Children to Reading?” The New York Times, June 29, 1980.

17. Article by Edward B. Fiske, The New York Times, September 8, 1983.

18. “The Refusal to Read“, The New York Times, September 28, 1982.

19. Jerzy Kosinski, quoted in Horace Newcomb, Television: The Critical View (London: Oxford University Press, 1976).

الفصل السادس

1. Television and Behavior: Ten Years of Scientific Progress and Implications for the 80's, Vol. 1, Summary Report, National Institute of Mental Health, Rockville, Maryland, 1982.

2. T. M. Williams, “The Impact of Television: A Natural Experiment Involving Three Communities“, symposium presented at the meeting of the Canadian Psychological Association, Vancouver, 1977.

3. E. A. Medrich, “Constant Television: A Background to Daily Life“, Journal of Communication, 29:3, 1979.

4. S. C. Burton, J. M. Calonico, and D. R. McSeveny, “Effects of Preschool Watching on First-Grade Children“, Journal of Communication, 29:3, 1979.

5. M. Morgan and L. Gross, “Television Viewing, I.Q. and Academic Achievement“, Journal of Broadcasting, 24:2, Spring, 1980.

6. “Coast Survey of Students Links Rise in TV Use to Poorer Grades“, The New York Times, November 9, 1980.

7. “French Schoolchildren Found to Eat Little and Work Too Much“, The New York Times, October 27, 1976,

8. Gene Maeroff, “Specific TV Shows Tied to a Child‘s Achievements“, The New York Times, March 30, 1982.

9. Indeed, a small, two-point rise in 1982 was attributed by the College Board primarily to rising scores among minority students, whose educational opportunities have slowly begun to improve during recent years.

10. Statistical Abstract of the U.S. (Washington, D.C.: Bureau of the Census, 1975).

11. Ibid.

12. Lyle and Hoffman, “Explorations in Patterns of Television Viewing by Preshool-age Children“, Television and Social Behavior, Vol. IV.

13. Schramm, Lyle, Parker. op. cit.

14. Lyle and Hoffman, op. cit.

15. Edward B. Fiske, “Students Gain in Basic Skills But High School Scores Fall“, The New York Times, April 10, 1983.

16. C. A. Char and L. Meringoff, “The Role of Story Illustrations-Children’s Story Comprehension in Three Different Media“, Technical Report 22, Harvard Project Zero, January, 1981.

17. Howard Gardner, “Reprogramming the Media Researchers“, Psychology Today, January, 1980.

18. Gene Macroff, “Rise in Remedial Work Taxing Colleges“, The New York Times, March 7, 1976.

19. Writing Achievement, 1969-1979: Results from the Third National Writing Assessment (The National Assessment of Educational Progress, Princeton, N.J., 1980).

20. Edward B. Fiske, “Reading Analysis is Called Lacking“, The New York Times, November 21, 1981.

21. “Teachers Say They Expect Less from Homework and Get It“, The New York Times, May 4, 1978.

22. Quoted in “Why Johnny Can‘t Write“, Newsweek, December 8, 1975.

23. Quoted in ibid.

24. “Helping Kids with TV“, New York Daily News, January 2, 1979.

25. Leslie Maitland, “Studying with the TV On“, The New York Times, March 17, 1979.

26. “The Decline in Homework“, Newsweek, January 8, 1979.

27. Ibid.

28. Sally Reed, “Schools That Make a Positive Use of TV“, The New York Times, April 20, 1980.

29. Daniel J. Boorstin, “A Nation of Readers“, The New York Times, June 6, 1982.

30. William M. Bulkeley, “An Electronic Critic Tells Today‘s Typist How to Write Better“, The Wall Street Journal, September 29, 1983.

الفصل السابع

1. Skyrocketing Juvenile Crime, The New York Times, February 21, 1975.

2. Bryce Nelson, Children Who Kill, The New York Times, October 11, 1983.

3. Quoted from address to Child Study Association of America, 1961.

4. Edith Efron, Does Television Violence Really Affect TV Viewers?, TV Guide, June 14, 1975.

5. Enid Nemy, Violent Crime by Young People: No Easy Answers, The New York Times, March 17, 1975.

6. Crime on Television: A Survey Report (Los Angeles: National Association for Better Radio and Television, 1964).

7. Nielsen Television Index (A. C. Nielsen Co., Hackensack, N.J.).

8. Larry Gross, The Real World of Television, Today‘s Education, January-February, 1974.

9. Kurt Lang and Gladys Engel Lang, The Unique Perspective of Television and Its Effects - A Pilot Study, American Sociological Review, February, 1953.

10. Mainliner Magazine, july, 1974.

11. See Roger Rosenblatt‘s “Residuals on an American Family”, New Republic, November 23, 1974, for a discussion of the Loud family and their appearance on “An American Family”.

12. See The New York Times, April 12, 1964, for an account of the Kitty Genovese murder.

13. Quoted by Edmund Carpenter in Oh What a Blow That Phantom Gave Me (New York: Holt, Rinehart, Winston, 1972).

14. Victor Cline, The Desensitization of Children to Television Violence (Bethesda, Md.: National Institute of Health, 1972).

15. Victor Cline, “Television Violence: How It Damages Your Children“, Ladie‘s Home Journal, February, 1975,

16. Ted Morgan, “They Think I Can Kill Because I‘m 14", The New York Times Magazine, January 19, 1975.

17. Alan B. Zients and Elyce H. Zenoff, “Juvenile Murderers: Should the Punishment Fit the Crime? International Journal of Law and Psychiatry, Vol. 2, no. 4, 1979.

18. See “Youthful Violence Grows“, The New York Times, November 4, 1974; and “Tale of a Young Mugger”, The New York Times, April 11, 1976.

19. Quoted in Morgan, op. cit.

20. Quoted in “Youthful Violence Grows“, The New York Times, November 4, 1974.

21. Dr. Denise Shine, head of the Rapid Intervention psychiatrists’ office in Brooklyn Family Court, quoted in Morgan, op. cit.

الفصل الثامن

1. Lyle and Hoffman, “Explorations in Patterns of Television Viewing by Preschool-age Children“, Television and Social Behavior, Vol. IV.

2. See Shramm, Lyle, Parker, Television in the Lives of Our Children (Stanford, Cal.: Stanford University Press, 1961) or Himmelweit, Oppenheim, Vince, Television and the Child (London: Oxford University Press, 1958) for an investigation of this theory.

3. Lyle and Hoffman, op. cit.

4. “The Child and Television Drama: The Psychological Impact of Cumulative Viewing, formulated by the Committee on Social Issues, Group for the Advancement of Psychiatry, Mental Health Materials Center, New York, 1982.

5. Jerome Singer and Dorothy Singer, “A Member of the Family“, Yale Alumni Magazine, March, 1975.

6. Stephen J. Suomi and Harry F. Harlow, “Monkeys at Play“, Natural History, December, 1971.

7. Edward Norbeck, “Man at Play“, Natural History, December, 1971.

8. “Many Rebels of the 1960's Depressed as They Near 30", The New York Times, February 29, 1976.

الفصل التاسع

1. René Dubos, “The Despairing Optimist“, American Scholar, Winter, 1975/76.
2. P. Whitty, “Studies of the Mass Media, 1949-1965", Science Education, 1966.
3. Lawrence Fuchs, Family Matters (New York: Random House, 1972).
4. Uniform Crime Reports for the U.S., Federal Bureau of Investigation.
5. Norman F. Zinberg and John A. Robertson, Drugs and the Public (New York; Simon and Schuster, 1972).
6. Michael Shamberg, Guerrilla Television (New York: Holt, Rinehart, Winston, 1971).
7. Alvin Toffler, Future Shock (New York: Random House, 1970).
8. Quote from “The Effects of Marijuana on Consciousness“, in Charles Tart, Altered States of Consciousness (New York: John Wiley and Sons, 1969).

الفصل العاشر

1. The New York Times, February 12, 1976.
2. Dorothy McFadden, “Television Comes to Our Children“, Parent‘s Magazine, January, 1949.
3. Hennetta Battle, “TV and Your Child,” Parents Magazine, November, 1949.
4. Jack Gould, “What Is Television Doing to Us?” The New York Times, June 12, 1949.
5. Himmelweit, Oppenheim, Vince, Television and the Child (London: Oxford University Press, 1958).
6. Urie Bronfenbrenner, “Who Cares for America‘s Children?,” address presented at the Conference of the National Association for the Education of Young Children, 1970.
7. Eleanor Dienstag, “What Will the Kids Talk About? Proust?” The New York Times, December 24, 1972.
8. Ibid.
9. James H. Bossard and Eleanor S. Boll, Ritual in Family Living (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1950).
10. Bossard and Boll, The Sociology of Child Development (New York: Harper and Row, 1960).
11. Ralph V. Extine, “Visual Interaction: The Glances of Power and Preference,” in Nonverbal Communication—Reading with Commentaries, ed. Shirley Weitz (New York: Oxford University Press, 1974).
12. Bruno Bettelheim, The Informed Heart (New York: The Free Press, 1960).
13. Cyclops, “Watching the World Through TV-Colored Glasses,” The New York Times, June 2, 1974.
14. E. Maccoby, “Television: Its lrnpact on School Children,” Public Opinion Quarterly, Vol. 15, 1951.
15. R. Hamilton and R. Lawless, “Television within the Social Matrix,” Public Opinion Quarterly, Vol. 20, 1956.

16. James Garbarino, “A Note on the Effects of Television Viewing,” in Bronfenbrenner and Mahoney, Influences on Human Development. 2nd ed. (Hinsdale, Illinois: The Dryden Press, 1975).

17. Urie Bronfenbrenner, “The Origins of Alienation,” Scientific American, August, 1974.

18. Irving Howe, “Notes on Mass Culture,” Politics, Spring, 1948.

19. Jacques Ellul, The Technological Society (New York: Alfred A. Knopf, 1964).

الفصل الحادي عشر

1. Lloyd de Mause, “The Evolution of Childhood,” in History of Child hood (New York: Psychohistory Press, 1974).

2. Ibid.

3. From the “Diary of Cotton Mather,” Vol. 1, quoted in ibid.

الفصل الثالث عشر

1. Russell Hoban, Nothing to Do (New York: Harper and Row, 1964).

2. See John Bowlby, Attachment and Loss (New York: Basic Books, 1969).

3. See Selma Fraiberg, The Magic Years (New York: Charles Scribner’s Sons, 1959).

4. J. Gewirtz, “A Factor Analysis of Some Attention-Seeking Behaviors of Young Children,” Child Development, Vol. 27, 1956.

5. R. R. Sears, L. Rau, and R. Alpert, Identification and Child Rearing (Stanford: Stanford University Press, 1965).

الفصل الرابع عشر

1. Sharon Gadberry, “Television as Baby-sitter: A Field Comparison of Preschool Behavior During Playtime and During Television Viewing,” Child Development, Vol. 45, 1974.

الفصل الخامس عشر

1. The New York Times Magazine, February 2, 1975.

2. Nadine Brozan, “Film and TV Violence: A Nursery School Takes a Stand,” The New York Times, June 1, 1975.

3. Ibid.

4. Robert Lewis Shayon, Television and Our Children (New York: Longman Green, 1951).

5. Lyle and Hoffman, “Explorations in Patterns of Television Viewing by Preschool-age Children,” Television and Social Behavior, Vol. IV.

6. M. M. Haith, “The Response of the Human Newborn to Visual Movements“, Journal of Experimental Child Psychology, Vol. 3, 1966.

7. Erich Fromm, The Heart of Man (New York: Harper and Row, 1964). 8. “Doctors Find TV Makes Child Ill“, The New York Times, October 27, 1964.

الفصل السادس عشر

1. Norman Morris, Television‘s Child (Boston: Little, Brown, 1971).
2. Nat Rutstein, Go Watch TV! (New York: Sheed and Ward, 1974).
3. Lesly Berger, “TV Devices Limit Children‘s Viewings,” The New York Times. May 27, 1982.
4. Lynne Sehaffer Gross and R. Patricia Walsh, “Factors Affecting Parental Control Over Children‘s Television Viewing: A Pilot Study, Journal of Broadcasting“, 24:3, Summer, 1980.
5. Linda Price, “Is Big Bird an Endangered Species?”, The New York Times, New Jersey Supplement. July 20, 1980.
6. Sarane Boocock, “Children and Society“, paper prepared for the American Association for the Advancement of Science, January, 1975.

الفصل السابع عشر

1. Used by permission of Don Brawley.
2. Barbara Haddad Ryan, “Would You Free Your Children from the Monster? Denver Post, June 9, 1974.

الفصل الثامن عشر

1. Colman McCarthy, “Ousting the Stranger from the House,” Newsweek, March 25, 1974.

الفصل التاسع عشر

1. New Mexico father quoted by Nadine Brozan, “No TV in the House and They Want It That Way,” The New York Times, Decemb0er 20, 1974.
2. Ibid.

الخاتمة

1. Dorothy Cohen, personal interview.

المؤلفة في سطور:

ماري وين

* كاتبة متخصصة في الكتابة عن الأطفال والأسرة.

* قدمت للآباء والأطفال اثني عشر كتابا.

* تكتب بانتظام في The New York Times Magazine.

* أم لطفلين، ولدى أسرتها جهاز تليفزيوني واحد يستعمل في المناسبات الخاصة.

المترجم في سطور:

عبدالفتاح الصبحي

* ليسانس الآداب في اللغة الإنجليزية وآدابها، جامعة عين شمس، 1961.

* التحق بالإذاعة عام 1963 مذيعا، ومحررا ومترجما.

* أعير للعمل بالقسم العربي في إذاعة موسكو 1971 ـ 1975.

* عمل بدولة الكويت من 1978 ـ 1998 في مجالات الترجمة، والبحوث والإعلام والصحافة (وزارة التربية ـ الأمانة العامة للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الديوان الأميري).

* صدرت له مجموعة شعرية عام 1993.

* يعمل حاليا بقطاع الأخبار ـ اتحاد الإذاعة والتليفزيون ـ القاهرة.



المسرح في الوطن العربي

(الإصدار الثاني)

تأليف: د. علي الراعي

هذا الكتاب

هل يتحمل التليفزيون، كما يؤكد البعض، جريرة تقليل اللعب، وهبوط المستوى اللغوي والتحصيل الدراسي، وزيادة السلوكيات العدوانية لدى الأطفال، فضلا عن الانغلاق، وإضعاف الوشائج، والتحكم في حياة أفراد الأسرة؟

حول هذا السؤال المتشعب، تتركز هذه الدراسة المهمة للغاية، والممتعة في آن.

لكن المؤلفة، ماري وين ـ على خلاف النقاد الذين يركزون جل اهتمامهم على مضمون برامج الأطفال التليفزيونية ـ تطرح الموضوع من زاوية غير عادية، هي تأثير فعل المشاهدة التليفزيونية السلبي في نمو علاقة الطفل بالواقع الحقيقي. ومن هنا تمثل الدراسة تحديا قويا للآباء والمربين من أجل مراجعة مواقفهم تجاه التليفزيون. وتستند المؤلفة في هذا التحدي إلى المقابلات التي أجرتها مع مئات الأسر، والمدرسين، والاختصاصيين في شؤون الطفل. وهي تؤكد أن الجهود الرامية لجعل التليفزيون أكثر جاذبية للآباء والأطفال عن طريق تطوير البرامج لا يمكن إلا أن تؤدي إلى اعتماد الآباء المتزايد على التليفزيون كـ «جليسة للطفل»، وإلى زيادة خضوع الأطفال لأجهزة التليفزيون في بيوتهم.

ولا غرابة في أن يجد القارئ العربي مظاهر تشابه كثيرة بين تجربة المشاهدة التليفزيونية لدينا ونظيرتها الأمريكية. وقد لا يندهش، أيضا، حين يقرأ ما قاله أب من نيومكسيكو تفسيرا لعدم وجود جهاز تليفزيوني في بيته: «لماذا أحضر هذا العدو إلى منزلي؟».